أثرُ الشِّعْرِ الجَاهِليِّ في الأدَبِ الأندلسيِّ
مِنَ القرْنِ الرَّابعِ الهجْريِّ إلى منتصفِ السَّادسِ

تأليف
الدكتور جمال علي غيظان

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس
*
darjundi46@gmail.com

أثر الشعر الجاهلي في الادب الاندلسي من القرن الرابع الهجري الى منتصف السادس

د. جمال علي غيظان

*

الطبعة الأولى (2023).
*

جميع الحقوق محفوظة لا يسـمح بإعادة إصـدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

الإهداء

إلى كلّ من أحبّ لغة الضّاد، لغة القرآن الكريم،
إلى كلّ من علّمني حرفًا باللّغة العربيّة،
إلى كلّ من نال حظًا في خدمة اللّغة العربيّة،
مع خالص التقدير...

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمدُ لله وليِّ الحمدِ وأهلِهِ، حمدًا يَقتضي رضاهُ، ولا يَنقضي مَداهُ، وصلَّى اللهُ على سيّدِنا محمدٍ نبيّه الذي اصطفاهُ، واختارَهُ لرسالتهِ واجتباهُ، وعلى آلهِ الكرامِ وأصحابِهِ الأبرارِ، وسلّم تسليمًا كثيرًا، أمَّا بعدُ،

فإنّ الشِّعرَ الجاهليَّ ظلَّ حاضرًا في ذاكرةِ الأمّةِ ووجدانِها، فحفظوهُ وَرَوَوْهُ وترَوّوْا من لغتهِ ومعانيهِ وأساليبهِ في ما نظموهُ ونثروهُ، على مدى العصورِ المتلاحقةِ؛ فإنّ للشعرِ الجاهليِّ سحرَه الخاصَّ على من تفهّم بيئتَهُ، وأنسَ فصاحتَهُ، وتذوّقَ حلاوتَهُ.

وأكرمْ بأهلِ الأندلسِ حفظًا ووعيًا وعناية بالشِّعرِ الجاهليِّ؛ إذ ظلتْ طريقتُهُ ومبانيهِ وأساليبُه، وألفاظُهُ وتراكيبُهُ ومعانيهِ، وكثيرٌ من صورهِ، تدورُ على ألسنتِهِمْ، إنْ في نظمِهِمْ أو في نثرِهِمُ الفنيِّ.

فجاءتْ هذه الدِّراسةُ لتبحثَ في أثرِ الشِّعرِ الجاهليِّ في الأدبِ الأندلسيِّ شعرِهِ ونثرِه منذ بدايةِ القرنِ الرّابعِ الهجريِّ حتى منتصفِ السّادسِ، وهذه الحقبةُ مِنْ تاريخِ الأندلسِ تُعدُّ من أكثرِ الحقَبِ الزّمانيّةِ غنىً وازدهارًا ونتاجًا، في الإبداعِ الأدبيِّ خاصّةً. ولعلَّ اطّراحَ الحقبِ الأندلسيّةِ السابقةِ من الإطارِ الزمانيِّ للدراسةِ يعودُ إلى ندرةِ النثرِ الفنيِّ الذي وصلنا منها، وإنَّ الأشعارَ التي بين أيدينا من تلكَ الحقبِ المطرحةِ يَغلبُ عليها المقطوعاتُ القصيرةُ.

وعَلى أهميّةِ هذا الموضوعِ وخطورتِه، لمْ تُخصّصْ له دراسةٌ مستقلةٌ من قبلُ؛ ففي ما اطلعتُ عليه من المراجعِ والدّراساتِ والأبحاثِ والمقالاتِ، لم أجدْ فيه دراسةً منفردةً، ولا بحثًا مُقتضبًا، يَتناولُ بشكلٍ مباشَرٍ موضوعَ هذه الدِّراسةِ، لا في إطارِها الزمانيِّ ولا في باقي الحقبِ الأندلسيّةِ.

ولكنّ هذا لا يَعني تجاهلَ بعضِ الدِّراساتِ التي تناولتْ جزئياتٍ متفرّقةً من الموضوعِ، ضمنَ رؤيةٍ شاملةٍ، حولَ تأثرِ الأندلسيينَ بالأدبِ المشرقيِّ بعامةٍ، كدراسةِ أحمد ضيف: "بلاغةُ العربِ في الأندلسِ"، ودراستيْ إحسان عبّاس: "تاريخُ الأدبِ الأندلسيِّ عصرُ سيادةِ قرطبةَ"، و"تاريخُ الأدبِ الأندلسيِّ عصرُ الطوائفِ والمرابطينَ"، ودراسةِ شوقي ضيف: "تاريخُ الأدبِ العربيِّ، عصرُ الدولِ والإماراتِ"، وبعضِ الدراساتِ التي تخصصتْ في النقدِ الأدبيِّ الأندلسيِّ، كدراسةِ مصطفى عليان: "تياراتُ النقدِ الأدبيِّ في الأندلسِ في القرنِ الخامسِ الهجريِّ". كما يُذكرُ في هذا المَقامِ هِنري بيريس، في دراستهِ: "الشعرُ الأندلسيُّ في عصرِ الطوائفِ ملامحُه العامة وموضوعاتهُ الرئيسية وقيمتهُ التوثيقيّة"، وفُون شاك، في دراستهِ: "الشعرُ العربيُّ في إسبانيا وصِقِلِّيَةَ" (الجزءُ الأوَّلُ).

ولا يخلو كثيرٌ من الدّراساتِ في الأدبِ الأندلسيّ ونقدِه، من الإشاراتِ - من قريبٍ أو من بعيدٍ - إلى تأثيرٍ ما للشعرِ الجاهليّ في أدبِ الأندلسيينَ. ولكنَّ هذه الإشاراتِ أتتْ غُفلا من التحليلِ أو من الموازنةِ؛ فحسبُها أنها متخصصةٌ في دراسةِ آثارِ الأندلسيينَ، وليستْ في أغلبِها دراساتٍ مقارَنةً، بلهَ تخصصَ أغلبِها في دراسةِ نوعٍ واحدٍ من الأدبِ، هو الشعرُ.

واعتمدتْ هذه الدراسةُ مصدريْنِ من مصادرِ المعرفةِ: مشرقيّةٍ في ما يخصُّ الشعرَ الجاهليَّ، فقد اعتمدتْ مصادرَهُ الأصليّةَ من الدواوينِ وبعضِ المجموعاتِ الشعريةِ كالمفضليات؛ وفي ما يخصُّ الأمثالَ، فقد اعتمدتْ تواليفَ العسكريّ والميدانيّ والزمخشريّ؛ وأندلسيّةٍ في ما يخصُّ أغلبَ الأدبِ الأندلسيّ، فقد اعتمدتْ مصادرَهُ الأدبيّةَ الأولى وفي مقدمتها: الذخيرةُ لابنِ بَسَّامٍ، ومقاماتُ السرقسطيّ، وبعضُ الدواوينِ المجموعةِ، ومنها ما جَمع بين الشعرِ والنثرِ كديوانِ ابنِ زيدونٍ ورسائلِهِ، عدا بعضِ المصادرِ الأدبيّةِ المشرقيّةِ التي تضمّنتْ تراجمَ وأدبًا للأندلسيينَ، كالخريدةِ، وصُبْحِ الأعشى، وينضافُ إليها المعاجمُ اللغويّةُ.

ورأى الباحثُ أنْ يُصنِّفَ هذه الدراسةَ في تمهيدٍ وثلاثةِ فصولٍ؛ أمَّا التمهيدُ فيأتي فرشًا لِمَا بعدَهُ من الفصولِ، ويشيرُ إلى مظاهرِ انتماءِ الثقافةِ الأندلسيّةِ -من مُبتدإِ عهدِ الأندلسيينَ بالأندلسِ- إلى الثقافةِ المشرقيّةِ، من اتباعِ مناهجِ تآليفِ المشارقةِ، ومحاكاةِ أسماءِ أعلامِهِمْ وأماكنِهِمْ، وشدِّ الرِّحالِ صوبَهمْ للتلمذةِ على أيديهمْ، مع تقديرِ الوافدينَ عليهمْ، واستقدامِ بعضِ مؤلفاتِهمْ وعلمائِهمْ؛ ومن حفظٍ لأدبِهمْ وروايتِهِ ومدارستِهِ، وعلى رأسِهِ الشعرُ الجاهليُّ، إذ حاكوا طريقتَهُ في النظمِ.

ويتناولُ الفصلُ الأوّلُ أثرَ الشِّعر الجاهليّ في الشِّعرِ الأندلسيّ، في محاكاتِهِ في بعضِ الفنونِ الشعريّةِ، كغرضِ المديحِ، وغرضِ الرثاءِ، وفي بعضِ اتجاهاتِ الغزلِ، وبعضِ جوانبِ الفخرِ، والحكمةِ والأمثالِ؛ كما يُلقي الضوءَ على عنايةِ بعضِ الشعراءِ الأندلسيينَ بتضمينِ أشعارهمْ شيئًا من الشعرِ الجاهليّ.

ويختصُّ الفصلُ الثاني بدراسةِ معارضةِ الأندلسيينَ بعضِهمْ، من مثلِ ابنِ عَبدِ ربّهِ، وابنِ شُهَيْدٍ، وابنِ لُبُّونٍ، لبعضِ الشعراءِ الجاهليينَ، من مثلِ امرئِ القيسِ بنِ حُجْرٍ الكنديّ، وطرفةَ ابنِ العبدِ البكريّ، وقيسِ بنِ الخطيمِ الأوسيّ، وأبي قيسِ بنِ الأسلتِ الأوسيّ، ودريدِ بنِ الصِّمَّةِ الجشميّ، وأميّةَ بنِ أبي الصلتِ الثقفيّ. ويُقدّمُ هذا الفصلُ تصوّرًا عن مدى تأثر الشعر الأندلسيّ المعارِضِ بالشعرِ الجاهليّ المعارَضِ، في الألفاظِ والمعاني، والبيانِ والبديعِ، والأوزانِ والقوافي، والأساليبِ اللغويةِ، والبناءِ الفنيّ للقصيدةِ، خاصةً إنْ كانتِ المعارضةُ بينَ قصيدتينِ.

أمّا الفصلُ الثالثُ فيرصدُ بعضَ مظاهرِ التأثرِ في النثر الأندلسيّ بالشعر الجاهليّ، ويقدّمُ تصوّرًا عن مدى تأثر النثر الفنيّ الأندلسيّ بالشعر الجاهليّ، في كثيرٍ من مظاهرِ التأثرِ،

كالاستشهادِ والتضمينِ والحلِّ، والتأثر بالأمثالِ الشعريّةِ، وفي بعضِ الأغراضِ النثريّةِ، كالمديحِ والاعتذارِ والعتاب والفخرِ والوصفِ.

وتأتي الخاتمةُ على ذكرِ بعضِ النتائج التي توصّلَ إليها الباحث، تتبعُها قائمةٌ بأهمّ المصادر والمراجعِ التي أفادتْ منها الدراسةُ.

أمّا تفرّدُ النثرِ بفصلٍ مستقلٍّ عن الشعر؛ فهذا منهجٌ دراسيٌّ مُتبعٌ في الفصلِ بينَ النوعيْنِ، ثم لوجودِ اختلافٍ في بعض المباحثِ والجزئياتِ التي تفرَّدَ بها كلٌّ منهما، وكيْ لا يطولَ الفصلُ ويتضخمَ، لو جُمعَ الفصلانِ في فصلٍ واحدٍ. وأمَّا تفردُ المعارضةِ بفصلٍ مستقلٍّ؛ فلاختلافِ منهجِ التحليلِ والموازنةِ عنه في فصلِ الشعر؛ ففيه مقابلةٌ بين نصوصٍ تامّةٍ، وموازنةٌ-أحيانًا- بين شاعرين: جاهليٍّ وأندلسيٍّ.

وجلُّ ما جاءَ في الفصولِ من رَصْدٍ وجَمْعٍ واختيارٍ وترتيبٍ، وتحليلٍ وموازنةٍ واستنتاجٍ مِنْ جهدِ الباحثِ. ونزعتْ فصولُ الدراسةِ إلى التطبيق أكثرَ من التنظيرِ، مع الحرصِ على أنْ يكونَ الشاهدُ المُتمَثَّلُ بهِ ضمنَ جوِّ النصِّ العامِّ الذي أُخذَ منهُ، في شقيْهِ الجاهليِّ والأندلسيِّ. وإنَّ مثلَ هذا التمحيصِ، استغرقَ الكثيرَ من الوقتِ والجهدِ. وليسَ من منهج الدراسةِ التمثلُ بكلِّ شاهدٍ أو مثالٍ، فهي كثيرةٌ؛ فقد يكفي بعضُها للدلالةِ على الظاهرةِ التأثريةِ، فيغني القليلُ عن الكثيرِ. وقد استُثنيَ الموشحُ والزجلُ من الدّرسِ، وما خرجَ عن تقاليدِ الشعرِ العربيِّ.

وإنّ أغلبَ فصولِ الدراسةِ، في مراحلها المتصلةِ، وفي جوانبِها المختلفةِ، وبعدَ استقراءِ النصوصِ من المصادرِ الأدبيةِ، ترصدُ المظاهرَ التأثريةَ المتنوّعةَ، مع التحليلِ الأدبيِّ، والموازنةِ الفنيّةِ-عمومًا- بينَ الشعرِ الجاهليِّ والأدبِ الأندلسيِّ. وفي جانبٍ كبيرٍ اعتمدتِ المنهجَ التاريخيَّ في التمثلِ بالشواهدِ الأندلسيّةِ حسبَ ما يقتضيهِ الشاهدُ أو المثالُ، وأفادتْ منْ غيرِ منهجٍ منْ مناهجِ التحليلِ الأدبيِّ، كالمنهجِ الجماليِّ والمنهجِ الرمزيِّ والمنهجِ النفسيِّ.

وللعلم فإنّ أصل هذه الدّراسة أطروحة دكتوراه نوقشت في الجامعة الأردنّيّة، وأجيزت بتاريخ اليوم الثالث من شهر ذي الحجّة من العام الهجريّ ألف وأربعمئة وثمانية وعشرين، الموافق الثالث عشر من شهر كانون الأوّل من العام ألفين وسبعة، بإشراف الأستاذ الدكتور ناصر الدّين الأسد، رحمه الله وغفر له وعفا عنه، وأسكنه فسيح جنانه. واشترك في منافشة الدّراسة كلّ من الأساتذة الدكاترة الأفاضل: صلاح جرّار، وعبد الحميد المَعِينيّ، وحمدي منصور.

وبعدُ، فإنّي لأرجو أنْ تجدَ هذه الدراسةُ مكانَها في مجالِ البحثِ التطبيقيِّ: الأدبيِّ والنقديِّ؛ وإلى الله أبتهلُ في حُسنِ العوْنِ والتوفيقِ والتسديدِ والتأييدِ، عليه توكلتُ، وإليهِ أنيبُ، إنهُ نعمَ المولى ونعمَ النصيرُ، وهو حسبي ونعمَ الوكيلُ.

جمال غيظان

التمهيد

مظاهرُ انتماءِ الثقافةِ الأندلسيّةِ إلى الثقافةِ المشرقيّةِ

إنَّ نزوعَ الأندلسيينَ إلى محاكاة المشارقة في شتى ميادين المعرفة، يُعدُّ من أبرز مظاهر الانتماء إلى الأمّة. ومن أعمق مظاهر هذا الانتماء تبعيةُ الفكر الأندلسيّ، في العصور الأولى خاصة، للفكر المشرقيّ؛ فالفكر الذي ظهر على أرض الأندلس قبل عهد عبد الرحمن الثاني (حكم من 206 إلى 238 هـ) ينتمي إلى الفكر المشرقيّ؛ والأدب الذي قيل قبل هذا العصر يعدُّ جزءًا من الأدب المشرقي، "وكلُّ ما يفرق بينه وبين ما قيل في المشرق هو البعد المكانيّ "(1).

والمطلعُ على ما وصلنا- خلال هذه العصور- من نتف شعرية قليلة لأبي الأجْرَبِ جَعْوَنةَ بنِ الصِمَّةِ الكِلابيّ(- قبيل 138هـ)، وأبي الخَطَّار حُسامِ بنِ ضِرَارٍ (-130هـ)، والأمير عبد الرحمن الداخل(-172هـ)، والحَكم بن هشام(-206هـ) وأبي المَخْشِي عَاصم بن زيد(-206هـ) يجد من سماتها العامة البداوة- والأندلس لم تعرف البداوة- والخشونة والمتانة والقوة في السبك، والجزالة اللفظية، وصورة الفروسية العربية الأصيلة، والمعاني المتداولة في الشعر المشرقي عامة والجاهليّ خاصة(2).

فالمثقفون العرب من الفاتحين للأندلس، والمثقفون من العرب الطارئين على الأندلس،هم مشارقة في انتمائهم فكرًا وثقافة وأدبًا. وهذا الانتماء الذي وجد لدى الأصول، استمر لدى الفروع. وبدأت محاولات تقليد الأندلسيين لأولئك الوافدين في أدبهم، في وقت مبكر، وتوجهوا إلى أدب القوة والتأثير؛ فشدّوا الرّحال إلى العراق والشام والحجاز ومصر، وقابلوا العلماء، وترووا من علمهم، وعادوا لنشر ما ثقفوه، بتشجيع متواصل من أمرائهم، متخذين المساجد مقار للتعليم. ومع تقدم الحضارة في الأندلس، وتميّزها من وجوه عن حضارة المشرق، إلا أنها ظلّت معتمدة على موروث مشرقيّ(3).

فمنذ عصر الولاة(92-138هـ)في الأندلس نجد التمثل بالشعر الجاهلي شائعًا؛ نقل ابن حَيَّانَ أن يوسفَ بنَ عبدِ الرحمنِ أنشد قول حُرْقةِ بنتِ النُّعْمانِ بنِ المنذرِ اللخميّة، يوم خلعه بالأمان من سلطانه، ودخوله عسكر عبد الرحمن الداخل المروانيّ(4): الطويل

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نَتَنَصَّفُ

---

(1) عبدالله بن علي بن ثقفان، الانتماء في الأدب الأندلسيّ، أنموذج فريد، محاولة لاستقراء بعض النصوص التأريخية الأدبية (في الأصل بحث ألقي في ندوة الأندلس بالرياض عام 1993م)، مكتبة التوبة، ط1 ، الرياض- المملكة العربية السعودية، 1416هـ- 1996م، ص 8 . (2) السابق، ص 7-8 .

(3) السابق، ص 8-9، 17، وينظر: ألبير مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر الطوائف، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1967م، ص 10، 57، وحكمت علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1977م، ص 92 . (4) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1388هـ- 1968م، 25/3 .

وعُني الشعراء الأندلسيون بقصائد الجاهليين خاصة، فابن حزم قال شعرًا بديهيّا، من ثمانية أبيات، ختم كلّ بيت منه بقسيم من أوّل قصيدة طرفةَ بنِ العبدِ البكريّ المعلَّقة، أولها: الطويل

تذكَّرتُ ودّا للحبيبِ كـأنّه " لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهْمدِ"(1)

ومن مليح التضمين ونبيل التذييل قصيدة لأبي الحُسينِ عُبيدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ جعفرٍ السُّكُونيّ الإشبيليّ-كان يعيش في نهاية القرن السادس الهجري وأوائل السابع، وكان أعورَ هجاءً- يصف معذّرا، مذيلاً بأعجازها أبياتًا من قصيدة امرئ القيس بن حجر الكنديّ التي أولها: "لمن طللٌ أبصرتُهُ فشجاني"، منها(2): الطويل

وذي صَلَفٍ خطَّ العذارُ بخدِّه "كخطِّ زبورٍ في عَسيبِ يمانِ"

فقلتُ له مستفهمًا كُنْهَ حاله "لمن طللٌ أبصرتُهُ فشجاني"

فقال ولم يملك عزاءً لنفسه "تمتعْ من الدُّنيا فإنك فانٍ"

والأديب أبو الحسنِ حازمٌ القرطاجَنّيّ (608-684هـ) ضمّن معظم قصيدة امرئ القيس "قفا نبك"، في قصيدة بلغت ثمانية وسبعين بيتًا، وقد صرف معانيها إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم، يقول فيها(3): الطويل

لعينيك قُلْ إن زرْتَ أفضلَ مرسل " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ"

وفي طيْبَةٍ فانزلْ ولا تغشَ منزلا "بسقط اللوى بينَ الدّخُولِ فحَوْملِ"

ولأبي بكر أحمد(- 785هـ)، من بني أبي القاسم ابن جزّي(- 741هـ) شيخ لسان الدين بن الخطيب، قصيدة من ثمانية وثلاثين بيتًا، يضمنها معظم أعجاز قصيدة لامرئ القيس، ومنها(4):الطويل

أقولُ لعزمي أو لصالحِ أعمالي "ألا عمْ صباحًا أيّها الطللُ البالي"

أمَا واعظي شيبٌ سما فوقَ لمّتي "سُموَّ حَباب الماء حالا على حال"

---

(1) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي(- 456هـ)، طوق الحمامة في الألفة والأُلاف، جمعه وحققه وشرحه عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، ط1، 1424هـ- 2003م،ص 83-84 . وأبيات معلقة طرفة: الشيخ أحمد الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، حققه وأتم شرحه محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1422هـ-2001م، ص 49-50 .

(2) ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن الأبار القضاعي البلنسيّ(595-658هـ)، تحفة القادم، أعاد بناءه وعلق عليه إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت-لبنان، 1406هـ-1986م، ص 166. وقصيدة امرئ القيس، ديوانه، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1984م، ص 85-88 .

(3) المقري، نفح الطيب، 520/5 –، ومعلقة امرئ القيس: شرح المعلقات، ص 23- .

(4) المقري، نفح الطيب، 518/5- . وقصيدة امرئ القيس، ديوانه، ص 27- .

واستمر هذا الانتماء الأندلسيّ إلى الثقافة المشرقيّة إلى آخر عهد المسلمين في الأندلس، خاصة إلى الشعر الجاهليّ؛ فهذا الكاتب الشاعر أبو عبدالله محمد بن عبدالله العربيّ العُقيليّ، وزير أبي عبدالله محمد(-940هـ)، الذي أخذت منه غرناطة عام 897هـ، وانقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس، في رسالته "الروض العاطر الأنفاس في التوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس"، التي كتبها على لسان أميره المخلوع، وبعثها إلى ملك فاس الشيخ الوطّاسيّ، معتذرًا لتسليم البلاد، وإهانة العباد، من تنكيل وطرد، ومدافعًا عن تقصير ذاك الهلوع، ولكن بعدما وقع الفاس في الراس، ويفتتحها بمئة وثمانية وعشرين بيتًا من الشعر، ومنها قوله(1): البسيط

لا تأخذنَّا بأقوال الوشاة ولم نُذنب ولو كثرتْ أقوالُ ذي الوَخَمِ

ومنها:

كنْ كالسّموأل إذ سارَ الهُمامُ له في جَحفلٍ كسواد الليلِ مُرْتكمِ
فلم يُبحْ أدْرعَ الكنديّ وهو يرى أنَّ ابنَه البَرَّ قد أشفى على الرّجَم
أو كالمعلَّى مع الضِّلِّيل الاروع إذ أجارَهُ من أعاريبَ ومن عجَمِ
وصارَ يشكرُه شكرًا يُكافىءُ ما أسدى إليه منَ الآلاءِ والنِّعَم
ولا تعاتبْ على أشياءَ قد قُدِرَتْ وخُطَّ مسطورُها في اللوح بالقلم
" وعَدِّ عما مضى إذ لا ارتجاعَ له" وعُدّ أحرارَنا في جُملةِ الخدَمِ
إيهٍ حنانيك يا ابن الأكرمين على "ضيفٍ ألمَّ بفاسٍ غيرَ مُحتشمِ"

فالبيت الأول يذكرنا ببيت كعب بن زهير المزنيّ من قصيدته (الاعتذارية) أمام رسول الله ﷺ، التي يقول فيها(2): البسيط

لا تأخُذنّي بأقوالِ الوشاة ولمْ أذنبْ ولوْ كثرتْ عنِّي الأقاويلُ

ويستذكرفي البيتين التاليين قصة وفاء السموأل لامرئ القيس. والبيت الثاني من قول الأعشى ميمون بن قيس البكريّ(3):البسيط

كنْ كالسموألِ إذ طافَ الهمامُ بهِ في جَحْفلٍ كسوادِ الليلِ جَرّارِ

---

(1) المقري، نفح الطيب، 530/4 ، ونص الرسالة في النفح، 529/4-553 .

(2) كعب بن زهير، شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة 1369هـ-1950م، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص 20 .

(3) الأعشى الكبير ميمون بن قيس، ديوانه، شرح وتعليق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، ط 7، بيروت، 1403هـ - 1983م، ص 229، قصيدة رقم 25، والهمام الذي قصده الأعشى هو الحارث بن ظالم أو الحارث بن شمر الغساني، الذي طالب السموأل بدروع امرئ القيس وسلاحه. ويورد الأعشى القصة كاملة في قصيدته هذه التي يمدح فيها شُرَيْحًا حفيد السموأل.

ويتمثل- كذلك - في البيتين التاليين قصة امرئ القيس مع المُعلّى، أحد بني تيْم من جديلة طيّئ، الذي كان أجار امرأ القيس، والمنذر بن ماء السماء يطلبه، فمنعه ووفى له، حيث يقول امرؤ القيس مادحًا المُعلّى(1): الوافر

كأني إذ نزلتُ على المُعلّى نزلتُ على البواذخِ مِنْ شَمَامِ

فما ملِكُ العراق على المُعلى بمقتدرٍ ولا الملِكُ الشآمي

وصدر البيت قبل الأخير: "وعَدِّ عما مضى إذ لا ارتجاع له"، مُضمن من معلقة النابغة الذبيانيّ، وعجزه "وانْمِ القُتودَ على عَيْرانةٍ أُجُدِ".والرواية" فعدّ"، ويروى" فعدّ عما ترى"(2).

وعجز البيت الأخير مأخوذ من صدر بيت للمتنبي، من مطلع قصيدته(3): البسيط

ضيفٌ ألمَّ برأسي غيرَ مُحتشِمٍ السيفُ أحسنُ فعلا منه باللِّمَمِ

وتعبير: "حنانيك يا ابن الأكرمين"، أو قريب منه مشهور لدى كثير من الشعراء في الاستعطاف، كطرفة،ولبيد بن ربيعة العامري، والبحتري والمتنبي والشريف الرضي،وغيرهم.ومنها قوله(4):

قُمْنا لديهِ أصيلانًا نُسائلُهُ أعْيا جوابًا وما بالرَّبْع من إرَمِ

وهو مأخوذ من قول النابغة في معلقته(5): البسيط

وقفتُ فيها أصيلانًا أسائلها عيّت جوابًا وما بالرَّبعِ من أحدِ

ويستشهد في نثره من الرسالة بالشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي في غير موضع(6)، فيتمثل بشعر حرقة بنت النعمان اللخميّة،على ما آلت إليه سوء الحال، "والانحطاط من النجد إلى الغور: (الطويل)

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سُوقةٌنَتنصَّفُ

فأفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها تَقَلَّبُ تارات بنا وتَصرَّفُ"(7)

ورسالة العقيلي شعرًا ونثرًا، تزخر بكثير من مثل هذه الإشارات التاريخية والتلميحات الثقافية

---

(1) ديوان امرئ القيس، ص 140 . (2) شرح المعلقات، ص 229 ، والأُجد: الناقة الموثقة الخلق، أو التي عظم فقارها.

(3) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان أبي الطيب المتنبي، صحح هذه الطبعة وقارن نسخها وجمع تعليقاتها عبد الوهاب عزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1363هـ-1944م، ص 28 .

(4) المقري، نفح الطيب، 531/4 . (5) شرح المعلقات، ص 226 .

(6) ينظر مثلا استشهاده للخرنق البكريّة(أخت طرفة)، ص 544، ولقيس بن عاصم، ص 546، ولحسان والحطيئة، ص 545، ولأبي العتاهية، ص 538 .

(7) المقري، نفح الطيب، 541/4 ، وورد البيتان في قصة حرقة بنت النعمان تخاطب فروةَ بن إياس بن قبيصة حينما ألفاها تبكي في دير لها بالحيرة، وعندما سألها عن سبب بكائها، قالت: "ما من دار امتلأت سرورًا إلا امتلأت بعد ذلك ثبورا " ثم أنشدت البيتين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، ط1، شرح يوسف فرحات، دارالجيل، بيروت، 1417هـ-1997م، ص 150 .

والتضمينات الأدبية، كثرة وسمت رسالته بالتكلف، وعدم صدق المشاعر.

والأدب الأندلسيّ في عمومه لم يستقلَّ عن الأدب المشرقيّ، ولم يتسم بسمات خاصّة، لا في معانيه، ولا في أساليبه التعبيرية والفنية، أو تقاليده العامة، بل وُسِم بأنه أدب مقلِّد للأدب المشرقيّ؛ فشعراء الأندلس في نظر أحمد أمين: لم يفلحوا كثيرًا في استقلالهم عن الشرق وابتكارهم، وتجديدهم، كما لم يفلح في ذلك اللغويون والنحويون والصرفيون(1)، فاقتصر الأندلسيون "على أوزان الشرق، وموضوعات الشعر في الشرق، واتخذوا أخيلة الشرق أساسًا، ومعانيه دعامة"(2)، وقد أشار إلى مثل هذا التقليد ابن بسام في مقدمة ذخيرته.

وإن تفرّد الأندلسيون بفني الموشح والزجل، إلا أنّ هذين الفنين لم يلقيا ترحيبًا من قبل معظم أدباء الأندلس ونقادهم، على الأقل إلى آخر عهد ابن بسام بالأندلس.

وظلَّ الأندلسيون يشعرون بالانتماء إلى أمتهم، ويحنون إلى مرابع الأجداد. ومن مظاهر ذاك الانتماء ربط جغرافية الأندلس بجغرافية الأقطار المشرقية(3). واستعار الأندلسيون أسماء حواضرالشرق، وأطلقوها على حواضر معروفة في الأندلس(4).

---

(1) أحمد أمين، ظهر الإسلام،(4ج)، ط 3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م، 3/ 104 . وينظر في تقليد الأدب الأندلسي للأدب المشرقي: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الثاني، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2001م، ص 35، 116-117 . ومحمد رجب البيومي، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1400هـ- 1980م، ص 40، ومحمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1980م، ص 380 .

(2) أحمد أمين، ظهر الإسلام، 105/3 .

(3) فالأندلس "شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها ،..، عدنية في منافع سواحلها"، شهاب الدين أحمد بن محمد المقّري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبطه وحققه وعلّق عليه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ -1939م، 60/1 .

(4) فشبّهوا كورة إلْبيرَة التي منها غرناطة بدمشق، وشبهوا غرناطة وحدها بدمشق أيضًا، المقري، نفح الطيب، 147/1، 148،237، وابن سعيد، علي بن موسى(-685هـ)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط 1، دار المعارف، مصر، 1953م، 102/2، وابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، (4ج)، تحقيق محمد عبدالله عنان، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، الجزء الأول، 1393هـ-1973م، 98/1-99. وجِلَّق سَرُقسْطة بغوطة جلق الشام، المقري، نفح الطيب، 150/1.و"تدْمير تسمى مصر"، المقري، نفح الطيب، 112/4. وإشبيلية بحمص، المقري، نفح الطيب، 151/1، 237. وجَيَّان بقِنّسْرين، ورَيَّة ومَالقة بالأردن، وشَذُونة –وهي شَريش- بفلسطين، المقري، نفح الطيب، 237/1 . وينظر: محمد رضا الشبيبي، أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، ط2، بيروت، 1984م، ص 13 .

وشبّهوا دويلاتهم بدولة العباسيين، وألف بعضهم فيها مؤلّفات(1).

كما استعاروا أسماء الخلفاء المشرقيين وألقابهم، من معتضد ومعتمد ومأمون ومعتصم..، ولأجل توثبهم-مع ضعفهم- على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيرواني(2): البسيط

ممّا يُزهّدني في أرضِ أندلسٍ أسماءُ مُعْتضدٍ فيها ومُعتمـــــدِ

ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها كالهرّ يَحْكي انتفاخًا صُورةَ الأسدِ

إضفاء ألقاب المشارقة على أدباء أندلسيين:

ومن مظاهر انتماءالأندلسيين للثقافة المشرقية إضفاء ألقاب أدباء المشرق على أدباء أندلسيين، فشُبِّه أبو الأجْرب جَعْونة بن الصِمّة الكلابيّ(-قبيل 138هـ) بعنترة بن شدّاد العبسيّ، وكان يجاري جريرًا والفرزدق لأنَّ شعره على مذهب العرب الأول، لا على طريقة المحدثين(3). ومُؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس(-267هـ) لقب بدِعْبل الأندلس، وكان يهاجي ثمانية عشر شاعرًا رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراض الناس(4). ولقب محمد بن سعيد بن أبي سليمان الزَّجّاليّ بالأصمعيّ لذكائه وقوة حفظه(5). وابن هانئ(- 362هـ) بالمتنبي(6). ويوسف بن هارون الرَّمادي الكِندي(-403هـ) قُرن بالمتنبي كذلك(7).

(1) فابن اللبانة(-507هـ) يرى أنّ الدولة العبّادية بالأندلس أشبهُ شيء بالدولة العبّاسية ببغداد، سعة مكارم، وجمع فضائل؛ ولذلك ألف فيها كتابًا مستقلا سمّاه الاعتماد في أخبار بني عبّاد، المقري، نفح الطيب، 255/4 .

(2) المقري، نفح الطيب، 1/ 213- 214، 255/4، المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق حواشيه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، 1368هـ-1949م،ص 70، 101. ويروى هذا الشعر للحُصْري أبي الحسن الكفيف(-488هـ)، وهو ابن خالة أبي إسحاق إبراهيم الحُصْري(-453هـ) صاحب زهر الآداب. (3) ابن سعيد، المغرب، 1/131-132، ورسالة أبي محمد بن حزم في فضائل الأندلس، من كتاب"فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي"، نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1387هـ، 1968م، ص 24 .

(4) ابن سعيد، المغرب ، 1/132-133. وله رحلة إلى المشرق لقي فيها أبا تمام، وروى شعره.

(5) ابن حيان القرطبي (377- 469هـ)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1390هـ- 1971م، ص 171، وكان أول من استكتبه عبد الرحمن بن الحكم الأوسط(-238هـ).

(6) المقري، نفح الطيب، 184/4 .

(7) الحميدي، أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله(- 488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه، والأدب، وذوي النباهة والشعر، كتب تقدمته الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري، قام بتصحيحه وتحقيقه محمد تاويت الطنجي، نشرمكتبة الخانجي بالقاهرة، 1951م، ص 346 -347، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك(-578هـ)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، في جزأين، متتابعي الصفحات، عُني بنشره وصححه وراجع أصله السيد عزت العطار الحسيني، ط2، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1414هـ- 1994م، 2/637-638، ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1 ، بيروت-لبنان، 1993م، 2849/6 ترجمة رقم 1261، المقري، نفح الطيب،36/4 .

وشُبّه الشريفُ الطليق (المتوفى في حدود 400هـ) في بني أمية بابن المعتز في بني العباس ملاحةَ شعر وحسنَ تشبيه(1). ولُقّب أبو بكر الأعمى المخزوميّ(-بعد 540 هـ) ببشار الأندلس انطباعًا ولسَنًا وأذاة، "وهو الذي أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمُقِت"(2)، وابن درَّاج القسطليّ (347-421هـ) "كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام وهو أحد الفحول، وكان يجيد ما ينظم ويقول"(3). وكان ابن زيدون يُسمى بحتريّ المغرب؛ "لحسن ديباجة نظمه، وسهولة معانيه"(4).

وكان أبو مروانَ بنُ سِراج(400-489هـ) بالأندلس كالجاحظ، وفتح دواوين العلم المغلقة وأوضح مبهمها وشرحها(5)، وكذلك ابن السَّيِّد البَطَلْيَوْسي(-521هـ) كان في الأدب كالجاحظ، بل أرفع درجة منه(6). وابن اللَّبَّانة(-507هـ) لقب بالسموأل(7)؛ لوفائه لوليّ نعمته المعتمد بن عباد، فقد تتبع مصير المعتمد منذ نقله في السفينة إلى أغمات حتى وفاته بالمراثي الصادقة. وكان يُعرف أبو طالب عبد الجبار الجَزيريّ(-تقريبا 537هـ) بالمتنبي، وله أرجوزة في التاريخ(8). واليَكّيُّ أبو بكرٍ يحيى بنُ سهلٍ(-560هـ)، يقول فيه الحجاريّ صاحب المسهب: "هو ابن روميّ عصرنا

---

(1) ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي(-658هـ)، الحلة السيراء، في جزأين، حققه وعلّق حواشيه حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1963م، 221/1، والمقري، نفح الطيب، 586/3.

(2) المغرب، 223/1 . وكان المخزوميّ هجاء يجيد الهجاء والإغارة على الأعراض والإصابة فيها إلى الأغراض، العماد الأصفهاني(-597هـ)، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الرابع، في جزأين، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر،الفجالة،القاهرة، 1964م، 154/2/4؛ وشُبه بالمعري، العماد الأصفهاني، الخريدة، 154/2/4، هامش رقم 1 .

(3) الثعالبي النيسابوري، أبو منصور عبد الملك(-429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، 1403هـ-1983م، 119/2، وابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي(-542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،(8 مجلدات)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1399هـ-1979م، 60/1/1. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(608-681هـ)، وفيات الأعيان، (7مجلدات)، حققه إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1968م، 135/1، والمقري، نفح الطيب، 195/3 .

(4) المقري، نفح الطيب، 566/3 ، وينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات - الأندلس، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1983م، ص 465 .

(5) ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي(-529هـ)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، (4ج في مجلدين)، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الأردن- الزرقاء، 1409هـ-1989م، 2/1/ 605 .

(6) السابق، 708/3 . (7) ابن سعيد، المغرب 411/2، وينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الثاني، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان -الأردن، 2001م، ص 152. (8) ابن بسام، الذخيرة، 916/2/1 .

وحطيئة دهرنا، لا تجيد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء"(1). وكان أهل الأندلس يقولون: "ابن قُزْمَان(- 555هـ) في الزجالين بمنزلة المتنبي من الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت إلى اللفظ، وكان أديبا مُعرِبًا لكلامه مثل ابن قزمان، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه"(2).

ولعلّ نزعة المفاخرة لدى الأندلسيين هي ما دعتهم إلى إعلاء شأن أدبائهم على أدباء المشرق، فقد تكون كثير من أحكامهم غير دقيقة؛ فابن زيدون في شعره أفضل من كثيّر عَزّة وزهير بن أبي سلمى المزنيّ وامرئ القيس الكنديّ، كما يزعم صاحب المعجب، إذ يحكي عن ابن زيدون أنه" كان إذا نسب أنساك كثيّرًا، وإذا مدح أزرى بزهير، وإذا فخر أناف على امرئ القيس"(3)؛ وذلك ما دعا بعض الباحثين إلى القول بأن رسائل الأندلسيين، كابن حزم، والشقندي، وابن بسام، في فضل أهل الأندلس، لم تكن إلا مظاهرة احتجاج على انصراف الناس في الأندلس عن أدب بلدهم، مع شدة تعلقهم بالأدب الوافد، أدب الأصالة والقوة، و تنبئ عن رسوخ "الشرقية" في ثقافة الناس وأذواقهم، حتى عند دعاة التفاضل أنفسهم، لتصبح مثالا للسموّ والكمال؛ هذا الرسوخ الذي كان القالي وصاعد البغداديان من أعمدته القويّة في القرن الرابع الهجريّ(4).

محاكاة الأندلسيين للمشارقة في مناهج التأليف:

ومن مظاهر الانتماء اعتماد الأندلسيين على الثقافة المشرقية، وحين بدأ أهل الأندلس بالتأليف كان أثر مناهج المشارقة واضحًا في تآليفهم، وثقافتهم، ولعلّ أوضح مثال على هذا التأثر هو كتاب العقد لابن عبد ربه.

وكانت كتب الطبقات من مؤلّفاتهم التي تحذو حذو مؤلفات أهل المشرق في الشكل، على غرار طبقات الشعراء:لابن سلام(-221 هـ)،وابن قتيبة(- 276 هـ)،وابن المعتز(- 296هـ)،

---

(1) ابن سعيد، المغرب، 266/2 .

(2) المقري، نفح الطيب، 385/3. ولقبت حَمْدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب بالخنساء، المقري، نفح الطيب، 287/4. وكان المهدي يُشبّه مريم بنت يعقوب بالخنساء كذلك، المقري، نفح الطيب، 291/4. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الموازنات، قد لا تعني الشيء الكثير في ما يخص الموازنة الفنية المبنية على أسس نقدية دقيقة؛ ينظر: مصطفى العيس، أثر المتنبي في أعلام الشعر الأندلسي، رسالة دكتوراة، إشراف عصام قصبجي، جامعة حلب، 1421هـ - 2000م ، ص 61-62 .

(3) المراكشي، عبد الواحد، المعجب، ص 106 .

(4) ينظر عبد العلي الودغيري، حول تأثير القالي في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، س1، ع1، 1978م، (ص 121-139)، ص 124-125 .

والصُّوليّ(- 336 هـ)، وغيرهم(1). وكان لمنهج المختارات الفنيّة المشرقيّة أثر بالغ في المختارات الفنيّة الأندلسيّة؛ كأثر كتاب التشبيهات لابن أبي عون(-322هـ) في " البديع في وصف الربيع" لابن حَبيب الحِمْيريّ(-440هـ)، وفي "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس" لابن الكِتاني الطبيب(- 420هـ)(2). وكتاب الحدائق لأحمد بن محمد بن فَرَج الجَيَّاني، الذي ألّفه للحكم المستنصر(حكم 350-366هـ)،عارض به كتاب الزَّهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصفهاني(-297هـ)(3). وكتاب "المُظفريّ" للمظفر بن الأفْطَس(-460هـ)صاحب بطليوس، عارض به

---

(1) فقد ألّف الأقَشْتين، محمد بن موسى بن هاشم بن يزيد(-307هـ) كتاب طبقات الكتاب، الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن(-379هـ)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1984م، ص 282. وألف عثمان بن ربيعة الأندلسي(- نحو310هـ) "كتاب طبقات الشعراء بالأندلس"، ياقوت، معجم الأدباء، 1601/4. ولقاسم بن نُصيْر(-338هـ) "الشعراء من الفقهاء بالأندلس"، ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي (-403هـ)، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، في جزأين، عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، نشر مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1408هـ - 1988م، ترجمة رقم 1069، 406/1 . ولمحمد بن هشام بن عبد العزيز بن سعيد الخير بن الأمير الحكم بن هشام الأمويّ(-340هـ)- وهو في زمن عبد الرحمن الناصر- "أخبار الشعراء بالأندلس"، الحميدي، جذوة المقتبس، ص 89 . ولأبي عبد الله محمد بن عبد الرؤوف الأزديّ(-343هـ) "طبقات الشعراء بالأندلس"، طبقات الزبيدي، ص 309 . وعبدالله بن محمد بن مُغيث(-352هـ) -والد ابن الصَّفَّار قاضي الجماعة في قرطبة(-429هـ)-، جمع في أشعار الخلفاء من بني أمية كتابًا كان أثيرًا عند الحكم المستنصر، حذا فيه حذو الصوليّ(-335هـ) في كتابه الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم، الحميدي، جذوة المقتبس، ص 235–236، وهو صاحب القصة مع الحكم(اعتذر عن الغزو فكلفه الحكم تأليف الكتاب)، الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان بن عبدالله القيسي الإشبيلي(- 529هـ)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ-1983م، ص 289-290. ولعُبادة بن ماء السَّماء(-416هـ) "أخبار شعراء الأندلس"، أشار إليه الحميدي، جذوة المقتبس، ص 274. وسقطت هذه المؤلفات في يد الزمن.

(2) ينظر مصطفى عليان عبد الرحيم، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ-1984م، ص 521-523، والكتب الثلاثة مطبوعة.

(3) وكان ابن داود وزّع كتابه على مئة باب وأودع في كل باب مئة بيت، وجعل ابن فرج كتابه في مئتي باب، وفي كل باب مئتا بيت، ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس، افتخارًا لأهل بلده، الحميدي، جذوة المقتبس، ص 97، رسالة أبي محمد ابن أبي حزم في فضائل الأندلس، ص 16، ابن دحية، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن(-633هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، راجعه طه حسين، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1954م، ص 4-5، الضبي(-599هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، جزءان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط1، 1410هـ- 1989م، 194/1. وينظر: أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني(-297هـ)، الزهرة، حققه وقدّم له وعلّق عليه إبراهيم السامُرائي، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، 1985م، ج1، ص 40 .

"عيون الأخبار"لابن قتيبة(-276هـ)(1).

وألف الأندلسيون في السيرة النبوية على هدي ابن إسحاق، وابن هشام المصري(-218هـ)، مثل "جوامع السيرة النبوية" لابن حزم(-456هـ) الذي "أفاد مما صنعه من قبله شيخُه ومعاصره أبو عمر بن عبد البر(-463هـ) مؤلف كتاب "الدرر في اختصار المغازي والسير"(2).وابن حزم يتكئ كثيرًا على سيرة ابن إسحاق،ولكنه جرّدها من الأشعار والقصص.

ولابن عبد البر "بهجة المجالس" على شاكلة العقد لابن عبد ربه، ويقتفي الاثنان نهج ابن قتيبة في عيون الأخبار. ولأبي الصَّلت أميّة بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي(-529هـ) كتاب الحديقة، في شعراء عصره، على نهج كتاب اليتيمة للثعالبي(3). وابن بسام(-542هـ)، الذي نعى في مقدمة ذخيرته على أهل بلده تشبههم بكل شيء مشرقي، ها هو ذا يبني كتابه على مثال يتيمة الثعالبي، وينبه كثيرًا على أخذ الأندلسيين من شعر الشعراء المشارقة، وثقافة أدبائهم.

ووضع السرقسطي محمد بن يوسف التميمي(-538هـ)مقاماته في محاذاة مقامات الحريري، وعلى غرارها(4). ووضع ابن عبد الغفور الكُلاعيّ(- منتصف القرن السادس) "إحكام صنعة الكلام"، أكثر الأمثلة فيه مشرقية، وأكثر مصادره كذلك، فهو يعتمد على ابن قتيبة، والثعالبي، وبديع الزمان الهمذاني، وأبي العلاء المعري، والجاحظ، والأصمعي، وابن دريد، وقدامة(5). ووضع يحيى الخَذُّوج المُرْسي(أدرك المئة السابعة) كتابًا كبيرًا، اسمه "الأغاني الأندلسية" على منزع أغاني الأصفهاني(6).

---

(1) وقف على أكثره عبد الواحد المراكشيّ، المعجب، ص75. والمظفري من المؤلفات الضائعة.

(2) ابن حزم، الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد(384-456هـ)، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ومراجعة أحمد محمد شاكر، دارالمعارف، مصر، 1956م، ص 8 .

(3) ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي(595-658هـ)، التكملة لكتاب الصلة، في جزأين متتابعي الصفحات، عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة بمصر، 1375هـ-1955م، والجزء الثاني 1956م، 204/1، العماد الأصفهاني، الخريدة، 3/2/4 ، ياقوت، معجم الأدباء، 741/2. (4) شوقي، عصر الدول والإمارات، ص 523. ومقاماته نشرها بدر أحمد ضيف.

(5) ينظر: "إحكام صنعة الكلام"، لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي(من أعلام القرن السادس)، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1966م، مقدمة المحقق، ص 15 . ومع أن الكلاعي يؤثر النثر على الشعر، إلا أنه يستشهد ببعض شعراء الجاهليين وشعرهم، ينظر صفحات: 33، 80،106،37 .

(6) ينظر: الرعيني(592-666هـ)، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الإشبيلي، برنامج شيوخ الرعيني، حققه إبراهيم شبوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1381هـ-1962م، ص 164، المقري، نفح الطيب، 185/3، فون شاك، الشعر العربي في إسبانيا وصقلية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط 1، دار المعارف، القاهرة، 1991م، ج1، ص 87 .

وألف أبو الحجاج يوسف بن محمد البَيَّاسيّ الأندلسيّ "الحماسة" على منوال حماسة أبي تمام(1).

وظلت التآليف الأندلسية المتأخرة-عمومًا- تعتمد مصادر المشرقيين؛ فابن سعيد الأندلسيّ (610-685هـ)في كتابه "نَشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب" اعتمد ثقافة المشرقيين وتآليفهم، مثل السيرة النبوية لابن هشام، وحماسة أبي تمام، والأغاني لأبي الفرج الأصفهانيّ، والعقد لابن عبد ربه، وأمالي القالي، والبيان والتبيين للجاحظ، والمؤتلف والمختلف للآمدي، وأمثال أبي عُبيدة، ومعجم البلدان لياقوت، وتاريخ الرسل والملوك للطبريّ، ومروج الذهب للمسعوديّ، والمعارف لابن قتيبة، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وغيرها من مؤلفات أهل المشرق(2). وثمة الكثير من المؤلفات الأندلسية، في شتى جوانب الفكر، انتهجت مناهج المشرقيين، وأفادت من ثقافتهم. وحسبنا ما قدمنا، ليعطينا فكرة واضحة عن هذا الجانب. وفي جانب من جوانب استعارة الأندلسيين أسماء المشارقة وألقابهم، وتشابه التآليف، ضرب من الاعتراف بسبق المشارقة وتفوقهم في الحضارة، والبحث والتأليف.

شروح الأندلسيين لأدب المشرق:

ومن مظاهر الانتماء كثرة الشروح لأدب المشارقة، وبخاصة شروح الشعر الجاهلي؛ فأبو الفُتوح ثابت بن محمد الجرجاني(-431هـ) من أهل غرناطة، شرح ديوان الحماسة(3). وابن

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 239/7، ويورد ابن خلكان خبرًا طويلا عن البياسي أبي الحجاج(-653هـ) صاحب الحماسة، مفاده أن البياسيّ مولع بالأدب المشرقي، خاصة الأدب الجاهليّ، وأنه توخّى منهج أبي تمام، واتبع مذهبه ونزع منزعه في الجمع والرواية. ويبدو أنّ هذه الحماسة مفقودة. وهي غير الحماسة التي ألفها أبو العباس الجراوي(528-609هـ)، من شعراء الدولة الموحدية، وكانت له رحلة إلى الأندلس، وكان نهاية في حفظ الأشعار القديمة، والمحدثة، جمع كتابًا على غرار حماسة أبي تمام،سمّاه "صفوة الأدب وديوان العرب" وهو كثير الوجود بين أيدي الناس، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 12/7، 136- 137 . حققه محمد رضوان الداية بعنوان "الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادليّ"، في جزأين متتابعي الصفحات، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، دار الفكر، دمشق-سورية، ط1، 1411هـ-1991م . وقام أبو القاسم أحمد بن محمد القضاعي البلوي القرطبي(575-657هـ) بتصنيف "روض الأديب والمنزه العجيب" ضاهى به "صفوة الأدب.."، الحماسة المغربية، 7/1 مقدمة المحقق.

(2) أشار إلى ذلك الأستاذ نصرت عبد الرحمن –رحمه الله- في مقدمة تحقيق الكتاب، 1/ 33-37. والكتاب نشر دار الأقصى، عمان-الأردن، 1982م.

(3) القاضي عياض(476-544هـ)، الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص 61، مصطفى حسين، رواية الشعر العربي من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية السابع، نشر دار النهضة العربية، القاهرة، 1978م، ص 260 .

سيده أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي(-458هـ) له كتاب "الأنيق" في شرح الحماسة(1). وله "شرح مُشكل شعر المتنبي"(2). وللأعلم الشَّنْتمريّ(410-476هـ)شرح على الحماسة(3). وله كذلك شرح شعر الشعراء الستة الجاهليين أو "كتاب شرح الشعراء الفحول الستة"(4). ولأبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي(-494هـ) "شرح الأشعار الستة الجاهلية"(5).

ولابن سيد البطليوسي(-521هـ) "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب" لابن قتيبة(6). ولأبي عبيد البكري(-487هـ) "شرح نوادر اللغة" للقالي(-356هـ)(7)، وغير ذلك من شروح الأندلسيين لتواليف المشارقة وأشعارهم. أما مختصرات الأندلسيين لمؤلفات المشارقة فهي كثيرة، وفي مختلف العلوم، وتند عن الحصر(8).

حفظ الأدب المشرقيّ وروايته ومدارسته:

ومن مظاهر الانتماء الأندلسيّ إلى ثقافة الشرق حفظ آثارهم خاصة الشعريّة. وثمة روايات

---

(1) ابن خير، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي(502-575هـ)، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل محفوظ في خزانة الإسكوريال الشيخ فرنسشكة قداره زيدين وتلميذه خليان ربارة طرغوة، ط2، 1382هـ-1963م، ص 356. والأنيق من المؤلفات الضائعة، ولابن سِيده معجمان مطبوعان: المحكم، والمخصص.

(2)حققه الشيخ محمد آل ياسين، دار الطليعة، باريس، ط1. وحققه مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، 1996م.

(3) وهو بتحقيق وتعليق علي المفضل حمّودان بعنوان "شرح حماسة أبي تمام تجلّي غرر المعاني عن مِثل صُور الغواني والتحلي بالقلائد من جوهر الفوائد في شرح الحماسة"، مجلدان، ط1، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبيّ، 1413هـ- 1992م. (4) ياقوت، معجم الأدباء، 1399/3. وشروحه مطبوعة مجتمعة ومنفصلة.

(5) حققه ناصيف سليمان عواد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2000م.

(6) ابن خاقان، قلائد العقيان، 709/3، وحقق الكتاب في بيروت، 1901م، وحققه مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، 1996م. وله" شرح المختار من لزوميات أبي العلاء"، حققه حامد عبد المجيد، (قسمان في مجلد واحد)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط3، 1998م، والطبعة الأولى كانت سنة 1970م. وله شرح لشعرالمعري في السقط، المقري، نفح الطيب، 184/3، مطبوع ضمن شروح سقط الزند القسم الأول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، لجنة إحياء آثار أبي العلاء المعري.

(7) مطبوع بعنوان "سمط اللآلي في شرح الأمالي"، نشره عبد العزيز الميمني بالقاهرة، في جزأين وذيل. وله"التنبيه على أوهام أبي علي البغدادي في كتاب النوادر" مطبوع أيضًا. وله "فصل المقال" في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام اللغوي(- 223هـ)، وهو مطبوع، حققه إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم سنة 1958م، في جزء واحد، وأعيد طبعه غير مرة. وينظر مقداد رحيم، مصادر التراث الأندلسي، ط1، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي-الإمارات العربية المتحدة، 1999م، ص 119 .

(8) ينظر: مقداد رحيم، ص 132-136 .

تدل على غزارة محفوظ الأندلسيين من تآليف المشارقة في اللغة والنحو، والدواوين الشعرية. فكانت إشراقُ السوداء العروضية(-في حدود 450هـ) تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالي وتشرحهما(1). ويروى عن غزارة حفظ أبي محمد عبد المجيد بن عبدون(-527هـ) خبرٌ طويل مفاده أن ابن عبدون كان أملى كتاب الأغاني من حفظه، وكان هذا أيسر محفوظاته(2) .

وكان الفقيه الأستاذ أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف(ابن الباذش)(444-528هـ) "من الحفاظ لكتاب سيبويه"(3). والمطلع على كتاب الذخيرة يلمس كثرة محفوظ ابن بسام من الشعر الجاهليّ والشعر الإسلاميّ والعباسيّ، من خلال موازناته ومقابلاته بين معاني الشعراء من مختلف العصور والأصقاع. وأبو بكر بن زهر(509-595هـ) كان يحفظ أشعارًا للجاهليين والأمويين، وكان يحفظ شعر ذي الرمة؛ وهو ثلث لغة العرب(4).

ويروي صاحب المعجب عن حفظ أبي جعفر الحميري(-610هـ) المؤدب الذي عمر تقريبًا 96سنة، خبرًا يفيد أنه كان حافظًا ثبتًا لديوان المتنبي، ومرجعًا موثوقًا به لمن أراد التثبت من نسخة لديوان أبي الطيب، كما كان يقول: "بعيداً أن تفلحوا، يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي! والله لقد أدركت أقوامًا لا يَعُدُّون مَنْ حفظ كتاب سيبويه حافظًا ولا يرونه مجتهدًا!"(5).

ويروي المقري كثيرًا من نوادر حفظ الأندلسيين، كالأديب، حافظ إشبيلية، بل الأندلس في عصره، أبي المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب(-630هـ)، الذي كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار، يروى عنه تمكنه من حفظ شعر المتنبي وشعر ذي الرمة(6).

ويروي ابن خلكان أنَّ البياسي(-653هـ) صاحب الحماسة، كان أديبًا بارعًا، مطلعًا على أقسام كلام العرب من النظم والنثر، وراويًا لوقائعها وحروبها وأيامها، وكان يحفظ كتاب "الحماسة" تأليف أبي تمام الطائي، والأشعار الستة، وديوان أبي الطيب المتنبي، و"سقط الزند" ديوان أبي العلاء المعري، إلى غير ذلك من الأشعار من شعراء الجاهلية والإسلام(7).

---

(1) المقري، نفح الطيب، 171/4 . (2) المراكشي، عبد الواحد، المعجب، ص 88-91 .

(3) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاربي الأندلسي، فهرس ا بن عطية، تحقيق: محمد أبي الأجفان ومحمد الزاهي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص101 .

(4) ابن دحية، المطرب، ص 206 . (5) المراكشي، عبد الواحد، المعجب، ص 301-302 .

(6) المقري، نفح الطيب، 3/377-378 . وينظر أمثلة أخرى من نوادر حفظ الأندلسيين لتواليف المشارقة: المقري، نفح الطيب، 3/379-380 ، 489، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي(-624هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، (4ج)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1406هـ-1986م، 2/226-227، الرعيني، برنامج شيوخ الرعيني، ص 203-204 .

(7) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 238/7 .

وعلى أي حال، كان أيّ شخص إذا أراد أن يزهو بثقافته، يستعرض محفوظاته من الحماسات والمعلقات وأمهات كتب الأدب المشرقية(1).

رواية الأدب المشرقيّ:

إن من يطلع على حركة الرواية عند الأندلسيين، يُدهش لهذه العناية الشديدة التي أولاها هؤلاء العلماء، سواء لرواية الآثار الشرعية أو الأدبية، المشرقية والأندلسية على حد سواء؛ ولا أدلَّ على ذلك من هذه المؤلفات التي تُدعى بالبرامج، والفهارس، والمعاجم، والمشيخات، والأثبات، التي تُعدّ وثائق مهمة، ومصادر تتميز بعلو الإسناد، وتُعنى بضبط سلاسل السند والرواة، وتعين الباحثين على رسم خطوط حركة التأليف والتوثيق لدى الأندلسيين. وهي حافلة بذكر كتب المشرق والأندلس. كما تطلعنا على أساليب تلقّي العلم، من إجازة ومناولة وسماع وقراءة وغير ذلك من الطرق التي كانت سائدة في مختلف العصور الأندلسية.

كما أن هذا النوع من المؤلفات(2) يعطينا فكرة واضحة عن سبل الاتصال، بين الشرق الإسلامي والأندلس؛ وذلك من خلال اتجاهين متوازنين: الأول يمثله الارتحال صوب المشرق، والثاني يمثله وفود العلماء المشارقة على الأندلس. والاتجاهان يؤكدان -في عدة جوانب- الانتماء إلى ثقافة الشرق. ولكلّ مرتحل صوب الشرق حكاية، وله أكثر من رواية، كما كان لكل وافد على الأندلس أثر بيِّن في نفوس الأندلسيين وثقافتهم، خاصة في الأدب.

الرحلة:

وهي من مظاهر الانتماء إلى ثقافة الشرق، وقد كثرت الرحلات التي قام بها عدد كبير من الأندلسيين إلى المشرق، إذ "أن حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يَعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب، الشديد المحال"(3). وذكر المقري في النفح، في الباب الخامس، جملة من هؤلاء الراحلين،سنذكر بعضهم عنه،وعن غيره؛منهم عبد الرحمن بن موسى الهواري،

---

(1) ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، مهّد لها، ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طبعاتها وحققها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها وعمل فهارسها علي عبد الواحد وافي، ط3، الجزء الثالث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة-القاهرة، 1288/3، 1293، 1294. وفون شاك، الشعرالعربي في إسبانيا وصقلية، 77/1 .

(2) ينظر في مثل هذه المؤلفات: هاني العمد، كتب البرامج والفهارس الأندلسية دراسة تحليلية، ط1، الأردن-عمان،1993م، ص 96 . وللإفادة ينظر: ص 49، 76، والقاضي عياض(-544هـ)، الغنية، ص11 وما بعدها من مقدمة المحقق، وآنخيل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955م، ص 281 وما بعدها.

(3) المقري، نفح الطيب، 5/2 .

وهو أول من جمع الفقه في الدّين وعلم العرب بالأندلس، رحل في خلافة عبد الرحمن بن معاوية(-172هـ)، فلقي مالكًا ونظراءه من الأئمة، ولقي الأصمعيّ(-216هـ) وأبا زيد الأنصاريّ(-215هـ) ونظراءهما، وداخل الأعراب في محالّها(1). ومن الراحلين إلى المشرق سِوار بن طارق، مولى عبد الرحمن بن معاوية، قرطبي، حجَّ، ودخل البصرة، ولقي الأصمعي(-216هـ) ونظراءه، وانصرف إلى الأندلس، وأدب الحكم بن هشام(حكم 180-206هـ)(2). وابنه عبد الله(-275هـ) كان متفننًا في علم الأدب رحل مع ابنه محمد بن عبد الله بن سوار(-302هـ) الذي لقي أبا حاتم(-255هـ)(من تلاميذ الأصمعي) بالبصرة والرِّياشي(-257هـ) وغيرهما وأدخل الأندلس علمًا كثيرًا(3).

وسعيد بن الفرج أبو عثمان الرَّشاش(-272هـ)كان أديبًا عالمًا باللغة والشعر، وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة للعرب، ويضرب المثل بفصاحته، رحل إلى المشرق ودخل بغداد(4).

ومن الراحلين محمدُ بنُ عبدِ السلامِ الخُشَنيُّ(218-286هـ) كان فصيحًا، بصيرًا بكلام العرب، رحل إلى المشرق، فلقي المازني(-249هـ) وأبا حاتم والرياشي(5)، وأخذ عنهم كثيرًا من كتب اللغة رواية الأصمعي وغيره. وكان يلتقي الأعراب ويأخذ عنهم مباشرة. ودخل بغداد، وكتب بها كتب أبي عبيد القاسم بن سلام، "وأدخل الأندلس كثيرًا من حديث الأئمة، وكثيرًا من اللغة، والشعر الجاهلي روايةً"(6).

وعثمان بن المثنى(-273هـ) رحل إلى المشرق ولقي حبيبَ بنَ أوسٍ(-231هـ)، فقرأ عليه شعره، وأدخله الأندلس، وكان لقي ابن الأعرابي(-231هـ)، وأدب أولاد الإمام عبد الرحمن بن الحكم(7). ومحمد بن عبدالله الغازي(-296هـ) رحل إلى المشرق، فلقي الرياشي وأبا حاتم. وجلب إلى الأندلس علمًا كثيرًا من الشعر والغريب والعربية والأخبار. وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها رواية(8).وأخذ أبو عبدِالله محمدُ بنُ إسماعيلَ(الحكيم)(-331هـ)عن محمد المذكور ما جلبه من الأشعار المشروحة رواية عنه،وسماعًا عليه،"وأنجب

---

(1) طبقات الزبيدي، ص 253، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1410هـ- 1989م، ص 56 .

(2) المقري، نفح الطيب، 46/2 . (3) طبقات الزبيدي، ص 260، المقري، نفح الطيب، 46/2، 518- .

(4) ياقوت، معجم الأدباء، 1369/3 . (5) طبقات الزبيدي، ص 268 ، وابن الفرضي، تاريخ العلماء، 16/2، والمطمح، ص 283 . (6) ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ترجمة رقم 1134، 16/2 .

(7) طبقات الزبيدي، ص 266، ترجمة رقم 210، وابن الفرضي، تاريخ العلماء، 346/1 .

(8) طبقات الزبيدي، ص 267، وابن الفرضي، تاريخ العلماء، 24/2 .

على يديه جملة من المؤدَّبين والشعراء والكتاب"(1). ومن الراحلين الأقشتين(-307هـ)، كان متصرفًا في علم الأدب والخبر، ورحل إلى المشرق، ولقي أبا حنيفة الدينوري(-282هـ)، وانتسخ كتاب سيبويه(-180هـ)من نسخته، وأخذه عنه رواية، وأخذه عن المازني(-249هـ)، وروى كتب ابن قتيبة عن إبراهيم بن جميل الأندلسي(-300هـ)، أخذها عنه في مصر.وله كتاب طبقات الكتاب(2). ومن الراحلين قاسم بن أُصْبُغ بن ناصح القرطبي(-340هـ)، رحل إلى المشرق وروى عن ابن قتيبة(3). ومنهم منذر بن سعيد(273-355هـ)، لقي أبا جعفر بن النحاس في مصر، وأبو جعفر هذا يقال إن تواليفه تزيد على خمسين، منها شرح عشرة دواوين للعرب، وإعراب القرآن، ومعاني القرآن، وشرح أبيات الكتاب، وغير ذلك(4).

وللرّباحي محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي النحوي(-358هـ) رحلة لقي فيها أبا جعفر النحاس، وحمل عنه كتاب سيبويه رواية، كما قرئ عليه الكتاب، وأخذ عنه رواية، ولزم التأديب في داره في قرطبة. وكان الرباحي نظم قصيدة في الرثاء، وبناها على مذاهب العرب لا على مذاهب المحدثين، وأُعجب بها أبو علي القالي ومن يذهب في طريقته. واستأدبه عبد الرحمن الناصر لابنه، ثم صار إلى خدمة الحكم المستنصر في مقابلة الكتب(5).

وسَلمَة بن سعيد بن سلمة(327-406هـ) رحل إلى المشرق، وأقام ثلاثاً وعشرين سنة، وأدب في بعض أحياء العرب، ولقي علماء كثيرين، كان ثقةً فيما رواه، ثقة فيما نقل وضبط. حدث وسمع الناس منه كثيرًا، وساق من المشرق ثمانية عشر حملاً مشدودة من كتب، وكانت في كل فن من العلم(6).

واستمرت رحلات الأندلسيين في كل العصور، فمن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام العالم القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري(468-543هـ) قاضي قضاة كورة إشبيلية، طبق الآفاق بفوائده، وملأ الشام والعراق بأوابده(7).

---

(1) طبقات الزبيدي، ص 277 . (2) طبقات الزبيدي، ص 282 . (3) ياقوت، معجم الأدباء، 2190/5-2191 .

(4) المقري، نفح الطيب، 16/2- . (5) طبقات الزبيدي، ص 310- 314، ابن الفرضي، تاريخ العلماء، 19/2-22، 72، خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ، ص 126 . (6) ابن بشكوال، الصلة، 219/1-220 .

(7) المقري، نفح الطيب، 26/2، رحل مع أبيه إلى الشرق سنة 485هـ، دخل مصر والعراق وبغداد، وسمع بها من كبار العلماء، وكان ممن لقيهم في مصر وقرأ عليهم الأدب التبريزي(-502هـ)، وعاد إلى الأندلس سنة 493هـ، وقرأ عليه الحافظ ابن بشكوال بإشبيلية، وكان فصيحًا حافظًا أديبًا شاعرًا، وروى عنه خلق كثير منهم القاضي عِياض(-544هـ)، وأبو جعفر بن البَاذَش، وقيد الحديث، وضبط ما روى، واتسع في الرواية، وصنف في غير فن، وتصانيفه مليحة حسنة مفيدة، المقري، نفح الطيب، 28/2-. وذكر له تآليف كثيرة، النفح، 35/2- .

وكانت الرحلة شبه مقدسة إلى المشرق، يتفاخر بها الراحلون، ومن تتلمذ عليهم. كما ظلّت لـدى علماء الأندلس، حتى نهاية وجودهم، جزءًا لا يتجزأ من نشاطهم العلمي.

وفود المشارقة على الأندلس والإعجاب بهم:

ذكر المقري في نفحه في الباب السادس مجموعة من الوافدين على الأندلس من الشرق، وهم كثيرون "لا تُحصر الأعيان منهم، فضلا عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطنًا، وصيرها سَكنًا، إلى أن وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قُضيت بالأندلس أُمْنيّتُه"(1).

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزِرْياب. وكان شاعرًا مطبوعًا، وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وقد سُرّ الحكم بن هشام(180-206هـ)عند سماعه بقدوم زرياب، وقام ابنه عبد الرحمن الأوسط(206-238هـ) بالترحيب به فأكرمه أشدَّ إكرام واستهوى غناءه، وقدمه على جميع المغنين، وأدنى منزلته، وذاكره في أحوال الملوك وسيرالخلفاء ونوادر العلماء(2).

ومن الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني(-298هـ) من أهل بغداد، وجال في البلاد شرقًا وغربًا من خراسان إلى الأندلس ..، وقدم إلى الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن، وكان له سماع ببغداد من جِلّة المحدثين والفقهاء والنحويين، لقي الجاحظ، والمبرد(-285هـ) وثعلبًا(-291هـ) وابن قتيبة، ولقي من الشعراء أبا تمام(-231هـ) والبحتري، ودعبلا(-246هـ) وابن الجهم(-249هـ)(3).

ومن الوافدين أبو علي القالي(-356هـ)، وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وابنه الأمير الحكم. واستقبل بوفد من وجوه الرعية استقبال الأمراء. وكان القالي أحفظ أهل زمانه للغة، وأرواهم للشعر الجاهليّ، وأحفظهم له، ولنحو البصريين. وأخذ الأدب عن أبي بكر بن دريد الأزدي(-311هـ) وأبي بكر بن الأنباري(-328هـ)، وغيرهما. وأخذ عنه أبو بكر الزبيدي الأندلسي(-379هـ)، وتتلمذ على يديه خلق كثير(4).

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى البغدادي اللغوي، أيام المنصور بن أبي عامر الذي أكرم وفادته، وأعلى مقامه. وكان صاعد عالمًا باللغة والآداب والأخبار، وكانت بضاعته حفظ الأشعار ورواية الأخبار وفكّ

---

(1) المقري، نفح الطيب، 5/3 . (2) السابق، 3/124-127، فون شاك، الشعرالعربي في إسبانيا وصقلية، 87/1 .

(3) المقري، النفح، 3/134-135 .

(4) طبقات الزبيدي، ص 185-187، ياقوت، معجم الأدباء، 2/729–731، المقري، نفح الطيب، 3/70-72 .

المعمّى وعلم الموسيقى(1).

تدريس الأدب المشرقي:

كانت المؤلفات المشرقية التي وفدت على الأندلس،عن طريق الرحلات التي قام بها الأندلسيون، وعن طريق الوافدين من المشرق، كانت على الأغلب مواد تدرس في المساجد أو المدارس، أوالمجالس، أو في بيوت الأساتذة، أو بيوت الأعيان. وكثير من هذه المؤلفات يُعدّ من مصادر الشعر الجاهليّ، أو يحوي شعرًا جاهليّا غزيرًا.

ومن المنتخبات الشعرية التي كانت تدرس في الأندلس: المعلقات(2)، والمفضليات، والأصمعيات(3)، والحماسة لأبي تمام(4)، وشرحها(5)، وأشعار الهذليين(6)، وكتاب الشعراء الستة الجاهليين(7)، وشرح الشعراء الستة للأعلم الشنتمري(8)، والنقائض(9). ومن الدواوين الشعرية: ديوان ذي الرمة(10)، وديوان أعشى بكر(11)، وديوان المتنبي مع شرحه، ومن دون شرح(12)، وديوان أبي العلاء المعري: سقط الزند وشرحه ضوء الزند، واللزوميات (13).

ومن المؤلفات التي كانت تدرس: السيرة النبوية الشريفة لابن هشام(-218هـ)(14)، وكتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام(-224هـ)(15)، وكتاب إصلاح المنطق، وكتاب الألفاظ لابن السكيت(-246هـ) (16)، والشعر والشعراء، والميسر والقداح، لابن قتيبة(-276هـ)(17)،والكامل للمبرد(-285هـ)(18)،وكتاب الأغاني للأصفهاني(19)،والأمالي(20)

---

(1) وقد ألّف للمنصور كتاب "الفصوص" على شاكلة أمالي القالي والكامل للمبرد، أبو العلاء صاعد بن الحسين الربعيّ البغداديّ(-410أو417هـ)، من كتاب الفصوص، اختار النصوص وقدم لها مظهر الحجي، منشورات وزارة الثقافة، 3ج، ط1، دمشق، 2001م، 1/14-16، وينظر: رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس، ص16، الحميدي، جذوة المقتبس، ص223، ابن بشكوال، الصلة، 233/1، المقري، نفح الطيب، 78/3 .

(2) ابن خير، ص 366. (3) السابق، ص390.(4)ابن عطية،فهرس ابن عطية،ص 106، 114،وابن خير، ص 387-.

(5) القاضي عياض،الغنية،ص 178.(6)ابن خير،ص 389.(7)السابق، ص 388. (8) القاضي عياض،الغنية،ص 178.

(9) ابن خير، ص 383. (10) السابق، ص 391. (11) السابق، ص 391. (12) ابن خير، ص 403، 405، 415.

(13)ابن خير، ص 411، 412.(المعري) (14)ابن عطية، فهرس ا بن عطية،ص 93،والقاضي عياض،الغنية،ص 206.

(15) ابن عطية، فهرس ابن عطية، ص 98، والقاضي عياض، الغنية، ص 203. (16) ابن عطية، فهرس ابن عطية، ص 76، 103، 105، 127، والقاضي عياض، الغنية، ص 60 . (17) ابن خير، ص 378 .(ابن قتيبة)

(18) القاضي عياض، الغنية، ص 59 . (الكامل)

(19)هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1408هـ-1988م، ص 36 .

(20) للقالي، القاضي عياض، الغنية، ص 61، 142، وابن خير، ص 379 .

وفقه اللغة لأبي منصور الثعالبي(-429هـ)(1)، وزهر الآداب للحصري(-453هـ)(2).

واستمر تدريس كثير من المواد التي ذكرت سابقًا في العصور اللاحقة، إضافة إلى غيرها من مؤلفات، ذكرها الرعيني(-666هـ)في برنامج شيوخه. ويمكن القول بأن كتب الأدب واللغة، المشرقية بخاصة، هي الأكثر تداولا، قرأها الرعيني قراءة علم وتفقه، أو سمعها على شيوخه، أو كان شيوخه يقرأونها على أشياخهم(3).

وظلّ أهل الأندلس حتى عصر ابن خلدون على الأقل يعدّون أصول علم الأدب وأركانه أربعة كما يصرح ابن خلدون: "أصول الفن أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها"(4)، وهي مؤلفات مشرقية.

وإنّ التعليم في الأندلس كان يولي الناشئة اهتمامًا كبيرًا، بتدريسهم الشعر الجاهليّ أولا وأدب صدر الإسلام، ثم شعر المحدثين وأدبهم؛ مما جعلهم من أهل الملكات المطبوعة(5). وثمة وثائق كانت تُعقد بين أولياء أمور التلاميذ والمدرسين تدل على عناية الأندلسيين بتعليم أبنائهم الأدب العربي، ومن ضمنه الشعر الجاهلي(6).

---

(1) القاضي عياض، الغنية، ص 226 .

(2) السابق، 380. وكان للأندلسيين اهتمام كبير بكتاب سيبويه(-180هـ)، القاضي عياض، الغنية، ص 203. بل إن أغلب الأندلسيين كانوا يتعبدون لسيبويه، ينظر: علال الفاسي، "سيبويه والمدرسة الأندلسية المغربية في النحو"، مجلة اللسان العربي، السنة الثانية عشرة، العدد الأول، 1975م، ص 79- 85، وأبو حيان الأندلسي(-745هـ)، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح ودراسة رجب عثمان محمد، مراجعة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، 1418هـ، 1998م، مقدمة المحقق، ج1، ص 32- ، وخديجة الحديثي، أبو حيان النحوي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط 1، 1966م، ص 454-، 475- ، 285-

(3) ينظر:برنامج شيوخ الرعيني، ص 35، 39 ،43، 44، 45، 51، 60، 77، 79، 80، 81، 83، 90، 142، 145، 166، 172، 186، 243، وينظر في محتوى التعليم الذي كان أبناء الأندلس عامة، وأبناء الخاصة منهم يتلقونه، زمن أبي بكر بن العربي(-543هـ)، المقري، نفح الطيب، 43/2، محمد عيسى عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982م، (في الأصل رسالة دكتوراة، جامعة مدريد)، ص 450- 451.

(4) مقدمة ابن خلدون، 1277/3-1278 .

(5) ينظر: القاضي أبو بكر بن العربي(-543هـ)، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1423هـ-2002م، ص 178. ابن خلدون، مقدمته، 1288/3، 1252، هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص 31 .

(6) ينظر في هذه الوثائق: خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ص 49، 70-71، 166، 170، 173، 174، ومحمد عيسى عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص 476-484. وكانت مثل هذه العقود شائعة في القرن الرابع الهجري.

وكانت للشعر الجاهليّ مكانة كبيرة في نفوس الأندلسيين؛ لذلك حَرَصوا على تدريسه للناشئة، منذ عهد مبكر من تاريخ المسلمين في الأندلس، كما كانت لقيمه الأثر الواضح في التربية، فيروى أن أمية بن عيسى بن شهيد وزير الخليفة محمد بن عبد الرحمن(238-273هـ) كان يتفقد رهائن بني قيس، فسمعهم ينشدون شعر عنترة العبسيّ، فطلب المؤدّب، وعنفه وطلب منه أنْ يكفَّ عن تعليم شعر عنترة الذي يزيد البصيرة في الشجاعة، وأن يرويهم خمريات أبي نواس(1).

فكان المشرق إذن أستاذ الأندلس، تشرئبُّ إليه الأعناق تقديرًا وتبجيلا. وقد أخذ الأندلسيون في تقليد الثقافة المشرقية، إلى حدّ الإسراف؛ مما أغاظ ذلك ابن بسام فانتقدهم، بقوله(2): "إلا أنَّ أهلَ هذا الأفق، أبَوا إلا متابعةَ أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قَتادة، حتى لو نَعقَ بتلكَ الآفاقِ غرابٌ، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذبابٌ، لجَثوا على هذا صنمًا، وتلَوا ذلك كتابًا مُحكمًا..، فغاظني منهم ذلك، وأنِفتُ مما هنالك، وأخذتُ نفسي بجمع ما وجدتُ من حسنات دهري، وتتبُّعِ محاسن أهل بلدي وعصري".

ويبدو كذلك أنَّ الأندلسيين كانوا شديدي العناية بالشعر الجاهليّ، خاصة المعلقات، مما جعل ابن بسام يسأم من هذه العناية، في قوله(3): "وقد مجَّت الأسماعُ "يا دار مية بالعلياء فالسَّند"، وملت الطباع: "لخولة أطلال ببرقة ثهمد"، ومَجَّت: "قفا نبك" في يد المتعلمين، ورَجَعتْ على ابن حُجْر بلائمة المتكلفين، فأما "أمِنْ أمِّ أوفى" فعلى آثارِ من ذهبَ العفا. أما آنَ أن يصَمَّ صَداها، ويُسأمَ مداها؟ وكم من نُكتة أغفلتْها الخُطباء، وربَّ مُتردَّمٍ غادَرَتْهُ الشعراءُ".

ومع ذلك فقد تتبع ابن بسام في ذخيرته ما أخذه أهل بلده من معاني المشارقة، وردَّ كلَّ معنى هام إلى أصوله الأولى، التي كثيرًا ما يصل بها إلى العصر الجاهلي أو الإسلامي، أو إلى قول أحد الأعراب. ويندر أنْ يتهم ابن بسام الأديب بالسرقة صراحة، فيقول: "وإذا ظفرتُ بمعنًى حسن، أو وقفتُ على لفظٍ مُستحسن، ذكرتُ من سبق إليه، وأشرتُ إلى من نقص عنه، أو زاد عليه، ولستُ أقول أخذَ هذا من هذا قولا مطلقًا، فقد تتوارد الخواطر، ويقع الحافر حيث الحافر، إذ الشعر ميدان، والشعراء فرسان"(4).

ولا تناقض بين أن يهبَّ ابن بسام للدفاع عن كيان بلاده، وشخصية أدبائها وآثارهم، وبين أن يردَّ أكثر معاني الشعراء في الأغراض التقليدية، خاصة المدح والغزل، إلى أقدم شعراء العربية،

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 106 . (2) الذخيرة، 12/1/1 .

(3) السابق، 13/1/1 . (4) السابق، 18/1/1-19 .

إذ لا ينقص تأثر الأندلسيين بتلك المعاني من قيمة إبداعهم، لأنَّ معاني الشعر بمثابة رصيد أدبي مشترك متاح لأدباء العربية أينما كانوا، فهذا المعنى أو ذاك معنى عربي تداوله شعراء المشرق والمغرب على السواء، والعبرة في حسن الأخذ(1).

وكان ابن بسام ناقدًا يغلّب المقياس الخلقي والديني في اختياراته ونقده؛ ولعلّ هذا ما يفسر نفوره من الفلسفة، ومن إيراد المعاني الإلحادية، وتجافيه عن فن الهجاء عمومًا، والغزل الفاحش، والمدح الكاذب، مما يؤكد نزعته المحافظة(2).

ولأنّ الذوق الأندلسي كان يميل أكثر إلى الثقافة المحافظة؛ لذلك رفض الأدباء منهم والنقاد الاستشهاد بالموشح والزجل، كابن بسام وابن خاقان. فالزجل خاصة يتسم باللين والألفاظ السوقية، عدا خروجه عن عروض الشعر العربيّ.

وعلى أيّ حال لم تجد صرخة ابن بسام صدًى لدى الأندلسيين؛ فلم تنقطع صلات الأندلسيين بالأدب المشرقيّ واتباعه، ولم تخفت ظاهرة التأثر بالشعر الجاهلي خاصة في العصور التالية، بل استمرت إلى آخر عهدهم بالأندلس. وظل هذا الاتباع قائمًا في عصر المرابطين، فكثير من الأدباء الذين عاصروا الطوائف عاشوا في عصر المرابطين.

لقد عُني الأندلسيون بالشعر المحافظ، واعتصموا بطريقة العرب، ببساطتها، ومحافظتها على القيم الأصيلة، والبداوة، ووضوح المعنى، والنفور من التكلّف والشطط في المعاني والصور، والحذلقة في التركيب والتفلسف. ويُعزى الدور الأكبر لهذا التوجه نحو طريقة العرب، إلى جهود الخلفاء الأمويين في القرن الرابع الهجريّ، وفي مقدمتهم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر(3)، وجهود القالي ومدرسته(4)، التي استمرت بتعهد الذوق نحو طريقة العرب، مما

---

(1) علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهم جوانب الكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 268-269 . (2) السابق، ص 404-405 .

(3) لقد وجَّه الحكم المستنصر عنايته الكبيرة إلى جمع الثقافة المشرقية؛ فقد بعث لأبي الفرج الأصفهاني ألف دينار ذهبًا ليرسل إليه نسخة من الأغاني، فبعث أبو الفرج بنسخة منقحة للحكم، قبل أن يظهر الكتاب في العراق، الحلة السيراء، 1/200-202، وينظر في عناية الحكم بالثقافة المشرقية:أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (384-456هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 1382هـ-1962م، ص 100، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي(-462هـ)، طبقات الأمم، تحقيق وتعليق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1993م، ص 75، الجذوة، ص 47–48 .

(4) وكان للقالي الأثر الواضح في تربية الذوق الأندلسي على الثقافة المشرقية المحافظة؛ إذ كان"إماماً في علم العربية، متقدمًا فيها، متقنًا لها، فاستفاد الناس منه، وعولوا عليه، واتخذوه حجة فيما نَقَلَه، وكانت كتبه على غاية التقييد، والضبط والإتقان.."، الحميدي، الجذوة، ص 155. وقد صرح القالي بأنه اغترب للرواية، ولزم العلماء للدراية، وقد أهدى أماليه للناصر والمستنصر، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، كتاب الأمالي، جزءان في مجلد واحد، منشورات دار الحكمة، دمشق، د.ت، 1/1-3 .

أدى إلى النزوع نحو محاكاة أدب القوة ومنبعه المشرق، وعلى رأسه الشعر الجاهلي(1).

وابن شهيد(-426هـ) في شعره خير ثمرة لمدرسة القالي التي جنحت إلى القوة والجزالة البدوية. وجمع بين الإحاطة بالمعاني وانتقاء الألفاظ وسرعة البديهة والقدرة على الارتجال. ويشبهه في الجزالة والقوة ابن زيدون(-463هـ) في شعره ورسائله الفنية.

إنَّ المورد الصافي الأصيل الذي توجّه إليه الأندلسيون هو الشعر الجاهلي؛ لأنه "الأصل الذي انبثق منه الشعر العربيّ في سائر عصوره, وهو الذي أرسى عمود الشعر، وثبت نظام القصيدة، وصاغ المعجم الشعري العربي عامة "(2). وكان له الدور الكبير في صياغة علوم العربية اللغوية والأدبية؛ فتعهدوا هذا الشعر بالرواية والمدارسة، ومحاكاته وتقليد طريقته، والإفادة من معانيه وأساليبه في الشعر والنثر؛ وكان ذلك كلّه انتصارًا للانتماء العربي.

احتذاء الشعراء الأندلسيين طريقة العرب الأول:

لقد سار كثيرٌ من الشعر الأندلسيّ على نهج طريقة العرب الأول؛ ولعلّ أهمّ سمات هذه الطريقة هي: الجزالة اللغوية، ووضوح المعاني واعتدالها وجودتها، وشيوع الصور البدوية، وكثرة الغريب، والطبع وعدم التكلف في البديع، فضلا عن بناء القصيدة هيكلها العام، خاصة التقديم لها بمقدمات تقليدية(جاهلية)(3). وهذه السمات اتصف بها –عمومًا-الشعر الجاهليّ.

فابن عثمان الأصَمّ(-335هـ) "أكثر أشعاره على مذاهب العرب"(4). وأبو عبد الله محمد ابن يحيى بن عبد السلام الأزديّ الرّباحيّ(- 358هـ)نظم قصيدة في الرثاء بناها على مذاهب

(1) ينظر: إحسان عباس، عصر الطوائف والمرابطين، ص 87-، 142، ومصطفى عليان، تيارات النقد الأدبي، ص111-116 .

(2) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهليّ وقيمتها التاريخيّة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 7، 1988م، المقدمة، ص 5 .

(3) ينظر: أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط2، 1998م, ص 197، إحسان عباس، عصر سيادة قرطبة، ص 241، 112-115، وعصر الطوائف والمرابطين، ص 87، 159-161، مصطفى عليان، تيارات النقد الأدبي، ص 247-، جمانة رجب باشا، الشعر الأندلسي بين طريقة العرب ومذهب المحدثين، رسالة دكتوراة، جامعة حلب، 1424هـ- 2003م، ص 31، 34- 36 . مع ملاحظة أن الشعر في عصر الولاة(92-138هـ) وأوائل عصر الإمارة(138-316هـ) كان موسومًا عمومًا بأنه يسير على طريقة العرب الأوائل، في الموضوعات التقليدية خاصة، كالفخر والمديح والحماسة، متسمًا بطابع البداوة في الموضوع والصورة، مصطبغًا بصبغة الجزالة والقوة في اللغة والموسيقا؛ ينظر: حكمت علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي، 93-112،94-115، 137، 151 –155، سعد إسماعيل شلبي، الأصول الفنية للشعر الأندلسي-عصر الإمارة، الفجالة، مصر،1982م، ص 234، 249 -255، 450، يوسف طويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1991م، ص 10 .

(4) طبقات الزبيدي، ص 306 .

العرب، وكان إسماعيل بن القاسم (القالي) شديدَ الإعجاب بها، كثيرَ الثناء عليها، وفي هذه القصيدة يقول(1): الرجز

سائل بطسم والذين قبلهمْ والحضْر والحَيّ الحِلال من سَبَا

وله قصائد مطولات، منها القصيدة المطولة التي بعثها للزبيدي وصاحبه، يقول في أولها(2): الطويل

خليليّ من فرعَيْ زُبيدِ بن مذحجٍ قفا واسمَعا قد يسعِد الشّجنَ الشّجِي

ألم تعلما أني أرِقْتُ وشاقني خيال سرى وهْنًا ولمّا يُعرِّجِ

وقصيدة أخرى أولها(3): الخفيف

يا خليليّ عَرّجا بمحبٍّ هيضَ سقْمًا فما يريم الفِراشا

وللزبيدي قصيدة في رثاء شيخه القالي: "جزلة الألفاظ، كثيرة الغريب، صاغها صوغ فحول العرب، وضمنها قطعة من غريب كلامهم، وهي قصيدة طويلة، أولها: (السريع)

تالله لا يَبْقَى لصَرْفِ النّوى ذو جسدٍ في رأسِ نيقٍ مُنيف"(4)

ولأبي محمد عبد المجيد بن عبدون(-527هـ) قصيدتان في الرثاء: إحداهما في رثاء ابن سراج(-489هـ)، والأخرى في رثاء بني الأفطس، وهي القصيدة الموسومة بالبسّامة، ذكر ابن بسام أنهما على نهج فحول الشعراء الأوائل في التأبين والرثاء، من ضربهم الأمثال بالملوك الهالكين والأمم الزائلة(5)، ويورد عبد الواحد المراكشي قصيدة ابن عبدون البسامة كاملة في المعجب، ويثني على صحّة مبانيها، ورشاقة ألفاظها، وجودة معانيها(6). وسيأتي الحديث عن قصيدتي ابن عبدونٍ في غرض الرثاء في الفصل الأوّل.

بعض السمات على طريقة العرب الأوائل:

إنَّ من السمات الظاهرة التي تسم الشعر بأنه على طريقة العرب الأوائل: الجزالة اللغوية، والبداوة، والغريب. وقد آثر معظم النقاد الأندلسيين الجزالة اللغوية، واعتمدوها محكًّا للجودة؛ يقول ابن شهيد(-426هـ)(7): "أعطنا كلامًا يرعَى تِلاعَ الفصاحة، ويستحم بماء العذوبة والبراعة، شديدَ الأسر، جيد النظام، وضَعْه على أيّ معنى شئت". ولكن ابن شهيد-وإن اتسم أدبه بالفصاحة وجودة النظام- لم يطبّق هذا الاستحمام بالعذوبة في كل ما نظم؛ بل إنَّ كثيرًا من شعره يتسم بالخشونة والغلظة وغرابة الألفاظ، ولا أدلّ على ذلك من شعره الذي عارض فيه

---

(1) السابق، ص 313، وابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة، 72/2 ترجمة رقم 1292 .

(2) طبقات الزبيدي، ص 313 . (3) السابق، ص 313 . (4) الثعالبي، يتيمة الدهر، 81/2 .

(5) الذخيرة، 818/2/1 . (6) المعجب، ص 76 . (7) ابن بسام، الذخيرة، 290/1/1 .

الشعر الجاهليّ. مع العلم أنَّ الشعر الجاهليّ لم يتبع نهجًا واحدًا في الجزالة والغلظة والخشونة في كل أغراضه، فقد غلبت الجزالة والخشونة على بعض الأغراض كالحماسة والفخر والمديح وبعض جوانب الوصف، في حين عذب وحلا شعرهم في بعض جوانب الغزل، وتتسم مراثيهم عمومًا بالرقة. وقد تمثل هذا المذهب بعض شعراء الأندلس. وإنَّ أغلب معاصري ابن خفاجة(-533هـ) من النقاد لم يكونوا يرضون بديلا عن الجزالة اللغوية، حتى في الأغراض التي تتطلب الرقة والعذوبة كالغزل، لذلك نجد ابن خفاجة يعترض على من جعل الفخامة والجزالة اللغوية محكًّا للجودة في كل الأغراض: مدح أو تغزل، وجدَّ أو هَزَلَ، ويبين –مثلا- أن لغة المديح تفترق عن لغة الغزل(1).

وما يؤيد ما ذهب إليه ابن خفاجة في أنّ أهل عصره من النقاد كانوا يفضلون الجزالة والقوة في الشعر ما صرَّح به ابن بسام من أنَّ جمهور شعراء وقته يذهبون إلى طريقة ابن هانئ(-362هـ)، وعلى قالبه يضربون(2). وشعر ابن هانئ –عمومًا- يجنح نحو طريقة العرب الأوائل، ويتسم كثير من شعره بالجزالة والقوة، وطول النفس، والأوزان الطويلة، مع خشونة الموضوع البدوي واستخدام الغريب(3).

وقد جنح الأعمى التطيلي(-525هـ) في كثير من شعره إلى طريقة العرب الأوائل. وهذا ابن حمديس الصقلي(527هـ) يقدم لكثير من مدائحه بمقدمات طللية وغزلية، وينظم في موضوعات تقليدية كوصف الطرد والصيد؛ ويثني عليه ابنُ بسام بأنه يعبّر عن المعاني "بالألفاظ النفيسة الرفيعة"(4). وينهج ابن الزقاق(-529هـ) نهج الأوائل في بناء القصيدة، وصبغ شعره بالجزالة، وبالصور المألوفة.

على كلِّ حال فإنَّ ابن خفاجة في موقفه النقدي هذا يوافق ابن عبد ربه(-328هـ) الذي سبقه بقرنين من الزمان؛ فابن عبد ربه يدعو إلى الرقة والعذوبة في الغزل والجزالة في المديح(5)؛

---

(1) ينظر: ديوان ابن خفاجة، تحقيق السيد مصطفى غازي، مطابع دار المعارف بمصر، 1960م، ص 11-12 وينظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان-الأردن، 1993م، ص 505-507 .

(2) الذخيرة، 799/2/2 .

(3) ينظر: أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس, ص 197، إحسان عباس، عصر الطوائف والمرابطين، ص 87 .

(4) الذخيرة، 320/1/4 .

(5) ينظر في خصائص شعر ابن عبد ربه: أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص 108، جبرائيل جبور، ابن عبد ربه وعقده، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979 م، ص 161، ومقال الطاهر مكي "العقد الفريد لابن عبد ربه"، تاريخ العرب والعالم، س 1، ع 4، شباط 1979م، ص 53 .

وله تطبيقات من شعره تبين ذلك، كقوله من مقطوعة في الغزل مطلعها(1): الكامل

يا لؤلؤًا يَسْبي العقولَ أنيقًا ورشًا بتقطيع القلوبِ رفيقا

أما الجزالة وقوة الألفاظ وغرابتها، التي نجد لها مثيلا في الشعر الجاهليّ، وبعض المعاني والتشبيهات، فكانت من نصيب المديح بالشجاعة خاصة في ثنايا الحديث عن وصف الحرب في مثل قوله(2): مجزوء البسيط

وربَّ مُلتفَّةِ العَوالي يَلتَمِعُ الموتُ في ذُراها

إذا تَوطَّتْ حُزونَ أرضٍ طحْطحتِ الشُّمَّ من رُباها

يقودُها منهُ ليثُ غابٍ إذا رأى فرصةً قَضَاها

تَمضي بآرائهِ سُيوفٌ يستبقُ الموتُ في ظُباها

- تَتْبعُهُ الطَّيرُ في الأَعادي تجني كَلا العشبِ من كُلاها

وقوله في وصف الحرب، مفتخرًا بنفسه(3): الوافر

ومُغبرّ السماءِ إذا تَجلَّى يغادرُ أرضَه كالأرجوانِ

سَمَوتُ لهُ سموَّ النقعِ فيهِ بكل مُذَلَّقٍ سَلِبِ السِّنَانِ

وكلِّ مُشَطَّبِ المَتْنينِ صافٍ كلونِ الملحِ مُنْصَلتٍ يماني

كأنَّ نهارَهُ ظلماءُ ليلٍ كواكبُهُ منَ السُّمْرِ اللِّدانِ

ويقول في وصف الخيول السابحة، من قصيدة مدح(4): الطويل

تطيرُ بلا ريشٍ إلى كلِّ صَيحةٍ وتَسبحُ في البرِّ الذي ما بهِ سَبْحُ

إنَّ هذا الموقف النقدي في الرقة والعذوبة في بعض الأغراض كالغزل، والجزالة في بعضها الآخر كالحماسة والفخر والمدح، ويؤيده ما شاع في الشعر الجاهليّ، عبَّر عنه ابن شرف

---

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد(246-328هـ)، شعر ابن عبد ربه الأندلسي، جمعه وحققه وقدم له محمد أديب عبد الواحد جمران، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض، 1421هـ-200م، ص 225، وقد أعجب المتنبي بها وصفق حين سمعها وقال- مخاطبًا من أنشد له المقطوعة، في مسجد عمرو بن العاص-: "يا بن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوًا"، ابن خاقان، المطمح، ص 273 .

(2) الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي(-328هـ)، كتاب العقد الفريد، تحقيق وتعليق بركات يوسف هبود،6ج، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 1، بيروت، لبنان، 1420هـ-1999م، 185/1، شعره، ص 311-312 ، وينظر: ص 263-264.

(3) العقد، 164/1، وشعره، 304-305، وتشبيهه السيف بلون الملح في الصفاء تشبيه جاهلي، كما يقول أبو قيس بن الأسلت الأوسيّ: "مهندٍ كالمِلْحِ قَطَّاعِ"، المفضليات، (مختارات المفضل بن محمد الضبي)، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1964م، ق75، بيت 7، ص 284 .

(4) شعر ابن عبد ربه، ص 98 .

القيرواني، إذ يقول عند حديثه عن عنترة: "وأما العبسيّ فمُجيدٌ في أشعاره، ولا كمعلقته،..؛ وجمع فيها بين الحلاوة والجزالة، ورقة الغزل وغلظة البسالة؛ وأطال واستطال، وأمن السآمة والكلال"(1). وقد اتسم كثير من شعر ابن دراج القسطليّ(-421هـ) بالجزالة وقوة الصياغة، من مثل قوله:(2): الطويل

ولو شاهَدَتْنِي والصَّواخِدُ تَلتَظِي   علـــيَّ ورقـراقُ السّراب يَمُورُ
-وأستنشِقُ النَّكباءَ وهْيَ بَوارِحٌ   وأسْتَوْطِئُ الرَّمْضاءَ وَهْـيَ تَفُورُ
-لبانَ لها أنّي مِنَ الضَّيْمِ جازِعٌ   وأنّي على مَضِّ الخُطُوبِ صَبُورُ

وشعر ابن عمار(-477هـ) في مدح المعتضد العبادي، يوصف بالجزالة وبراعة الصقل، ومن ذلك قوله(3): الكامل

عبّادٌ المخضرّ نـــائلُ كفّـــهِ   والجوُّ قد لبس الـرداء الأغبرا
ملكٌ إذا ازدحم الملوك بمَوْرِدٍ   ونَحـاه لا يَرِدُون حــتى يَصْدرا
-يختار إذ يَهَبُ الخريدةَ كـاعبًا   والطِّرْفَ أجردَ والحسامَ مُجوهرا
قدّاحُ زَنْد المـجد لا ينفَكُّ مـن   نار الوغى إلا إلــى نار القِـــرى

ويوصف كثير من شعر ابن زيدون بالجزالة اللغوية، ومتانة التعبير، يقول في تهنئة عباد المعتضد وابنه إسماعيل بالنصر على المظفر بن الأفطس، ويهجو فيها أمير قرمونة الذي بعث بابنه لنصرة المظفر(4): الطويل

أعَبّادُ يا أوفى المُلـــوكِ بِذِمَّـــةٍ   وأرعـــاهُمُ عَهدًا وأطوَلَهُمْ يَـدا
-وجَدناكَ إن أَلقَحْتَ سَعيًا نَتَجْتَهُ   وغَيرُكَ شاوٍ حينَ أَنضَجَ رَمَّدا
-طَويلُ عِثارِ الجُرمِ قلتَ لـهُ لعـًا   بِحِلـــــمٍ تـلَقّى جَهلَهُ فتَـغَـمَّدا
-لبِئسَ الوَفاءُ استَنَّ في ابنِ عَقيـدهِ   عَشِيَّةَ لم يُصدِرهُ مِن حَيثُ أَورَدا
قرينٌ لهُ أَغواهُ حتى إذا هَـوى   تَبَرَّأَ يَعتَـدُّ البـراءَةَ أرشَـــــدا
فأصبَحَ يَبكيهِ المُصابُ بـثُكلِهِ   بُكاءَ لبيدٍ حينَ فـــارَقَ أَربَـدا

وفي ابنه إسماعيل، وليّ عهد المعتضد، وقائد جيشه، يقول:

---

(1) ابن شرف القيروانيّ(-460هـ)، رسائل الانتقاد، ضمن كتاب: "رسائل البلغاء"، اختيار وتصنيف محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3، القاهرة، 1365هـ-1946م، ص 315 .

(2) ابن دراج القسطلي(-421هـ)، ديوانه، حققه وعلق عليه وقدم له محمود علي مكي، ط1، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، 1381هـ-1961م، ص 299-300 .   (3) المقري، نفح الطيب، 655/1 .

(4) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، الفجالة-القاهرة، 1376هـ-1957م، ص 469- 478 .

يَسُرُّكَ في الهَيجا إذا جرَّ لامَـةً   ويُرضيكَ في النادي إذا اعتَمَّ وارتَدى
- ويَأنَفُ مِن لينِ المِـهادِ تَعَـوُّضًا   بِصَهـــــوَةِ طَيّارٍ إلى الرَّوعِ أَجـرَدا
وقِدمًا شَكا حَمـلَ التمائِمِ يافِعـًا   لِيَحمِـــــــلَ رَقـراقَ الفِرِنـدِ مُهَنَّـدا

ويشيع الجو البدوي عمومًا في وصف الطلل ووصف الظعائن، والحنين إلى أجواء الجزيرة العربية. يقول ابن عبد ربه يصف النؤي والدمنة(1): الطويل

ونؤيٍ كدُمْلـوجِ الكعابِ ودمنةٍ   تُذكِّرُ مِن وَشْمِ الخضابِ رسومَـها

وثمة نسمات بدوية، في شعر ابن خفاجة، من مثل قوله(2): الطويل

أَلا ليتَ أَنفاسَ الـرّياحِ النّواسِمِ   يُـحَيّينَ عنّـي الواضِحاتِ المَباسِمِ
ويَرمـينَ أكنافَ العَقيقِ بِنَظرَةٍ   تَرَدَّدُ فــي تِلكَ الرُّبـى والمَعالِمِ
ويَلثِمنَ ما بينَ الكثيبِ إِلى الحِمى   مَـواطِئَ أخفافِ المَطِيّ الـرَّواسِمِ

وأما الغرابة فلابن دراج باع طويل في هذا الجانب، وله طريقة خاصة في تركيب الألفاظ والمعاني، ومن ذلك قوله(3): المتقارب

على ذُلُلٍ مـن مطايا الشؤونِ   قَطَـعْنَ إليكَ عِقالَ الثَّواءِ
عواسِفَ يَهْمَاءَ من غَوْلِ هَمي   يُقَصِّرُ عَنـها ذَمِيلُ النَّجاءِ
جَدَلْتُ أزِمَّتَها مــن جُـــفُونِي   وصُغْت أَخِسَّتَها من ذَمَائِي
وأُنْعِلُها قَــرِحــــاتِ المآقــي   فأخْصِفُها بِنَـجِيعِ الدِّماءِ
فمُنْجِدَةٌ فِــي مَجـــالِ النِّجــادِ   وغائِرَةٌ فـي غُرور الرِّداءِ

وعني ابن زيدون في شعر المدح خاصة بحشد الغريب. ولعلّ ولع بعض الشعراء الأندلسيين بالغريب في مدائحهم، هو لإضفاء الهيبة على قصائدهم، لأنها قد تكون من هيبة الممدوح، ولإبراز سعة الثقافة أمام الممدوح وبطانته.

كما امتازت الصورة الشعرية لدى طريقة العرب بالعفوية والوضوح، واستمدت كثيرًا من عناصرها من البداوة، ومظاهرها المتنوعة، من صحراء وحروب..، حتى بدت كثير من صورهم نمطية، كقول ابن دراج مادحًا، يصف رمحًا وقوسًا(4): الطويل

---

(1) شعره، ص 279 . الدملوج: المِعْضَد من الحُليّ، والمُدملج: الأملس.   (2) ديوانه، ص 258 .

(3) ديوان ابن دراج، ص 335-336 . العواسف التي تسير في الصحراء على غير هدى، اليهماء: المفازة التي لا ماء فيها ولا علامات يهتدى بها، الأخسة جمع خسيسة ويقال جاوزت الناقة خسيستها إذا ألقت ثنيتها في السنة السادسة، خصف الجلد مظاهرة بعضه على بعض وخرزه، الغرور جمع غَر وهو للرداء والجلد تثنّيه وغضونه.

(4) ديوان ابن دراج، ص7 .

وأَسمرَ ظمآنِ الكعوبِ كأنَّما بهِنَّ إلَى شُرْبِ الدّمـــاءِ غليلُ
إذا مَا هوى للطعنِ أَيقنتُ أَنه لصرف الرَّدَى نحو النفوس رسولُ
وحنَّانَةِ الأَوتَارِ في كلِّ مهجةٍ لعاصيكَ أَوْتَـــارٌ لـهَا وذُحُولُ
إذا نَبْعُها عنهـــا أَرَنَّ فإنـما صداه نحـيبٌ في العدى وعـويلُ

وابن زيدون يقول في معنى خيبة الأمل(1): الطويل

وقد أَخلَفَتْ مِمّا ظَنَنتَ مَخايِلٌ وقد صَفِرَت مِمّا رَجَوتَ وِطابُ

ومن صور ابن زيدون البدوية، قوله في الغزل(2): الطويل

يَجولُ وِشاحاها عَلى خَيزُرانَـةٍ وتُشرِقُ في بَرْديتَيْن الخَلاخِلُ
وليلةَ وافـتنا الكثيبَ لِمَوعِـدٍ كما ريعَ وَسنانُ العَشِيّاتِ خاذِلُ
تَهادى انسيابَ الأيمِ يَعفو أُثورَها مِنَ الوَشيِ مَرقومُ العِطافَينِ ذابلُ

أما المحسنات البديعية في طريقة العرب، فجاءت عفوية ودون تكلف في طلبها، وكانت تخدم المعنى ولا تطغى عليه. وكذلك النظم –خصوصًا في الموضوعات الجادة-على الأبحر الممتدة ذات التفاعيل المتعددة، وعلى القوافي الفخمة ذات الرنين القويّ، وطول النفس. بالإضافة إلى الجودة والطبع كما في قصيدة إدريس بن ميثم، التي أولها(3): الخفيف

في طروقِ الخَيال نحو الملمّ بُلْغَة من وِصَالِ من لا أُسَمّي

وقصيدته التي أولها(4): الخفيف

هلْ عـلى ذي صبابة ورسيسِ حَرَجُ بالبكا بِرَسْمٍ دَرِيسِ

وكان القلفاط(-330هـ) شاعرًا مجودًا مطبوعًا، وكان يقصد فيطيل ويُحسن(5). وكان أبو حفص عمر بن يوسف الخَيْطيّ(-338هـ)شاعرًا مطبوعًا مجوّدًا، مدح عبد الرحمن الناصر بجملة قصائد(6). وكان أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عبيدِ الله المُعافريُّ(-362هـ) شاعرًا مجودًا مطبوعًا(7). ومنذرُ بنُ سعيدٍ(-355هـ) له أشعار مطبوعة(8). كما أنّ عبد الرحمن بن مقانا الأشبونيّ-له مدائح في أميرِ سرقسطةَ منذرِ بنِ يحيى التُّجيبيّ(-430هـ) وفي أمير دانيةَ مجاهدٍ(-436هـ)- "له شعر يُعرب عن أدب غزير، تصرّف فيه تصرّف المطبوعين المجيدين"(9).

---

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 383 . المخايل: السحب توحي بالمطر.
(2) ديوانه ورسائله، ص 389 . الأثور والآثار جمع أثر بقية الشيء، مرقوم العطافين مخطط الإزار على الجانبين، ذابل متبختر، ويروى ذائل، أي مسرع.
(3) طبقات الزبيدي، ص 306. (4) السابق، ص 307 . والرسيس أول الهوى والحب.
(5) السابق، ص 278. (6) السابق، ص 305 . (7) السابق، ص 307 . (8) السابق، ص 295 .
(9) ابن بسام، الذخيرة، 786/2/2 .

والعفوية والسلاسة من الطبع، فقصيدة ابن مقانا المدحية، التي أولها: الرمل

ألبرْقِ لائحٍ من أندرينْ ذرَفَتْ عيناك بالماء المعينْ

لعبتْ أسيافُهُ عاريةً كمخاريقٍ بأيدي اللاعبينْ

قصيدة مشهورة تداول القوّالون أكثر أبياتها "لعفوية ألفاظها وسلاستها"(1).

لقد ظهرت أغلب سمات طريقة العرب الأول، خاصة في الجزالة والبداوة والغريب، والصور والتشبيهات القديمة، بجلاء في وصف الأطلال ووصف الظعائن ووصف الطرد، خاصة في مقدمات القصائد بعامة، ومقدمات قصائد المديح بخاصة؛ ولولا التكلف الظاهر في صياغتها، لكانت مقدمات تقليدية لا تبتعد كثيرًا عن مقدمات الشعراء الجاهليين.

فابن عبد ربه يتحدث عن الظعائن، ويأتي على بعض تقاليد الشعراء الجاهليين في وصفها: كإعلان الرحيل، واختصاصه بوصف فتاة واحدة، والاستطراد في تشبيهاته لها، في قوله(2): الكامل

أزِفَ الرَّحيلُ فودَّعتْني مُقْلةٌ أوْحتْ إليَّ جُفونُها بسَلامِ

وتَطلَّعتْ بينَ الحُدوجِ كأنَّها شمسٌ تَطلَّعُ في خِلالِ غَمامِ

وشكَتْ تَباريحَ الصَّبابةِ والهَوى بمدامعٍ نَطقتْ بغَيرِ كلامِ

كمهاةِ رَملٍ قد تَربَّعتِ الحِمَى بينَ الظباءِ العُفر والآرام

حتى إذا ضَربَ المصيفُ رُواقَهُ صافَتْ بظلِّ أراكَةٍ وبَشامِ

ويبكي ابن عبد ربه لحظة تهيؤ الظعائن للرحيل، في قوله(3): السريع

بكيتُ حتى لم أَدَعْ عَبرَةً إذ حَمَّلوا الهودَجَ فَوقَ القَلوصْ

ويقول ابن عبد ربه في الوقوف على الطلل، مفيدًا من وصف الطلل لدى امرئ القيسِ ولبيدٍ في معلقتيهما(4): الكامل

والدّارُ بعدَهُمُ مقسَّمةٌ بينَ الرّياحِ وهاتِنِ الوَدْقِ

درجَ الزمانُ على معارِفها كمدارجِ الأقلام في الرقِّ

لم يبقَ منها غيرُ أرمِدَةٍ لُبِّدْنَ بينَ خوالدٍ وُرْقِ

وسطورِ آناءٍ بعَقْوتِها مَحْنوَّةٍ كأهلَّةِ المَحْقِ

ويفيد من تقاليد الجاهليين في وصف الطلل، في مثل قوله(5): المتقارب

---

(1) السابق، 791/2/2 . (2) شعره، ص 288 . (3) شعره، ص 189 .

(4) شعره، ص 234 .أرمدة: حجارة بلون الرماد، خوالد ورق: الأثافي، آناء: جمع النؤي، العقوة الساحة، أهلة المحق: القمر آخر الشهر. (5) شعره، ص 259 .

حالَ عنِ العهدِ لمَّا أَحـــالا وزالَ الأحبَّـةُ عَنْهُ فـــــزالا
مَحلٌّ تُحِلُّ عُراها السَّحابُ وتحكـي الجنوبُ عليه الشَّمالا
فيا صاحِ هذا مقامُ المحبِّ ورَبـعُ الحبيبِ فَحُطَّ الـرِّحـالا
سَلِ الرَّبعَ عن ساكِنيهِ فإنَّي خَـرسْتُ فمـا أستطيعُ السُّؤالا

على أيّ حال فقد حَرَص ابن عبد ربه على النظم في أغلب الموضوعات الشائعة في مقدمات القصائد الجاهلية، وأكثر من التقديم لقصائده-وخاصة في المدح - بمقدمات تقليدية، كالمقدمة الغزلية(1)، والطللية(2)، ووصف الظعن(3)، والشكوى من الدهر(4)، ومن الشيب والبكاء على الشباب(5)، ووصف الطيف(6)، والخمر(7).

وحرص الأندلسيّون من بعد ابن عبد ربه على المشاركة في هذه الموضوعات؛ وقدّموا لكثير من قصائدهم بمقدمات تشبه المقدمات الموروثة منذ العصر الجاهليّ. ولكن بعضهم تكلف في الجمع بين عدة مقدمات في قصيدة واحدة، وأسهب في تفصيلات بعضها. وبالغ بعضهم في التقديم فأطال فيه حتى لم يبق للغرض الأساس سوى نزر قليل من الأبيات. ومن ذلك قصيدة لأبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني، في مدح منذر بن يحيى صاحب سرقسطة، افتتحها بوصف الطلل الدارس باللوى، موصولا بذكر الطيف والغزل، ثم الفخر بمواجهة الخطوب، للوصول إلى المديح، يقول منها(8): المتقارب

لمـنْ طللُ دارسُ بـاللـوى كحَـاشية البـردِ أو كالـرِّدا
رمادُ ونؤيٌ ككحل الـعروس ورسمٌ كجسمٍ بـراهُ الهـوى
غدا موسـمًا لـوفودِ البِلـــى وراحَ مَراحًا لسرْبِ الـمَـها
عَجبتُ لطـيْفِ خـيالٍ سـرَى من السّدْر أنّى إلـيَّ اهتـدى

واستمد الأشبوني أغلب معانيه من المقدمات الموروثة الجاهلية خاصة؛ ويلمّ بمعظم عناصر المقدمة الطللية، ومقدمة الطيف، والمقدمة الغزلية، وإن اجتمعت هذه العناصر في مقدمة واحدة

(1) ينظـر: شـعره، ص 66، 72، 85، 94، 97، 115، 122، 126، 129، 139، 140، 142، 144-145، 159، 160، 168، 169، 173، 178، 190، 193، 194، 197، 201، 206-207، 210، 211، 217، 229، 235، 240، 245، 249-250، 258، 266، 265، 269، 270، 273، 277- 278، 281 -282، 292، 305، 314 .
(2) ينظر: شعره، ص 60، 63، 279 . (3) ينظر: شعره، ص 236 . (4) ينظر: شعره، ص 76 .
(5) ينظر: شعره، 122، 123-124، 158 ، 162، 69، 249، 256، 258، 289، 306، 319 .
(6) ينظر: شعره، ص 122، 225، 231-233 .
(7) ينظر: شعره، ص 185، 105، 135، 163 .
(8) ابن بسام، الذخيرة، 788/2/2 .

في بعض قصائد الجاهليين، كبعض قصائد المرقش الأصغر، إلا أن الأشبوني أسهب في التفصيل، وجمع كثيرًا من المعاني والصور مما تفرق في مختلف مقدمات القصائد؛ فيستقصي مظاهر تبدل هذه الديار بعد هجر أهلها لها، ويتكلف وصفها تكلفًا؛ فمن طلل دارس داثر تشبه بقاياه حاشية الثوب، ورماد ونؤي، ورسم دارس يتعرض لوفود البلى، وموطن أسراب المها، إلى ربط ذلك بوصف طيف المحبوبة الذي سرى ليلا مجتازًا وديان الحجاز وشعاب الجزيرة العربية، حتى اهتدى إليه، فاستذكر أيامه الخوالي مع سرب العذارى بسقط اللوى، عاطرات الجيوب، ينازعن الشمس حسنًا، "خماص البطون مراض الجفون"، طوال الشعور والأجياد، "لدان القدود حسان الخدود"، عذاب الثغور لطاف الخصور، "ثقال الخطا"، يمشين الهوينى، وغير ذلك من الصفات التي كثرت في غزليات الجاهليين. ويمهد لمدحه بذكر تحمله الخطوب، ليمدح بالصفات الموروثة من شجاعة وكرم وحسن تدبير.. .

وقصيدة يوسفَ بنِ هارونَ الرّماديّ(- 403هـ)في مدح أبي علي القالي،ومطلعها(1):الكامل

مَنْ حاكمٌ بَيني وبينَ عَذولي الشَّجوُ شَجوي والعَويلُ عَويلي

بلغت ثمانية وخمسين بيتًا، قدَّم لها بخمسين بيتا قبل التخلص إلى المديح. وحاول أن يقلد فيها غير شاعر جاهليّ، فقلد في مطلع قصيدته الحارث بن حلزة اليشكريّ في قوله يخاطب امرأة(2):الكامل

مَن حاكِمٌ بَيني وبَيْـ نَ الدَّهرِ مالَ عليَّ عَمدا

وزهيرًا في توديع التصابي في بعض مقدمات قصائده، كقصيدته المدحية التي مطلعها(3):الطويل

صَحا القَلبُ عَن سَلمى وأَقصَرَ باطِلُه وعُرِّيَ أَفراسُ الصِّبا ورَواحِلُهْ

وامرأ القيس في لوحاته الفنية في معلقته،خاصة في وصف الصيد والمطر(4)،وشعرًا في الفرس والطرد لعلقمة الفحل التميميّ(5)،وعَبْدة بن الطبيب التميميّ(6)،والطفيل الغنويّ(7)،وشعرًا لعنترة في وصف الرياض والسحاب وترنم الذباب(8)؛فجاءت قصيدته خليطًا من الموضوعات

---

(1) شعر الرمادي، يوسف بن هارون شاعر الأندلس في القرن الرابع الهجري، جمعه وقدم له ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1400هـ-1980م، ص111-، الثعالبي، يتيمة الدهر، 114/2- ، الحميدي، الجذوة ، ص 347، ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص 313-315 . (2) ديوان الحارث بن حلزة، أعاد تحقيقه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد-بغداد، 1969م، ص 20 . (3) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، تحقيق ناصيف سليمان عواد، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة"آفاق عربية"، بغداد، 2000م، ص 57 .

(4) ينظر شرح المعلقات، ص 35- . (5) ينظر ديوان علقمة الفحل، بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب،ومراجعة فخر الدين قباوة،دار الكتاب العربي، حلب، ط1، 1969م، ص47-، 73 ، 88-،92-.

(6) ينظر المفضليات، ص 138-.

(7) ينظر محمد عبد القادر أحمد،طفيل الغنوي حياته وشعره، ط2،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1983م،ص 191- .

(8) ينظر شرح المعلقات، ص 153-154 .

تشبه قصائد شتى، أو هي مجموع ما تفرّق من معاني وصور في عدة قصائد جاهلية.

لـقد بنـى الرمـاديّ قصـيدته علـى نهـج هيكل بعـض القصـائد الجاهليـة؛ فافتتحهـا بـذكر لـواعج المحبـة، ويـذكر الرقيـب والوشـاة والعـذل علـى إعـلان تحرقـه صـبابة، والشـكوى مـن الشـيب الـذي أرغمـه علـى توديـع التصـابي، فينتقل إلـى وصـف مغـامرة الصـيد، التـي تشـبه طرديـات زهيـر، أو امرئ القيس، أو علقمة، أو عبدة بن الطبيب، أو كلها مجتمعة، فيبكر فـي الخـروج إلـى الصـيد علـى فرس أصيلة اجتمعت فيها صفات خيول الشعراء الجاهليين الحسنة، مستفتحًا طرديتـه بعبـارة امرئ القيس: "وقد أغتدي"، لتشي هذه العبارة الجاهزة للمتلقي بمعـاني شـعر امرئ القيس فـي معلقتـه فـي خروجـه للصـيد بـاكرًا "بمنجـرد قيـد الأوابـد هيكـل". ويسـهب الرمـادي فـي وصـف الفـرس الصـائد، الذي حين عنّ له سرب من البقر لحق بها وأدركها وقيّدها؛ يقول من ذلك:

إن كُنتُ وَدَّعتُ التَّصابي عن قلىً ... وبَدَت بِرَأسي حُجـــة لعـذولِ

قد أغتَدي والصُّبحُ فــي تَوريسه ... تَقضي العُيونُ لهُ بِوَجهِ عَليلِ

بأَقبَّ لونِ الآبـــــنوس مُفضـضٍ ... في غُرَّةٍ مِنهُ وفـــي تَحجـيلِ

مُستَغرقٌ لصفاتِ زَيدِ الخَيل والـ ... ـغَنَويّ والمُزنِيّ والضِّـلـيلِ

-حتى إذا صِدنا الوُحوشَ فلم نَدَع ... مِنهـُنَّ غَيرَ مَعالِمٍ وطلـــولِ

قامَت قَوائِــمُهُ لنـــــا بِطعامـنا ... غَضًّا وقامَ العُرفُ بِالمنديــلِ

ويصف الصيد بالبازي، والصيد بالكلب الأهرت، وينتقل إلـى وصـف السحاب والمطر، لينتقل إلـى وصف الرياض، ولم ينسَ ذكر غنـاء الذباب فيهـا، ليتخلص فـي البيت الخمسين إلـى المديـح فـي قوله:

غنى الطُّراةُ مِن الذباب لنا بِـها ... طربًا فَهجنَ شَمائِلا بِشمـولِ

رَوضٌ تعاهـده السّحـابُ كأَنَّه ... مُتعـاهَدٌ مِـن عَهدِ إسماعيـلِ

لقد اقترب الرمادي في بناء قصيدته من قصيدة زهير: "صَحـا القَلبُ عَن سَلمى"، أكثر من أيّ قصيدة جاهلية أخرى: فغرض القصيدتين الرئيس هو المديح، مع ملاحظـة أنَّ مديح الرمـادي جـاء مختصرًا فـي عدد قليل من الأبيات، اقتصـرت علـى مديح القـالي بصـفات مناسبة لعـالم باللغـات، واسع الدراية والرواية، وهذه مناقب جديدة في المديح. في حين أن زهيـرًا أطـال المديح فـي حصـن بن حُذيفة بأغلب المناقب المدحية المعهودة فـي الشـعر الجـاهليّ. وتشـابه كـلا الشـاعرين فـي التقديم للقصيدة بمقدمة طويلة، مع ملاحظـة أن مقدمـة الرمـادي استغرقت أكثـر أبيـات القصـيدة، وتشـابهت المقدمة في كثير من موضـوعاتها: فـي هجـر التصـابي، علـى أنّ الرمـادي ودّع التصـابي فـي البيت الحادي عشر، في حين أنَّ زهيرًا ودعه من البيت الأول. ووصـف رحلـة الصـيد، ووصـف الفـرس الصـائد، مع اختلاف في تفصيلات هذه الطرديـة، وزاد الرمـادي الصـيد بالبـازي وبالكلـب. وكلاهمـا

وصف السحاب والغيث، مع اختلاف موضعه من المقدمة، فجاء عند زهير قبل رحلة الصيد، في حين أنه تأخر عند الرمادي بعد الصيد. وكلاهما تخلص للمدح، على أنّ الرمادي كان تخلصه أحسن بعد وصف الرياض، في حين أن زهيرًا تخلص إلى المديح فجاءة بعد رحلته الطردية.

ولابن شهيد طرديات في عدة قصائد، لا تختلف طريقتها كثيرًا عن طرديات الشعراء الجاهليين، وهي في أغلبها أتت في ثنايا مقدمات قصائد مدحية. فله قصيدة ميمية من واحد وثمانين بيتًا، في مدح عبد العزيز المؤتمن، أطال في التقديم لها باثنين وستين بيتًا قبل التخلص إلى المديح، افتتحها بوصف لهوه ومجونه وصحبة خلانه بين أحضان الطبيعة، ثم يأتي على وصف طردية(الأبيات 36-53)، يصف فيها الفرس، وملاحقته البقر الوحش، وصيدها، ثم يقول في مشهد الأكل شيًّا وطبخًا(1): مجزوء الكامل

فتَبَادَرَ الفتيانُ مِن جَنَباتِهِ أشْهَى المَطاعِمْ
شَيًّا ومُطَّبَخًا على جَمْرٍ زَهَتْهُ الرِّيحُ جاحِمْ

ويبدو أنّ كثيرًا من الشعراء الأندلسيين قد أعجبوا بطرديات امرئ القيس، خاصة في وصف الفرس الصائد، وبالأخص في قوله: "بِمُنجَرِدٍ قَيدِ الأَوابِدِ هَيكَلِ"، فأخذ ابن حمديس هذا المعنى، وزاد عليه، وأجاد سبكه، فاستحقه على مبتكره، في قوله(2): الطويل

ومُنقَطِعٍ بالسّبْقِ من كلّ حلبةٍ فَتَحسَبُهُ يَجري إلى الرَّهنِ مُفْرَدا
كأنّ له في أُذْنِهِ مُقْلَةً يَرَى بِها اليومَ أَشخاصًا تمُرّ بِهِ غدا
تُقَيَّدُ بالسبقِ الأوابدُ فوقَهُ ولو مَرَّ في آثارِهِنَّ مُقيَّدا

ولابن دراج قصيدة في مدح المنصور بن أبي عامر، افتتحها بتذكر الصبا وملاهيه، والشيب وهمومه، ويتحسر على ديار اللهو التي عفت رسومها، ويدعو لها بالسقيا، ثم يرحل عبر الصحراء على ناقة أدماء وجناء جسرة، ولا ينسى توديع أسرته، يهون عليهم الخطوب؛ لأنه سيلقى الممدوح. ومن ذلك قوله في المقدمة(3): الطويل

---

(1) ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص158 .

(2) ديوان ابن حمديس(447-527هـ)، صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1379هـ-1960م، ص 144، والمطرب، ص 55-56 ، باختلاف الرواية للبيت الثاني، ويروى في البيت الثالث: "أقيدُ بالسبق الأوابدَ فوقه". ويقول ابن دحية في ابن حمديس بأنه شاعر جيد السبك، حسنُ الأخذ،عذب الألفاظ، ص 54 .

(3) ديوانه، ص 11-12 . السباريت جمع سبروت: الأرض القفر.

ويا لديار اللهو أَقـــوتْ رُسُومُـهَا ومَحَّتْ مغانيها وصَمَّ صَدَاها
-فيا حبذا تلكَ الرّسومُ وحـــبَّذا نوافِحُ تُهْدِيها إلــيَّ صبَاهَا
تهادي المها الوحشيِّ في عَرَصَاتِها يذكِّرُنـــيه آنسات مـــهاها
ومُبتسَمُ الأَحباب فِـــي جنباتـها أَقاحٍ كَساهُنَّ الرَّبيع رُبــاها
دعوتُ لها سُقيَا الحيا ودعـا الهوى وبَرْحُ الهوى دمعِي لهَا فسقاها

ومن قوله في الرحلة عبر الصحراء المقفرة:

رَحلتُ لهَا أَدماءَ وَجَناءَ حـُرَّةً وشيكًا بأَوْبَاتِ السرور سُرَاها
-أَشُجُّ بِهَا والليلُ مُرْخٍ سُدُولَـه سَبَارِيتَ أرضٍ لا يُـرَاعُ قطاها

ولا يخفى تأثر ابن دراج في البيت الأخير بوصف امرئ القيس لليل في معلقته.

كما لا يخفى تأثر القاضي أبي الوليد الباجي(-474هـ) بمقدمة معلقة طرفة، في قصيدة مدحية يفتتحها بمثل قوله(1): الكامل

يا بعدَ صبرك أتهموا أم أنـجدوا هيهات منـــك تصبّرٌ وتجلـّدُ
-في كلِّ أفقٍ لي علاقةُ خـــولةٍ تهدي الهوى وبكلِّ أرضٍ ثهْمَدُ

ولابن حمديس الصقلي عدة قصائد يفتتحها بمقدمات ليست بعيدة عن تقاليد الشعراء الجاهليين، في رسومها وعناصرها، وربما كان مع ابن شهيد من أكثر الشعراء الأندلسيين التزامًا بالتقديم للقصائد بمقدمات تقليدية قريبة من مقدمات الشعراء الجاهليين. فيقدم لقصيدة نونية في المدح بوصف الظعن، ويلتزم فيها ببعض رسومها الجاهلية، ويفيد كذلك من بعض عناصر المقدمات الطللية الغزلية، ومن ذلك قوله من مقدمة قصيدة مدحية(2): المتقارب

أرأيتَ لنا ولهمْ ظُعُـنًا وصنيعَ البين بهمْ وبنـا
-رحلوا فأثار رحيلُـــهـمُ من حرّ ضلوعك مـا كمَنـا
وحسبتُ سرابَ تـتابعهمْ لججًا وركائبَـهمْ سُفُـــنا
ومهًا نظرتْ ونواظرُهـا خُلقتْ لنواظرنا فِتــنـا
- دعْ ذكرَ نـَزُوحٍ عنك نأى وتبـدَّلَ مـن سَكَنٍ سَكَـنـا
واخضبْ يمناك بقانـيـةٍ فلها فَرَجٌ ينـفـي الحـَزنـَا

ولا ينسى ابن حمديس الفخر بنفسه قبل التوصل إلى المديح.

ولابن حمديس وصف جميل لحنينه إلى الماضي البعيد، إلى معاهد امرئ القيس التي ذكرها في شعره، حنينًا يعبّر فيه عن تغربه عن موطنه وملاعب صباه، يقول من ذلك ذاكرًا

---

(1) الذخيرة، 2/1/99–100 . (2) ديوان ابن حمديس، 509-510 .

الأحداج الراحلة(1): الطويل

دَعُونا نُسايِرْ حادِيًا قادَ نحوها مسامعَنا منه الحداءُ المُنَغَّمُ

فما هذهِ الأَحداجُ إلا قُلوبُنا حَبائِبُنا فيها سَرائِرُ تُكْتَمُ

وتتبع الأماكن التي مرّت بها هذه الأحداج، مثل تُوضِح، وسِقط اللوى، وعين ضارج، ثم يقول:

مَعاهِدُ ما زالَ امرؤ القَيسِ بينها يُعبّرُ عن عَهْدِ الهوى ويُتَرجِمُ

إنَّ كثيرًا ممن فضل طريقة العرب الأول من شعراء الأندلس حرصوا على التقديم لقصائدهم بمقدمات في أغلبها تقليدية(جاهلية).

وإنّ إعجاب الشعراء الأندلسيين بطريقة العرب الأول في النظم جعلهم يحاكون شعر الجاهليين، ويأخذون من معانيه وأساليبه، في أغراض الشعر المختلفة، ويضمّنون شيئًا منه في أشعارهم.

---

(1) ديوانه، ص 409-410 .

الفصل الأوّل

أثرُ الشِّعرِ الجاهليِّ في الشّعرِ الأندلسيِّ

تأثرَ الشِّعرُ الأندلسيّ بالشعر الجاهليّ: طريقته ومبانيه ومعانيه وأساليبه، ولعلّ أكثر أغراض الشعر الأندلسي تأثرًا بالشعر الجاهلي هي: المديح والرثاء والغزل.

أثر الشعر الجاهليّ في أغراض الشعر الأندلسيّ:

في غرض المديح:

أفاد الشعراء الأندلسيون في مديحهم من الشعر الجاهليّ، ورسموا صورة للممدوح لا تبتعد كثيرًا عن صورته في الشعر الجاهلي؛ فهو البحر والنهر والسحاب والمزن والغيث، والشمس والقمر، والليث والجواد والعقاب، والسيف والليل.. . ولكن الملاحظ هو حرص الأندلسيين على أن يربطوا بين ممدوحيهم وأعلام الجاهليين الذين تُضرب بهم الأمثال: في الكرم والشجاعة والمجد والنسب والملك؛ فالممدوح لدى بعض الشعراء الأندلسيين أضحى حاتمًا الطائيّ أو كعب ابن مامة الإيادي، أو هرم بن سنان في الجود والكرم، بل يفوقهم سخاء، لا بل إنّ السحاب يستحي من جوده، وهو الأسد الهصور كعنترةَ العبسيّ أو عمرِو بنِ معدي كربٍ الزبيديّ بأسًا وإقدامًا، وهو السموأل وفاء،..، وهو من أبناء المناذرة وملوك الحيرة،..؛ كما يقول ابن عبد ربه في مدح عبد الرحمن الناصر(1): الرجز

تَكِلُّ عن مَعروفه الجَنائبُ وتَسْتحي من جُوده السحائبُ

-أحْيا الذي مات من المَكارِم من عَهد كَعْب وزَمان حاتِمِ

وإن من مناقب الخليفة الناصر التي لا أخت لها ولا نظير، وأعجز فيها الأولين والآخرين الجود، كما يقول ابن عبد ربه أيضا(2): الكامل

يا بن الخلائف والعُلا للمُعْتلِى والجودُ يُعْرف فضلُه للمُفْضِلِ

-تـأبَى فَعالُك أن تُقرَّ لآخِـــر منهمْ وجُودُك أن يكون لأوَّلِ

ويقول في مدحه أيضا(3): المنسرح

إقدامُ عمرٍو وبأسُ عنترةٍ يَعْجِزُ عن كيده وعن حِيَلهْ

وغالبًا ما يجمع ابن عبد ربه في مدحه بين البأس والجود(4).

---

(1) العقد، 473/4، وشعره، ص 336 .

(2) العقد، 471/4-472، وهذا يشبه قول النابغة في مدح عمرو بن الحارث الجفني الغساني(ديوانه، ص 12): الطويل

لهُم شيمةٌ لم يُعطِها اللهَ غَيرَهُمْ مِنَ الجودِ والأحلامُ غَيرُ عَوازِبِ

(3) شعره، ص272 .

(4) فعبد الرحمن الناصر في شعر ابن عبد ربه: "منْ تحلّى بالندى والباس"، (العقد،47/4، وشعره، ص 335). و"من عليه رداء البأس والجود" (شعره، ص 129). و"عليه تاجانِ بأسٌ وجودُ"(شعره، ص 115). و"يختالُ في عِقْوتيه الجودُ والباسُ" (شعره، ص 180).ويقول ابن عبد ربه في مدح أحدهم(شعره، ص 181)(السريع):

مَنْ يُرْتَجى غَيــرُكَ أَوْ يُتَّقَى وفي يَدَيكَ الجودُ والباسُ=

وقول ابن دراج في مدح المنذر بن يحيى(-412هـ)(1): الكامل

وحَططْتُ رحْلي بَيْنَ نارَيْ حاتِمٍ أيـامَ يقري مُوسِرًا أَوْ مُعسرا

وقوله(2): الطويل

وأَنْجَبهُ للطَّعْنِ والضَّرْبِ عَمْـرُهُ وأَخْلَصَهُ للجُودِ والحَمْدِ حَاتِمُهْ

= ولابن عبد ربه مدح بالمجد والسؤدد والجود معًا (شعره، ص 263)، وله وصف لخوض الممدوح الحروب بشجاعة، ويصف تلك الحروب وأدواتها من سيف ورمح وخيل، بألفاظ رنانة، (شعره، ص 263-264).

والممدوح هو الضيغم الهصر، و"الأسد الغضَنْفرِ"، (العقد، 486/4، شعره، ص 359)، و"تميد شمّ الجبال من وَجَلهْ"، (شعره، ص 271). ويفيد ابن عبد ربه من أساليب الجاهليين في عدم ذكر الكرم مباشرة، وإنما يذكر مظاهره وصوره كقوله (العقد، 473/4، وشعره، ص 336) : الرجز

لو خايلَ البحرُ ندى يديه إذا لجَتْ عُفاتُه إليهِ

ومن تشبيهاتهم واستعاراتهم كقوله (العقد، 478/4، وشعره، ص 346): الرجز

فسار في كتائبٍ كالسيلِ وعسكرٍ مثلِ سواد الليلِ

وفي قوله (العقد، 486/4، وشعره، ص 359): الرجز

غزا الإمامُ حولهُ كتائبُهْ كالبدر محفوفا به كواكبهْ

وقوله: "فارتوتِ البيضُ من الدماء"، (العقد، 487/4، وشعره، ص 361).

وفي قوله(العقد، 494/4 ، وشعره، ص 374) : الرجز

كأنهم جنٌّ على سَعالي وكلهم أمضى من الرئبالِ

وعلى أي حال فإنّ مديح ابن عبد ربه، في الألفاظ والمعاني والصور، لا تبتعد كثيرًا عن مدائح زهير، الذي استشهد ابن عبد ربه نفسه، بأشعار كثيرة له في عقده، من مثل قوله في بني سنان (العقد، 357/1 وما بعدها): البسيط

قومٌ أَبـوهُم سِنانٌ حـينَ تَنسُبُهُمْ طابوا وطابَ مِنَ الأَولادِ ما وَلَدوا

لو كانَ يَقعُدُ فوقَ الشمسِ مِن كرَمٍ قـومٌ بِأَوَّلِهِم أو مَجدِهِم قَعَدوا

جِنٌّ إذا فزعوا إنسٌ إذا أمِـنوا مُرَزَّؤونَ بَهاليلٌ إذا قُصِـدوا

مُحَسَّدونَ على ما كـانَ مِن نِعَمٍ لا يَنزِعُ اللهُ مِنهُم ما لهُ حُسِـدوا

وقوله في هرم بن سنان: الطويل

وأبيضَ فياضٍ يداه غمامةٌ على مُعتفيه ما تُغِبُّ نوائلهْ

وقوله في هرم وأهل بيته: البسيط

المطعمونَ إذا ما أزمةٌ أَزِمَتْ والطّيّبون ثيابًا كلّما عَرِقوا

كأنَّ آخرَهم في الجود أولُهم إنّ الشمائل والأخلاقَ تتفقُ

وقوله فيهم أيضًا: الطويل

وفيهِم مَقامـاتٌ حِسانٌ وُجوهُهُمْ وأندِيَةٌ يَنتابُها القولُ والفِعلُ

على مُكثِريهِم حقُ مَـن يَعتَفيهِمُ وعندَ المُقِلّينَ السّماحَةُ والبَذْلُ

فما كانَ مِـن خَـيرٍ أَتَوهُ فإنَّما تَـوارَثَهُ آباءُ آبائِهِـمْ قَـبْلُ

وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشيجُهُ وتُغرَسُ إلا في مَنابِتِها النخـلُ

(1) ديوانه، ص 129 . (2) السابق، ص 195، و 562 .

وقال أبو حفص عمر بن الشهيد (كان موجودًا في حدود عام 440هـ) في مدح المعتصم ابن صمادح(1):

لكَ المثلُ الأعلى إذا ذُكر الندى ودعْ هَرِمًا فيما سمعتَ وحاتما

ويقول أبو إسحاق الإلبيري(-460هـ) في مدح القاضي أبي حسن بن توبة الغرناطي (-445هـ أو 450هـ)- الذي ولي القضاء لباديسَ بنِ حبّوسٍ(-465هـ)-(2): الخفيف

ولوَ انَّ الدُّهاةَ مِن كُلِّ عَصرٍ خَبَروهُ دانوا لهُ بالدّهاءِ
أَو رَأَى أَحنَفٌ وأَحلَمُ مِنهُ حِلمَهُ ما انتَمَوا إِلى الحُلَماءِ
لو رَأَى المُنصِفونَ بَحرَ نَداهُ جَعَلوا حاتِمًا مِنَ البُخَلاءِ
هُوَ أَوفى مِنَ السموأَلِ عَهدًا ولمَا زالَ مُغْرَمًا بالوَفاءِ
وحَيا المُزنِ ذو حَياءٍ إِذا ما هَمَلَتْ كَفُّهُ بوَبلِ العَطاءِ

ويقول أبو بكر يحيى بن بقي(-540هـ) يمدح الوزير ابن زهر(3): الكامل

مَنْ جدُّه كعبُ بن مامةَ قدْ حاز النّدى بالطّي والنشرِ
-ذرْ حاتمًا يَشْجَى بكعبكمُ وافخرْ بدُعْميٍّ على عمرو
وافخرْ بنفسك لستَ دونهمُ ولئنْ سكتَّ فخيفةَ الكِبْرِ

ويمدح ابن زيدون آل عباد، الذين ورثوا السيادة والمجد عن أجدادهم ملوك الحيرة، ويخصّ منهم المعتضد، الذي تميز بينهم، إذ أنسى ذكرُه شجعانَ العرب وأجوادهم، ومن ذلك قوله(4): الكامل

قد أُلِّفَتْ أَشتاتُهُم في واحدٍ إلا يَكُنهُم أُمَّةً فيَكادُ
-في آلِ عَبّادٍ حَطَطتُ فأَعصَمَتْ هِمَمي، بحَيثُ أَنافَتِ الأَطوادُ
أهلُ المَناذِرَةِ الذينَ هُمُ الرُّبا فوقَ المُلوكِ إذِ المُلوكُ وِهادُ
-بَيتٌ تَوَّدُ الشهْبُ في أفلاكِها لوْ أنها لِبِنائِهِ أوتادُ
مَمدودَةٌ بلُهى النَّدى أَطنابُهُ مَرفوعَةٌ -بالبيضِ مِنهُ –عِمادُ
-مَلِكٌ إذا فَتنتْ صِفاتُ جَلالِهِ فتقاصَرَت عَن بَعضِها الأَعدادُ
نَسِيَت زبيدٌ عَمرَها بَل أَعرَضَتْ عن وصفِ كعبٍ بِالسّماحِ إِيادُ

---

(1)الذخيرة، 688/2/1 .

(2) ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي، حققه وشرحه وقدم له محمد رضوان الداية، ط2، دار قتيبة، دمشق، 1401هـ-1981م، ص 83 .

(3) الذخيرة، 617/2/2، ودعمي من إياد، قبيلة كعب بن مامة.

(4) ديوانه ورسائله، ص 455- 459 .

لقد كان الشعراء الأندلسيون واعين بهذه الأسماء؛ وبالأشعار التي قيلت فيهم، كملوك الحيرة، الذين خُلد ذكرُهم في الشعر الجاهليّ، أو الأشعار التي نظمها بعضهم؛ إذ كان عنترة من أصحاب المعلقات، وخلد شجاعته بنفسه في معلقته وفي غيرها، وكذلك خلد جودَه حاتمُ الطائيّ في شعره.

إنّ كثيرًا من مدائح الأندلسيين تضمّن مبالغات خطيرة، كان الشعر الجاهلي منها براء، خاصة في شعر عهد الفتنة البربرية، الذي استمر من سنة 399هـ إلى سنة 422هـ، ومن شعراء التكسب في هذه الحقبة ابن دراج القسطلي، الذي أراق ماء وجهه وهو يسأل ممدوحيه العطايا، لذلك شاعت في شعره ظاهرة تصوير سوء حال أبنائه وزوجته قبل التخلص إلى المديح، على غرار تصوير الأعشى في بعض مدائحه، وقد يُستثنى من التكسب بالشعر في عهد الفتنة ابن شهيد، لما عُرف عنه من الاعتداد بنفسه وبشعره.

وشاعت هذه الظاهرة في عصر الطوائف، الذي استمر إلى أواخر القرن الخامس، وقد لا يُستثنى أحد من هذه الظاهرة من الشعراء في هذه الحقبة، سوى نفر قليل، منهم ابن حزم الظاهري.

وخفتت هذه الظاهرة في عهد المرابطين، لعدم احتفال القادة بالشعر عمومًا لغلبة سلطة الفقهاء على الحياة السياسية. كما كانت هذه الظاهرة خافتة في عهد الخلافة الأموية في القرن الرابع، خاصة في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر؛ ولعلّ تفسير ذلك يعود إلى أنَّ ظاهرة التكسب بالشعر، تظهر دومًا في ظل الضعف السياسي والنفاق الاجتماعي؛ نتيجة للشعور بالهزيمة والقلق والضياع والفرقة التي لم يكن لها وجود في عصر الخلافة، كما كُسرت شوكتها في عصر المرابطين.

إنَّ هذا التكسب هبطَ بالمستوى الفنيّ لشعر المديح الأندلسيّ، فربما أخذ كثير من الشعراء بالتعويض عن هذا الهبوط بالمبالغة والكذب، وفي ظنهم أن مقالة: أعذب الشعر أكذبه، قد تسعفهم؛ ولكن أن يجعلوا السفيه (الممدوح) بمستوى الأنبياء، والمتخاذل الذي يريق ماء وجهه في دفع الجزية، لبلاطات الفرنجة، أبا الإباء والحزم والعزم والعفاف، وربما فاق أبطال التاريخ بأسًا وإقدامًا، فأين العذوبة في هذا ؟. وإذ كانت لدى النابغة بعض المبالغات في مدائحه، فإنَّ شعره يتسم بما اتسم به الشعر الجاهليّ من قيم جمالية مطبوعة، ثم إنَّ معظم مبالغاته جاءت في مثل النعمان بن المنذر ملك العرب، وليس في قاض، أو تاجر. لهذا وذاك فإن فنّ المديح لدى الأندلسيين جاء دون مستوى المديح الجاهليّ بكثير.

إنَّ تأثر مديح الشعراء الأندلسيين بالشعر الجاهليّ في المديح وفي غير المديح، واضح في أخذ الألفاظ والمعاني والأساليب، مع تفاوتهم في حسن الأخذ وقبحه. وواضح أيضًا أنَّ أكثر هذا التأثر كان بشعر زهير والنابغة في مديحهما، لما شهرا به من تحكيك شعرهم في المدح وغزارته. ومن ذلك قول ابن عبد ربه مادحًا(1): الطويل

كريمٌ على العِلاتِ جَزلٌ عطاؤهُ   يُنيل وإنْ لم يُعتَمَدْ لنَوالِ

وما الجُودُ مَن يُعطي إذا ما سألتَهُ   ولكنَّ مَن يُعطي بغَيرِ سُؤالِ

وهذا شبيه ببعض شعر زهير بن أبي سُلمى، كقوله في مدح هرم(2): البسيط

إنْ تَلقَ يومًا على عِلاتهِ هَرِمًا   تَلقَ السَّمَاحَةَ منهُ والنَّدى خُلقا

وقوله في مدح حصن(3): الطويل

وأبيَضَ فيّاضٍ يَداهُ غَمامَةٌ   على مُعتَفيهِ ما تُغِبُّ فواضِلُهْ

-تراهُ إذا ما جئتَهُ مُتهَلِّلا   كأنَّكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ

ومن ذلك قول ابن دراج القسطليّ في مدح أحد الوزراء(4): الطويل

وناديتَ بالإنعام في الأرض فالتقتْ   بيمناك أشتاتُ الطرائق والسُّبْلِ

وهذا مأخوذ من قول زهير في مدح هرم بن سنان(5): البسيط

قَد جعلَ المُبتَغونَ الخَيرَ في هَرِمٍ   والسائِلونَ إلى أَبوابِهِ طُرُقا

وقد جعل زهير بيت الممدوح ملتقى كلّ السائلين وطلاب الخير، وجعل القسطلي يد الممدوح هي الملتقى.

وقول ابن دراج أيضًا، مشيرًا إلى إكرام صاحبي بلنسية، مبارك ومظفر العامريين له(6): الطويل

فأَصْبَحْتُ نَجْمًا في سماءِ كرَامَةٍ   مُحَيًّا مُفَدًّى بالنُّفوسِ مُعَظَّما

فهو متأثر بقول النابغة، في قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ويمدحه، وينوّه بالغسانيين الذين أكرموا وفادته، حين التجأ إليهم بعد اتهامه بالمتجردة(7): الطويل

مُلوكٌ وإخوانٌ إذا ما أَتَيتُهُمْ   أُحَكَّمُ في أموالِهِمْ وأُقَرَّبُ

فالقسطلي يضع نفسه عند ممدوحيه موضع النابغة من ملوك الغساسنة، الذين أسرفوا في إكرامه، حتى إنهم حكّموه في أموالهم.

---

(1) شعره، ص 264 .   (2) ديوانه، ص 88 .   (3) ديوانه، ص 70، 72 .

(4) ديوان ابن دراج، ص 44 .   (5) ديوانه، 88 .   (6) ديوان ابن دراج، ص 523 .

(7) ديوان النابغة الذبيانيّ، المكتبة الثقافية، بيروت-لبنان، د.ت، ص 17 .

وقال ابن دراج يمدح المظفر بن المنصور بن أبي عامر(1): الطويل

فما أَنتَ إلا الشمسُ تطلع للعِدَى فظِـلُّهُمُ حَتْمًا بِنـُورك زائـلُ

- وجودُك فِي سلْمٍ وبأَسُك فِي وَغىً بُحُورٌ طوامٍ مَا لهُنَّ سواحـلُ

فالمعنى مأخوذ من قول النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر(2): الطويل

فإنَّكَ شَمسٌ والمُلـوكُ كواكِـبٌ إذا طلعَتْ لم يَبدُ منهُنَّ كوكـبُ

فممدوح النابغة شمس، وباقي الملوك كواكب، فحين تظهر الشمس تختفي الكواكب، وممدوح ابن دراج شمس كذلك، إذا طلعت محت ظلال الأعداء؛ لأنّ نور الممدوح أقوى وأشدّ. فصورة الممدوح وأثره على الآخرين لدى النابغة أقوى وأبلغ.

ويقول ابن دراج في مدح المظفر العامريّ، واصفًا خيوله التي دخلت مدينة ليونة(3): الطويل

وحلَّتْ حُلـولَ الليلِ فِي كلِّ بلدةٍ سوَاءٌ بهَـا إدْلاجُها وبُكُـورُها

فهو متأثر بشعر النابغة الذبياني في مديح النعمان بن المنذر، في قوله(4):

فإنّكَ كالليلِ الذي هـو مُدْركي وإنْ خِلتُ أنَّ المُنتأى عنكَ واسعُ

خطاطيفُ حجنٌ في حبالٍ متينةٍ تَمُـــــــدُّ بها أيدٍ إليكَ نـوازعُ

فخيـول ممـدوح ابـن دراج وممـدوح النابغـة كالليـل إذا ادلهـمّ يصـيب القريـب والبعيـد ويعـم أثـره السيّىء النفوس من قلق وهمّ، و يطول أمده. وقد أحسن الشاعران في التصوير، والحسنى للنابغة الذي أطال في إحكام الصورة في البيت الثاني.

وممن تأثر بشعر النابغة السابق، وأجاد الأخذ، ووضّح المعنى، الشاعر أبو العَرَب مُصعب بن أبي الفُرات القرشيّ الصقلي(423- 506هـ أو507هـ)، من جملة قصيد للمعتمد بن عباد، بعد نفاذ الأقدار بالقبض على ذي الوزارتين أبي بكر بن عمّار بشقورة، في قوله(5): الطويل

كأنَّ بـلادَ الله كفّـــكَ إن يسِرْ بهـا هاربٌ تجْمع عليه الأنامـــلا

فأين يفرُّ المرءُ عنكَ بجُرْمـه إذا كان يطوي في يديك المَراحـلا

ويقول ابن دراج في مدح المنصور العامري، مدحًا بما يشبه الذمّ(6): البسيط

لم يَحملوا عَيْبَ ذي قالٍ يَعِيبُهمُ فـي الجودِ والبأسِ إلا أنهُ سَرَفُ

فهو متأثر بأسلوب النابغة الذبياني، بقوله في مدحه عمرو بـن الحارث الجفنـي بأسلـوب الذمّ(7): الطويل

ولا عَيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفهُمْ بـهنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائـبِ

---

(1) ديـوان ابـن دراج، ص 20. (2) ديـوان النابغـة، ص 18. (3) ديـوان ابـن دراج، ص 22. (4) ديوانـه، ص 81–82.
(5) الذخيرة، 306/1/4 . (6) ديوان ابن دراج، ص 359 . (7) ديوان النابغة، ص 11 .

وابن دراج قصّر عن النابغة في نفي العيب عن ممدوحه؛ إذ السرف بالجود والبأس ليس عيبًا في الملوك، في حين أنَّ النابغة بذكره فلول السيوف قد أشاد بشجاعة ممدوحيه.

ويقول أبو بكر بن عمار في قصيدة اعتذار ومدح للمعتمد بن عباد(1): الطويل

إذا ركبوا فانظرهُ أوّلَ طاعنٍ وإن نزلوا فارصُدْهُ آخرَ طاعمِ

فهذا المعنى قديم، وأول من أثاره عنترةُ بقوله مفتخرًا(2): الكامل

يُخبِركِ مَن شَهِدَ الوقيعةَ أَنَّني أَغشى الوغى وأعِفُّ عندَ المَغنَمِ

وهذا ابن زيدون يمدح المعتضد بن عباد، بقوله(3): الكامل

لا يَأمَنُ الأَعداءُ رَجمَ ظُنونِهِ إنَّ الغُيوبَ وَراءَها إمدادُ

ومثل هذا قول أوس بن حَجَر التميميّ، في الرثاء(4): المنسرح

الأَلمَعيَّ الذي يَظُنُّ لَكَ الـ ظَنَّ كأَن قَد رَأى وقَد سَمِعا

ويمدح ابن حمديس أبا الحسن علي بن يحيى وقومه، بقوله(5): الكامل

فهمُ هم أُسْدُ الأسود براثنًا وأرقّ أبناءِ الملوكِ نِعالا

فرقة النعال كناية عن النعمة والترف؛ وهذه الكناية موجودة في الشعر الجاهليّ، من مثل قول النابغة الذبيانيّ في مدح عمرو بن الحارث الجفنيّ وقومه الغسانيين(6): الطويل

رِقاقُ النِّعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُم يُحَيّونَ بالرَّيحان يومَ السباسِبِ

ويلمّ ابن عبدون في قوله، يصف سيوف الممدوح(7): الوافر

فيوردُها ظماءً وهي ماءٌ ويُصْدرها رواءً وهيَ نارُ

ببيت عمرو بن كلثوم التغلبيّ في وصف الرّايات، في الفخر(8): الوافر

بأنّا نورِدُ الرّاياتِ بيضًا ونُصدِرُهُنَّ حُمرًا قد رَوينا

---

(1) الذخيرة، 376/1/2 .

(2) شرح المعلقات، ص 160، ديوان عنترة بن شداد، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، تحقيق ناصيف سليمان عواد، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة"آفاق عربية"، بغداد، 2000م، ص 38 .

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 459 .

(4) ديوان أوس حَجَر، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، ط2، دار صادر، بيروت، 1387هـ-1967م، ص53

(5) ديوانه، ص 389 .

(6) ديوانه، ص 12 .

(7) ابن عبدون، عبد المجيد اليابري الأندلسيّ(-527هـ)، ديوانه (الشعر والنثر) مع دراسة لأدبه، إعداد وتحقيق وتأليف سليم التنير، دار الكتاب العربي، دمشق-سورية، ط1، 1408هـ-1988م، ص 135 .

(8) شرح المعلقات، ص 127 .

مع توجيه ابن عبدون للمعنى: من غرض الفخر إلى المدح، ثم نقل الصفة من الرّايات إلى السيوف.

ومما تعاورته الشعراء من المعاني: معنى تتبّع الطّير لجيش الممدوح، الغازي للأعداء، حتّى تتناول من القتلى، وهو معنى متداولٌ بين الشعراء قديمًا وحديثا، أخذه بعض الشعراء الأندلسيين، فمنهم من زاد فأحسن الأخذ، ومنهم من قصّر وأساء.

وأول من جاء بهذا المعنى الأفوه الأودي، في قوله مفتخرًا(1): الرمل

وتَرى الطيرَ على آثارِنا رَأيَ عَينٍ ثِقَةً أَن سَتُمارُ

وأخذه النابغة الذبياني، وزاد في المعنى، ودلَّ على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح، فقال مادحًا عمرو بن الحارث الجفني الغساني وقومه(2): الطويل

إذا ماغَزوا بالجَيشِ حَلَّقَ فوقهُمْ عَصائبُ طيرٍ تَهتَدي بعَصائِبِ

يُصاحبْنَهُمْ حتى يُغرْنَ مُغارَهم مِن الضارياتِ بالدِّماء الدّواربِ

تَراهُنَّ خَلفَ القوم خُزرًا عُيونُها جُلوسَ الشيوخِ في ثِيابِ المَرانِبِ

جَوانِحَ قد أيقنَّ أَنَّ قبيلَهُ إذا ما التقى الجمعان أَوَّلُ غالِبِ

لهنَّ عليهمْ عادةٌ قد عرفنَها إذا عُرِّضَ الخَطِّيّ فوقَ الكواثبِ

والذي خلص المعنى كله، وزاد فيه، وأحسن التركيب، ودلَّ على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح بأوجز الألفاظ، هو ابن شهيد في قوله(3): الطويل

وتَدْرِي سِباعُ الطَّيْرِ أَنَّ كُمَاتَهُ إذا لَقِيَتْ صِيدَ الكُماةِ سِباعُ

لهُنَّ لُعَابٌ في الهَوَاءِ وهِزَّةٌ إذا جَدَّ بينَ الدّارعين قِراعُ

تَطِيرُ جِياعًا فوقهُ وتردُّها ظُبَاهُ إلى الأَوْكَارِ وَهْيَ شِباعُ

تَمَلَّكَ بالإحْسَانِ رِبْقَةَ رِقِّها فهُنَّ رَقِيقٌ يُشْتَرَى ويُبَاعُ

وأَلحَمَ مِن أَفْرَاخِهَا فهيَ طَوْعُهُ لدى كلِّ حَرْبٍ والمُلُوكُ تُطَاعُ

تُمَاصِعُ جَرْحاها فيُجْهِزُ نَقْرُهَا عليْهِمْ وللطَّيْرِ العِتَاقِ مِصَاعُ

وممن اختصر المعنى ابن زيدون، في قوله مادحًا المعتضد بن عباد(4): الكامل

---

(1) البيت في رسالة التوابع والزوابع، تصحيح وتحقيق ودراسة بطرس البستاني، مكتبة صادر، بيروت، 1951م، ص 179، والذخيرة، 283/1/1 .

(2) ديوانه، ص 10-11، وبعضها في رسالة التوابع والزوابع، ص 179-180، والذخيرة، 284/1/1. الدوارب المدربات، المرانب أكسية من جلود الأرانب. الكواثب جمع الكاثبة، وهي من الفرس: حيث تقع يد الفارس.

(3) ديوانه، ص123، رسالة التوابع والزوابع، ص 181، والذخيرة، 285/1/1-286. ألحم: أطعم اللحم، تماصع تقاتل.

(4) ديوانه ورسائله، ص 461 .

جيشٌ إذا ما الأُفـْقُ سافرَ طَيرُهُ   مَعَـهُ ففي ذِمَمِ الصّـوارِمِ زادُ

ومن أساليب الشعراء الأندلسيين في المدح: أسلوب المدح بالمفاضلة بين الأب وابنه، وهذا على غرار مذهب زهير والخنساء. ومن ذلك قول عبد الجليل بن وهبون، من قصيدة في مدح المعتمد وابنه الرشيد، وقد بدأ بمدح الأب، بالحلم والأناة والشجاعة وحسن النسب والفعال، ثم يقول في الاثنين(1): الوافر

عَجِـزنا أن نُحقِّقَ منه وصفًا   ومـا عَجِزَ الرَّشيدُ لـهُ امتثالا

يعارضُه بكـلّ سبيلِ مجـدٍ   فتحسبه ينافسُـه خــلالا

ولمّا لم يُطِـقْ يَـثْـني صباه   أحالَ على شمائلـه اكتهالا

وكادَ يكـونُهُ حتى تـراه   يـجاذبُهُ ولا يقـوى انفصالا

وأبهَجَنا طـلوعُهما بـدستٍ   طـلوعَ الأصل والفرعِ اتصالا

فلمْ أرَ قبله بـدرًا كساه   جـوارُ الشمس تمّا واكتمـالا

ومنها:

وكنتم خيرَ من يُرجى فما لي   وجـدتُ يقينَ آمـالي مـحالا

ولـمْ أحـملْ ودادَكمُ ادّعـاءً   ولا أظـهرتُ مدحكمُ انتحالا

يقول ابن بسام معلقًا على طريقة ابن وهبون في مدح الأب والابن معًا في قصيدة واحدة: "احتذى عبد الجليل فيما وصف به الرشيد من تقيّله لمذهب أبيه قولَ الخنساء السلميّة، وقد قيل لها مدحتِ أخاكِ حتى هجوت أباك، فقالت: الكامل

جـارى أباهُ فأقبَلا وهُـما   يَتَعـاوَرانِ مُـلاءةَ الحُضـْرِ

حتى إذا جدَّ الجراءُ وقـد   ساوى هنـاك العُذرَ بالعـذرِ

وعَلا هُتافُ النَّاسِ أيُّـهُـما   قال المُجِيبُ هناكَ لا أدْرِي

بَرَقَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِ والـدِهِ   ومَضَى على غُلْوائِهِ يَجْـرِي

أَولى فأوْلـى أَنْ يُساويَـهُ   لولا جَلالُ السِّنِّ والكِبْـرِ

وهما كأنَّهما وقـد بَـرَزا   صقرانِ قد حَطَّا إلى وَكْرِ"(2)

وقد سبق زهير بن أبي سُلمى الخنساء في هذا الأسلوب، حين قال(3): البسيط

---

(1) الذخيرة، 2/1/510– 511 .

(2)الذخيرة، 2/1/511-512، في البيت الأول: استعار للغبار ملاءة، مرة يثيره العير ومرة الأتان. والأبيات ليست في مجموع ديوانها.

(3) ديوانه، 85- 86، الشأو: الغاية والسبق، المَهَل: التقدّم.

يَطلبُ شَأوَ امرِأَينِ قدَّما حَسَنًا نالا المُلوكَ وبَذّا هَذِهِ السُوَقا
هُوَ الجَوادُ فإن يَلحَق بِشَأوِهِما علـــــى تَكاليفِهِ فمِثْلُهُ لَحِـقا
أو يَسبِقاهُ على ما كانَ مِن مَهَلٍ فمِثْلُ ما قَدَّما مِن صالِحٍ سَبَقا

فالممدوح وهو هرم بن سنان بمنزلة الجواد من الخيل في اقتفاء آثار أبويه، وسعيه في أن يلحق بهما، فإن لحقَ غايتهما، وأدركهما في فعلهما فبواجبٍ لحقِّهما، وذلك لكرمه وجَودته. وأن أبويه تقدَّماه في الشرف وسَبَقاه. ومثل فعلهما يُنالُ به السَّبْق. فإن سبقه أبواه ولم يلحقهما فهو معذور. فالصالح من فعلهما سَبَقَ مَنْ جاراهما.

فأراد زهير التسوية بين ممدوحين؛ فأتى بمعان مؤتلفة في مدحهما، ورجَّح بعد ذلك بمعان تخالف معاني التسوية، فأراد مساواة هرم بأبويه، مع مراعاة حقّ الوالدين بزيادة فضل لا ينقص بها حق الولد، فرجّح الممدوح الأول في الفضل على الثاني ترجيحًا لا ينقص من فضل الثاني، ولا يغضّ منه. وهذا ما جرت عليه الخنساء وكذلك ابن وهبون.

ولابن زيدون في هذا الأسلوب كثير من القصائد، خاصة في مدح المعتضد وابنه المعتمد، إذ كان قد اختصهما بمدائحه(1).

(1) ينظر ديوانه ورسائله، ص 507، 518، 610، 615. وكان في أغلب مدحه بالمفاضلة، تفوق فضائلُ المعتضد فضائل ابنه المعتمد؛ لأنَّه أول من بنى المجد وسهل طرائقه.

في غرض الفخر:

ظلت بعض مظاهر الفخر التي كانت سائدة في الشعر الجاهليّ حاضرة في أشعار الأندلسيين، كالفخر بالمثل الخلقية العربية الأصيلة من الكرم والحفاوة بالضيف، والعفة، والحلم، والشجاعة واحتمال الخطوب والثبات والعزم والإباء، يقول المنصور بن أبي عامر(327-392هـ) مفتخرًا(1): الطويل

رميتُ بنفسي هوْلَ كلِّ كريهةٍ ... وخاطرتُ والحرُّ الكريم مُخاطرُ
وما صاحبي إلا جَنانٌ مُشَيَّعٌ ... وأسمرُ خَطيٌّ وأبيضُ باترُ
وإني لزجَّاءُ الجيوشِ إلى الوغى ... أسودٌ تلاقيها أسودٌ خوادرُ
فَسُدتُ بنفسي أهلَ كلِّ سيادة ... وكاثرتُ حتى لم أجدْ من أُكَاثِرُ

ويقول ابن شهيد(2): البسيط

وما أَلانَ قناتِي غَمْزُ حادِثةٍ ... ولا اسْتَخَفَّ بحِلمِي قطُّ إنْسَانُ
أَمْضِي على الهوْل قُدْما لا ينهنِهني ... وأَنثنِي لسفِيهي وهْو حرْدانُ
ولا أُقارِض جُهّالا بِجهلِهِمُ ... والأَمْر أَمْرِيَ والأَيام أَعْوانُ
- ولا أَمِيل على خِلي فآكله ... إذا غرِثت وبعْض الناسِ ذؤبانُ
- إن الفتوة فاعْلمْ حَدُّ مَطلبِها ... عِرْض نَقِيٌّ ونطق فيه تِبْيانُ
- إن الكرِيمَ إذا نالته مَخْمَصَةٌ ... أَبْدى إلى الناسِ شِبْعًا وهْوَ طَيَّانُ

ويشبه كثير من معاني هذا الشعر، معاني كثير من الشعراء الجاهليّين كفخر الشنفرى الأسديّ في لاميته، وفخر طرفةَ وعنترةَ ولبيدٍ في معلقاتهم.

ولعلّ أقرب الشعر الفخريّ الأندلسيّ شبهًا بالفخر الجاهليّ هو شعر ابن شهيد في الحفاوة بالضيف، وشهر ابن شهيد بإتلافه المال، إلى حدّ التهور، وبهذه الصفة فهو إلى طرفة بن العبد أشبه من أيّ شاعر جاهليّ آخر، على أنّ شعره في الحفاوة بالضيف أكثر شبهًا بشعر حاتم الطائيّ، خاصة في أسلوب القصّ والحوار، حتى أضحى شعر ابن شهيد في إكرام الضيف يُحتذى من بعض الشعراء الأندلسيين، ومن هذا الشعر يقول ابن شهيد:(3): الطويل

ولمّا رأَيْتُ اللَّيْلَ عَسْكَرَ قُرّهُ ... وهَبَّتْ له رِيحانِ تَلتَطِمَانِ
وعَمَّمَ صُلْعَ الهُضْبِ مِن قَطْرِ ثَلْجِهِ ... يَدانِ مِن الصِّنَّبْرِ تَبتَدِرانِ

---

(1) المطمح، ص 389 .

(2) ديوانه، ص 161-162 .

(3) ديوانه، ص 163، والذخيرة، 1/1/311–312 .

رَفعْتُ لِسَارِي الليلِ ناريْنِ فارْتـأَى شُعَاعَيْنِ تحتَ النـجْمِ يَلتَقيانِ
فأقبَلَ مَقرُورَ الحَشَا لم تَكنْ لـه بدَفْعِ صرُوفِ النائباتِ يـدانِ
فقلتُ إلـى ذاتِ الـدُّخان فقـالَ لـي وهل عُرفَتْ نارٌ بَغْيرِ دُخـانِ
فمِلتُ بـه أَجْتَرُّهُ نَحْوَ جَمْرَةٍ لها بارِقٌ للضَّيْـفِ غَيْرُ يَمـانِ
إذا ما حَسَا أَلقمْتُـهُ كـُلَّ فِلـذَةٍ لفَرْخةِ طَيْرٍ أَوْ لسَخـْلةِ ضانِ
فما زالَ في أَكلٍ وشـُرْبٍ مُدارَكٍ إلى أنْ تَشَهَّى التَّرْكَ شَهْوَةَ وانـي
فأَلْحَقْتُهُ فامتَـدَّ فـوقَ مِهَـادِهِ وخَدّاهُ بالصَّهْبَاءِ تـتَّقـدانِ
وما انفكَّ مَعْشُوقَ الـثَّواءِ نَـمُـدُّهُ ببشْر وتـرْحيب وبَسْطِ لسانِ
تُغنّيهِ أَطْيَارُ القِيـانِ إذا انْـتشَى بصَنْـجٍ وكَيْثَارٍ وعُـودِ كِرانِ
-إلى أَنْ تَشهَّى البَيْنَ مِـن ذاتِ نَفْسِهِ وحَنَّ إلى الأَهْلِيـنَ حَنَّـةَ حانـي
فأَتْبَـعْـتُهُ ما سَدَّ خَلَّةَ حـالــهِ وأَتْبَعَنِي ذِكْرًا بكُلِّ مكـانِ

وللكاتب أبي الحسن صالح بن صالح الشنتمري(معاصر ابن بسام) شعر يحتذي فيه شعر ابن شهيد السابق، ومنه قوله(1): الطويل

حبيبٌ إليَّ الدّهرَ إعطاءُ سائلي وإكرامُ قُصَّادي وعونُ خليـلي
أهزُّ طباعي بل طباعي تهزُّني إلـى الجود لا أرضى طباعَ بخيلِ
وراحٍ كما افترَّ الصباحُ سبأتها لطـارقِ ليل ما عــليَّ جليل
نضوتُ بها عنه جلابيبَ ليلـهِ فعُـوِّضَ مـن تعريسه بمقيل
وما زلتُ أسقيه وأشربُ فضلَهُ وكأسُ الكريم الفضلِ ذاتُ فضول
-وقلـتُ له لمّا تعاظمَ عنــدهُ صنـيعي بـه هذا أقلُّ قليـل
حللتَ بنا ليلا وقد قُسِّمَ القِرى فلـم يبق منه مَقْنَـعٌ لأكيـل
أقمْ عندنا تستوفِ ما أنت أهلهُ فأنـتَ لدينا أهلُ كلِّ جميل
وإني لممَّن تعتريهِ كآبــةٌ إذا آذنتْ أضيافُـه بـرحيل

ولأبـي الحسن الشـنتمري أيضـا قصـيدة يصـف فيهـا شـروطَ المروءة ومكـارم الأخـلاق، ومنـها قوله(2): الطويل

---

(1) الذخيرة، 587/2/2 .

(2) الذخيرة، 586/2/2 .

وإنَّ نصيبَ الجار عند احتياجـــه إلـى العون في مالي لمثلُ نصيبي
وإنَّ بـعيدَ القوم ينزلُ ساحـــتي ويأوي إلى ركني لمثلُ قــريـبِ
أهيـنُ له مـالي وأحفظُ مالــــه وآتيه من برّي بكلّ عجـيــبِ
وألقى الخطوبَ السودَ في الذبِّ دونه لقاءَ أخي صدرٍ لهنّ رحيــبِ
-تجودُ يدي قبلَ السؤالِ وتمتــري طلوبَ الندى جدوايَ غيرَ طلـوبِ
لحا الله وهَّابا بطيئًا حِبَــاؤهُ يجيءُ الذي يُعطيه بعدَ لُغــوب
ولكنَّ وهـابًا يَهُبُّ إلــى النَّـدى كما هَبَّ عَضْبٌ في يمينِ ضَروبِ
يـحاذرُ أحداثَ الليالي وقلـما خلا من توقّيهنَّ قلبُ لبيــبِ
ويرتاب بالأيام عند سكونهـا وما ارتاب بالأيام غـيرُ أريــبِ
وما الدّهرُ في حال السكون بساكـنٍ ولكنّـه مُستجْمِعٌ لوثــوبِ
لقد عاينَ الأيامَ مَن خافَ غــدَرها بعينَي بصيرٍ بالأمورِ طبيــبِ

يقول ابن بسام معلقًا على شعر ابن شهيد وشعر الشنتمري:"وهذا من حرّ الكلام، وجزل النظام، وسجية حاتمية، وشِنْشنة أعرابية"(1).

وهي كما قال ابن بسام، فمعاني هذه الأشعار، ومنها هذا التقديس العجيب لقرى الضيف، خاصة في زمن الشدة والجدب، وفي الشتاء حين هبوب الرياح الباردة، كثيرة الدوران في الشعر الجاهليّ، خاصة في شعر حاتم الطائي؛ ولا غرو فقد كان العرب يعدون تلقّي الأضياف بالبِشْر، وتهلل الوجه، وإظهار السرور به، عدا قراه، من كمال مروءتهم(2)، ومن مظاهر تخليد الذكر.

---

(1) الذخيرة، 587/2/2 .

(2) خليل بن أيبك الصفدي(696-764هـ)، " تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1398هـ-1969م، ص 325-326 . وينظر في الفخر بإكرام الضيف ومساعدة المحتاج، خاصة في الشتاء البارد، وحين تتقابل الرياح، وتهب ريح الشمال الباردة التي قد تسبب في سقوط الثلج، وفي الفخر بالعطاء قبل السؤال، ديوان حاتم الطائي، تحقيق ودراسة فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، 1980م، ص 67، 74، 82، 85، 101-، وديوان الأعشى، ص 135، 421، وديوان شعر الحادرة إملاء أبي عبد الله محمد بن العبّاس اليزيديّ عن الأصمعيّ، حققه وعلق عليه ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، 1393هـ-1973م، ص 58، وديوان عروة بن الورد، تحقيق عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق،1966م، ص 44، والأصمعيات، اختيار الأصمعيّ أبي سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك(-216هـ)، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، 1375هـ-1955م، ص 216، والبحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد، الحماسة، اعتنى بضبطه ووضع فهارسه لويس شيخو، نشر دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1967م، ص 149، وديوان زهير، في غرض المدح، ص 72 .

ومن ذلك قول حاتمٍ الطائيُّ مفتخرًا(1): الطويل

أَماويَّ إنَّ المالَ غادٍ ورائــــحٌ ويَبقى مِنَ المالِ الأَحاديثُ والذكـرُ
أَماويَّ إنّي لا أقـــولُ لسائـــلٍ إذا جاءَ يَومًا حَلَّ في مالِنا نَــزرُ
أَمــاويَّ إمّــــــا مـــانعٌ فَمُبَيِّنٌ وإمّا عَطاءٌ لا يُنَهنِهُهُ الزّجـــرُ
أَماويَّ ما يُغني الثراءُ عَنِ الفَتى إذا حَشرَجَتْ نَفسٌ وضاقَ بِها الصّدرُ
- فقِدمًا عَصيتُ العاذِلاتِ وسُلِّطَتْ على مُصطَفى مالي أَنامِلِيَ العَشـرُ
وما ضَرَّ جارًا يا ابنَةَ القَومِ فاعلمي يُـجاورُني أَلا يَكــــونَ لـهُ سِتـرُ

ويقول حاتم(2): الطويل

إذا ما صَنَعتِ الزادَ فالتَمِسي لهُ أَكيلا فإنّـي لستُ آكِلَهُ وَحـــــدي
أَخًا طارقًا أَو جارَ بيتٍ فإنّنـي أَخافُ مَذمّاتِ الأَحاديثِ مِن بَعدي
وإني لعَبدُ الضيفِ ما دامَ ثاويًا وما فيَّ إلا تلكَ مِـن شيمَةِ العبـدِ

ويقول(3): المتقارب

قدوري بِصَحـراءَ مَنصوبَةٌ وما يَنبَحُ الكلبُ أَضيافِيَـهْ
وإن لم أَجِد لِنَزيلي قِـرًى قطعتُ لهُ بَعضَ أطرافِيَـهْ

ويقول الأعشى مفتخرًا(4): الطويل

إذا احمَرَّ آفاقُ السماءِ وأَعصَفَت رياحُ الشتاءِ واستَهَلَّت شُهورُها
تَـرَي أنَّ قدري لا تَزالُ كأَنَّها لذي الفَروَةِ المَقرورِ أُمٌّ يَزورُها

ويقول سلامةُ بنُ جندلٍ التميميُّ في الفخر(5): البسيط

كنـّـا نَحُــلُّ إذا هَبَّت شَآمِيةٌ بِكلِّ وادٍ حَطيبِ البَطن مَجدوبِ
- كنّـا إذا ما أَتانا صارِخٌ فَزِعٌ كانَ الصُراخُ لهُ قَرْعَ الظنابيبِ

ويفخر عَمْرُو بنُ الأهتمِ بن سُميٍّ السعديُّ المِنْقَرِيُّ التميميُّ أمام صاحبته قائلا(6): الطويل

ذريني فإنَّ البخلَ يا أمَّ هيثمٍ لصالحِ أخلاق الرجال سَروقُ

---

(1) ديوان حاتم الطائي، ص 83-84 .
(2) السابق، ص 77 .
(3) السابق، ص 103 .
(4) ديوانه، ص 421 .
(5) ديوان سلامة بن جندل، تحقيق فخر الدين قباوة، نشر وتوزيع المكتبة العربية، ط1، حلب، 1968م، ص 117.
(6) المفضليات، ص 125-127 .

ذريني وحُطي في هَواي فإنَّنـي ... علـى الحَسَبِ الزاكي الرفيعِ شَفيقُ
-ومُستَنبِحٍ بَعدَ الهُـدوءِ دعوتـهُ ... وقـد حانَ مِن نَجم الشتاءِ خُفـوقُ
-أَضفتُ فلم أُفحشْ عليهِ ولـم أَقُلْ ... لأَحْـرَمه إنَّ المكـــانَ مَضـيـــقُ
فقلتُ له أَهلا وسهلا ومـرحَبًـا ... فـهذا صَـــبوحٌ راهِنٌ وصَديــقُ
- وكلُّ كريمٍ يَتَّقي الـذمَّ بِالقِـرى ... ولِلخَيرِ بينَ الصالحينَ طـريــقُ
لعَمرُكَ ما ضاقَتْ بِلادٌ بِأَهلِـها ... ولـــكنَّ أخلاقَ الرِّجـالِ تَضيــقُ

ويقول عمرُو بنُ قميئةَ البكريُّ مفتخرًا(1): الطويل

وإنْ صَرَّحَتْ كَحلٌ وَهَبَّت عَرِيَّـــــةٌ ... مِنَ الرّيح لم تَترُك لذي المالِ مِرفَدا
صَبَرتُ على وَطءِ المَوالي وحَطمِهِم ... إذا ضَنَّ ذو القربى عليهِم وأَخمَـدا

حتى إنّ بعضهم يفتخر بالميسر، وهي عادة جاهلية انقرضت بمجيء الإسلام، فجاء في بعض مقطوعات السرقسطي الشعرية، في مقامته الخامسة عشرة، على لسان الشيخ السدوسيّ، مفتخرًا بفتكاته وجوده وبالميسر، في قوله(2): البسيط

كـم فَتْكةٍ لِيَ في هذا الورى أُنُفٍ ... لـم يَجْنِها جُرْهُمٌ قبلي ولا إرَمُ
-سَهْلُ الخليقـة بـذَّالٌ لنائلـــــــهِ ... ويـاسرٌ حين يأبى المَيْسِرَ البَرَمُ

ومثل هذا التفاخر بالميسر كثير في أشعار الجاهليين(3).

وإنّ بعض شعراء الأندلس أخذوا المعاني الفخرية من الجاهليين، من مثل قول المعتمد بن عباد بعد زوال ملكه(4): مجزوء الكامل

مـا سرتُ قَطُّ إلـى القتا ... ل وكـان مِن أَمَلي الرّجوعُ

فهذا كقول قيس بن الخطيم(5): الطويل

وإنِّيَ في الحَربِ الضَّروسِ مُوَكَّلٌ ... بإقدامِ نَفسٍ ما أُريدُ بَقـاءَها

---

(1) ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1965م، ص 10

(2) المقامات اللزومية للسرقسطي، تحقيق بدر أحمد ضيف (جامعة طنطا)، تقديم محمد مصطفى هدارة(جامعة الاسكندرية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية، 1982م، ص 204-205 .

(3) ينظر مثلا: ديوان المرقش الأكبر، ديوان المرقشين، المرقش الأكبر عمرو بن سعد،والمرقش الأصغر عمرو بن حَرْمَلة، تحقيق كارين صادر، دار صادر، بيروت ، ط1، 1998م، ص80-، والمرَقِّشان بكريّان. وينظر في المفضليات، ص 120، 158، 350، 403.

(4) الذخيرة، 53/1/2 .

(5) ديوان قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره، حققه وعلّق عليه الأستاذ ناصر الدين الأسد، مكتبة دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1، 1381هـ، 1962م، ص 10 .

وقول ابن خفاجة(-533هـ)(1): الطويل

وأمضي فإمّا بيتُ نفسٍ كريمـةٍ يُـهَـدُّ وإمّـا بيتُ عزّ يُشَيَّـدُ

نبهه على هذا المعنى امرؤ القيس بقوله(2): الطويل

بَكى صاحِبي لمّا رَأى الدّربَ دونَهُ وأيـقنَ أَنّـا لاحِقانِ بقيصَـرا

فقلـتُ لهُ لا تَبـكِ عَـينُكَ إنَّمـــــــا نُحاوِلُ مُلكًا أو نَمـوتَ فنُعـذَرا

وقد أعجب ابن دراج القسطلي(347-421هـ) ببيتـي امرىء القيس السابقين فقال مقتفيًا أثرهما، من قصيدة في مدح أبي الحكم المنذر بن يحيى(-412هـ)(3): الكامل

نَذرَتْ لنا أَلا تلاقـيَ راحَـةً مِمَّا تُلاقِـي أوْ تُلاقـيَ مُنـذِرَا

وتقاسمَتْ ألا تُسيغ حياتَـهـا دون ابـن يحيى أو تمـوتَ فتُعْذرا

ونقل الضمائر إلى رواحله. ولكن الهدف لدى امرىء القيس هو الملك، في حين أنّ الهدف لدى ابن دراج أدنى من ذلك بكثير.

ويفيد بعض الأندلسيين من بعض أساليب الجاهليين في الفخر، مثل أسلوب المبالغة، كقول عمرو ابن كلثوم في معلقته(4): الوافر

إذا بَلَـغَ الرَّضيعُ لنا فِطـامًا تخرُّ لهُ الجَبابِرُ ساجـديـنـا

فيقول الحكم المستنصر(5): الطويل

إذا وُلد المولـودُ منّا تهللتْ له الأرضُ واهتزّت إليه المنابرُ

وقد يفيدون من أشعار الجاهليين في غير غرض الفخر، فيستعيرون المعاني والألفاظ ويوظفونها في الفخر، وقد يعكسون المعنى، ومن ذلك شعر لابن عبدون، من قصيدة في مدح المعتمد بن عباد، يقول مفتخرًا بنفسه وبشجاعته(6): البسيط

أمشي البَرازَ ولا أَعْفي بـه أثـري حَسْبُ المريب ركوبُ القاع ذي اللُّوبِ

فهذا البيت عكس قول امرئ القيس(7): الطويل

خَرَجـتُ بـها تمشي تَجُـرُّ وَراءَنا على أثرَينا ذيلَ مِـرطٍ مُـرَحـَّلِ

فابن عبدون نقل المعنى الذي أراده امرؤ القيس من الغزل إلى الفخر، ثم عكس هذا المعنى، فهو لا يعفي أثره اعتدادًا بنفسه، أما امرؤ القيس فقد وصف صاحبته بأنها تجرّ ذيلها عـلى الإثر

---

(1) ديوانه، ص195، الذخيرة، 567/2/3 . (2) ديوانه، ص 65-66. (3) ديوان ابن دراج، ص 127.

(4) شرح المعلقات، ص 141 . (5) المطرب، ص 12 . (6) ديوانـه، ص 112، الـذخيرة، 699/2/2. البَراز: الفضاء الواسع. اللّوب جمع لُوبة أو لابة: الحَرَّة.

(7) شرح المعلقات، ص 29، المِرْط: كساء من خز أو صوف، مرحل: منقّش يشبه الرحال. ويروى: "أمشي"، وهذا شاهد مجيء حالين من اسمين بحسب الترتيب.

ليعفى، لئلا يُقتفى أثرهما، فيُعرف موضعهما.

ولعلَّ إعجاب بعض الشعراء بتصوير امرئ القيس للصائد كبير السنّ الذي لا رزق له إلا من صيده، فهو يخفي كفيه لئلا يراه الوحش، في قوله(1): المديد

رُبَّ رامٍ من بَني ثُعَلٍ مُتلِجٍ كَفَّيهِ في قُتَرِهْ

جعلهم يأخذون هذا الوصف ويوظفونه في غير المعنى الذي قيل فيه، مثل قول الأعمى التطيليّ يفخر بقوافي قصيدته التي يمدح فيها أبا العلاء بن زهر(2): البسيط

إذا رَمَيْتُ القوافي في فرائصها لم أرْمها مُتْلِجًا كفَّيَّ في قُتَرِ

-أشدو فَيُلقي ابنُ حُجْرٍ بالمقالد لي والدّهرُ يعلمُ أنّ الدرَّ للحجر

فنقل التطيلي معنى البيت من وصف الصائد إلى الفخر، بأنه يصيب في قوافيه، كما يصيب رامي بني ثعل، ولكنّه رامٍ لا يحذر حين يصطاد القوافي.

ويفتخر ابن عبدون بهمته وقوة عزيمته، قائلا(3): البسيط

يا دهرُ إنْ توسعِ الأحرارَ مَظْلَمةً فاسْتثنِني إنَّ غِيلي غيرُ مقروبِ

قوله: "إن غيلي غير مقروب" من لفظ بيت الجُمَيْح الأسدي، يخاطب زوجتهّ(4): البسيط

أَمَّا إذا حَرَدَتْ حَرْدي فمُجْرِيَةٌ جرْدَاءُ تَمْنَعُ غِيلا غيرَ مَقْرُوبِ

وشيء من لفظ البيت في شعر النابغة، في قوله(5): البسيط

إنِّي كأنّي لدى النعمان خبَّرهُ بعضُ الأُوُدّ حديثا غيرَ مكذوبِ

بأنَّ حِصْنا وحيّا من بني أسدٍ قاموا فقالوا حِمانا غيرُ مَقروب

---

(1) ديوانه، ص 123 .

(2) الذخيرة، 747/2/2، والبيت الأول في ديوان الأعمى التطيلي(-525هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1963م، ص 52 .

(3) ديوانه، ص 111 .

(4) المفضليات، ص 35، ويروى: "ضبطاء" بدل "جرداء"، مجرية: لبؤة ذات جرو. والجميح يخاطب زوجته، في قصيدته التي منها البيت، ويحضُّها على أن لا تسمع لذلك المغرض الذي يحرّضها على زوجها كي يتزوجها، ولذلك فعليها-إن قصدت قصده- أن تكون لبؤة شرسة، تحمي حماها من أن يقترب منه أحد.

(5) ديوانه، ص 14 .

في الحكمة والأمثال:

نظم كثير من الشعراء الأندلسيين الحكم والأمثال، أو ما يجري مجراها، وجاءت في أغلبها مبثوثة في خلال شتى أغراض الشعر. وقد تأثر الأندلسيون بحكم الجاهليين وأمثالهم، وقد أحسن بعضهم في المحاكاة، وأساء بعضهم الآخر. فمعنى التحوّل عن مواطن الذلّ، معنى قد أكثرت الشعراء فيه، من مثل امرئ القيس ولبيد وأوس والمتلمس وقيس بن الخطيم والشنفرى، ومن ذلك قول أوس بن حجر(1): الطويل

أُقيمُ بدار الحزم ما دام حزمُها وأحرِ إذا حالَتْ بأنْ أتحوَّلا

وقول عبد بن قيس بن خُفاف البُرْجمي التميميّ، يوصي ابنه جُبيلا(2): الكامل

واترُكْ مَحَلَّ السَّوءِ لا تَحلُل بِهِ وإذا نَبا بكَ منزلٌ فتحَــوَّلِ
-وإذا افتقرتَ فلا تكن مُتَخَشِّعًا ترجو الفواضِلَ عندَ غيرِ المُفضِلِ

وقول ذي الإصبع العَدْواني، يخاطب ابن عمّ له(3): البسيط

إنِّي لَعَمْرُكَ ما بابي بذي غَلَقٍ عَن الصَّديق ولا خَيْري بِمَمْنُونِ
ولا لسَاني على الأدْنَى بِمُنْطَلِقٍ بالفــاحشَاتِ ولا فتكي بمأمُونِ
عَفٌّ يَؤُوسٌ إذا ما خفتُ من بلدٍ هُونًا فلسْتُ بِوَقَّافٍ على الهُونِ

وقول لبيدٍ من معلقته(4): الكامل

أَوَلمْ تكنْ تدري نَوارُ بأنَّني وصّالُ عَقدِ حَبائــلٍ جَذّامُـها
ترّاكُ أمكنَةٍ إذا لم أَرْضَها أو يَعتَلِقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

والأصل في هذا امرؤ القيس في قوله(5): الكامل

وإذا أَذِيتُ ببلدة ودَّعتُها إذ لا أقيمُ بغير دار مُقامِ

فيدلي بعض الشعراء الأندلسيين بدلوهم في مثل هذه المعاني، ومن ذلك شعر لابن عبد ربه، ويقتبس تعبيرات بعض الشعراء الجاهليين، في قوله(6): مجزوء الكامل

قُلْ ما بَدا لكَ وافْـــعـلِ واقْطعْ حِبالكَ أو صِـلِ
هذا الرَّبـــــيـعُ فحيـِّهِ وانزلْ بأكرمِ منــزِلِ
وصِلِ الذي هو واصِلٌ وإذا كرهْتَ فَــبـــدِّلِ
وإذا نَبا بك منـــــزلٌ أو مسكنٌ فتـــحـــوَّلِ
وإذا افتقرتَ فلا تكـنْ مُتـخشِّعـاً وتجــــمَّـلِ

(1) ديوانه، ص 83 . (2) المفضليات، ص 385 ، ويروى البيت الأول لعنترة، ويروى لأوس بن حجر.
(3) المفضليات، ص 160. (4) شرح المعلقات، ص 111. (5) ديوانه، ص 118. (6) شعره، ص267-268.

ويضع ابن عبد البرّ القرطبيّ هذا المعنى في قالب حواريّ جميل، فيقول حين رحل من إشبيلية(1): الطويل

وقائلةٍ مالي أراك مُـــرَحَّلا ... فقلت لها:صهْ واسمعي القولَ مُجْمَلا
تنكَّر مَنْ كنَّا نُسرُّ بقـــربه ... وعادَ زُعافًا بعدما كـــان سَلْسَلا
وحُقَّ لجارٍ لم يُوافِقْه جـــارُهُ ... ولا لاءمتْـه الـــدَّارُ أنْ يتـــرحَّلا
بُليتُ بخفضٍ والمُقام ببـــلدةٍ ... طويلا لَعَمْري مُخْلِقٌ يـُورث البِلا
إذا هانَ حرٌّ عند قومٍ أتـــاهمُ ... ولم ينأَ عنهمْ كان أعمـــى وأجهلا
ولم تُضربِ الأمثالُ إلا لعالمٍ ... ولا عُوتب الإنسانُ إلا لِيَعْقـــلا

ويقول أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري(-460هـ) في هذا المعنى، ولا يبتعد عمّا قاله الشعراء الجاهليون، ولكنه يبدو أسرع في التحول، فهو يضرب بجناحيه ليطير كالعقاب(2): الكامل

وإذا نَبا بِي مَنــزلٌ أَو رابني ... صَفَّقتُ عَنهُ كَالعُقابِ الكاسِرِ

ويفيد ابن عبد ربه من كثير من ألفاظ الشعراء الجاهليين ومعانيهم وأوزانهم في فضل المال؛ قال عُروة بن الوَرد العبسيّ(3): الوافر

ذريني للغِنَى أسعى فإنّـي ... رأيتُ الناسَ شَرّهُم الفقيرُ
وأحقَرُهم وأهونُهم عليهم ... وإنْ أمسى له حَسبٌ وخِيرُ
يُباعدُه القريبُ وتَزْدرِيه ... حَلِيلتُه ويَنْهرُه الصَّغيرُ
وتُلْفِي ذا الغنى وله جَلالٌ ... يكاد فؤادُ صاحبه يَطيرُ
قلِيل ذَنْبُه والذنْبُ جـــمّ ... ولكنْ للغنى رَبٌّ غَفورُ

وقال أحَيْحَة بن الجُلاّح الأوسيّ(4): البسيط

إني مُقيمٌ على الزَّوْراء أعمرُها ... إنّ الحبيب إلى الإخوان ذو المالِ
فلا يَغُرَّنك ذو قُرْبى وذو نَسب ... من ابن عمّ ومن عم ومن خـالِ

---

(1) بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس، للإمام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبيّ (388-463هـ)، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، (2ج في ثلاثة مجلدات)، ط2، بيروت، لبنان، 402هـ-1982م، 244/1 .

(2) ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 76، والبيت من قصيدة في رثاء زوجته.

(3) العقد، 33/3، وديوانه، ص 91-92، وبهجة المجالس، 209/1، والحماسة الشجرية، ابن الشجري، هبة الله بن علي ابن حمزة العلوي، تحقيق عبد المعين الملوحي، وأسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1970م، 477/1، عدا البيت الثاني.

(4) العقد، 35/3 .

كلّ النداء إذا ناديتُ يَخْذُلني إلا نِدَائي إذا ناديتُ يا مالــي

فيقول ابن عبد ربه في هذا المعنى(1): البسيط

دَعْني أَصُنْ حُرَّ وَجْهي عن إذالته وإن تَغرَّبتُ عن أهلي وعن ولدي

قالوا نأيتَ عن الإخوان قلتُ لهم مالي أخٌ غَير ما تُطْوَى عليه يدي

فكأن ابن عبد ربه كثّف المعنى في الشطر الأول، وأخذ الشطر الثاني من عروة، والتقى مع ابن الجلاح في بيته الثاني.

ويُعوّل بعض الشعراء في نظم أمثالهم وحكمهم على قول عديّ بن زيد العِبادي التميميّ(2): (الرمل)

لو بغيرِ الماءِ حَلقي شَرِقٌ كنتُ كالغَصّانِ بالماءِ اعتصاري

وعلى قوله(3): السريع

قد يُدركُ المُبطِئُ مِن حَظِّهِ والخير قد يَسبِقُ جَهْدَ الحَريصْ

وعلى قول دريد بن الصمة في الخنساء لما رآها متبذلة وهي تضع القطران على الجمال الجرب(4): الكامل

مُتبذِّلا تبدو محاسنُهُ يضعُ الهِناءَ مواضعَ النُّقبِ

فيقول الوزيرُ أبو حفصٍ الهوزنيُّ(392-460هـ) في المدح(5): الوافر

وقد كنتُ اعتلقتُ أجلَّ مَلْكٍ وأعلمهم بنقْبٍ أو هِنَاءِ

ويقول(6): الوافر

ومَن يَجْهَدْ لدنياه ُ حَريصًا فليسَ بحائزٍ غيرَ العَناءِ

ومن يثقِ الزمانَ يجــدْه خَبًّا ويَصْرَعْهُ على حين الرَّجاءِ

---

(1) العقد، 35/3 .

(2) ديوان عدي بن زيد، ضمن" ديوان المروءة": السموأل، حاتم الطائي،عدي بن زيد، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط1، 1413هـ-1992م، ص 189 .

(3) ديوانه، ص 198 .

(4) ديوان دريد بن الصِمَّة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ص 44 .

(5) الذخيرة، 93/1/2 .

(6) الذخيرة، 94/1/2 .

إذا كـان الدَّواءُ به اعتـلالي فـأيّ الخلـق أرجـو للشِّفاء

ويقول ابن زيدون في هجاء ابن عبدوس، متوعّدًا(1): المتقارب

أَثَرتَ هِزَبرَ الشرى إذ رَبَضْ وَنَبَّهتَهُ إذ هَـــــدا فاغتَمَـضْ

- ولولا اختِصاصُكَ لم أَلتَفِتْ لِحـــالَيْكَ مِن صِحَّةٍ أَو مَرَضْ

ولا عادَني مِن وَفاءٍ سُرورٌ ولا نـــــالني لِجَفاءٍ مَـضَـضْ

ولكنْ يَعِزُّ اعتصارُ الفـتى إذا البارِدُ العَذبُ أهدى الجَرَضْ

ويقول أبو بكرٍ بنُ عمَّارٍ، من قصيدة يستعطف بها المعتمدَ بنَ عبّادٍ(2): الطويل

أعدْ نَظرًا لا توهنِ الرأيَ إنـه قديمًا نبا هافٍ وأدرك رائثُ

ويقول ابن حمديس في مدح الأمير أبي الحسن علي بن يحيى(3): الكامل

لا تسألَنْ عمّا يصيبُ بـرأيِـهِ وطعانِـهِ بمقوَّمٍ مَيّادِ

يضعُ الهِناءَ مواضعَ النُّقْبِ الذي يضعُ السِّنانَ مواضعَ الأحقادِ

ولأبي حفص الهوزني(-460هـ)، في الحضّ على الجهاد، والتحذير من الفرنجة الذين بدأوا بأخذ البلاد، وإذلال العباد، زمن المعتضد، قوله(4): المديد

صرَّحَ الشرُّ فـــــلا يُستقـــلُّ إن نهلتـمْ جاءكمْ بعدُ عَلُّ

بَدْءُ صَعْق الأرض نشءٌ وطلُّ ورياحٌ ثمَّ غيـمٌ أبَـــــلُّ

فقولـه: "بدء صعق الأرض نشء وطل"، معنى مشهور مبتذل، والقول فيه كثير. ويشبهُ قولَ الحارثِ بنِ وَعْلةَ الذُّهْليّ (5): الكامل

أنْ يأبـروا نخلا لغيـرهمُ والقولُ تحقرُهُ وقد يَنْـمي

إنَّ ابن زيدون من أكثر الشعراء تأثرًا بحكم الجاهليين وأمثالهم، ومن ذلك قوله من رسالة شعرية بعثها من سجنه إلى أحد أصدقائه(6): مجزوء الرمل

أَذؤبٌ هـامَت بِلـحـمي فَانـتهاشٌ وَانتـهـاسُ

كـلُّـهـُم يَسأَلُ عَن حالي وللذئـــبِ اعـتِساسُ

يَلـبُـدُ الوَردُ السَبَـنـتى ولـــــهُ بَعدُ افتـراسُ

---

(1) ديوانه ورسائله، 582-586 ، الاعتصار أن يغصّ بالطعام، الجرض: الغصة بالريق.

(2) الذخيرة، 406/1/2 . (3) ديوانه، ص 147 . (4) الذخيرة، 89/1/2 .

(5) شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي(-421هـ)،(قسمان في مجلدين متتابعي الصفحات)، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ-1991م، م1/1/ 205، الذخيرة، 90/1/2 .

(6) الذخيرة،359/1/1، الانتهاش:عضّ اللحم بجميع أسنان الفم من دون نتف، والانتهاس يكون بمقدم أسنان الفم مع نتف.

إن أكـنْ أصبحتُ مَحبــو سًا فللـغيـث احتبـاسُ

فقوله: "يلبد الورد السبنتى ... البيت"، كقول النابغة يحذر قومَه بطش النعمان(1): البسيط

وقـلتُ يا قومُ إنَّ الليثَ مُنقَبِضٌ على بَراثنهِ لوَثبَةِ الضـاري

وقوله يمدح المعتمد بالفطنة وفكّ المعمَّى، وأنّه يشبه أباه المعتضد(2): مجزوء الرجز

شِنْـشِـنةٌ أعْرفُـهـا في شبلِ مَلْكٍ منْ أسَدْ

فهذا من المثل: "شنشنةٌ أعرفها من أخزمِ"، من شعر قيل لجدّ حاتم الطائي.

ومن المعاني المشهورة، التي أخذها بعض الشعراء الأندلسيين وحسنوا فيها بالزيادة على المعنى الأصلي، قول ذي الإصْبَع العَدْوانيّ(3): البسيط

كلُّ امرئ راجعٌ يـومًا لشيمتـهِ وإنْ تَخالَقَ أخلاقًا إلى حيـنِ

فأخذه أبو بكر يحيى بن بقي(-540هـ) في قوله(4):البسيط

الدَّهرُ أخونُ من أن يستقيمَ لكـمْ وإنـما جـادَ عن كَرْهٍ ولم يكـدِ

ومن تصنَّع يرجعْ بعـد آونــةٍ إلى الطباع رجوعَ العَيْر للوتـدِ

وقد "استولى على الأمد، ونفث بالسّحر في العقد، بقوله:"رجوع العَيْر للوتد"(5).

ويقول الحصْري، أبو الحسن علي بن عبد الغني الكفيف(-488هـ) من قصيدة في رثاء ابنه عبد الغني(6): مجزوء الكامل

عـروقُ الناس كلـهـمُ إلـى عِـرْقِ الثرى تَشِـجُ

فهذا من قول امرئ القيس(7): الوافر

إلى عِرقِ الثـرى وَشَجَتْ عُروقي وهذا المَوتُ يَسلبُني شَبابـي

والملاحظ أنّ معاني شعر الحصري الذي منه البيت، تضمَّنَ كثيرًا من معاني قصيدة امرئ القيس التي منها بيته السابق.

---

(1) ديوان النابغة الذبياني، ص 55 .

(2) ديوانه ورسائله ص 604، والمثل وقصته في العقد، 96/3 .

(3) المفضليات، ص 160 . (4) الذخيرة، 622/2/2 . (5) الذخيرة، 623/2/2 .

(6) الذخيرة، 275/1/4، والحصري هذا هو ابن خالة أبي إسحاق إبراهيم الحصري صاحب زهر الآداب، هاجر إلى الأندلس بعد خراب بلاده القيروان، ومن شعره المشهور قوله:

يا ليل الصبُّ متى غده أقيام الساعة موعدهُ

رقـد السمار فأرّقـه أسف للـبين يـرددهُ

(7) ديوانه، ص 98 .

في غرض الرثاء:

إنّ غرض الرثاء لدى الشعراء الأندلسيين من الأغراض المحافظة؛ فنزع كثير منهم في رثائهم للأشخاص أو الدول أو المدن، إلى شكوى الدّهر، وذكر مآل الخلق، والإشارة إلى الممالك الزائلة، والحصون الخربة، وعظماء الناس الذين أبادهم الدّهر، وتتابعت عليهم الخطوب، منذ قديم الزمان؛ وربطوا بين الفجائع الحديثة وفجائع الماضي، للاعتبار والمواساة، إذ كلُّ شيء إلى هلاك. وهذا ما أشار إليه ابن بسام تعليقًا على قصيدتين لأبي محمد عبد المجيد بن عبدون (-527هـ) في الرثاء، يقول ابن بسام(1): "وهذه القصيدة طويلة، سلكَ فيها أبو محمد طريقته في الرثاء، إلى الإشارة والإيماء، بمنْ أبادَه الحدثان،من ملوك الزمان، وقد نسق ذكرهم على توالي أزمانهم في قصيدة (أخرى له)...اقتفى أبو محمد (فيها) أثرَ فحول القدماء، من ضربهم الأمثالَ في التأبين والرثاء، بالملوك الأعزَّة،...، وغير ذلك مما هو في أشعارهم موجودٌ، فأما المحدثون فهم إلى غير ذلك أميل، وربّما جروا أيضا على السنن الأوّل". ويورد عبد الواحد المراكشي هذه القصيدة كاملة في المعجب، ويعلل سبب إيرادها بقوله:" لصحّة مبانيها، ورشاقة ألفاظها، وجودة معانيها"(2).

أما قصيدة ابن عبدون الأولى فهي في رثاء الوزير الفقيه أبي مروان بن سراج(-489هـ)، يفتتحها بقوله(3): البسيط

ما مِنكَ يا مَوتُ لا واقٍ ولا فادي الحُكمُ حُكمُكَ في القاري وفي البادي
-سَلني عَنِ الدّهرِ تَسأَل غَيرَ إمَّعَةٍ فَأَلقِ سَمعَكَ واستَجمِع لإيرادي
نَعَم هُوَ الدّهرُ ما أَبقَت غَوائِلُهُ على جديسٍ ولا طسمٍ ولا عادِ

والقصيدة الأخرى لابن عبدون، الموسومة بالبسّامة، في رثاء بني الأفطس: المتوكل وولديه الفضل والعباس، وهم من بني مَسلمة، وقتلوا سنة 487هـ، بعد دخول المرابطين بطليوس، يفتتحها بالحديث عن وجوب عدم اغترار الإنسان بلحظات سروره لأنّ الدَّهر

---

(1) الذخيرة، 818/2/1، وهي في المعجب، وينظر في رثاء الممالك والبكاء على خراب العمران شعرًا ونثرًا، النفح، 505-501/1 .

(2) المعجب، ص 76 .

(3) ديوانه، ص 127-128، والذخيرة، 816/2/1 - .

غدّار، فيقول(1): البسيط

الدّهرُ يُفجِعُ بَعدَ العَينِ بِالأَثـــرِ فَما البُكاءُ عَلـــى الأَشباحِ والصّوَرِ
- فالدّهرُ حَربٌ وإن أَبدى مُسالمَةً والبيضُ والسودُ مِثلُ البيضِ والسُّمُرِ
- ما لليالي أَقالَ اللهُ عَثرَتَنـــا مِـــنَ اللّيالي وَخانَتها يَدُ الغِيَرِ

ويبين الدليل على غدر الدهر بذكر ما أباده من الدول والأمم والأقوام والقبائل والأبطال، من ملوك الفرس الأوائل والأواخر، ومملكة اليونان، وعاد وطسم وجديس وجرهم، والأكابر من مضر، وأهل اليمن وقبائلهم، ومملكة سبأ، وكليب والمهلهل وامرئ القيس، وحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء،..؛ لأخذ العبرة والاتعاظ من مآسي الآخرين عزاء وتأسيًا. يقول من ذلك(2):

هَوتْ بدارا وفلّتْ غـرْبَ قاتلـــه وكان عَضْبًا على الأملاك ذا أُثُرِ
واسترجَعَتْ مِن بَني ساسانَ ما وَهَبَتْ ولم تَدَع لبَني يونانَ مِـــن أَثَرِ
وأَلحَقَت أُختَها طسمًا وعاد علـــى عادٍ وَجُرهُم مِنـــها ناقِضُ المِرَرِ
-وَمَزَّقَت سَبَأ في كـــلِّ قاصِيَةٍ فما التَقى رائِـــحٌ مِنهُم بِمُبتَكِرِ
وأَنفذَتْ في كُليبٍ حُكمَها ورَمَـــت مُهَلهلا بَينَ سَمعِ الأَرضِ والبَصَرِ
ولم تَرُدَّ على الضِلّيلِ صِحَّتَـــهُ ولا ثَنَت أَسَدًا عن رَبِّها حُجُـــرِ
ودوّخَت آلَ ذُبيانٍ وإِخوَتَهُـــمْ عَبسًا وغَصَّت بَني بَدرٍ علـــى النَّهَرِ
وأَلحقَتْ بِعَدِيٍّ بِالعراقِ عـــلى يَدِ ابنِـهِ أَحمَرَ العَينَينِ والشَّعَـــرِ
وأَهـــلكَت إبرويزًا بابنِهِ ورَمَـت بِيَزْدَجِردَ إلى مَروٍ فلم يَحُـــرِ
وبَلَّغت يَزدجردَ الصينَ واختَزَلَت عَنهُ سوى الفرس جَمع التُركِ والخَزَرِ

---

(1) ديوانه، ص139–152، الذخيرة، 2/2/721-724، وهي في المعجب، ص 76-87، والمطرب، ص 27-33 .
والقصيدة طويلة في سبعة وسبعين بيتا، وشرحها ابن بدرون: "شرح قصيدة ابن عبدون، المعروفة بالبسامة، في التاريخ والأدب، للعلامة أبي القاسم عبد الملك بن عبدالله بن بدرون الحضرمي البستي(-610هـ)، ط 1، طبع على نفقة الشيخ محيي الدين الكردي، مطبعة السعادة، القاهرة، 1340هـ-1921م، البيت الأول ص 9، ويسمى هذا الشرح بكمامة الزهر وفريدة الدهر أو كمامة الزهر وصدفة الدر أو شرح البسامة بأطواق الحمامة، مقدمة المحقق، ص 2، وقام المحقق بذكر القصيدة وحدها آخر الكتاب، ص 299-302 .
(2) ديوانه، ص 140-147 . وفصل ابن بدرون في كثير من هذه الأحداث والشخوص: دارا، ص 12، 20، 22-، بني ساسان، ص 32-، 41-، 45، وطسم وجديس وعاد، ص 62-، 101-، 107-، والبسوس، ص 109-، ومقتل عدي ابن زيد الشاعر ومقتل النعمان بن المنذر، على يد كسرى،ص 128 -، يزدجرد ابن شهريار آخر ملوك الفرس، واستغاث بالترك والخزر وكان مقتله بأيدي الفرس أنفسهم، ص 138- .

ولابن عبدون قصيدة ثالثة في رثاء أخيه عبد العزيز: بدأها بذكر الدّهر الخؤون، وأن المنون أتى على القرون السابقة(1): الوافر

رُوَيدَكَ أَيُّها الدّهرُ الخَؤونُ سَتَأكُلنـــا وإيّـاكَ المَنـونُ

تعللنا الأماني وهـيَ زورٌ وتخدَعُنا الليالي وهيَ خونُ

وكم غَرَّت بِزِبْرِجِها قُرونا فما أبقَتْ ولا بَقَتِ القُرونُ

ويختمها بقوله:

وهل يبقى على غِيَرِ الليالي شَفيـقٌ أَو شَقيقٌ أَو قَـرينُ

ومن القصائد الرثائية للدول قصيدة ابن اللبانة أبي بكر محمد بن عيسى الداني(-507هـ) في رثاء دولة بني عباد، ويصف فيها خروج المعتمد وأسرته من إشبيلية، محمولا على سفن ابن تاشفين بنهر الوادي الكبير، وقارن دولة بني عباد بدولة بني العباس، وبعاد وشدّاد، ولكنه لم يسهب في ذكر الماضي، ويفتتحها بقوله(2): البسيط

تبكي السماءُ بمُزْنٍ رائحٍ غـــاد عـــلى البهاليلِ من أبناءِ عَبَّادِ

على الجبال التي هُدَّتْ قواعدُها وكانت الأرضُ منها ذات أوتادِ

ومن القصائد الرثائية التي سلك صاحبها فيها طريقة العرب الأوائل، وتشبه البسامة، قصيدة الأعمى التطيلي أحمد بن عبدالله القيسي الضرير بن أبي هريرة(- 525هـ) في رثاء الشاب ابن اليَنّاقي، واسمه محمد، الذي قتل غيلة، ويقول فيها(3): الطويل

خُذا حَدِّثاني عن فُلٍ وفُـــلانِ لعلّي، أُرَى، باقٍ على الحَدَثانِ

-خُذَا مِنْ فمي هلاً وسوفَ فإنني أرى مِنهما غيرَ الذي تَـرَيان

ولا تعداني أنْ أعيشَ إلى غدٍ لعـــلَّ المنايا دونَ ما تعدانِ

ويطيل التطيلي فيها (في ثمانية وعشرين بيتًا)، فيسرد حوادث الدّهر ونوائبه، وعبرًا من التاريخ تؤكد حقيقة الفناء وزوال الأمم والحضارات ونهاية الأبطال وعمالقة التاريخ، ويسهب في تناول أحداث وقعت في الجاهلية، كحديثه عن حرب البسوس ومقتل كليب، وحرب داحس والغبراء، ومعارك عدوان والأوس والخزرج، في شيء من التفصيل، يدل على معرفة بأيام العرب وأبطالهم والأشعار التي قيلت في ذلك كله.

ويقول التطيلي في قصيدة رثائية أخرى له، معزيًّا بهلاك الماضين(4): البسيط

قلْ للمحدّثِ عنْ لقمانَ أو لـُبَدٍ لـم يتركِ الدّهرُ لقمانًا ولا لبدا

---

(1) ديوانه، ص 186-187، والذخيرة، 719/2/2 .

(2) الذخيرة، 80/1/2 .

(3) ديوان الأعمى التطيلي، ص 224، 228 .

(4) ديوانه، ص 27 .

وللذي هَمُّهُ البنيانُ يرْفَعُـهُ إنّ الرَّدى لم يغادرْ في الشَّرَى أَسَدا
ما لابنِ آدمَ لا تَفْنَى مَطَالبُـهُ يرجُو غدًا وعسى أنْ لا يعيشَ غدا

ولابن حمديس الصقلي(-527هـ) قصيدة في رثاء زوجته، يشكو في مقدمتها خطوب الدّهر المهلك للناس والأمم والممالك، منها قوله(1): الخفيف

أيّ خطْبٍ عن قوْسِهِ الموْتُ يرْمي وسهامٌ تصيبُ منه فتُصْمي

ومنها قوله:

أين مـن عَمّرَ اليبابَ وجيـلٌ لبسَ الدّهرَ مـن جديسٍ وطسمِ
وملوكٌ مـن حِمْيرٍ ملأوا الأرْ ضَ وكانتْ من حكمهم تحتَ خَتْمِ
كَشّرَ الدّهر عن حِدادِ نُيوبٍ أكلَتهُمْ بكـلّ قَضْمٍ وَخَضْمِ
ومُحُوا من صحيفةِ الدَّهر طُرّاً مَحوَ هُـوجِ الرّياح آيـاتِ رسمِ

وكان ابن زيدون يشير إشارات خاطفة إلى أحداث الدهر وخطوبه، ويوجز الاعتبار من الماضي، دون تفصيل، كقصيدته اللامية في رثاء صديقه الحميم القاضي أبي بكر بن ذكوان(-435هـ)، ومنها قوله(2): الكامل

اعجَب لِحالِ السروِ كيفَ تُحالُ ولِدَولةِ العَلياءِ كيفَ تُدالُ
لا تَفسَحَن للنفسِ في شَأوِ المُنى إنَّ اغتِرارَكَ بالمُنى لَضَلالُ
-مَن سُرَّ لَمّا عاشَ قَلَّ مَتاعـُهُ فالعيشُ نَومٌ والسّرورُ خَيالُ
في كلِّ يَومٍ نُنتَحى بِرَزِيَّـةٍ للأَرضِ مِن بُرَحَائِها زَلزالُ
إن يَنكدِر بِالأمسِ نَجمٌ ثاقِبٌ فاليومَ أَقلعَ عارِضٌ هَطّالُ

وهذا التأسي بذكر الملوك الهالكين، والاعتبار من غِيَر الدهر، موجود في شعر أبي إسحاق الإلبيري، ومن ذلك قوله(3): الكامل

أينَ الملوكُ وأَينَ ما جَمَعوا وما ذخَروهُ مِن ذهَبِ المَتاع الذاهِبِ
ومِنَ السّوابِغِ والصَّوارِمِ والقنا ومِنَ الصّواهِلِ بُدَّنٍ وشَوازِبِ
كانَت سَوابِقُها تُحَمّلُ مِنهُـمُ أَقمارَ أَندِيَةٍ وَأُسْدَ كتائـبِ
كانوا ليوثَ خَفِيَّةٍ لكنَّهُـمْ سكَنوا غِياضَ أَسِنَّةٍ وقواضِبِ
قَصَفَتهُمُ ريحُ الرّدى ورَمَتهُمُ كَفُّ المَنونِ بكلِّ سَهمٍ صائِبِ

---

(1) ديوان ابن حمديس، ص 477–478 .
(2) ديوانه ورسائله، ص 530-531 .
(3) ديوانه، ص 106 .

إنَّ هذه الشكوى من مصائب الدّهر، والاعتبار من هلاك الأمم السابقة، تكثر في شعر الشعراء الجاهليين، في غرض الرثاء، وفي مقدمات قصائدهم في الشكوى من الدّهر، ويذكرون فيه الأمم البائدة، والأشخاص العظام الذين أصبحوا عبرة للأحياء، من ذلك قصيدة لزهير بن أبي سلمى يرثي حال النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى ليقتله ففرّ فأتى طيئًا، فرفضوا إيواءه خوفًا من كسرى، ولكن بني عبس آووه ومنعوه، يقول من ذلك(1): الطويل

ألا ليتَ شعري هلْ يرى الناسُ ما أرى ... من الأمرِ أو يبدو لهمْ مَا بَدا ليَا
بدا ليَ أنَّ الناسَ تفنَـــــى نفوسهـمْ ... وأموالهمْ ولا أرى الدّهرَ فانيـا
وأنّي متى أهبطْ منَ الأرض تلعــةً ... أجدْ أثرًا قبلي جديدًا وعافيـا
-ألا لا أرى على الحوادثِ باقيـًــا ... ولا خالدًا إلا الجبالَ الرواسيا
-أراني إذا ما شئتُ لاقيْتُ آيــــةً ... تذكّرُني بعضَ الذي كنتُ ناسيا
ألـم ترَ أن الله أهلك تُبَّعـًــــــا ... وأهلكَ لقمانَ بنَ عادٍ وعاديا
وأهلكَ ذا القرنينِ من قبلِ ما ترى ... وفرعونَ جبَّارًا طغى والنجاشيا
ألا لا أرى ذا إمَّةٍ أصبحتْ بــــه ... فتتركهُ الأيامُ وهيَ كما هيــا
ألم تـر للنعمان كان بنجـــــوةٍ ... من الشرِّ لو أن امرءًا كان ناجيا
فغيَّرَ عنه ملكَ عشرين حِجَّـــةً ... من الدّهرِ يومٌ واحدٌ كان غاويا
فلم أرَ مسلوبًا له مــثلُ مُلكـــــهِ ... أقلَّ صديقـًا باذلا أو مُــواسيا

وللأعشى ميمون بن قيس عدة قصائد، وفي مقدمات كثير منها يشكو فيها همومه، ويهوّن في الوقت نفسه من قيمة الدنيا، فيقص طرفًا من أخبار الأمم والملوك وما كانوا فيه من نعيم لم يردَّ عنهم الموت، فكلّ الناس إلى فناء، لا فرق بين كبير وحقير، وهذه القصص خليط من التاريخ والأساطير، يقول من إحدى قصائده(2): الطويل

أَرِقتُ وما هذا السُّهادُ المُــؤَرِّقُ ... وما بِيَ مِن سُقمٍ وما بِيَ مَعشَقُ
- فما أنتَ إن دامَت عَليكَ بِخالِدٍ ... كما لم يُخَلَّد قبلُ ساسا وَمُورَقُ
وكِسرى شَهنشاهُ الذي سارَ مُلكُـهُ ... لهُ ما اشتَهى راحٌ عَتيقٌ وزَنبَقُ
ولا عادِيًا لم يَمنَعِ المَوتَ مالُـهُ ... وحِصْنٌ بِتَيماءِ اليَهودِيِّ أَبلَـقُ
-ولا المَلِكُ النُعمانُ يَــومَ لقيتُـــهُ ... بِإِمَّتِـهِ يُعطي القُطوطَ ويَأفِـقُ

---

(1) ديوان زهير، ص 188-193، وتروى لصِرْمة بن أبي أنس الأنصاري قالها في الجاهلية، وكان ترهب وترك الأوثان.

(2) ديوانه، ص 267-269، القطوط: الصكوك بالجوائز، يأفق: يفضل هذا على ذاك في العطاء.

ويَقسِمُ أَمرَ الناسِ يَومًا وليلـــةً وهُـــم ساكِتـونَ والمَنِيَّةُ تَنطِـقُ
-فذاكَ وما أَنجى مِنَ الموتِ رَبَّهُ بِساباطَ حتى ماتَ وَهوَ مُحَزرَقُ

ويقص علينا الأعشى قصصًا عن قصور أضحت خرابًا بعد عمران، لأخذ العبرة من تقلبات الزمان، ويتناول قصة خراب سدّ مأرب، الذي بنته حمير من الرخام، فحفظ لهم الماء موفورًا، وأروى الزروع والأعناب، فعاشوا في غبطة ونعيم، حتى دهمهم السيل جارفًا، ففرق شملهم، وقذف بملوكهم إلى البيداء، وبدلهم من الماء سراب الصحراء، فأصبحوا لا يملكون منه شرب صبي مفطوم، "فَفي ذاكَ لِلمُؤتَسِي أُسوَةٌ" كما يقول الأعشى(1).

ويشكو الأعشى من الدّهر، في افتتاحية قصيدة مدحية، ويأتي على ذكر بعض الملوك الذين بادوا بعد عزّ، يقول من ذلك(2): المتقارب

لعَمرُكَ ما طولُ هذا الزمَنْ على المَرءِ إلا عَناءٌ مُعَنّْ
يَظلُّ رَجيمًا لِرَيبِ المَنونِ ولِلسُّقمِ في أَهلِهِ والحَزَنْ
وهالِكِ أَهلٍ يُجِنّونَـــهُ كآخَرَ في قفرَةٍ لم يُجَنّْ
وما إن أَرى الدّهرَ في صَرفِهِ يُغادِرُ مِن شارِخٍ أو يَفَنْ
-أليسَ أخو الموتِ مُستَوثِقًا عليَّ وإن قُلتُ قد أَنْسَأَنْ
-أزالَ أُذَينَةَ عن مُلكِهِ وأخرَجَ مِن حِصنِهِ ذا يَزَنْ

ويسهب الأعشى في قصيدة أخرى له في الحديث عن بعض الأمم البائدة، والمدن العامرة التي أصابها الخراب، وجار عليها الزمان، ويتحدث عن تفاهة الدنيا، وغدرها بالناس، ليصل من ذلك إلى أن كل شيء يصير إلى الزوال والفناء، لأخذ العبرة. فيذكر إرمَ وعاد وثمود، الذين أفناهم تتابع الليل والنهار، وغالت قبلهم المنايا طسْمًا، ولم ينجها الحذار، وكذلك جديس قد أصابها الشرّ المستطير، وأهل غُمْدان لم يدفع عنهم الخطوب ما جمعوا من المال والمتاع، وكذلك أهل جَوّ(اليمامة)، ووبَار(مساكن عاد في الأحقاف) ،..، فلن يعود العز الزائل، ولا يدفع النكبات شيءٌ، يقول من ذلك(3): مجزوء البسيط

ألم تَرَوا إرَمًا وَعادَا أَودى بِها الليلُ والنهارُ
بادوا فلمّا أَن تَآدَوا قَفّى عَلى إثرِهِم قُدارُ

---

(1) ديوان الأعشى، ص 93 . (2) ديوانه، ص 65 .

(3) ديوانه، ص 331، ويتحدث الأعشى عن قصر رَيْمان في اليمن، الذي كان تحت حكم الفرس، ثم أضحى تحت حكم الأحباش، فأصبح خرابًا بعد عمران، ديوانه، ص 339، ويتحدث كذلك عن قرىً، تصير بعد بهائها وعمارتها إلى الخراب، ديوانه، ص 301 . ويذكر النابغة الذبياني فعل غِيَر الدهر في قيول حمير، والتبعيين، وذي نؤاس، وغيرهم، ديوانه النابغة، ص 28 .

وقبلهُم غـالَتِ المَنـــــايا طسمًا ولم يُنجِهـا الحِـذارُ
وحَلَّ بالحَيِّ مِـن جَديسٍ يَومٌ مِنَ الشرِّ مُستَطــارُ
وأهلُ غُمدانَ جَمَّعـــوا لِلدّهرِ ما يُجمَعُ الخِـيـارُ
فصَبَّحَتهُم مِنَ الدّواهـي جـــائِحَةٌ عَقْبُها الـدّمـارُ
-بل ليتَ شِعري وأينَ ليتٌ وهـــل يَفيئَنَّ مُستَـعـارُ
وهل يَعودَنَّ بَعدَ عُسـرٍ علـــى أخي فـاقـةٍ يَسـارُ

ويقف الأسودُ بنُ يَعْفرٍ النهشليُّ التميميُّ، في غير موضع من شعره، حائرًا أمام الموت الذي لا مفرَّ منه، ضاربًا الأمثال من الأمم السابقة، ومن ذلك قوله، مشيرًا إلى أنَّ الموت هو نهاية المطاف، وكل كائن صائر إليه(1): الكامل

ماذا أؤمِّل بعد آل مُحـــــرِّقٍ تـــــركوا منازلهمْ وبعدَ إيـــادِ
أهلِ الخَوْرنق والسَّدير وبارقٍ والقصرِ ذي الشُّرُفاتِ منْ سِنْدادِ
-جَرَتِ الرِّياحُ على مكان ديارهمْ فكأنَّما كانوا على ميعـــادِ
ولقد غَنُوا فيها بأنْعَـمِ عيشةٍ في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتـــادِ
-أيْنَ الذين بَنَوْا فطالَ بنـاؤهمْ وتمتَّعوا بالأهـــل والأولادِ
فإذا النَّعيمُ وكلُّ ما يُلهى بـه يومًا يصير إلى بِلىً ونَـفـادِ

ولعَدِيّ بن زَيْد العِبَادي، في غير موضع من شعره، تساؤلات عن مصير الماضين، من ذلك قوله(2): الخفيف

أينَ أهلُ الدِّيارِ مِنْ قوْم نوحٍ ثـــــمّ عادٌ مـن بعدها وثَمودُ
بينما هُمْ على الأسِرّة والآنـ ـمَاطِ أَفضتْ إلى التُّراب الخُدودُ

وقوله أيضًا(3): الخفيف

أين كِسْرَى كِسرَى المُلوك أنوشِرْ وَانَ أمْ أين قبلَهُ سـابُورُ
وبَنُو الأصفَر الكِرَام مُلُوكُ الرُّ ـوم لـم يَبْقَ منهمُ مَذكـورُ
وأخُو الحَضْر إذ بَناه وإذ دِجْـ ـلةُ تُجْبَى إليه والخَابُـورُ
شادَهُ مَرْمَـــــرًا وجَلَّلـَه كِلْـ ـسًا فللطيْر في ذُرَاه وُكُـورُ
لم يَهَبْهُ رَيْبُ المَنُونِ فبَانَ الـ ـمُلْـكُ عَنْه فبَابهُ مَهْجـورُ

(1) المفضليات، ص 217 .
(2) العقد، 181/3 .
(3) العقد، 184/3- 185، الحضر: حصن عظيم على شاطئ الفرات بناه أجداد النعمان بن المنذر، الخابور: نهر كبير، الخورنق: قصر في الحيرة بناه النعمان بن امرئ القيس، السدير: نهر بالحيرة، وهو قصر أيضا من منازل آل المنذر.

وتَبيّنْ رَبّ الخَوَرْنق إذ أشـ رف يـــومًا وللهُدَى تفْكيـرُ
سَرّه مالُهُ وكثْرةُ مـا يمـ لكُ والبحرُ مُـعْرضًا والسَّدِيـرُ
فارْعوَى قلبُه وقال فما غِبـ ـطة حَيٍّ إلـى المَمَات يَصِيرُ؟
ثم بعد الفَلاح والمُلك والنِّعـ مة وارتهُـمُ هُنَاكَ القبُـورُ
ثـم صارُوا كأنهُمْ وَرَقٌ جَـــفَّ فألْوَت به الصَّبَا والـدَّبـورُ

ويقول كعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه أبا المغوار، الذي قتل في حرب ذي قار(1): الطويل

تقولُ ابنَةُ العَبسِيِّ قد شِبتَ بَعدَنا وكلُّ امـرئ بَعــدَ الشبابِ يَشيـبُ
-فقلتُ ولم أَعيَ الجَوابَ ولم أُلِحْ وللدّهرِ فـي الصُّمِّ الصِّلابِ نَصيبُ
تَتابَعَ أحداثٌ تخرَّمنَ إخــــوَتي فشَيَّبـنَ رَأسي والخُطـوبُ تُشيـبُ
لعمري لئن كانت أصابتْ منيةٌ أخــي والمنايـا للرّجال شَعـوبُ
لقد كانَ أَمّا حِلمُهُ فَمُــــرَوَّحٌ عَليـنا وأَمّا جَــهلُهُ فعَزيــــبُ
-غَنينا بِخَيرٍ حِقبَةً ثمَّ جَلَّــــحَـتْ عَليـنا الـتي كُلَّ الأَنامِ تُصيــبُ
- لقد أَفسَدَ الموتُ الحَياةَ وقد أَتى علـى يَومِهِ عِلقٌ علــيَّ حَبيــبُ
فإن تكُنِ الأَيّـامُ أَحسَنَّ مَــرَّةً إلـيَّ فقد عادَت لهُــنَّ ذُنــــوبُ
أتى دونَ حُلوِ العَيشِ حتى أَمَرَّهُ نَكـوبٌ علـى آثارِهِــنَّ نُكــوبُ

فاشترك الشعراء الأندلسيون والشعراء الجاهليون في ضرب الأمثال بالأمم الزائلة والممالك الهالكة، والحصون المنيعة، وتشابهت معظم أسماء هذه الأمم والممالك في شعرهم، كطسم وجديس وعاد وسبأ، والفرس واليونان، وحصن الأبلق وحصن غمدان، وحتى في أسماء الملوك، ملوك اليمن وملوك الفرس، وملوك العرب، خاصة النعمان بن المنذر، الذي كان يُضرب به المثل في القدرة والمهابة والعطاء؛ فخافته قبائل العرب، ثم أضحى شريدًا تخاف القبائل من إيوائه، حتى استسلم لقدره فأضحى سجينًا، ثم قتيلا على يد سيده كسرى. وقد يكون اللفظ على العموم بذكر القرون الأولى، والملوك الماضين.

ويشترك شعراء الأندلس وشعراء الجاهلية في نزعة الاستسلام للقدر، والإقرار بحقيقة الموت الذي هو كأس يذوقها الجميع، ولم يسلم منها أحد، لا ملك ولا سوقة، ولا دولة قوية ولا حصن حصين، ولا قصر مشيد. وإن مغزى الشعراء الجاهليين من ذكر الدول الزائلة هو المغزى نفسه لدى الشعراء الأندلسيين، وهو التأمل في مصير الخلق والتأسي عن مصابهم. وإنّ الحيرة التي

---

(1) القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، حققه وضبطه وزاد في شرحه علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة-القاهرة،د.ت، ص 555-562. واسم الشاعر مختلف عليه.

بدت لدى أغلب الجاهليين من مصير الخلق لم تكن عميقة لدى الشعراء المسلمين الذين يؤمنون بالآخرة، ويسلمون بقضاء الله، ويصبرون احتسابًا لوجهه تعالى. في حين نجد كثيرًا من شعراء الجاهلية ينصرفون إلى تسلية أنفسهم بالغرف من متع الدنيا، وإن برزت هذه الظاهرة لديهم في غير غرض الرثاء.

وتشابهوا في شكوى تغير الدّهر وتقلب الليالي، التي تحيل النعيم شقاء، والفرح حزنًا، والعزة ذلة، والقوة ضعفًا، والصحة سقمًا، ولا تبقي حالا على حال.

ومن الملاحظ أن الإسهاب في ذكر الأمم الهالكة لدى الأعشى خاصة، لم يكن في غرض الرثاء، وإنما في قصائد كان أغلبها في غرض المديح، قدم لها في شكوى الدّهر، وعرَّج على ذكر الممالك الهالكة، ولعلّ غرض المدح سمح للشاعر في تنقيح معانيه، والاستطراد في شكواه، في حين لم يسهب أصحاب المراثي من الشعراء الجاهليين في ذكر الدول الغابرة، وقد تكون عاطفة الشاعر الصادقة في رثائه صرفته عن ذلك، وإذا كان ذلك صحيحًا، وهو كذلك، فما بال بعض الشعراء الأندلسيين، خاصة ابن عبدون والأعمى التطيلي، يطيلون الحديث في كثير من مراثيهم عن الأمم السابقة؟ فإما أنهم كانوا يحككون مراثيهم، أو أن عواطفهم لم تكن صادقة؛ فسمحت لهم قريحتهم بالتجويد والإطالة.

وتتشابه مراثي الأندلسيين ومراثي الجاهليين في تهويل الخطب، والجزع الشديد على المصاب، وتعظيم المرثيّ، وذكر التزهد في الدنيا بعده، والإعراض عن متاعها، والأشعار في ذلك كثيرة، خاصة في مراثي الخنساء وأوس والمهلهل من الجاهليين، وابن زيدون والإلبيري وابن عبدون من الأندلسيين، حتى إنَّ ابن عبدون أشار في قصيدة رثائية رابعة له يرثي فيها أبا محمد بن خلدون الذي استشهد في معركة الزلاقة سنة 479هـ، وكان من وزراء المعتمد، أشار إلى الخنساء ومراثيها في أخيها صخر، فيقول(1): الطويل

مَلكتَ فَأسجحْ لا أبا لكَ يـا دَهـــــرُ — أَفـي كُلِّ عامٍ في العـــلا فَتكَةٌ بِكْرُ

رَثَتهُ فقلـــــــــنا إنَّهـا لَتُماضِـرٌ — وإنَّ ابنَ خَلـــدونٍ لَمَفقودُها صَخـرُ

مَضى لم يَرِث عَنهُ الرئاسَةَ وارِثٌ — ولولا المَساعي الزهرُ لانقطَعَ الذكرُ

وما كانَ إلا الغَيثَ أَقلَعَ جُملــــــةً — فلــــم يَكُ مِنهُ لا غَديرٌ ولا زهــرُ

وإنّ كثيرًا من إشارات الشعراء الأندلسيين إلى الحوادث التي وقعت لأشخاص في العصر الجاهليّ، أخذوها أصلا من أشعار الجاهليين، ومن دون ذكر تلك الأشعار تبقى إشاراتهم

---

(1) ديوانه، ص 137، الذخيرة، 720/2/2 .

غفلا، ومن ذلك قول ابن عبدون –على سبيل المثال- من البسامة(1):

ولـم تَرُدَّ على الضِّليلِ صِحَّتَهُ ولا ثَنَت أَسَدًا عـن رَبِّها حُجرِ

فهذه الإشارات التاريخية في هذا البيت توجز أحداثا جسامًا وقعت لامرئ القيس ولأبيه، وابن عبدون يدرك تلك الأحداث، ويظن أنّ المتلقي على علم بها، وإلا تكون هذه الإشارات كالطلاسم والرموز؛ ولهذا جاء شرح ابن بدرون للقصيدة لتبيان مثل هذه الإشارات، مدعمًا إياها بالشعر الجاهلي للتوضيح. وإنما ذكر الشاعر لهذه المصائب أو ما أتت عليه الليالي ليثبت هول نهاية بني الأفطس، معزيًا ومواسيًا. أما قوله: "ولم تردَّ على الضليل صحته"، لقول امرئ القيس بن حُجْر في السينية التي أولها: " ألمّا على الرّبع القديم بعَسْعَسا"، وفيها يقول(2): الطويل

وبُدِّلتُ قَرحًا داميًا بَعدَ صِحَّـــةٍ لعــلَّ مَنايانا تَحَوَّلنَ أَبـؤُسا

لقد طَمَحَ الطَمّاحُ مِن بُعدِ أَرضِهِ لِيُلبِسَني مِـن دائِــهِ مـا تَلَبَّسا

والطماح رجل من بني أسد، أرسل معه قيصر حلة مسمومة إلى امرئ القيس، فلما لبسها تقطع لحمه فمات بأنقرة من بلاد الروم، وقيل إن سبب ذلك أن قيصر الروم كان أتاه امرؤ القيس يستنجده على بني أسد الذين قتلوا حجرًا،وفي ذلك يقول امرؤ القيس حين بلغه قتله(3): المتقارب

عجبتُ لبَرْق بليْلٍ أَهَلْ يُضيءُ سَنَاهُ بـأَعلى الجَبَلْ

- لـقَتْل بَنـي أَسَدٍ رَبَّـها أَلاَ كلُّ شَيءٍ سِوَاهُ جَلـلْ

ومن أجل هذا قال ابن عبدون: "ولا ثنتْ أسداً عن ربها حجر"(4).

وإن قصيدة الرثاء الأندلسية غالبًا ما تتشابه مع أختها الجاهلية، في كثير من الظواهر المعنوية والبنائية والأسلوبية؛ فتتشابه أغلب الفضائل التي خُلعت على المرثيّ؛ وعلى رأسها أربع، وهي: العقل والشجاعة والحلم والعفة، وهي من مناقب المدح، وقد يزيد الأندلسيون على هذه الصفات: التقوى والتبحر في العلوم.

وقد تأتي هذه المناقب مجموعة جمعًا في بيت أو أبيات قليلة أو كثيرة، أو مختصرة ببعض الألفاظ، ولكنّ الأهمّ من ذلك هو تشابه الأساليب في ذكرها، بأن يصرّحوا أنَّ القبر قد تضمن هذه الفضائل أو تضمَّنَ بعضها، من مثل قول الأعمى التطيلي معزيًا(5): البسيط

في ذمَّةِ الله قبْرٌ ما مَرَرْتُ بـــــه إلا اختُلِسْت أسىً إنْ لم أمُتْ كمدا

تَضَمَّنَ الدِّينَ والدُّنْيا بأَسرِهـــما والعزمَ والحزمَ والإيمانَ والرَّشدا

والسؤددَ الضخمَ مضروبًا سُرادِقُه قد ودَّتِ الشمسُ لو كانتْ له عُمدا

---

(1)ديوانه، ص 141 . (2) ديوان امرئ القيس، ص 107-108 . (3) ديوان امرئ القيس، ص 261 .

(4) وينظر ابن بدرون، ص 119 . (5) ديوان الأعمى التطيلي، ص 23 .

وقول أبي إسحاق الإلبيري في رثاء زوجته، بعد ذكر قبرها(1): الكامل

فلكَم تَضَمَّنَ مِن تقىً وتعَفُّفٍ وكريمِ أَعراقٍ وعِرضٍ طاهر ِ

وهذا مثل قول كعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه أبا المغوار الذي قتل في حرب ذي قار(2): الطويل

لعمري لئنْ كانتْ أصابتْ منيةٌ أخي والمنايا للرِّجال شَعوبُ

-أخي ما أخِي، لا فاحشٌ عند بيتهِ ولا وَرَعٌ عند اللقاءِ هيوبُ

هَوَت أُمُّهُ ماذا تَضَمَّنَ قبرُهُ مِنَ المَجدِ والمَعروفِ حينَ يَنوبُ

وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر(3): الطويل

وماذا ثوى في اللَّحْدِ تحتَ تُرابِهِ مِن الخيرِ يا بُؤْسَ الحوادثِ والدّهرِ

منَ الحَزْم في العَزَّاء والجود والنَّدى لدى ملكِه عند اليَسارة والعُسْرِ

وقد يختصرون الفضائل في بعض الألفاظ، التي تجمع الخلال الحسنة كلها، من مثل قول ابن زيدون في رثاء صديقه الحميم القاضي أبي بكر بن ذكوان، في قوله(4): الكامل

يا مَن شَأى الأَمثالَ مِنهُ واحِدٌ ضُرِبَت بِهِ في السُّودَدِ الأَمثالُ

وهذا شبيه بقول كعب الغنوي في رثاء أخيه أبي المغوار(5): الطويل

جموعُ خلالِ الخيرِ من كلِّ جانبٍ إذا حَلَّ مكروهٌ بهنَّ ذَهُوبُ

وقول أوس في رثاء فضالة(6): البسيط

على امرئٍ سُوقةٍ ممن سمعتُ بهِ أندَى وأكملَ منه أيَّ إكمال ِ

ويتشابهون في أسلوب النفي التشبيهي، تحسرًا وحزنًا على ما كان يجيده المرثيّ من فضائل، كقول ابن زيدون في رثاء المعتضد بن عباد(7): الطويل

كأن لم تَسِر حُمْرُ المَنايا تُظِلُّها إلى مُهَجِ الأَقتالِ راياتُهُ الحُمرُ

-ولم يَنتَجِعهُ المُعتَفونَ فَأقبلتْ عَطايا كَما والى شَآبيبَهُ القَطْرُ

-ولم يَتَشَذَّر للأُمورِ مُجَلِّيًا إليها كما جَلّى مِنَ المَرْقَبِ الصَّقرُ

وهذا يشبه شعرَ كعبٍ في رثاء أخيه أبي المغوار، كقوله(8): الطويل

---

(1) ديوانه، ص 74 . (2) جمهرة أشعار العرب، ص 556-557، و"هَبوب" بدل "هيوب".

(3) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو الشريد السلميّة(-24هـ)، شرحه ثعلب أبو العباس أحمد ابن يحيى بن سيار الشيباني النحوي(-291هـ)، حققه أنور أبو سويلم، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 1409هـ-1988م، ص 130-131 . (4) ديوانه ورسائله، ص 533 (5) جمهرة أشعار العرب، ص 558 .

(6) ديوان أوس، ص 102 . (7) ديوانه ورسائله، ص 565- 566 . (8) جمهرة أشعار العرب، ص 559، 562 .

كأنْ لمْ يَكنْ يدعو السّوابِحَ مَـرَّةً   بـذي لجبٍ تحتَ الرِّمَاحِ مهيـبُ
-كأنَّ أَبـا المِغوارِ لم يوفِ مَرْقبًا   إذا رَبأ القَـومَ الغُـزاةَ رَقـــيـبُ
ولم يَدعُ فِتيانـًا كِرامـًا لِمَيسِـرٍ   إذا اشتَدَّ مِـن ريحِ الشتاءِ هُبـوبُ

وتتشـابه أسـاليبهم كذلك فـي ذكـر فضـائل الميت، بتوظيـف أسـلوب الاسـتفهام الرثـائي، تفجعًا علـى مكارم المرثيّ، ومن ذلك قول ابن زيدون في رثاء ابن ذكوان(1): الكامل

مَن لِلندِيِّ إذا تَنـازَعَ أَهلُـهُ   فاستَجهَلتْ حُلَماءَهُ الجُهّــالُ
-مَن لِليَتيمِ تَـتابَعَـتْ أرزاؤُهُ   هَلكَ الأَبُ الحاني وضاعَ المالُ

وقول ابن عبدون في البسامة(2): البسيط

مَـن للأَسرَّةِ أَو مَـن للأَعِنَّةِ أَو   مَـن للأَسِنَّةِ يُهديها إلـى الثُـغَـرِ

وقوله في رثاء الوزير الفقيه أبي مروان بن سراج(3): البسيط

مَن لِلعُلومِ إذا مـا ضَلَّ ناشِدُهـا   فـي ظلمَةِ الشكِّ بَعدَ النَيّرِ الهادي

وله من البسامة(4): البسيط

مَن لي ومَن لهم إن أَظلمَت نُوَبٌ   ولـم يَكن ليلُها يُفضي إلـى سَحَرِ

وهذا مثل قول أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة الأسدي(5): البسيط

أبا دليجَةَ من يُوصَى بأرملـــةٍ   أمْ منْ لأشعثَ ذي طِمْرينِ طِملالِ
-أبا دليجةَ من يكفِي العشيــرةَ إذ   أمْسَوْا مـن الأمرِ في لَبسٍ وبَلبالِ

وتتشابه صيغ الأمر الرثائية، في بكاء من كـان الميت يحسـن إليهم، أو الأشياء التـي كـان الميت يزاولها، ومن ذلك قول ابن زيدون في رثاء أمّ المعتضد(6): الطويل

لِتَبكِ الأَيامى واليَـتامى فَقيدَةً   هـيَ المُزنُ أَحيا صَوبُــهُ ثمَّ أَقشَعا
أَضَلَّهُـمُ فقدانُهـا فكأنَّـما   أَضَلَّتْ سَوامُ الوَحشِ في الجَدبِ مَرتَعا

وهذا كقول أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة الأسدي(7): المنسرح

ليبكِكَ الشَّربُ والمُدامةُ والـ   فتيانُ طُرًّا وطامعٌ طمِـعَا
وذاتُ هِدْم عارٍ نواشــرُها   تُصْمِتُ بالماءِ تولبًا جَدِعَا

وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر(8): البسيط

ليـبكِـهِ مُقترٌ أَفنى حَريبَتَـهُ   دَهـرٌ وحالَـفَهُ بُـؤسٌ وإقتـارُ

---

(1) ديوانه ورسائله، ص 534-535 .   (2) ديوانه، ص 148 .   (3) ديوانه، ص 130 .
(4) ديوانه، ص 150، ويروى" من لي ولا من بهم" عوضًا عن " مَن لي ومَن لهم".
(5) ديوان أوس، ص103-104. (6) ديوانه ورسائله، ص 551 . (7) ديوان أوس، ص55 . (8) ديوانها، ص 391.

وتشبيهاتهم للميت تكاد تكون واحدة، فيشبهون المرثيَّ بالجبل والبحر والقمر والشمس والنهر والغيث والليث والسيف والرمح، وكذا يقال في تشبيه أخلاقه، فهي كالعسل والراح. وصورة المنية على حالها، فالمنايا سهام صائبة، لا يملك أحد لدفعها حولا ولا قوة.

وتشابهت بعض أشعارهم في المبنى دون اللفظ والمعنى، أو في المبنى والمعنى؛ كقول المعتمد ابن عباد في رثاء ولديه: الطويل

فلوْ عُدْتما لاخْتَرْتما العَوْدَ في الثرى إذا أنتما أبْصرْتمانـيَ فـي الأسْرِ

يقول ابن بسام تعليقًا على شعر المعتمد: "وهذا يشبه أشعار النساء في الرثاء، وينظر إلى قول الخنساء في صيغة المبنى، وإن خالفه في المعنى، وهو: (الوافر)

فلولا كثرةُ الباكينَ حولي على إخـوانهمْ لقتلتُ نَفسي"(1)

ومثل قول ابن شهيد في الرثاء(2): الطويل

وقالوا أصابَ الموتُ نفسًا كريمـة فقلتُ لصَحْبي هذه نفْسُ صالحِ

يشبه في مبناه ومعناه قول دريد بن الصمة في رثاء أخيه(3): الطويل

تنادَوْا فقالوا أرْدَتِ الخيلُ فـارسًا فقلتُ: أعبدُ الله ذلكـمُ الـرَّدي

وشابهت المراثي الأندلسية مراثي الجاهليين في شيوع بعض الظواهر المعنوية: كالاستسقاء لقبر الميت، وإن كثرت في رثائيات الأندلسيين الدعوة للميت بالرحمة عوضًا عن الدعاء بالسقيا، أو ترافق الدعاءان معًا في القصيدة نفسها. وتجدر الإشارة إلى أنّ دعاء الشاعر الجاهليّ بالسقيا للطلل لا تختلف عن دعائه بالسقيا لقبر المرثي إلا في إشارته إلى أنَّ هذا الاستسقاء لطلل أو لقبر، وكذلك فعل كثير من الشعراء الأندلسيين في الاستسقاء لأطلالهم أو لقبور مرثييهم، أو للمدن التي أصابها الخراب. وهذا يدلّ على أنّ البكاء على الأطلال في مقدمات القصائد هو رثاء عام للعمران المهدّم. ثم إنّ بعض الشعراء الأندلسيين حاكى بعض أساليب الشعراء الجاهليين في الاستسقاء؛ ومن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن المعلى-من شعراء المقتدر بن هود(-475هـ)- في الرثاء، يستسقي للضريح(4): الكامل

وسقى ضريحَك بعد أخذ عهوده ألا يُغِبَّ مُجَلجِلٌ سَكَّـابُ

فهذا الحشو الذي يأتي للاحتراس وتتميم المعنى، وهو من البديع الحسن، هو شبيه بقول طرفة، يستسقي لبلاد ممدوحه قَتادة بن سَلمة الحَنيفيّ(5): الكامل

---

(1)الذخيرة، 70/1/2 . (2) ديوانه، ص 96 . (3) الأصمعيات، ص 113 .

(4) الذخيرة، 845/2/3 .

(5) ديوان طرفة بن العبد، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، تحقيق ناصيف سليمان عواد، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة"آفاق عربية"، بغداد، 2000م، ص 168.

فسقى بلادَكَ -غيرَ مفسدها - صَوْبُ الربيع وديمةٌ تَهْمي

واحتراسُ طرفة أسلمُ من احتراس أبي إسحاق الذي استغرق أكثر ألفاظ البيت.

ومن الاحتراس الحسن قول النابغة الذبياني، يستسقي لقبر النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني من قصيدة يرثيه فيها(1): الطويل

سَقى الغَيثُ قبرًا بَينَ بُصرى وجاسِمٍ بغَيثٍ مِنَ الوَسمِيِّ قطرٌ ووابِلُ

إذ إنَّ لفظ الغيث يرتبط معناه بالنعمة، والوسميَّ هو أول المطر، ويسم الأرضَ بالنبات.

ومن الظواهر المشتركة بين بعض المراثي لدى الجاهليين وبعض المراثي لدى الأندلسيين: استعارة أسطورة بكاء الحمامة على هديلها، منذ عهد نوح، لحال الشاعر البكَّاء على الفجيعة التي حلَّت به؛ ومن ذلك قول ابن خفاجة يرثي بعض أصدقائه(2): الطويل

وقفتُ وقوفَ الثُّكْلِ بَينَ قبورِهِمْ أُعظِّمُها مِن أَعْظُمٍ ورِجامِ

وأندُبُ أشجى رَنَّةً مِن حَمامَةٍ وأبكي فأقضي مِن ذِمامِ رِمامِ

كما رثى أمية بن أبي الصلت قتلى بدر من قريش في قصيدة طويلة، منها قوله(3): مجزوء الكامل

ألاّ بَكَّيْتَ على الكِرا مِ بَني الكِرامِ أُولِي المَمَادحْ

كَبُكا الحَمامِ على فُرو عِ الأيْكِ في الغُصُنِ الجَوانحْ

رثاء النفس:

ندبَ بعضُ الشعراء أنفسهم وناحوا عليها وبكوها، منذ العصر الجاهلي؛ ويقال إن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على لسانه يزيد بن خذّاق الشنيّ العبديّ، فيذكر مصير الإنسان، وحتمية الموت، فهو يستخف بالدنيا، فيقول من مقطوعة شعرية له:(4) البسيط

هل للفتى من بناتِ الدهر مِن وَاقِ أم هل له من حِمام المَوْتِ من رَاقِ

وممن ندب نفسه وناح عليها عبدُ يَغوثَ بن وَقّاصٍ الحارثيّ القحطانيّ، حين أراد بنو تميم قتله بعد أسره، فقال قصيدة، منها(5): الطويل

ألا لا تلوماني كفى اللومَ ما بِيا وما لكما في اللوْم خيرٌ ولا ليَا

وشاع هذا الندب للنفس لدى بعض الشعراء الأندلسيين، وعُنوا بهذا الجانب، ونظموا أشعارًا وكتبوها على قبورهم، ومنهم من نعى نفسه حين توقع الموت، كابن شهيد(-426هـ) الذي

---

(1)ديوان النابغة، ص 90 . (2) ديوان ابن خفاجة، ص 53 . (3)العقد، 3/294-296 .

(4)العقد، 3/240-241 ، وتروى للمزق العبدي شأس بن نهار، وقيل هو ابن خذاق نفسه، المفضليات، ص 300.

(5) العقد، 5/200- ، والمفضليات، ص 155 .

أوصى أن يكتب على قبره نظم، مطلعه(1): مجزوء البسيط

يا صاحِبِي قُمْ فقد أَطَلْنَا أَنَحْنُ طُولَ المَدى هُجُودُ ؟

وينظم ابن شهيد اثني عشر بيتًا، وهو آخر ما قاله في مرضه، ودنو أجله، مخاطبًا صديقه أبا محمد بن حزم يطلب منه تأبينه، وذكر محاسنه، لعلّ هامته- وهو في القبر- تسمع هذا الثناء من شادٍ أو مطرّب، يقول من ذلك(2): الطويل

فلا تَنْسَ تأبيني إذا مـــــا فقدتَني وتَذكارَ أَيَّامِي وفضْلَ خلائِقِي

-عسى هامتي في القبْرِ تسْمَعُ بعْضَهُ بترْجيع شادٍ أو بتطريبِ طارقِ

فلي في ادِّكارِي بَعْدَ مَوْتي راحـــةٌ فلا تمنَعُونيها عُلالَةَ زاهِــقِ

ويبدو أنَّ ابن شهيد في شعره هذا متأثر بيزيد بن خذّاق؛ فشاركه القافية وإعرابها. وعبّر عن رغبته في نشر محاسنه بين الناس بعد موته، وهذه كانت أمنيّة كثير من الشعراء الجاهليين في تخليد أفعالهم بعد الموت. ويشير ابن شهيد إلى خرافة الهامة، وهي من معتقدات الجاهليين، فتزعم العرب أنه إذا قتل الرجل ولم يُدرك بثأره، خرجت هامة من قبره، فلا تزال تصيح اسقوني اسقوني، فلا تزال على ذلك حتى يقتل قاتله، كما يقول ذو الإصبع العدواني(3): البسيط

يا عَمْرُو إنْ لا تَدَعْ شَتْمي ومَنْقِصَتي أَضْرِبْكَ حَيْثُ تقولُ الهامَة اسقونـي

وينظم أبو إسحاق الإلبيري قصيدة طويلة، يندب فيها نفسه ويذكرها المعاد، مطلعها(4):الطويل

كأنّي بِنَفسي وَهيَ في السكَراتِ تُعالِجُ أَن تَرقى إلى اللَهَواتِ

وعلى أي حال فإنّ الشعر الذي قيل في رثاء النفس في الشعر الجاهلي وفي الشعر الأندلسي يشترك-عمومًا- في تأكيد حتمية النهاية للإنسان، والرغبة في تخليد الذكرى الطيبة للشعراء، وبث أبيات الحكمة في ثنايا المراثي، وقد يتميز بعض الأندلسيين كأبي إسحاق الإلبيري عن الباقين في كثرة الاستغفار والاسترحام، لما عرف عنه من ورع وزهد.

وحتى الإلبيري يرغب في أن ينعته الناس بالفضائل، والتغاضي عن سواها، ومن ذلك قوله لإخوانه: الطويل

وقولوا جَميلا إن عَلِمتُم خِلافَهُ وأَغضوا على ما كانَ من هَفَواتي

كما يشترك الشعراء الجاهليون والأندلسيون في هذا النوع من الرثاء في تنويع الأساليب اللغوية: الاستفهام والنداء والتمني والشرط والأمر. وكثرة استخدام هذه الأساليب في النص الشعري الواحد قد ينبئ عن قلق نفسيّ يعانيه الشاعر، وينم عن صدق في المشاعر.

---

(1) ديوانه، ص 98 . (2) ديوانه، ص 134-135، وبعضها في المطمح لابن خاقان، ص 201 .

(3)المفضليات، ص 160 . (4) ديوانه، ص 51 .

في غرض الغزل:

ما يزال الغزل في الشعر الأندلسيّ متأثرًا بغزل الشعر الجاهليّ، في المعاني والأساليب، ويفيد أحيانًا من أشعار الجاهليين في غير غرض الغزل.

فالشاعر الأندلسي لا يفتأ يذكر تكبده الأهوال للوصول إلى من يحبّ، على طريقة امرئ القيس والأعشى، في لفّ الغزل بالحماسة؛ فيتغزل ابن زيدون، في مقدمة إحدى مدائحه لأبي الوليد بن جهور، بليلى التي تنتمي إلى أسرة شديدة البأس، مرهوبة الجانب، تشرع أسلحتها كالغابة الكثيفة الأشجار، وتريق حول مناهلها دماءَ الأعداء، ودون الوصول إليها الخيول الأصيلة، والسيوف والرّماح، والحرّاس البواسل. وكان وليّها شديد الغيرة، يسهر الليل غيظًا من الشاعر، وغضبًا عليه، كأنّ حبّها جريمة أو ثأر قديم، يفكر بالاقتصاص به من الشاعر، حتى أضحت هذه الفتاة محصنة لا يُقتحم خباؤها إلا بخوض الحرب، .. . وعلى وضاءة وجهها، وضمور خصرها، وثقل ردفها واضطرابه، وطيبها الفواح، وحليها الرنان، الذي ربما يشي بها، فقد استطاعت بجرأة أن تقتحم المخاطر، على غفلة من الوشاة، ورقدة الحراس، وهجعة الرقباء، متسترة بظلام الليل، وبشعرها الأسود، حتى وافت الشاعر الكثيبَ لموعد بينها وبينه، تنساب في خفة كما تنساب الحية فوق الرمال، ويمحو آثارها ثوبها المنقوش الجوانب، يتقلب ذيله على آثارها في اختيال، ومن ذلك يقول ابن زيدون(1): الطويل

مَرادُهُمُ حَيثُ السِّلاحُ خَمائلُ ومَورِدُهُمْ حَيثُ الدِّماءُ مَناهِلُ

ودون المنى فيهمْ جيادٌ صوافنٌ ومأثورةٌ بيضٌ وسُمْرٌ عَوامِلُ

لكلِّ نَجيدٍ في النّجادِ كأنّما تُناطُ بمَتنِ الرّمحِ مِنهُ الحَمائِلُ

طويلٌ علينا ليلُهُ مِن حَفيظَةٍ كأنَّ صَباباتِ النفوسِ طوائِلُ

كِناسٌ دَنا مِنهُ الشرى في مَحَلَّةٍ بِها الليثُ يَعدو والغَزالُ يُغازِلُ

لَعَمرُ القِبابِ الحُمْرِ وَسْطَ عَرينِهِمْ لقد قُصِرَت فيها السُروبُ العَقائِلُ

أمحجوبَةٌ ليلى ولم تُخضَبِ القنا ولا حَجَبَتْ شَمسَ الضَحاءِ القَساطِلُ ؟

أناةٌ عليها مِن سَنا البَدرِ مِيسَمٌ وفيها مِنَ الغُصْنِ النَضيرِ شَمائِلُ

يجولُ وِشاحاها على خَيزُرانَةٍ وتُشرِقُ في بَرديتَينِ الخَلاخِلُ

وليلةَ ٍ وافَتنا الكثيبَ لموعِدٍ كما ريعَ وَسنانُ العَشِيّاتِ خاذِلُ

تَهادى- انسِيابَ الأَيمِ- يَعفو أُثورَها مِنَ الوَشيِ مَرقومُ العِطافَينِ ذابِلُ

---

(1) ديوانه ورسائله، ص 387-391 .

قَعيدَكِ! أنّى زُرتِ؟ ضَوؤُكِ ساطِعٌ وطيبُكِ نَفّاحٌ وحَلْيُكِ هــادلُ
هَبيكِ اغتَرَرتِ الحَيَّ: واشيكِ هاجِعٌ وفرعُكِ غِربيبٌ وليلُكِ لائــلُ
فأنّى اعتَسَفتِ الهَولَ؟خَصرُكِ مُدَمجٌ ورِدفُكِ رَجراجٌ وعِطفُكِ مائلُ
خَليلَيَّ مالي كــلَّما رُمـــــتُ سَلوَةً تَعَرَّضَ شَوقٌ دونَ ذلكَ حائلُ ؟
-كأن ليسَ في نُعمى الهُمامِ مُحـَمَّـدٍ مُسَلٍّ وفي مَثنى أَياديهِ شاغلُ

ويتغزل ابن زيدون كذلك، في مقدمة إحدى مدائحه لأبي الوليد بن جهور، بفتاة كالمهاة، اسمها ليلى، تنتمي إلى قبيلة يمانية، وهي محصنة يحميها رجال من قومها كالأسود، تحيا في خباء منيع كحصني مارد والأبلق، تصطف أمامه الكتائب الكثيفة، مزودة بالرماح الخطية، والخيل الأصيلة، وأفراد عشيرتها أباة أعزة أشدّاء، غيارى على فتاتهم، يقفون دون وصول الشاعر إلى هذه المصونة بين عشيرتها، وهي وضاءة كالبدر المنير، كريمة منعمة، عزيزة شريفة، مخدومة، سليلة الترف والنعمة،عندما تتهادى في مشيتها يثقلها وشاحها المرصّع بالحلي، وإذا ناس العقد في جيدها تأوّهت لرقتها ونعومة بشرتها، يقول ابن زيدون من ذلك(1): الطويل

أجلْ إنّ ليلى حيثُ أحياؤها الأَسْدُ مهـاة حمتْها في مراتعـــها أُسْدُ
يمانيّةٌ تدنو وينأى مــــــزارُها فَسِيّانِ منها في الهوى القربُ والبعدُ
إذا نحن زرناها تمرّدَ مــــاردٌ وعزَّ-فلم نظفرْ به-الأبلقُ الفــرْدُ
تحولُ رماح الخط دون اعتيادها وخيلٌ تمطّى نحو غاياتها جُــرْدُ
لحَيٍّ لَقاحٍ تأنفُ الضيمَ منــهــمُ جَحاجحةٌ شِيبٌ وصُيّابةٌ مــُـرْدُ
أبٌ ذو اعتــزامٍ أو أخٌ ذو تسرع فَشَيْحانُ ماضي الهمّ أو فاتكٌ جَلْدُ
- وفي الكِلَّةِ الحَمراء وَسْطَ قِبابِهِم فتاةٌ كمثلِ البدرِ قابَلَهُ السَّعـــــدُ
عقيلةُ سِربٍ لا الأَراكُ مَــرادُهُ ولا قَمِنٌ مِنهُ البَريرُ ولا المَــردُ
تَهادى فَيُضنيها الوِشاحُ غَـريرَةٌ تَأَوَّهُ مَهما ناسَ في جيدِها العِقـدُ
إذا استُحفِظَت سِرَّ السُّرى جُنحَ ليلِها تَناثى النَمومانِ: الأُلُـوَّةُ والنَّــــدُّ
لها عِدَةٌ بِالوَصلِ يوعِدُ غِــبَّــها مَصاليتُ يُنسَى في وَعيدهُمُ الوَعدُ
عزيزٌ عليهِم أن يَعودَ خَيالُــهــا فَيُسعِفَ مِنها نائِلٌ في الكَرى ثَمْــدُ
كفى لَوعَةً أَنَّ الوِصالَ نَسيئَــةٌ يُطيلُ عَناءَ المُقتَضي والهَوى نَقدُ
ستُبلغُها عـَـنـّـا الشمالُ تَحيَّةً نَوافِحُ أَنفاسِ الجَنوبِ لــــــها رَدُّ

---

(1) ديوانه ورسائله، ص 351-355، حيّ لقاح: لم يدينوا للملوك ولم يصبهم سباء، شَيْحَان: غيور أو طويل. تناثى: تحدّث وشاع، الأُلوّة: عود يتبخر به، النَّدّ : نوع طيب، الثمد: الماء القليل.

ولابن زيدون قصيدة فائية مدحية في المعتضد بن عباد، يقدم لها بمقدمة مشابهة لقصيدتيه السابقتين(1).

ولعلّ أكثر شاعرين أبدعا في هذا القصّ الغزليّ في الأندلس هما ابن شهيد وابن زيدون، وربما تكون هذه الفتاة المحصنة لدى الشاعرين رمزًا للممدوح، وأظنها كذلك. وهذا ما سنشير إليه بشيء من التفصيل عند الحديث عن معارضات ابن شهيد للشعر الجاهليّ في فصل المعارضة.

إن هذه الصورة الكلية أو اللوحة الفنية التي يرسمها ابن زيدون لوصال المرأة المترفة، ودونها المخاطر من السيوف الباترة والرماح الخطية، والقلاع الحصينة، وحمية القبيلة وغيرتها على فتاتهم، وجوز الشاعر كل هذه المخاطر، لوصالها في الليل البهيم، هذه الصورة هي في الأصل مأخوذة من شعر امرئ القيس، في معلقته، في وصفه لمغامرته مع بيضة الخدر إذ تجاوز إليها الأحراس ومعشرًا كانوا حريصين على قتله، يقول(2): الطويل

وبَيضَةِ خِدرٍ لا يُرامُ خِبـــاؤُها تمَتَّعتُ مِن لهوٍ بِها غَيرَ مُعجَلِ
تجاوَزتُ أَحراسًا إليها ومَعشَرًا عليَّ حِراصًا لو يُسِرّونَ مَقتلي
إذا ما الثرَيّا في السماءِ تعَرَّضَت تعَرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ
فجئتُ وقد نَضَّتْ لِنَومٍ ثِيابَـــها لدى السِّترِ إلا لِبسَةَ المُتَفَضِّلِ
فقالت يَمينُ اللهِ ما لكَ حيلـــةٌ وما إن أَرى عَنكَ الغَوايَةَ تَنجَلي
خرَجتُ بِها أَمشي تَجُرُّ وَراءَنا على أَثَرَينا ذيلَ مِرطٍ مُرَحَّلِ
فلمّا أَجَزنا ساحَةَ الحَيِّ وَانتحى بِنا بَطنُ خَبتٍ ذي حِقافٍ عَقَنقَلِ
هصَرتُ بفوديْ رَأسِها فتمايَلتْ عليَّ هَضيمَ الكَشحِ رَيّا المُخَلخَلِ

وقد أسهب الأعشى ميمون بن قيس في رسم هذه الصورة، في غير موضع من شعره، وجاءت في أغلبها مقدمات لقصائده في المدح والفخر. ومن ذلك يقول في إحدى قصائده في الفخر، يذكر أنه قد ينال الوصل في المعقل الصعب المنيع القديم البناء، يذود عنه حراس شداد قد وقفوا على رأسه بالقسيّ والسِّهام(3): الكامل

ولقد أَنالُ الوَصلَ في مُتَمَنِّعٍ صَعبٍ بَناهُ الأَوَّلونَ مَصادِ

---

(1) ديوانه، ص 479- ، ومطلعها:

أَما في نسيم الريح عَرْفٌ مُعَرِّفُ لَنا هل لِذاتِ الوَقفِ بالجِزع مَوقفُ؟

(2) شرح المعلقات، ص 28-30 .

(3) ديوانه، ص 179-181 ، المَصاد: الحصن، ماسخة: رجل من الأزد، ويترب وبلاد: موضعان قرب اليمامة.

مَنعتْ قِياسُ الماسِخِيَّةِ رَأسَهُ   بِسِهامِ يَتـرَبَ أَو سِهامِ بَـلادِ

ثم يفخر باستطاعته التمتع بالصواحب، والشراب في العشيات..، ويعقب بقوله:

فالدَّهرُ غَيَّرَ ذاكَ يا ابنَةَ مالكٍ   والـدَّهرُ يُعقِبُ صـالحًا بفَسادِ

وللأعشى قصيدة مدحية أخرى يقدم لها بمقدمة يذكر فيها القصة الغزلية إياها، ويصف أنه يمتع نفسه بالكاعب، التي يخون غفلة قومها الذين يطوفون حول قبابها الشامخات، يحاذرون عليها أن تُرى أو أن يطوف بها الغواة، من ذلك قوله(1): مجزوء الكامل

وأخونُ غَفلـةَ قـومِـها   يَمشونَ حَـولَ قِبابِـها

حَذَرًا علـيها أَن تُـرى   أو أَن يُـطافَ بِـبابِـها

فبعث هذه المرة جنيًّا، ليمهد له الدخول عليها، وكيف الدخول إلى قبتها الحمراء المزينة السقف بطُرّة وضّاءة، وتمتع بها ووصفها بصفات معهودة:

فبَعَثتُ جِنّـيًّا لـــنـا   يـأتـي بِرَجْعِ جَوابِـها

- فأرادَها كيفَ الـدّخـو   لُ وكيـفَ ما يُؤتـى لها

في قبَّةٍ حَمــراءَ زَيَّـ   نَهــا ائـتلاقُ طِبابِـها

وله قصيدة مدحية أخرى تشبه السابقة، قدَّم لها بغزل في لميس، التي أصبح طلابها صعبًا، فانصرف عنها ليتحدث عن مغامراته السابقة، فقد كان يزور صواحبه في سواد الليل، ممتطيًا فرسًا أصيلة، وكان شديد الحذر حين دخل على صاحبته، ووصفها بالصفات الجمالية المعهودة: حور عينيها، ورشاقتها، وطيب رائحتها، وزينتها، وخضابها، وابيضاضها؛ ولهذا يتكبد الأهوال للوصول إليها، ويعبر الوديان والجبال الشاهقة، ويتحدى الأسود المفترسة، حتى يصل إليها..، ومن ذلك يقول(2): مجزوء الكامل

ولـوَ انَّ دونَ لقائـهـا   جَبَـلا مُزَلـّقَـةً هِضابُهْ

لنَظـرتُ أَنّـى مُرتقـا   هُ وخـَيْرُ مَسلَـكِهِ عِقابُـهْ

لأَتَيـتُهـا إنَّ المُحِـ   ـبَّ مُكَلَّفٌ دَنِـسٌ ثِيابُـه

ولـوَ انَّ دونَ لِقائِـهـا   ذا لِبـدَةٍ كالزُجِّ نـابُــهْ

لأتـيتـه ُ بِالسَّيفِ أَمـ   شي لا أُهَدُّ ولا أَهَابُـهْ

ويفيد ابن زيدون كذلك في شعره السابق، من غزل امرئ القيس في معلقته خاصة، وكذلك من قوله في المصونات المنعمات(3): الطويل

غرائرُ فـي كِنٍّ وصَونٍ ونَعْمَةٍ   يُحَلَّينَ ياقـوتًا وشَذرًا مُفَقَّـرا

---

(1) ديوانه، ص 301- 303 . (2) ديوانه، ص 337 . (3) ديوان امرئ القيس، ص 59-61 .

وريحَ سَنًا في حُقَّـــةٍ حِميَرِيَّـةٍ تُخَصُّ بِمَفروكٍ مِنَ المِسكِ أَذفَرا
وبانًا وأُلوِيًّا مِنَ الهِندِ ذاكـيًـــا وَرَنـدًا ولُبنىً والكِباءَ المُقتَّرا
غَلِقنَ بِرَهنٍ من حَبيبٍ بهِ ادَّعَت سُليمى فـأَمسى حَبلُها قد تَبَتَّرا

وعلى أيّ حال فقد ظلت صورة المرأة في شعر الأندلسيين مشابهة لصورتها في الشعر الجاهليّ، في الصورة البصرية: كاعتدال قامتها، وحورها، وفتور طرفها، وطول جيدها، ووضاءة وجهها، وتورد خدودها، وابيضاض أسنانها، ولمى شفاهها، واسوداد شعرها، وضمور خصرها، وضخامة ردفها، وفي صورتها اللمسية: كنعومة ملمسها، وفي صورتها الذوقية: كريقها العذب البارد، وفي صورتها الشمية: كرائحتها الزكية أو مسكها الفائح، وصورتها السمعية: كرخامة صوتها. وفي صورتها الحركية: كتثنيها في مشيتها، وتقارب خطاها. وفي صورتها المعنوية: كتنعمها، وحسن منطقها، وعفتها، وحسن شمائلها، وغير ذلك من الصفات. وصورتها الكنائية: كصموت خلخالها، وطول مهوى قرطها،... .

وما زال شعر امرئ القيس، في معلقته خاصة، وأشعار غيره من الشعراء الجاهليين، في المرأة وصفاتها، والهيام بها، وأثر هذا الهيام على النفس، مصدرًا غنيًّا من مصادر الصور الشعرية الأندلسية في المرأة، وما زالت أبيات امرئ القيس في المرأة، كقوله، مستكملا مغامرته مع بيضة الخدر(1):

مُهَفهَفَةٌ بَيضاءُ غَيرُ مُفاضَةٍ تَرائِبُها مَصقولَةٌ كالسَّجَنجَلِ
-تصُدُّ وتُبدي عَن أسيلٍ وتَتَّقي بناظِرَةٍ مِن وَحشِ وَجرَةَ مُطفِلِ
وجيدٍ كجيدِ الرِئمِ ليسَ بِفاحشٍ إذا هِيَ نَصَّتهُ ولا بِمُعَطَّلِ
وفرعٍ يَزينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقنو النَّخلةِ المُتعثكِلِ
غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا تضلُّ المداري في مُثنًّى ومُرسَلِ
وكشحٍ لطيفٍ كالجَديلِ مُخَصَّرٍ وساقٍ كأنبوبِ السَّقيِّ المذلَّلِ
وتُضْحي فتيتُ المسكِ فوق فراشها نؤومُ الضُّحى لم تنتطقْ عن تفضُّلِ
وتعطو برَخْصٍ غيرِ شثنٍ كأنَّهُ أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ إسْحِلِ
تضيءُ الظلامَ بالعِشاءِ كأنَّها منارةُ مُمْسَى راهبٍ مُتبَتِّلِ
إلى مثلها يرنُو الحليمُ صبابةً إذا ما اسبكرَّت بين درعٍ ومِجْوَلِ

وقوله في موضع سابق من معلقته في أمّ الحُويرث وجارتها(2):

إذا قامَتا تَضَوَّعَ المِسكُ مِنهُما نَسيمَ الصَّبا جاءَت بِريّا القَرَنْفُلِ

(1) شرح المعلقات، ص 30- 33 .
(2) السابق، ص 25 .

وقوله أيضًا في الغزل(1): الطويل

مِنَ القاصِراتِ الطرفِ لو دَبَّ مُحولٍ مِنَ الذَّرِّ فوقَ الإتبِ مِنها لأَثرا

وقول الأعشى(2): الطويل

لها قدَمٌ رَيـّا سِبـاطٌ بَنانُهـــــا قدِ اعتَدَلت في حُسنِ خَلقٍ مُبَتَّلِ

وساقانِ مارَ اللحمُ مَورًا عليهِما إلى مُنتَهى خَلخالِها المُتَصَلصِلِ

وقوله(3): الخفيف

وشَتيــتٍ كالأُقحُوانِ جَلاهُ الـ طَـلُّ فيهِ عُـذوبَةٌ واتِّساقُ

وقوله(4): البسيط

إذا تَقومُ يَضوعُ المِسكُ أَصْوِرَةً والزَّنبَقُ الوَردُ مِن أَردانِها شَمِلُ

وقول عنترة(5): الكامل

إذ تَستَبيكَ بِذي غُروبٍ واضِحٍ عَـذبٍ مُقَبَّلُهُ لَذيذِ المَطعَـــــمِ

وكأَنَّ فأرَةَ تاجِرٍ بِقَسيـمَـــــةٍ سَبَقَت عَوارِضَها إليكَ مِنَ الفَمِ

وقول قيس بن الخطيم(6): المتقارب

وعَمرَةُ مِن سَرَواتِ النسا ءِ تَـنـفَـحُ بالمِسكِ أردانُـهـا

وقوله في المرأة (7): المنسرح

تنامُ عَن كُبْرِ شَأنِهـا فـــإذا قــامَت رُوَيدًا تَكادُ تَنغَرِفُ

حوراءُ جَيداءُ يُستَضاءُ بِها كــأَنَّها خوطُ بانَةٍ قَصـِفُ

وقوله(8): الطويل

تروحُ مِنَ الحَسناءِ أم أنتَ مُغتَدي وكيفَ انطِلاقُ عاشِقٍ لم يُزَوَّدِ

تراءَت لنا يَومَ الرَّحيلِ بِمُقلتَــيْ غريرٍ بِمُلتَفِّ مِــنَ السِّدرِ مُفرَدِ

وجيدٍ كجيدِ الرِئمِ صافٍ يَزينُــهُ تَوَقُّدُ يـــاقوتٍ وفَصلِ زَبَرجَـدِ

كأَنَّ الثرَيّا فوقَ ثُغرَةِ نَحـــرِها تَوَقَّدُ في الظلمـــاءِ أيَّ تَوَقُّــدِ

وقوله من قصيدة حربية قدم لها بالطلل والغزل(9): الطويل

---

(1) ديوانه، ص 68 . (2) ديوان الأعشى، ص 401 . (3) ديوان الأعشى، ص 259 .

(4) شرح المعلقات، ص 203. ويشبه ريقها العذب بطعم الزنجبيل والتفاح مزجا بعسل النحل، ديوانه ص 327، وبالزنجبيل والعسل، ديوانه ص 143، وبالعسل الممزوج بالخمر، ص 327،ويشبهه بالخمر الصهباء الصافية، ص 179. (5) شرح المعلقات، ص 153 . (6) ديوانه، ص 26 . (7) ديوانه، ص 57- .

(8) ديوانه، ص 70، وشبه وجهها بالدينار، ص 90، وبطونهن بسيوف الهند، ديوانه، ص 90 . (9) ديوانه، ص 35 .

تبَدَّت لنا كالشمسِ تحتَ غَمامَةٍ   بَدا حاجبٌ مِنها وضَنَّت بِحاجِبِ

كما يهواها صدقًا، في قوله(1): المنسرح

إنّي لأهـواكِ غَيرَ ذي كَذِبٍ   قـد شُفَّ مِنّي الأَحشاءُ والشَغَفُ

وقول النابغة الذبياني(2): الكامل

بِمُخَضَّبٍ رَخصٍ كـأَنَّ بَنانَهُ   عَنَـمٌ يَكادُ مِنَ اللطافَةِ يُعقَـدُ

ما زالت هذه المعاني والصور- وهي كثيرة الدوران في أشعار الجاهليين- تترقرق على ألسنة كثير من الشعراء الأندلسيين. فشبيه بغزل امرئ القيس، خاصة في معلقته، سواء في القصّ أو في الحوار، أو صفات المرأة، قول أبي الحسن علي بن عطية بن الزقاق البلنسي(-528هـ) من قصيدة مدحية فخرية قدم لها بالغزل، من مثل قوله(3): الطويل

لعمـرُ أبيها ما نكثتُ لها عَهْـــدا   ولا فارقــتْ عيني لفُرقتها السُّهْدا

-وليلٍ طرقتُ الخِدْرَ فيه وللدُّجـى   عُبابٌ تراه بالكواكبِ مـُزْبِـــــدا

أُجاذِبُ عِطْفَ المالكيَّةِ تحــتــه   وأسحبُ من ضافي العفافِ له بُرْدا

نعِمْتُ بها والليلُ أسودُ فاحــمٌ   يغازل منها الأسودَ الفاحمَ الجَـعْدا

فلم أرَ أشهى من لَماها مُدامـَةً   ولم أرَ أذكى من تنفُّسها نَـــــــدَّا

تَبَسَّمُ عما قـُلـّدتـْه فأجتلــــي   بمـبسَمِـها دُرّا ولَبَّتها عِــــقْــدا

ويعبقُ ريَّاها إذا هبَّتِ الصَّبـا   فيحملُ عنها نشرُها العنبرَ الـوَرْدا

سلِ الريحَ عن نجدٍ تخبّرْك أنَّها   مُعطّــرةُ الأنفاس مذْ سكَنتْ نَجْـدا

وأنَّ الغَضا والسِّدر مذ جاوَرتهما   بطيب شذَاها أَشبَها الغـارَ والـرَّندا

ولابن الزقاق أيضا في الغزل الحواريّ قوله(4): الطويل

وآنسةٍ زارتْ معَ الليلِ مَضْجَعي   فعانقتُ غُصْنَ البان منها إلى الفجرِ

أُسائلها أينَ الوشاحُ وقد سَرَتْ   مُعـَطَّلـةً منــــــه مُعَطَّــرةَ النّشْرِ

فقالتْ وأَوْمَتْ للسِّوارِ نَقَلْـتُـهُ   إلى مِعْصَمي لمّا تقلقلَ في خصري

وقول ابن الزقاق أيضًا(5):الطويل

ومُرْتَجَّةِ الأعطافِ أمّـا قـَوامُها   فَلَـدْنٌ وأمّـا رِدْفُــــها فـرَداحُ

ألمّتْ فباتَ الليلُ من قِصَرٍ بـها   يَطـيرُ ولا غيـرُ السرورِ جَناح

وبتُّ وقد زارَت بأنـعـَم ليلـــةٍ   تُعـانقني حتى الصبـاحِ صباح

(1) ديوان قيس بن الخطيم، ص 61 . (2) ديوانه، ص 40 . (3) المطرب، ص 100-101 .

(4) المطرب، ص 103 . (5) المطرب، ص 104 .

على عاتقي من ساعِديْها حمائلٌ		وفي خَصرها منْ ساعديَّ وشاح

وقوله في خَوْد مهتصَر ِ الخَصْر، خَدلَّجة المِعصم والساق(1): الوافر

وخَوْدٍ ضمَّ مئزرُها كثيبًا		يُهالُ وبُرْدُها غُصْنًا يُراحُ

لها قُلُبٌ أبى النطقَ اكتتامًا		وسرٌّ نطاقِها أبدًا مُباحُ

وقد أمرتْهما بالكَتْمِ لكنْ		أطاعَ سوارُها وعصَى الوشاحُ

وقوله(2): الكامل

بأبي وغيرِ أبي أغنُّ مُهَفْهفٌ		مَهضومُ ما خَلْفَ الوِشاح خَميصُهُ

وشبيه بمعاني امرئ القيس وغيره من الشعراء الجاهليين، شعر كثير من الأندلسيين من مختلف العصور والأقطار، كقول ابن عبد ربه(3): الخفيف

ذاتُ دلٍّ وِشاحُها قلِقُ		مِن ضُمورٍ وحِجْلُها شَرِقُ

بَزَّتِ الشَّمسَ نورَها وحَباها		لحظَ عينيهِ شادِنٌ خَرِقُ

ولأبي العباسِ أحمدَ بنِ عبدِ الملكِ بنِ عمرَ بنِ شُهيدٍ، حاجبِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ(-350هـ)، غزلٌ يصف المرأة بالتنعم والترف؛ فهي لم تمتهن في سفر ولا في مجالس الشراب، وأنها كالبدر، ويصفها بطول العنق، وضمور الخصر، والامتلاء، يقول من ذلك(4): الطويل

ترى البدرَ منها طالعًا فكأنّما		يجولُ وشاحاها على لؤلؤ رَطْبِ

بعيدةُ مهوى القُرْط مُخْطَفَةُ الحَشا		ومُفْعَمَة الخَلْخَال مُفعمة القُلْبِ

ولابن حصن الإشبيلي قصيدة مدحية، افتتحها بالغزل، منها قوله(5): الطويل

بعيدةُ مهوى القرط مُصْمَتةُ البُرى		لطيفةُ طيِّ الكَشْح ريّا المُدَمْلَجِ

تعُضُّ عَلى العنّاب بالبَرَدِ الشهيِّ		وتمسحُ ماءَ الطلّ فوقَ البنفسجِ

ولابن زيدون كثير من الأشعار في المرأة لا يبتعد عما قاله الشعراء الجاهليون، من مثل قوله(6): الرمل

مَثَلٌ في كلِّ حُسنٍ مِثلَما		صارَ ذُلّي في هَواهُ مَثَلا

يا فَتيتَ المِسكِ يا شَمسَ الضحى		يا قَضيبَ البانِ يا ريمَ الفلا:

إن يَكُن لي أَمَلٌ غَيرَ الرضا		مِنكَ لا بُلِّغتُ ذاكَ الأَمَلا

وقوله(7): الطويل

فقامَت تَجُرُّ الذيلَ عاثِرَةً بِهِ		وتَمسَحُ طَلَّ الدمعِ بالعَنَمِ الرطبِ

---

(1) المطرب، ص 102. (2) المطرب، ص 103. (3) شعره، ص 229. (4) مطمح الأنفس، ص 167.
(5) الذخيرة، 170/1/2. (6) ديوانه ورسائله، ص 166. (7) ديوانه ورسائله، ص 175 .

وله أيضًا قوله(1): متقارب

تَهادى لَطيفَةَ طَيِّ الوِشاحِ وتَرنو ضَعيفَةَ كَرِّ المُقَل

وقوله في جارية(2): البسيط

غَريرَةٌ لم تُفارِقها تَمائمُها تَسبي العُقولَ بِساجي الطَّرفِ وَسنانِ

ويشبه ابن زيدون قوام تمثال لغادة هيفاء بقضيب البان،وبصفات المرأة المعهودة كقوله(3):الخفيف

بَشَرٌ ناصِعٌ وخَدٌّ أسيلٌ ومُحَيّا طَلَقٌ وطَرفٌ غَضيضُ

ويقول المعتمد بن عبّاد في أمّ عُبيدة(4): الطويل

سَقى اللهُ صَوبَ القطر أَمَّ عُبَيدَةٍ كما قَد سَقَت قَلبي عَلى حَرِّه بَردا

هيَ الظبيُ جيدًا والغَزالَةُ مُقلةً ورَوضُ الرُّبى عَرْفًا وغُصنُ النَّقا قَدّا

ويقول(5): المنسرح

لاحَ وفاحَت رَوائِحُ النِّدّ مُهتَصَرُ الخَصر أَهيفَُ القَدِّ

ولابن خفاجة أشعار في المرأة قريبة من أشعار الجاهليين، من مثل قوله يتغزّل(6): الطويل

مِنَ الهيفِ أَمّا رِدفُهُ فمُنَعَّمٌ خَصيبٌ وأَمّا خَصرُهُ فجَديبُ

ولأبي بكر يحيى بن بقي(-540هـ) قوله(7): الطويل

نأوا بصَموت الحِجلِ عاطرةِ الشَّذا بمبتَّلة الأعطاف معسولةِ اللمى

ألا نظرةٌ منها فتنقعَ غلَّةً على كَبدي مَا أشبهَ الشوقَ بالظما

وكأنّ ابن مقانا الأشبوني يلخص صفات المرأة، من قصيدته التي يمدح فيها منذر بن يحيى صاحب سرقسطة، افتتحها بالطلل والغزل، فيقول منها(8): المتقارب

برزنَ لنا عاطراتِ الجيوب ينازعْنَ في الحسن شمسَ الضّحى

خِمَاصَ البُطون مِرَاضَ الجفونِ أقمنَ الشعورَ مقام الرِّدا

لِدانَ القدود حِسانَ الخُدود صغارَ النهود طوال الطّلى

عذابَ الثغور لطافَ الخصور خفافَ الصدور ثقال الخطا

مشينَ الهوينا ووادي الخزامى يودُّ من البشرِ أن لو مشى

---

(1) ديوانه ورسائله، ص 127 . (2) ديوانه ورسائله، ص 192 . (3) ديوانه ورسائله، ص 240 .

(4) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية(-488هـ)، جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي و حامد عبد المجيد، أشرف عليه وراجعه طه حسين، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951م، ص 7 . (5) ديوان المعتمد، ص 7، المطرب، ص 19 .

(6) ديوان ابن خفاجة، ص 83 . (7) الذخيرة، 624/2/2 . (8) الذخيرة، 788/2/2–789 .

إنّ قوة تأثر الأندلسيين بالغزل الجاهليّ، في الألفاظ والمعاني والصور والأساليب، لفت نظر ابن بسام، عند روايته لبعض أشعار الغزل لشعراء أندلسيين، فأشارإلى أنّ مدح الشعراء النساء بضمور الكُشُح، وجولان الوشح، وصُموت الخلخال والقلب كثير، ثم استشهد بأشعار للجاهليين، وغيرهم، من مثل قول النابغة الذبياني(1):

على أن حِجْليها وإن قلتَ أوْسِعا صموتانِ من ملءٍ وقلَّةِ منطقِ

وأورد ابن بسام بعد ذلك أشعارًا لآخرين أندلسيين ومشارقة، تثبت تأثر الأندلسيين بأغزال الجاهليين خاصة.

كما لا تبتعد أشعار الأندلسيين الواردة آنفًا عن وصف النابغة الذبياني للمتجردة، إذ يكاد يأتي على أغلب صفات المرأة المثالية المعهودة في الشعر الجاهلي عمومًا(2).

والملاحظ أنَّ كثيرًا من أغزال الأندلسيين هي تلفيق أو التقاط ما تفرّق من المعاني والصفات لدى الشعراء الجاهليين؛ وقال ابن دحية في مفهوم مصطلح الالتقاط: "**ومعنى الالتقاط**، ويسمى أيضا بالتلفيق والترتيب، أن ينشُر الشاعر المعاني المتقاربَة، ويستخرج منها معنى مُولّدا يكون فيه كالمخترِع، وينظُرُ به إلى جميع تلك المعاني، فيقوم وحده مقامَ جماعة من الشعراء، وهو مما يدلّ على حذق الشاعر وفطنته"(3).

ولكن بعض الشعراء الأندلسيين كانوا يلتقطون كثيرًا من الألفاظ والتراكيب إضافة إلى المعاني؛ يقول ابن اللبانة أبو بكر الداني(-507هـ)(4): السريع

مهفهفُ الكشح قريبُ الخطا بعيدُ مَهوى القرط طَوعُ العناقْ

فمثل هذه الألفاظ والمعاني والصور الغزلية يسهل العثور عليها في أشعار الجاهليين: فقول ابن اللبانة "مهفهف الكشح" بصيغة المذكر، هي بصيغة المؤنث عند امرئ القيس: "مهفهفة"(5).

وقول ابن اللبانة: "قريب الخطا" بصيغة المذكر، هذا المعنى وارد–دون اللفظ-عند الأعشى بصيغة الجمع المؤنث: "قطف المشي"، أي قصيرات الخطا، والأعشى يصف مجلس أنس وهو بين فتية يروحون إلى قيناتٍ مرحاتٍ يُذهبنَ الحزنَ(6): الرمل

ثمَّ راحوا مَغربَ الشمسِ إلى قُطُفِ المَشيِ قَليلاتِ الحَزَنْ

وقوله:"بعيد مهوى القرط"، كناية عن طول العنق، وهذا من المطروق، كقول تأبّط شرًّا

---

(1) الذخيرة، 147/1/2 . وليس هذا البيت في ديوان النابغة، وبعض المصادر غير الذخيرة يرويها للنابغة. ومثل هذا المعنى كثير في الشعر الجاهلي وبتعبيرات مختلفة، من مثل قول طرفة يصف امتلاء العضد والساق(شرح المعلقات، ص 61):

كأنَّ البُرينَ والدّماليجَ عُلِّقَت على عُشَرٍ أو خِروَعٍ لم يُخَضَّدِ

(2) ينظر ديوانه، ص 39-41 . (3) المطرب، ص 59 (4) الذخيرة، 701/2/3 .

(5) شرح المعلقات، ص 30 . (6) ديوان الأعشى، ص 409 .

الفهميّ(1): (الوافر)

نِيافُ القُرْط غـرَّاءُ الثنايـا ورَيْـدَاءُ الشباب ونِعْمَ خِيمُ

وقول الأعشى(2): الخفيف

يومَ أَبدَت لنا قُتَيلةُ عَن جيـ ـدٍ تَليـعٍ تَـزينُهُ الأَطـواقُ

وقوله: "طوع العناق"، من قول عنترة(3): الكامل

دارٌ لآنسةٍ غضيضٍ طَـرْفُها طَـوْع العناق لذيذةِ المُتَبَسَّمِ

والملاحظ كذلك أنّ لبعض الشعراء الأندلسيين استدراكات على ما أخذ على بعض الشعراء الجاهليين في بعض معانيهم، كقول ابن زيدون في الغزل(4): الكامل

هذا الصَّباحُ على سُراكِ رَقيبا فصِلي بفَرعِكِ ليلَكِ الغِربيبا

ولدَيكِ أمثالَ النجومِ قلائـــــدٌ أَلِفَت سَماءَكِ لَبَّةً وتَريبـــا

ليَنُب عَنِ الجَوزاءَ قُرطُكِ كُلما جَنَحَت تَحُثُّ جَناحَها تَغريبا

وإذا الوشاحُ تَعَرَّضَـت أَثـناؤُهُ طَلَـعَت ثُرَيّا لم تكن لِتَغيبا

فابن زيدون يشبه المرأة بالثريا التي لا تغيب، في حين أنّ امرأ القيس في معرض الحديث عن وقت تجاوزه الحراس قبيل مغيب الثريا في آخر الليل وقريبًا من الإصباح، فشبه تعرّض الثريّا بتعرض الوشاح، أو شبّه اجتماع نجوم الثريا ودنو بعضها من بعض بالوشاح المنتظم بالخرز المفصل بينه، وقيل أخطأ امرؤ القيس؛ لأنَّ الثريّا لا تعرّض لها، بل تشق وسط السماء شقًّا، وإنما هي الجوزاء التي تميل، ويبرز جانب منها، ولذلك أراد ابن زيدون تصحيح هذا الخطأ؛ فقال إن الثريّا لا تغيب، ولا تميل، وإنما هي الجوزاء.

ومن اللافت للنظر أنّ بعض الشعراء الأندلسيين يستعير ألفاظًا ومعاني من الشعر الجاهليّ، خاصة من شعر امرئ القيس، في الخيل والصيد ووصف الطلل، ويوظفها في الغزل، أو العكس، يستعير بعضهم تشبيهات امرئ القيس، وغيره، في الغزل ويوظفها في غرض آخر، فيأخذ بعضهم ألفاظًا في وصف المرأة ليسقطها على نملة؛ أو يستعير تشبيهًا في المرأة وينقله إلى غرض المديح؛ وهذا ينم عن استحسان أشعار الجاهليين، خاصة شعر امرئ القيس. فإعجاب ابن حمديس بقول امرئ القيس في وصف براعة صائد من بني ثُعَل في الرمي- وبنو ثُعل قوم من طيئ مشهورون بالرمي-(5): المديد

رُبَّ رامٍ مِن بَني ثعَلٍ مُتلِجٍ كفَّيهِ فـي قتَرِهْ

---

(1) ديوان تأبط شرا، إعداد وتقديم طلال حرب، ط1، الدار العالمية، بيروت، لبنان، 1414هـ- 1993م، ص 99

(2)ديوانه، ص 259.(3)شرح المعلقات،ص 150.(4) ديوانه ورسائله،ص 324(5)ديوان امرئ القيس،ص 123، 126.

- مُطعَمٌ للصَّيْدِ ليسَ لـهُ غَيرَها كَسبٌ على كِبَرِهْ

جعله ينقل لفظ الشطر الأول إلى غرض الغزل في وصف تأثير جفون صاحبته،فيقول(1): البسيط

أرى سِهامَ لحاظٍ منكِ تَرْشُقُني أفي جُفونكِ رامٍ من بني ثُعَلِ ؟

ويستغل بعضهم ألفاظًا تخصّ وصف الطلل، ويوظفها في الغزل، كقول ابن عبد ربه(2): مجزوء الكامل

لم يَبْق مِنْ قلبي سوى رَسمٍ تَغَيَّرَ فهْوَ دارِسْ

واستعار بعضهم المشبه به وألصقه بمشبه آخر غير الذي وضع له في الأصل؛ فتشبيه امرئ القيس ترائب المرأة المصقولة بالسجنجل في قوله:

مُهَفهَفَةٌ بَيضاءُ غَيرُ مُفاضَةٍ ترائِبُها مَصقولَةٌ كالسّجَنجلِ

استعمله ابن الحداد لتصوير خاطر الممدوح في قوله(3): الكامل

تَتصوَّرُ الأكوانُ في حَوْبَائِهِ فكأنَّ خاطِرَهُ الصَّقيلَ سَجَنْجَلُ

وهذا الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل القرشي الأشبوني، قيل إنّه حفظ شعر عشرين امرأة، قال ابن بسام فيه: "كان يعرف عندنا بالطيطل، ممن نظم الدر المفصل، لا سيما في الزهد، فإن أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه"، ينقل صفة المرأة، في الكشح الأهيف، إلى نملة في مثل قوله من مقطوعة(4): السريع

وذاتِ كشحٍ أهيفٍ شَخْتٍ كأنما بُولغ في النحْـــــتِ

-تسري اعتسافًا ولقد تهتدي فـي ظلمة الليل إلى الخَرْتِ

واستعار بعض الشعراء الأندلسيين صورًا تشبيهية قيلت في الغزل، تم توظيفها في غرض المدح، وبالأسلوب التشبيهي نفسه، فقول الأعشى في معرض الغزل، عاقدًا المماثلة بين الروضة والمحبوبة(5): البسيط

ما روضةٌ من رِياض الحَزْن مُعشِبةٌ خَضْراءُ جاد عليها مُسْبِل هَطِلُ

---

(1) ديوان ابن حمديس، ص 392 . (2) شعره، ص 178 . (3) الذخيرة، 723/2/1 .

(4) الذخيرة، 797/2/2، والمقطوعة التي منها البيتان وردت في "كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس "، للشيخ أبي عبدالله بن الكتاني الطبيب(-420هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الشروق، ط2، القاهرة ، 1401هـ-1981م ، ص 269، منسوبة ليحيى بن هذيل، وبرواية مختلفة عن رواية الذخيرة. أما اعتساف النملة المومأة فهي من صفات الناقة، والألفاظ في البيت الأخير من شعر طرفة، ينظر شرح المعلقات، ص 50، 57، وشعر الأعشى، ديوانه ص 139، 30، 239، 365 .

(5) شرح المعلقات، ص 203-204 .

يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُـــؤزَّرٌ بـعمِيم النَّبتِ مُكتهـلُ
يومًا بأطيبَ منها نَشرَ رائحـــــةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأُصـلُ

استعار ابن عبد ربه هذه الصورة الفنية، ووظفها في المديح،عاقدًا المماثلة بين الروضة والممدوح، في قوله(1): الطويل

وما رَوضة بالحَزن حاك لها النَّدى بزُودًا من المَوشيّ حُـمـــرَ الشَقائقِ
يُقيم الدُّجى أعـناقَها وُيميلـــــها شعاعُ الضحى المُستَنّ في كلِّ شارقِ
إذا ضاحَكَتْها الشمسُ تَبكي بأعين مُكلَلة الأَجْفـان صُفْرِ الحَـمـــــــالقِ
حكَت أرضُها لونَ السماء وزانَها نـجومٌ كأمـثال النـجوم الخَـــــوافقِ
بأطيبَ نشرًا مـنْ خَلائـقه الـــتي لها خضعتْ في الحُسنِ زُهرُ الخَلائقِ

فالمحاكاة ظاهرة في المقطوعتين ظهورًا واضحًا: في الألفاظ والتراكيب، وأسلوب صياغة الصورة عن طريق التشبيه الدائريّ. ثم إن مصادر الصورة لدى الشاعرين متقاربة، من الطبيعة الصامتة، وتوظيف حاسة الشم في إتمام هذه الصورة: " بأطيب منها نشر رائحة "، و"بأطيب نشرًا "، مع ملاحظة أن ابن عبد ربه زاد في عناصر الصورة. وإن كان الأول وظف تشبيهه في معرض الغزل والثاني في المدح. وانتشر هذا النوع من التصوير عن طريق التشبيه الدائري، في شعر بعض الأندلسيين، في الغزل وفي غير الغزل، كابن دراج القسطلي، وأبي المغيرة عبد الوهاب(- قريبًا من 420هـ)، وابن زيدون، وابن خفاجة، والأعمى التطيلي.

ومن مظاهر محاكاة بعض الشعراء الأندلسيين لأساليب بعض الشعراء الجاهليين، حشد التشبيهات في البيت الواحد، إقرارًا بوحدة البيت الشعريّ، على غرار قول المرقش الأكبر البكريّ في قوله من مفتتح قصيدة رثائية(2): السريع

النَّشرُ مسكٌ والوجوهُ دنـا نيرُ وأطرافُ البَنانِ عَنـمْ

فهذا تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد. وقد تفاخر ابن حزم بأنه يستطيع أن يحشد التشبيهات، فيأتي بتشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد، وأربعة، في مثل قوله من قطعة في وصف أعراض المحبين(3): الطويل

مَشوقٌ مُعَنَّى ما ينامُ مُسَهّدُ بخَمْرِ التّجَنّي ما يزالُ يُعَرْبِدُ

---

(1) العقد، 376/5، المستنّ الذاهب، والحمالق جمع حملاق وهو باطن الجفن.الخلائق: قِلات بذروة الصِمَّان تمسك ماء السماء، وهي معروفة كأسماء الأماكن.

(2) ديوانه، ديوان المرقشين، ص 68 .

(3) طوق الحمامة، ص 28، والقران: التقاء كوكبين في درجة واحدة.

ففي ساعة يُبدي إليكَ عجائــــبـًـا   يُمِرُّ ويَستحلي ويُدْني ويُبعــــدُ
كأنَّ النَّوى والعَتْبَ والهَجْرَ والرِّضـا   قِرانٌ وأندادٌ ونحسٌ وأسعــــــدُ
رَثى لغرامي بَعدَ طـــــولِ تمنـّـعٍ   وأصبحتُ محسودًا وقدْ كنتُ أَحسُدُ
نعِمْنا على نَوْرٍ مِنَ الرَّوضِ زاهــرٍ   سقتهُ الغوادي فهوَ يثني ويَحمــدُ
كأنَّ الحَيا والمُزنَ والرَّوضَ عاطـرًا   دموعٌ وأجفانٌ وخدٌّ مُـــــــورَّدُ

وتفاخر بتشبيه خمسة أشياء في بيت واحد، في قوله(1): الطويل

خلوتُ بها والــــــرَّاحُ ثالثةٌ لنـــا   وجــــنحُ ظلامِ الليلِ مُذ مُدَّ ما انبلـَجْ
فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلا بقربهـــــــا   فهلْ في ابتغاءِ العيش ويحَك من حَرَجْ
كأني وهِيْ والكأسُ والخمرُ والدُّجى   ثرًى وحيــــا والدّرُّ والتبر والسُّبُـــجْ

وتشبيهات الجاهليين أجود لأنها جاءت في معظمها من دون أداة، وغير متكلفة.

أما أحاديث الشعراء الجاهليين عن رأي النساء في الشباب والشيب، وأثر ذلك في تعلقهن ومحبتهن، وانعكاس ذلك كله على المحبّ-ومثل هذه الموضوعات كان الشاعر الجاهليّ يثيرها أحيانًا في ثنايا غزله ووصفه للمرأة، أوحواره مع العاذلة، فإنّ ذلك كله تسرّب إلى شعر بعض الأندلسيين، وقد يطول الحديث عن هذا كله في هذا المقام، ولكن قد نتمثل بمعنى أبيات علقمة الفحل التميميّ التي يلخص فيها خبرته بالنساء، وهذه الأبيات هي(2): الطويل

فإن تسألـــوني بالنِّساءِ فإنَّنـــي   بصيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ
إذا شابَ رأسُ المَرءِ أو قلَّ مالُهُ   فليسَ لهُ مِن وُدِّهِنَّ نَصيـبُ
يُرِدنَ ثراءَ المالِ حيثُ عَلِمـنَـهُ   وشَرخُ الشّبابِ عندهُنَّ عَجيبُ

ومثل معاني هذه الأبيات كثيرة الدوران في الشعر الجاهليّ، وكذلك في الشعر الأندلسيّ، وإنّ أكثر شاعر أندلسيّ أسهب في هذه المعاني هو أبو إسحاق الإلبيري(-460هـ)، مع ولعه بالتعليل بأسلوبه الخاص، ومن ذلك قوله في قصيدة رثائية لزوجته(3): الكامل

والشيخُ ليسَ قصُارُهُ إلا التقى   لا أن يَـهيـمَ صَبابَةً بجـآذِرِ
نفرَتْ طِباعُ الغِيدِ عَنهُ كَراهـة   ومِنَ العَناءِ عَلاقَةٌ بِمُنـافِرِ
هل يَلتقي قِرنٌ بِقِرنٍ في الوَغى   إلا بأزرَقَ أو بِعَضبٍ باتـرِ

---

(1) طوق الحمامة، ص 28، والسُّبْجَة بالضم: كساء أسود.

(2) ديوان علقمة الفحل، ص 35-36 .

(3) ديوانه، ص 75 .

وإذا تَقَحَّمَ أَعزَلٌ في مـــأزِقٍ كـانَ الأَسيرَ ولـم يَكن بالآسِرِ
ما يَشتَهي نَهْدًا ولَحْظًا فاتـرًا إلا خـَلِيٌّ فـــي زَمـانٍ فاتِـرِ

وقوله في افتتاحية قصيدة يمدح فيها القاضي ابن توبة الغرناطي(1): الخفيف

ما عَناءُ الكبـــيرِ بالحَسنـاءِ وهْوَ مِثلُ الحَبابِ فـوقَ الـمـاءِ
يتصابى ولاتَ حيـنَ تَصابٍ بعُيونِ المَـها وسِربِ الظـبـاءِ
ولَعَمري لَمّا تُحِـبُّ فـتـاةٌ يَفَنًا لو غدا مِنَ الخُلـــــفـــاءِ
وتُحِبُّ الفتى الرقـيقَ الحَواشي حُبَّ ذي الجَدبِ صادِقَ الأنـواءِ
كيف لا وهوَ يَهنَأ النقبَ مِنها بِهِناءٍ يَزيدُ فـي البُرَحـــــاءِ
لحَكاها لطافَـةً وحـكَـــتـــهُ فهُما في الهَوى كمَـزجِ الهَـواءِ
لا كصادٍ أنـاخَ عِندَ قَلـــيـبِ دونَ دلوٍ يُدلي بـــهِ ورِشـاءِ
يَلحَظُ الماءَ حَسرَةً وهوَ مِنهُ مُتَدانٍ في حالةِ المُتَنائـــي
كلُّ قِرنٍ يُعِدُّ سَيفًا كـلـيـلا للقاءٍ يَخونُـــهُ فـي اللقـــاءِ
فمِـنَ الرأيِ أن تكونَ جَبانًـا سامِريًّا يَديـــنُ بِالانـــزِواءِ

(1) ديوانه، ص 79- 80، والبرحاء: شدة الحمى.

التضمين:

يُعدُّ التضمين بشكل أو بآخر إعجابًا بالتراث وتأثرًا به. وكان للأندلسيين اهتمام ملحوظ بهذه القضية البلاغية النقدية؛ فكانت تُعقد مجالس لتدارس تضمينات الشعراء من مختلف العصور، وكان أغلب الشعر المضمن شعرًا جاهليًا، ويُحكم للشاعر أو عليه في الإحسان أو الإساءة(1).

وقد ضمن كثير من الشعراء الأندلسيين قصائدهم ومقطوعاتهم أجزاء وأشطرًا وأبياتًا من الشعر الجاهلي، وشطّر بعضهم بعض القصائد الجاهلية. وكانوا واعين بمعاني الشعر المضمن، وبالقصائد التي أخذ منها هذا الشعر. ومن الملاحظ أنَّ أغلب الشعر المضمن أمثال شعرية شائعة، أو ما يجري مجرى الأمثال أو الحِكم. والأمثلة على ذلك كثيرة، ونقتصر على نماذج قليلة لتوضيح الظاهرة. ومن ذلك أن ابن عبد ربه يضمن مقطوعة له بيتًا لعديّ، يقول فيها(2): الرمل

أنَا في اللذات مَخلوع العِذارِ ... هائم في حُبِّ ظَبي ذي احْورارِ
صُفرةٌ في حُمرة في خدّه ... جمَّعتْ روضةَ وَرْد وبِهارِ
بأبي طاقةُ آسٍ أقبلتْ ... تَتَثَنّى بين حِجْل وسِوارِ
قادني طَرفي وقَلبِي للهَوى ... كيف من طَرفي ومِن قلبي حِذارِي
"لو بغير الماء حَلقي شَرِقٌ ... كنتُ كالغَصّان بالماء اعتصارِي"

فالبيت الأخير لعديّ بن زيد العِبادي، وهو "من أشرف أمثال العرب" في رأي الأصمعي(3).

ويقول ابن عبد ربه، مضمنًا بيتًا لطرفة(4): الطويل

وحامِلةٍ راحًا على راحَةِ اليدِ ... مُوَرَّدةٍ تَسْعَى بلَوْنٍ مُوَرَّدِ
متى ما ترَى الإبْريقَ لِلكأسِ راكِعًا ... تُصلِّ لهُ مِنْ غَيْرِ طُهْرٍ وتَسجُدِ
على ياسَمينٍ كاللجينِ ونَرْجِسٍ ... كأقراطِ دُرٍّ في قضيبِ زَبَرْجَدِ
بِتلكَ وهذي فَالهُ ليلكَ كلَّهُ ... وعنها فسَلْ لا تَسْألِ النَّاسَ عَنْ غَدِ
"ستُبْدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا ... ويأتيكَ بالأخبار من لم تُزَوِّدِ"

البيت الأخير لطرفة بن العبد البكريّ(5)، وهو من الأمثال الشعرية الشائعة.

والمثل "بعضُ الشرّ أهونُ من بعض"، وهو جزء من بيت لطرفة بن العبد(6): الطويل

أبا منذر أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا ... حنانيكَ بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

---

(1)ينظر: الذخيرة، 369/1/4-371.
(2)العقد، 408/5،وشعره، ص 167-168.
(3) العقد،97/3.
(4)العقد، 393/5 .
(5) شرح المعلقات، ص 69 .
(6) العقد، 293/5، والبيت ليس موجودًا في ديوانه بشرح عاصم البطليوسي.

ضمنه ابن عبد ربه في مقطوعة غزلية أخرى له، يقول منها يشكو صبابته:(1): الطويل

وقلْ للذِي أَفْنَى الفؤادَ بحُبِّـــــهِ علـــــى أنهُ يَجْزي المَحَبَّةَ بالبُغضِ

"أبا مُنْذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا حنانيك بعضُ الشرِّ أهونُ منْ بَعضِ"

ويضمن ابن دراج شعرًا لامرئ القيس، في قوله(2): الطويل

كمـا وصفَ الكنديُّ بعلَ فتاتهِ "عليـه القتامُ سيِّىءَ الظنِّ والبـالِ "

فعجز البيت هو من قول امرئ القيس(3):

فأصبحتُ مَعْشوقا وأصبحَ بعلها عليـهِ القتامُ سيِّىءَ الظنِّ والبـالِ

وهذا التضمين جاء في آخر البيت على سبيل المثال. وابن دراج يتحدث عن تجربة امرئ القيس في العشق واللهو، فيصف بلسانه زوج معشوقته الذي بات مرتابًا من علاقة الكندي بزوجته.

ويقول الأديب أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني(-457هـ)(4): البسيط

إنّي إذا حَضَرتني ألفُ محبرة تقولُ أنشدنـي طورًا وأخبرنـي

يا حبَّذا ألسن الأقلام ناطقـة "هذي المكـارمُ لا قعبانِ من لبنِ"

فالشطر الأخير-وهو مثل- مُضمّن من صدر بيت لأمية بن أبي الصلت، وهو قوله(5): البسيط

تلكَ المَكارِمُ لا قعبانِ مِن لبَنٍ شِيبا بمـاءٍ فـعادا بَعدُ أَبـوالا

ويضـمن الـوزير الفقيـه أبـو حفـص عمـر بـن الحسـن الهـوزني الإشـبيلي(392-460هـ) بيتـين لزهير، في مقطوعة شعرية له، وهي ضمن رسالة طويلة بعثها إلـى المعتضد بن عباد، يحثه فيها على الجهاد وردِّ العدوان عن بَرْبَشْتَر، التي استولى عليها الفرنجة سنة 456هـ، يقول من هذه المقطوعة(6): الطويل

"وما يَكُ مِن خَيرٍ أَتَوهُ فإنَّـــمـا تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِـمْ قَبـــــلُ"

"وهل يُنبتُ الخطيَّ إلا وشيجُه وتُغرسُ إلا في منابتها النخـلُ"

وقول رسول الله أعدلُ شاهــد فحكمته شرع ومنطقهُ فصـــلُ

يقول بنو الدنيا معادنُ، خيرُها إذا ما زكَوا من كان قِدما له الفضلُ

فالبيتان الأولان هما لزهير بن أبي سلمى(7). وجاء معنى البيتين لزهير مناسبًا للمعنى العام الذي قصده الهوزني، وينسجم مع القيم المدحية التي أرادها، وقد أفاد الهوزني في تضاعيف

---

(1) العقد، 392/5 . (2) ديوان ابن دراج، ص 282 . (3) ديوان امرىء القيس، ص 32 .

(4) الذخيرة، 543/1/1 . (5) ديوان أمية بن أبي الصلت، جمعه وحققه وشرحه سجيع جميل الجبيلي،دار صادر، بيروت، ط1، 1998م، ص 179. (6) الذخيرة، 88/1/2 . (7) ديوان زهير، ص 55 ، من قصيدته الثانية في ديوانه التي مطلعها(ديوانه، ص 39):

صَحا القلبُ عن سلمى وقد كادَ لا يَسلو وأقفَرَ مِن سلمى التعانيقُ فالثِقلُ

رسالته نثرًا وشعرًا من معاني قصيدة زهير.

ولأبي حفص الهوزني كذلك قصيدة يحضّ فيها على الجهاد ويستنفر كوافَّ البلاد، منها قوله(1): المديد

يدُنا العليا وهمْ ويْكَ شُلُّ فَلِمَ استرعى الأعزَّ الأذلُّ

عَجبُ الأيامِ ليثٌ صُمُلُّ ذعرته نعجة إذ تَصِلُّ

"خَبَرٌ ما نابَنا مُصمَئِـلُّ جَلَّ حَتّى دَقَّ فيهِ الأَجَلُّ "

البيت الثالث لتأبط شرًّا من قصيدة في رثاء صديقه(2). فإذا كان تأبط شرّا في رثائه لصاحبه، يحضُّ على الثأر من عدوه، فالهوزني يحضُّ على الجهاد والثأر من الأعداء.

وهذا أبو الطيب عبد المنعم بن مَنّ الله القرويّ(-493هـ) الذي ردَّ على رسالة ابن غَرْسية الشعوبية، وأجاد ما أراد برسالة طويلة اشتملت على المآثر العربية والمفاخر الإسلامية، ضمنها مقطوعة شعرية، افتتحها ببيت لزهير: الطويل

"وذي خَطَلٍ في القولِ يَحسَبُ أنَّهُ مُصيبٌ فـــما يُلمِمْ بِهِ فهوَ قائلـهْ"

نهدْتُ له حتى ثنيتُ عِنانَـــــه عن الجهل واستولتْ عليه معاقلهْ(3)

والقرويّ حين ضمّن بيت زهير كان على علم بمعاني قصيدة زهير التي أخذ منها البيت المضمّن، وبألفاظها وقوافيها؛ فزهير يدافع عن ممدوحه، وهو حصن بن حذيفة بن بدر، الذي وقف ضد عمرو بن هند قاتل أبيه، وأبى حصن الانضواء تحت راية عمرو هذا، وأعدّ له عدة الحرب،...، ودافع زهير عن موقف حصن، رادًّا على خصومه الذين لا رويّة لهم في أمر ولا عقول تزن كلامهم قبل الإفصاح عنه.

والقروي أجمل أغلب معاني زهير في مقطوعته الشعرية، وفصّلها في ثنايا رسالته-نثرًا وشعرًا. وكما دافع زهير في قصيدته عن ممدوحه باتصافه بالعزة والكرم الفيّاض والعزم والشهامة والشجاعة وكرم النسب والسجايا، كذلك فعل القرويّ في دفاعه عن العرب والعروبة، وأتى على هذه الخلال التي ذكرها زهير، ثم زاد وأفاض.

---

(1)الذخيرة، 90/1/2 ، صمل: شديد الخلق. تصلّ: تصوّتُ أجوافها عطشا.

(2) ديوانه، ص 63، شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، م1/ ص 829، من قصيدته التي مطلعها:

إنّ بالشعبِ الذي دونَ سَلْعٍ لقتيلا دَمُهُ ما يُطَلُّ

(3) الذخيرة، 723/2/3، والبيت الأول لزهير، ديوانه، ص 73، من قصيدة مطلعها(ديوانه، ص 57):

صَحا القلبُ عن سلمى وأقصَرَ باطِلُه وعُرِّيَ أفراسُ الصِبا ورَواحِلُهْ

ويقول أبو الحسين سليمان بن الطراوة (-528هـ) -وهو أحد أئمة الأدب وشيوخ النحاة القُوَّام على كتاب سيبويه وغيره، وهو من شيوخ القاضي عياض-: الوافر

وقائلةٍ أتصبو بالغواني ... وقد أضحى بمفرِقكَ النهارُ

فقلتُ لها حضَضْتِ على التصابي ... " أحقُّ الخيل بالركض المُعارُ"(1)

فالشطر الثاني من البيت الثاني عَجُزُ بيتٍ لبشرِ بنِ أبي خازمٍ، وصدرُه:" وجَدْنا في كتاب بني تميمٍ"، ويُظن أنه قديم جدا وأنّ بشرًا ضمنه شعرَه، وقد ذهب هذا العَجُزُ مثلا(2).

ويضمِّنُ عبدُ الجليلِ بنُ وَهْبُونٍ(-484هـ) جزءًا من بيت لامرئ القيس، في مقطوعة له، يخاطب فيها صاحبه ابن خفاجة، وكانا معًا يتناشدان الأشعار ويتذاكران الأخبار، في وقت حرب مع العدو، حتى انبلج الصبح وهما في خوف، فمرَّا بمشهدين مرعبين من القتل، فيصف ابن وهبون ذلك، في قوله(3): الطويل

يقول حِذارًا لا اغترارًا فطالما ... أناخَ قتيلٌ بي وفرّ سليبُ

ويُنشدنا: "إنَّا غريبان هاهنا ... وكلّ غريبٍ للغريب نَسيبُ "

فإن لم يزرْهُ صاحبٌ أو خليلُهُ ... فقد زارَه نَسْرٌ هناك وذِيب

فها هو: أمَّا مَنظرٌ فهو ضاحكٌ ... إليك وأمّا نَصْبُه فكئيبُ

ويروي ابن خفاجة من عجيب الاتفاق، أنه ما أتمّ ابن وهبون إنشاده لشعره هذا حتى طلعت سرية العدو فأوقعت بالركب، فأناخ عبد الجليل قتيلا، ونجا ابن خفاجة مسلوبًا.

وقوله "إنا غريبان.."، من شعر امرئ القيس قاله يخاطب قبرًا لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت بأنقرةَ، ومنه قوله(4): الطويل

أجَارَتنا إنَّ المَزَارَ قريبُ ... وإني مُقِيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ

أجَارَتنا إنَّا غريبانِ هاهنا ... وكلُّ غَريبٍ للغَرِيبِ نَسِيبُ

ووظف ابن حمديس الصقلي دلالة جبل عسيب، في ديمومة البقاء، في شعر امرئ القيس، للدلالة على الديمومة في الزواج، فيقول في زواج المرأة من الرجل الشريف من ذوي الفضل، لأنه يحافظ على زوجته، ويبقيها في عصمته، بقاء عسيب، من قصيدة مدحية(5): الكامل

لا ينكحُ العذراءَ إلا ماجدٌ ... تبقى بعصمته بقاءَ عسيبِ

---

(1)الغنية، ص 224، وتحفة ابن الأبار، ص 18، مع اختلاف يسير في رواية بعض مفردات البيتين: فالشطر الأول في التحفة هو: "وقائلة أتهفو للغواني"، والشطر الثاني: "فقلت لها حثثْتِ ..."، ويروى "حُثثتُ" مبنيًا للمجهول.

(2) المفضليات، ص 344 . (3) قلائد العقيان، 743/2/2، المطرب، ص 123 .

(4) ديوان امرئ القيس، ص 357 . (5) ديوان ابن حمديس، ص 62 .

وقد يُحدث الشاعر في الشطر المضمن تغييرًا طفيفًا، ليتناسب مع السياق أو الوزن الجديدين؛ وقد يُوجّه المعنى إلى غرض آخر غير الذي قيل فيه، يقول ابن خفاجة في المديح، مع تحوير في الضمائر(1): الكامل

تُولي الأيادي عن يدٍ نزلَ النَّدى منها بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ

فإن عجزه مأخوذ من قول عنترة في مخاطبة عبلة(2):

ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَهُ مني بمنزلة المُحَبِّ المُكرَمِ

ويقول الأعمى التطيلي(3): الطويل

وكنتُ وَمَنْ أهْوَى -وأنت جنيتها- "على صِيْرِ أمْرٍ ما يُمِرُّ ولا يُحْلي"

فشطره الثاني مأخوذ من بيت لزهير، يصف حاله بين طمع ويأس من سلمى، فلا يطمع بوصلها فيحلو عيشه، ولا ييأس فيمُرّ(4):

وقد كنتُ مِن سلمى سِنينَ ثَمانِيًا على صِيرِ أَمْرٍ ما يَمُرُّ وما يَحْلو

ومن الشعراء الأندلسيين من شطّرَ بعض أبيات قصائد لشعراء جاهليين، فأحسن توظيف المعاني في النص الجديد، ومنهم من لم يكن يروم سوى التدرّب على قول الشعر فحسب؛ فعبد المجيد بن عبدون اليابري(440-527هـ)، قال يخاطب المتوكل بن الأفطس(-488هـ) صاحب بطليوس، بشأن دار أنزل فيها، فوكفت عليه، لأنها دار واهية البناء، وسقفها قديم لا يقي من المطر، فحمل ابن عبدون شكواه إلى الأمير في أبيات من الشعر فكهة الأسلوب، مضمنًا أنصاف أبيات لامرئ القيس معظمها في وصف الطلل البالي، ووصل صاحبته المصونة، واختار ابن عبدون من قصيدة امرئ القيس ما يناسب معانيه، ولم يراع ترتيب ما أخذه في قصيدة امرئ القيس: ففي بيته الأول ضمّن عجز البيت العشرين من قصيدة امرئ القيس، وفي بيته الثاني ضمن صدر البيت الرابع، وفي بيته الثالث ضمن صدر المطلع، وفي بيته الرابع ضمن عجزه، وفي البيت الخامس ضمن عجز البيت الواحد والثلاثين من قصيدة امرئ القيس مع تغيير حرف الجر الموصول بـ"أنّ"، ليناسب تركيب الجملة؛ يقول ابن عبدون(5): الطويل

أيا سامِيًا مِن جانِبَيهِ إلى العُلا "سمُوَّ حَبابِ الماءِ حالا إلى حالِ"

لِعَبدِكَ دارٌ حَلَّ فيها كأنَّـــــها "ديارٌ لِسَلمى عافِياتٌ بذي الخالِ"

يقولُ لها لَمّا رَأى مِن دُثورِها "ألا عِم صَباحًا أَيُّها الطَّلَلُ البالي"

---

(1) ديوانه، ص 98 . (2) شرح المعلقات، ص 151 .

(3) ديوان الأعمى التطيلي، ص 124 .

(4) ديوانه، ص 39، صير كل شيء: منتهاه.

(5) ديوانه، ص 171، تحفة القادم، ص 167، المطرب، ص 182، مع اختلاف في الرواية للأبيات.

فقالت وما عَيَّت جَوابًـــا بِــرَدِّها "وهَل يَعمَن مَن كانَ في العُصرِ الخالي"

فمُر صاحِبَ الأَنزالِ فيها بَفاصِل "فإنَّ الفتى يَهذي وليسَ بفَـــعّــالِ "

وأما أبيات امرئ القيس من قصيدته اللامية التي ضمنها ابن عبدون في شعره، فهي:(1)

1- أَلا عِم صَباحًا أيُّها الطَّلَلُ البالي وهَل يَعِمَن مَن كانَ في العُصُرِ الخالي

4- دِيارٌ لِسَلمى عافِياتٌ بذي خـالٍ ألـــــــحَّ عليها كلُّ أَسحَمَ هَطّـــالِ

20- سَمَوتُ إليها بَعدَ ما نامَ أهلُـها سُموَّ حَبابِ الماءِ حالا عَلى حــــالِ

31- وقد عَلِمَت سَلمى وإن كانَ بَعلُها بأَنَّ الفتى يَــهذي وليسَ بفَعّــــــالِ

وحتى تكتمل المعاني وتعم الفائدة، لا يضير القارئ أن يعود إلى قصيدة امرئ القيس ومعانيها، التي كان ابن عبدون على دراية تامة بها، فابن عبدون في بيته الثاني يصف الدار التي حلّ فيها بأنها كديار سلمى الداثرة، وامرؤ القيس يذكر سبب هذا الدثور: وهو المطر الغزير، وابن عبدون لم يذكر سبب خراب الدار التي نزل فيها، وإن كان السبب معروفًا: وهو أنهـا لا تقي ساكنها من ماء المطر، وهذا يستوحي من القارئ معرفة معنى الشطر الثاني من بيت امرئ القيس. ثم إنّ هذا التضمين وتداخل النصوص يفتح للمتلقي آفاقا وفضاءات تعينه على الربط ما بين النصين من معان متقابلة تثري تخيلاته، وتنبه فيه غرائز الإمتاع المعرفي؛ فإذا كان ابن عبدون قد خاطب المتوكل في البيت الأخير ليطلب من صاحب الأنزال بأن يصلح الدار، فهذا الأخير قوَّال وليس فعَّالا، فإنَّ امرأ القيس وصف بعلَ صاحبته بهذه الصفة، ولا يستطيع أن يقتصَّ من امرئ القيس، لأنه أدنى من أن يفعل ذلك، فصاحب الأنزال وبعل صاحبة امرئ القيس يشتركان في صفة واحدة وهي القول دون الفعل.

وقد لا يعني هذا التشطير كثيرًا في مجال التأثر، بقدر ما هو من قبيل التدرّب على قول الشعر؛ فابن حزم الظاهري(-456هـ) قال شعرًا بديهيّا، من ثمانية أبيات، ختم كلّ بيت منه بقسيم من أوّل قصيدة طرفة بن العبد المعلَّقة، وهي(2):

تذكَّرتُ ودّا للحبيبِ كــأنّـــــه " لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهْمـــــدِ"

وعهدي بعهدٍ كان لي منه ثابتٍ " يلوحُ كباقي الوشم في ظاهرِ اليدِ"

وقفتُ به لا مُوقنًا بــرجوعــه " ولا آيسًا أَبكي وأُبكي إلــى الغدِ"

(1) ديوان امرئ القيس، ص 27-34 .

(2) طوق الحمامة، ص83-84، وأبيات معلقة طرفة: شرح المعلقات، ص 49-50 .

إلى أنْ أطـالَ الناسُ عذْلي وأكثروا "يقولـون لا تَـهلِكْ أسىً وتجلّــدِ"
كأن فنونَ السُّخْطِ مِــــمنْ أُحبُّـهُ "خلايا سفينٍ بالنـواصف مـن دَدِ"
كأنَّ انقلابَ الهجرِ والوصلِ مَركبٌ "يجورُ به الملاحُ طـورًا ويهتـدي "
فوقـتُ رضًى يتلوهُ وقتُ تَسـخّــطٍ "كما قَسَمَ التربَ المـفايلُ بالـيــدِ"
ويبسم نحوي وهو غضبانُ معرضٌ "مظــاهرُ سمطَيْ لؤلؤٍ وزبـرجـدِ"

فمع أن ابن حزم على علم تام بمعاني معلقة طرفة، إلا أن القارئ يشعر أن مثل هذه التضمينات لم تكن جديّة، ففي أشطره الخاصة به يصف علاقته بصاحبته، ولكنه استعار كثيرًا من أشطر معلقة طرفة التي يصف فيها طلل خولة، وأخرى في وصف الحدوج، وأخرى في وصف الجيد. فلا علاقة بين تذكر ابن حزم لودّ حبيبه بعجز مطلع معلقة طرفة، ولا علاقة بين فنون السخط بخلايا السفين، وإن كانت ثمة علاقة فهي ليست قوية. إن مثل هذا التلفيق قد لا يعني الكثير في التأثر والتأثير بقدر ما ينصب في اهتمام الأندلسيين بقصائد الجاهليين والتدرب على قول الشعر. وابن حزم نفسه يصرح بأنه قال هذه القصيدة في صباه وهو يتدرب على قول الشعر(1).

على أيّ حال فإنَّ التضمين يُعدُّ من مظاهر التأثر بالشعر الجاهليّ مبناه وألفاظه وتراكيبه ومعانيه وأساليبه.

لقد تواصل الشعر الأندلسيّ مع أصوله العربية في العصر الجاهليّ؛ وإنَّ إعجاب الشعراء الأندلسيين بالشعر الجاهليّ كان حافزًا لهم لاحتذاء طريقته في النظم، ولأخذ ألفاظه ومعانيه ومبانيه وأساليبه، في شتى الأغراض الشعرية، خاصة المديح والرثاء والفخر والحكمة والغزل، وضمنوا بعضه في أشعارهم. وإنّ إيثار بعض الشعراء الأندلسيين الاتكاء على المثل والقيم الجمالية، وبعض الأساليب، السائدة في الشعر الجاهليّ، جعل كثيرًا من شعرهم تقليدًا ومحاكاة وتبعية ظاهرة للنموذج الجاهليّ؛ ومع ذلك فقد نتلمس في محاكاتهم شيئًا من التفرد والإحسان والإبداع.

---

(1) طوق الحمامة، ص 83 .

الفصل الثاني

معارضةُ الأندلسيينَ للشِّعرِ الجاهليِّ

المعارضة الشعرية: هي أن يُنشئَ شاعرٌ قصيدةً على منوال قصيدة أخرى لشاعر متقدم، يُجاريها في الغرض والوزن والقافية، قصدَ التمرّن أو المنافسة. وقد تكون المعارضة تامة؛ فيجاري الشاعرُ المعارِضُ الشاعرَ المعارَضَ في جميع أغراض قصيدته، وقد تكون جزئية؛ فيقتصر الشاعر على معارضة بعض الموضوعات والمعاني في القصيدة المتقدمة، أو يقتصر على الوزن والقافية. وقد انتشرت هذه الظاهرة في الأندلس، خاصة المعارضة الجزئية، وصارت عند بعض شعرائها، مثل ابن عبد ربه، ضربًا من ضروب التعليم، وعند ابن شُهَيْد، ضربًا من التحدي المقصود.

وتُعدُّ معارضة أدباء الأندلس للمشارقة، في شعرهم ونثرهم، من مظاهر انتماء الأدب الأندلسي إلى الأدب المشرقي(1). والمعارضة – في بعض جوانبها- تعني التلمذة أو الإعجاب والتقدير والتأثر بالأدب المعارَض، أوحتى الرغبة في إظهار المقدرة الفنية أو المنافسة والتحدي، فتندرج ضمن ذاك الإعجاب والتأثر. ولم تقتصر معارضة الأندلسيين للمشارقة على عصر دون آخر؛ فهذا عبد الرحمن بن أبي الفهد أبو المطرف "لم يكد يبقي شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه، وفي كلِّ ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد لايني ولا يقصّر، وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عُبادة في الزمام فاعجب". وهذا الكلام لابن شُهَيْد، ينقله الحُمَيْدي في جذوته(2).

ويبدو أنّ ابن شهيد معجب بابن أبي الفهد لكثرة معارضاته ومناقضاته؛ على أنّ كلامه فيه مبالغة؛ فليس بمستطاع شاعر أن يلمّ بالشعر الجاهليّ ومعانيه، وبالشعر الإسلاميّ كذلك، ثم يعارض ذلك كله ويناقضه! وإن كانت هذه المعارضة أوالمناقضة جزئية. ويدلّ ما صرح به ابن شهيد على حرص الأندلسيين على معارضة المشارقة ومناقضتهم،

---

(1) فعارضوا أعلام النثر المشرقيّ كبديع الزمان الهمذانيّ، وأبي العلاء المعريّ، وغيرهما، ينظر: هناء أبو الرب ، أثر أبي العلاء المعري في الأدب الأندلسي، رسالة دكتوراة، إشراف الأستاذ الدكتور صلاح جرار، الجامعة الأردنية، 2005م، ص 106-108، 120-، 129-، 135- .

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 258-259. وابن أبي الفهد أشجعي النسب من قيس مضر، من أهل إلبيرة، سكن قرطبة، له تصرف في البلاغة والشعر، وكان من شعراء الدولة العامرية، رحل إلى العراق ولم يستوف الثلاث والعشرين، ثم خفي خبره، وكان خروجه إلى المشرق في أيام المظفر بن أبي عامر عام 370هـ، وكان من أشعر من أنبتته الأندلس، وكان من أبصر الناس بمحاسن الشعر، وأشدهم انتقادًا له، وكان له شعر رائق، ولكن شعره لم يصلنا. يروى أنه عمل بحضرة أبي عامر بن شهيد أربعين بيتاً على البديهة إلى عبادة بن ماء السماء، ليس فيها حرف يعجم أولها:"حلمك ما حَدَّ حدَّه أحدُ". ومن شعره قصيدة أولها: رأت طالعاً للشيب بين ذوائبي فعادت بأسرابِ الدموعِ السواكبِ

وقالت أشيب قلت صبح تجارب أنارَ عـلى أعقابِ ليلِ النوائبِ

وقيل إنه نقض كل شعر قاله يماني في مفاخر المضرية، جذوة المقتبس، ص 258-259 .

والتفاخر بهذه الظاهرة التي أضحت، لدى ابن شهيد خاصة، من عناصر التفوق على الشعراء الآخرين. وعلى أيّ حال لم تذكر المصادر الأدبية شيئًا من شعر ابن أبي الفهد إلا أبياتًا قليلة.

وابن عبد ربه يُعارض مُسلم بن الوليد في قصيدته الغزلية التي مطلعها(1): الطويل

أَديرا عَليَّ الراحَ لا تَشرَبا قَبلي وَلا تَطلُبا مِن عِندِ قاتِلَتي ذَحلي

بقصيدة مطلعها(2):

أتَقتُلني ظُلماً وتجحَدُني قَتلي وقد قامَ مِن عينيكَ لي شاهِدا عَدْلِ

فمسلم يصف محبوبته، وأثر حبه القاتل، ويصف مجلس الخمر، والساقية، وصفًا لا يختلف عمّا عهدناه عند الأعشى في خمرياته، ويتبعه ابن عبد ربه في الغزل، ويناقض مسلمًا في بعض معانيه، وتخلو قصيدة ابن عبد ربه من وصف الخمر. ويُعارض ابن عبد ربه بعض قصائد الجاهليين، وقد يناقض معانيهم، خاصة في عروضياته.

وابن دراج القسطلي(-421هـ) يعارض قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب الخراج في مصر التي مطلعها(3): الطويل

أجارَةَ بَيتَينا أبوكِ غَيورُ ومَيسورُ ما يُرجى لدَيكِ عَسيرُ

بقصيدته(4):

دَعِي عَزَماتِ المستضامِ تسيرُ فتُنْجِدُ فِي عُرْضِ الفَلا وتَغُورُ

فأبو نواس يقدم لمدحته بغزل، فيه حوار مع العاذلة، يقنعها فيه بأن تلك الرحلة إلى مصر ستغنيه، فيذكر الرحلة، ثم يمدح، وهذه الطريقة شائعة لدى الجاهليين عند حاتم وعروة والأعشى، وغيرهم، عدا استخدامه بعض ألفاظ الجاهليين وتعابيرهم، والمدح بالقيم التي كانت شائعة لدى الشعراء الجاهليين. وكذلك حذا ابن دراج حذو أبي نواس وأتقن الاحتذاء لأساليب الجاهليين في وداع الزوجة والأبناء وذكر الرحلة ثم المدح.

---

(1) مسلم بن الوليد الأنصاري(-208هـ)، شرح ديوان صريع الغواني، رواه وشرحه أبو العباس وليد بن عيسى الطبيخي(-352هـ)، عني بتحقيقه والتعليق عليه سامي الدهان، دار المعارف بمصر، ص 33، والذحل طلب الدم .

(2) شعره، ص 261 .

(3) ديوان أبي نواس، دار صادر-دار بيروت، بيروت، 1382هـ-1962م، ص327. وينظر ديوان ابن دراج القسطلي، التصدير، ص 47 .

(4) ديوان ابن دراج، ص297، وقد وازن زكي مبارك بين الرائيتين في كتابه" الموازنة بين الشعراء"، دار الجيل، بيروت ط1، 1413هـ، 1993م، ص 238-242 .

ويُعارض ابنُ درّاج(-421هـ) المتنبي في قصيدته التي يمدح فيها ابن العميد ومطلعها(1): الكامل

بادٍ هَواكَ صَبَرتَ أم لم تَصبِرا وبُكاكَ إن لم يَجرِ دَمعُكَ أَو جَرى

بقصيدته في مدح المنذر بن يحيى التُّجيبيّ ملك سَرُقُسْطَةَ، ومطلعها(2):

بُشراكَ من طُولِ التَّرحُّلِ والسُّرى صبحٌ بِرَوْحِ السَّفْرِ لاحَ فأسْفَرا

ويُلحظ أنّ بناء القصيدتين متشابه في المقدمة الغزلية فالرحلة، وذكر الهوادج عند المتنبي والظعن عند ابن دراج، ثم المدح بالكرم والشجاعة والبأس، عدا الإشارات التاريخية، فهي عند المتنبي رَسْطاليس والإسكندر، وهي عند ابن دراج حاتم وأضرابه، وتكلف الاثنان غرابة الألفاظ، وفخامة التراكيب خاصة في المدح بالشجاعة في الحروب.

وابن شهيد(382-426هـ) يقدّم في رسالته التوابع والزوابع "خير ما يختاره من نظمه ونثره مبنيّا في أكثره على المعارضة والأخذ "(3). ويعارض بعض فحول الشعراء المشارقة، ومن بينهم بعض الشعراء الجاهليين، مثل امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم.

ويعارض ابن زيدون(-463هـ) قصيدة البحتري التي مطلعها(4): البسيط

يَكادُ عاذلنا في الحُبِّ يُغرينا فما لِجاجُكَ في لـومِ المُحِبّينا

بقصيدته الذائعة التي مطلعها(5):

أضحى التنائي بَديلا مِن تَدانينا ونابَ عَن طيبِ أُقيانا تَجافينا

فغزل البحتري جاء مقدمة لقصيدة مدحٍ، والقارئ للقصيدة يجد أسلوب البحتريّ قريبًا من شعر الجاهليين، وفي ذكر مواقع "كثب اللوى"، و "غداة الجزع من إضم" ...، وفي المدح بالكرم والشجاعة.. ؛ أما ابن زيدون فجاءت قصيدته في الغزل.

---

(1) ديوان المتنبي، ص 537 .

(2) ديوان ابن دراج، ص 124 .

(3) إحسان عباس، عصر سيادة قرطبة، ص 308 .

(4) البحتري، أبو عبادة وليد: ديوان البحتري، 4 مجلدات، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، المجلد الرابع، القاهرة، 1963م، ص 2200 .

(5) ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 141 .

ويعارضُ ابنُ خفاجة قصيدة المتنبي التي نظمها في مدح كافور، ومطلعها (1): الطويل

كفى بكَ داءً أَن ترى المَوتَ شافِيا وحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا

بقصيدة في رثاء بعض الإخوان افتتحها بالغزل، ومطلعها(2):

كفاني شَكوى أَن أَرى المَجدَ شاكِيا وحَسبُ الرَّزايا أَن تراني باكِيا

فيفتتح ابن خفاجة قصيدته في الرثاء بشكوى الدهر والشيب، والعاذلات له على بكائه، والحنين إلى الصبا ووادي الغضا. ويصدّر المتنبي قصيدته بمطلع يصلح أن يكون للرثاء، ثم شكوى الدهر، وصفات المرثيين عند ابن خفاجة تشابه صفات الممدوح عند المتنبي.

فمن الجليّ أنّ الشعراء الأندلسيين كانوا يعمدون إلى معارضة قصائد شعراء المشرق – العباسية بخاصة - التي تنهج غالبًا في بنائها الفنيّ العام نهج قصائد الجاهليين.

ويُلاحظ أنَّ الأندلسيين أكثروا من معارضة المتنبي؛ لأنّ المنهج الشعريّ الذي اختطه ينزع عمومًا إلى المحافظة على التقاليد الشعرية الموروثة منذ الجاهلية، ومن أهم تلك التقاليد افتتاح القصائد بمطلع تقليدي، وتكرار كثير من معاني الشعراء الجاهليين وصورهم(3).

معارضة ابن عبد ربه للشعر الجاهليّ:

ضمّن ابن عبد ربه عقدَه كتابًا بحث فيه أعاريض الشعر، وعِلل القوافي، وعَرَضَ أرجوزة من نظمه في العروض-من قبيل الشعر التعليمي، وأتبعها بأمثلة في قسمين: القسم الأول على ثلاثة وستين ضربًا من ضروب العروض من شعره، وجعل المقطعات سلسة سهلة ليسهل حفظها على ألسنة الرواة. وضمّن في آخر كل قطعة منها بيتا قديمًا من الأبيات التي استشهد بها الخليل في عروضه، وقيّد ابن عبد ربه نفسه بأن ينظم كلّ مقطوعة على بحر البيت الذي استشهد به الخليل وعلى قافيته، وأن تكون القطعة متضمنة للبيت ومتصلة به وداخلة في معناه، وعدد الأبيات في كل مقطوعة خمسة، آخرها البيت المضمّن(4).

وفي القسم الثاني مئتا بيت وضع أجزاءها على حروف الهجاء. وعدد الأبيات في كل مقطوعة منها أربعة فقط(5).

---

(1) ديوان المتنبي، ص 439.(2)ديوان ابن خفاجة، ص 198. (3)مصطفى العيس، أثر المتنبي..،ص 214-215.

(4) العقد، 5/377-454، الأرجوزة، 5/382-392 ، والأمثلة، 5/392-434، وضمن أبياتا لشعراء جاهليين من مثل طرفة بن العبد، العقد، 5/392، 393، 396، وزهير 5/397، وعنترة 5/401، والمرقش الأكبر 5/ 411، وأمية بن أبي الصلت 5/413، وعدي بن زيد 5/396، 408، ودريد بن الصّمة 5/407، وغيرهم . وفي نهاية المقطوعات التي ضمن آخرها أبياتا من الشعر القديم، يفردها ابن عبد ربه خالصة من أي زيادة عليها، 5/420-434 .

(5) العقد، 5/447-454، وينظر حبرائيل جبور، ص 181- 183 .

إن مقطوعات ابن عبد ربه، من القسم الأول خاصة، تُعدّ من قبيل التحدي والمعارضة للمشارقة أو مناقضتهم، كما يصرح بذلك إحسان عباس؛ لأن ابن عبد ربه يجعل البيت المضمن هو أساس المقطوعة التي من صنعه. وطريقة ابن عبد ربه في المعارضة هي التزام المعاني الأصلية ومحاولة عكسها أو الزيادة فيها(1).

على أي حال كان ابن عبد ربه يلتزم وزن القصيدة التي أخذ منها البيت المضمَّن ورويّها، وكان واعيًا بمعانيها. ففي عروضيته التالية - مثلا(2): البسيط

بينَ الأهلَّةِ بدرٌ مـــا لــهُ فَلَكُ   قلبي لهُ سُلَّمٌ والوجهُ مُشترَكُ

إذا بَدا انْتَهَبتْ عَيني مَحاسِنَهُ   وذَلَّ قلبي لعَينَيْهِ فيَنْهتــــكُ

ابْتَعتُ بالدِّينِ والدُّنيا مَودَّتَــهُ   فخانَني فعَلى مَن يَرجعُ الدَّرَكُ

كُفُّوا بني حارثٍ ألحاظَ ريمِكُمُ   فكلُّها لفؤادي كـــلِّــهِ شَرَكُ

"يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكُمْ بداهيةٍ   لم يلْقها سُوقةٌ قبْلي ولا مَلِكُ"

يضمن بيته الأخير في المقطوعة من قصيدة زهير بن أبي سلمى الكافية، التي مطلعها(3):

بانَ الخَليطُ ولم يَأوُوا لِمَن تَرَكوا   وزَوَّدوكَ اشتياقًا أَيَّةً سَلكوا

قالها في الحارث بن وَرْقاء الصَّيداويّ، وهو من بني أسد، حين أغار على بني عبدالله بن غَطفان، فغنم واستخفَّ إبلَ زهير وراعيَه يَسارًا.

يبدأ زهير قصيدته بالحديث عن رحلة القوم الذين بانوا بمن أحبَّ، وظعنوا به - ولم يصرح عن محبوبه مباشرة، فقد يفهم أنها صاحبة أو صاحب أو قوم - ولم يأووا له (لم يرقُّوا لحاله ولم يرحموه)، بل جعلوا زاده منها الاشتياق إليها، وإن سلكوا أيَّ جهة. ثم يتحدث عن الإماء اللواتي رددنَ الجِمال من المرعى استعدادًا للارتحال منتصف النهار، وهذا الوقت لم يكن وقتًا مناسبًا للرحلة في المفاوز، أو لعله اختلاف القوم بين فريق راغب في الرحيل وآخر غير راغب فيه. ثم يصف رحلة الظعائن عبر الصحراء، التي يشبهها بالسفن، وكيف تبعها زهير على فرس شديدة السرعة، تشبه القطاة التي يحاول الصقر اصطيادها. ثم ينتقل فجأة إلى مخاطبة الحارث، بأن يسأل قومه بني الصيداء عن أخلاق زهير: كيف يحسن الجوار، ويتمسك بالعهود والمواثيق، ولا يغدر ولا يخون كما فعل قومه، يقول:

---

(1) عصر سيادة قرطبة، ص 181- 182 .

(2) العقد، 397/5، وشعره، ص 244 .

(3) ديوان زهير، ص 91-104، هذه القصيدة يقول فيها الأصمعي: "ليس على الأرض كافيّة أجودُ منها"، الصفحة نفسها.

هَلا سَأَلتَ بَني الصَّيداءِ كلَّهُمُ بـأيِّ حَبلِ جِـوارٍ كنتُ أَمتَسِكُ

فلن يقولوا بحَبلٍ واهِنٍ خَلَـقٍ لو كانَ قومُكَ في أسبابِهِ هَلكوا

ثم ينصح حارثًا ألا يتعرّض بإنزال هذه الداهية به، وألا يتمادى على ما فعلَ منها، فإن فعلَ رُميَ الشاعرُ بداهية عظمى من قبل الحارث، وهو ما يعود بالضرر الكبير على الحارث نفسه، فيطلب من الحارث أن يردَّ يَسارًا ويرفق به ولا يماطل في فكّ أسره:

يا حارِ لا أُرمَيَن مِنكـــم بداهِيَةٍ لـــــم يَلقها سُوقةٌ قبلي ولا مَلِكُ

اردُد يَسارًا ولا تَعنُف عليهِ ولا تَمعَك بعِرضِكَ إنَّ الغادِرَ المَعِكُ

ويهدّد الحارث، إن لم يفعل ما يطلبه الشاعر، بهجاء يدنّس العرض، ولا يمكن غسله أو إزالته، كالثوب الأبيض، إذا تدنّسَ بالوَدَك فَسَد:

لَيَأتِيَنَّكَ مِنّـي مَنطِـقٌ قـذَعٌ بـاقٍ كما دَنَّسَ القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ

فابن عبد ربه لم يعارض إلا جزءًا من قصيدة زهير، هو الجزء المتعلق بعلاقة زهير بالحارث وقومه، فلا ظعائن ولا رحلة ولا قنص، وهذه الأغراض الثلاثة هي التي تأتي على معظم أبيات قصيدة زهير.

وإذا كان زادُ زهير هو الاشتياق للمحبوب، فابن عبد ربه في مقطوعته يخاطب بدرًا في السماء، وقلبه متعلق بهذا البدر تعلقًا شديدًا، جعله ذليل القلب منكسر الجناح. وإذا كان زهير متمسكًا بالعهود والمواثيق وحق الجيرة مع بني الصيداء، وفعل المستحيل لإبقاء هذه المودة، فإنّ ابن عبد ربه قد ابتاع بالدين والدنيا مودّته.

ويصرح زهير بأنَّ الخيانة ونقض العهود جاءت من بني الصيداء قوم الحارث، ويحمّل سوء عاقبة الأمور للحارث نفسه، على حينَ كان مَنْ خان ابن عبد ربه هو البدر، أو المحبوب، وهو الذي يحمل أغلب المسؤولية عن سوء الحال. وحتى لا تزداد الأمور سوءًا، يطلب زهير من الحارث أن يَردَّ يسارًا، ويرفق به، ولا يماطل في إطلاق سراحه، ليعود سالمًا إلى حضن الشاعر،على حين يطلب ابن عبد ربه من قوم محبوبه –بني الحارث-أن يبعدوا ألحاظ ريمهم؛ لأنها هي سبب آلامه، وهي التي توقع الشاعر في حبائل الشرّ. وينسب ابن عبد ربه محبوبه إلى بني الحارث في البيت السابق للبيت المضمن، حتى لا يكون البيت المضمن مبتسرًا أو مقطوعًا عن سابقه. وإن هدّد زهير صراحة بالهجاء المؤلم، فإن هذا التهديد قد يُفهم ضمنًا في مقطوعة ابن عبد ربه.

ومما لا شك فيه أنّ التكلّف واضح في بناء هذه المقطوعة، وفي غيرها من عروضياته، لأن الغرض الأساس من بنائها تعليميّ.

وفي عروضية أخرى، هي من قبيل المناقضة، يضمن ابن عبد ربه آخرها بيتًا لأميّة بن أبي الصَّلت، يقول(1): المنسرح

بيضاءُ مَضْمومةٌ مُقَرْطَقَةٌ تَنقدُّ عن نَهدِها قراطقُها
كأنما باتَ ناعِمًا جَذِلا في جَنَّةِ الخُلدِ مَن يعانقُها
وأَيُّ شيءٍ أَلَذُّ من أمَلٍ نالتْهُ معشوقَةٌ وعاشِقُها
دعْني أَمُتْ في هوَى مُخدَّرةٍ تَعلقُ نَفسي بها علائِقُها
"مَن لم يَمُتْ عَبطة يمت هَرَمًا لِلْموتِ كاسٌ والمرءُ ذائقها"

فالبيت المضمن مأخوذ من قصيدة (2) لأمية، يتحدث فيها عن همومه التي باتت تسري في نفسه، فدمعت عيناه، لمّا تيقّن من الموت، فلم تعد لديه رغبة في الحياة وإن طالت:

ما رَغبَةُ النفسِ في الحياةِ وإن عاشَت طويلا فالمَوتُ لاحقُها

وأنّ هذه النفس سيبعثها الإله، وسيجزيها: إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، فلمَ حبّ الحياة ما دام ما تجمعه وتحبّه إلى زوال؟ وكذلك هي النفس إن أرادت فعل الخير عاقها العوائق:

وصَدَّها للشقاءِ عن طلبِ الـ ـجَنَّةِ دُنيا الإلهُ ماحِقُها

وبدأ يعاتب نفسه: عَبدٌ دَعا نفسَهُ فعاتبَها يَعلمُ أنّ الصبرَ رامِقُها
مَن لم يَمُت عَبطَةً يَمُت هَرَمًا للمَوت كأسٌ والمَرءُ ذائِقُها
يوشِكُ مَن فرَّ مِن مَنيَّتِهِ في بَعضِ غرّاتِهِ يوافقها

ويتحدث عن مسالك البشر، وأنها لا تستوي، فمنهم إلى الجنة، ومنهم إلى النار.

فيلحظ أن أمية، الشاعر الجاهليّ، بدا في قصيدته مؤمنًا متصاونًا زاهدًا؛ فهو يقرّ بحتمية الموت، ويتعظ من مآل الإنسان؛ لذلك يحرص على التوبة، وفعل الخيرات، ليفوز بالجنة؛ في حين يحرص ابن عبد ربه على اغتنام اللذات، ما دام مآل الإنسان إلى الزوال، على غرار مبادئ الشعراء الجاهليين في فلسفتهم للحياة والموت، إذ يقتنصون اللذات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ويرى أنّ جنته لا تكون إلا في أحضان المحبوب وعناقه.

---

(1)العقد، 413/5، وشعره، ص 228، القُرطُق: قَبَاء معروف، قد يكون(القطيفة).

(2) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص 169-172 .

ولابن عبد ربه مقطوعة عروضية يضمّن فيها شيئًا من شعر دُرَيد بن الصِّمَّة، ويفيد من مناسبة هذا الشعر والظروف التي أحاطت بدريد حين أنشده، يقول فيها(1): منهوك الرجز

بياضُ شيبٍ قَدْ نَصَعْ
رَفعتُهُ فما ارتَفَعْ
إذا رَأى البِيضَ انْقَمَعْ
ما بَينِ يَأسٍ وطَمَعْ
للَّهِ أَيّامُ النَّخَعْ
" يا ليتَني فيها جَذَعْ
أَخُبُّ فيها وأَضَعْ"

أما شعر دريد، الذي ضمن منه ابن عبد ربه آخر شطرين في مقطوعته السابقة، فقد أنشده دريد وهو يحرّض قومه هوازن على الثبات لقتال المسلمين يوم حنين، ويطلب منهم أن يطيعوه، ولكن قومه لم ينتصحوا بنصحه، إذ كان شيخًا مُسنًّا، لا يقدر على القتال، فقال(2):

يا ليتَني فيها جَذَعْ
أخُبُّ فيها وأَضَعْ
أقودُ وَطفاءَ الزمَعْ
كأَنَّها شاةٌ صَدَعْ

فدريد يتمنى أن يكون حدثًا شابًّا قويًّا، يقود فرسًا أصيلة. وابن عبد ربه في مقطوعته يشكو من الشيب وآلام الشيخوخة، ويتحسر على أيام اللهو والصبا، ويتمنى ما تمنّاه دريد. فكلاهما يشكو من كبر السن، وكلاهما يتمنى الشباب، ولكن غاية دريد غير غاية ابن عبد ربه.

معارضة ابن عبد ربه لأبي قيس بن الأسلت:

لابن عبد ربه مقطوعتان، يبدو أنهما من قصيدة واحدة، ويصرح بهذا جامع شعر ابن عبد ربه، المقطوعة الأولى مقدمة لمقطوعته المدحية الثانية، التي ربما ضاع الكثير في أولها وفي آخرها؛ إذ كان ابن عبد ربه يحرص كثيرًا على التقديم لقصائده بمقدمات تقليدية، حرصه

(1)العقد، 407/5، انقمع: ذلّ، النخع: أيام عيد الأضحى حيث تكثر الذبائح.

(2) والخبر مع الأبيات لدريد في السيرة النبوية، لابن هشام(-218هـ)، حققها وضبطها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، ط 3، بيروت-لبنان، 1421هـ،200م، 89/4. وهي في كتاب الفريدة في الحروب، العقد، 204/1 .

على التصريع في المطالع. يقول في مقطوعته الأولى(1): السريع

قلبي رَهينٌ بينَ أَضلاعي ... مِن بينِ إيناسٍ وإطْماعِ
مِن حَيْثُ ما يَدعوهُ داعي الهوى ... أجابَهُ لَبَّيْكَ مِن داعِ
مَن لسَقيمٍ ما لهُ عائدٌ ... ومَيِّتٍ ليس له ناعي
لمَّا رأَتْ عاذِلتي ما رأَتْ ... وكانَ لي مِن سَمْعِها واعي
"قالت ولم تقصِدْ لِقِيلِ الخنا ... مَهْلا لقد أَبلغْتَ أَسْماعي"

ويقول في الأخرى(2):

وحَومَةٍ غادَرتَ فُرسانَها ... في مَبْرَكٍ للحَربِ جَعْجاعِ
مُسْتَلْحَمٍ بالمَوتِ مُسْتشعِرٍ ... مُفَرِّقٍ للشَّمْلِ جَمَّاعِ
وبلدَةٍ صَحْصَحْتَ مِنها الرُّبا ... بِفيْلَقٍ كالسَّيْلِ دَفَّاعِ
كأَنَّما باضَتْ نَعامُ الفلا ... مِنهُمْ بِهامٍ فوقَ أَذْراعِ
تَراهُمُ عنْدَ احْتِماسِ الوَغى ... كأَنَّهُم جِنٌّ بأَجْزاعِ
بكلِّ مَأثورٍ على مَتنِهِ ... مِثْلُ مَدَبِّ النَّمْلِ في القاعِ
يَرتَدُّ طَرفُ العَيْنِ مِنْ حَدِّهِ ... عَنْ كَوْكَبٍ للموتِ لمَّاعِ

ويعارضُ ابن عبد ربه في هاتين المقطوعتين قصيدة لأبي قيس بن الأسلت التي منها(3):

قالت ولم تقصِدْ لِقِيلِ الخنا ... مَهْلاً فقد أَبلغْتَ أَسْماعي
أَنكَرتِهِ حينَ تَوَسَّمتِهِ ... والحَربُ غُولٌ ذاتُ أَوجاعِ
مَن يَذُقِ الحَربَ يَجد طَعمَها ... مُرًّا وتَحبِسْهُ بِجَعْجَاعِ
-أَسعى على جُلِّ بَني مالِكٍ ... كلُّ امرئٍ في شأنِهِ ساعِ
أَعدَدتُ للأَعداءِ مَوضونَةً ... فضفاضَةً كالنَّهْيِ بالقاعِ
أَحفِزُها عَنّي بذي رَونَقٍ ... مُهَنَّدٍ كالمِلحِ قطّاعِ
صَدْقٍ حُسامٍ وادِقٍ حَدُّهُ ... ومُجْنأٍ أَسمرَ قرّاعِ
بِزُّ امرئٍ مُستَبسِلٍ حاذِرٍ ... للدّهرِ ،جَلدٍ غَيرِ مِجزاعِ

---

(1)العقد، 411/5، وشعره، ص 213 .

(2) العقد، 184/1-185، وشعره، ص 212-213، المستلحم: الذي روهق في الحرب، وأسلم نفسه للموت.

(3) مفضلية رقم 75، ص 284-286. موضونة: الدرع المنسوجة حلقتين حلقتين،النهي: الغدير، القاع: الموضع المطمئن،الصدق: الصُّلْب، الإدهان: المخادعة، الفكّة: الضعف، ينهتن: يزأرنَ ويزئرن، غاية وراية واحد، ويقول: ذلك الجمع كله منا لم نستعن بأحد غيرنا،"هلا سألت...قلصت": أي أصحاب الخيل قلصت الخُصى: وتتقلص خصيتا الجبان ساعة الفزع.

الحَـزمُ والقـوَّةُ خَيرٌ مِـنَ الـ ... إدهــانِ والفَكَّةِ والهَـــــاعِ
ليسَ قَطًّا مِثـلَ قُـطَـيٍّ ولا الـ ... مَـرعِيُّ فـي الأَقوامِ كالراعـي
لا نَـأَلـمُ القتلَ ونَجزي بِهِ الـ ... أَعـداءَ كَيلَ الصَّاعِ بالصَّـاعِ
نَـذودُهُــــمْ عَنّـا بِمُستَنَّةٍ ... ذاتِ عَـرانـيـنَ ودُفّـــــاعِ
كأنَّـهُم أُسْدٌ لـدى أَشبُــــلٍ ... يَنهِـتْنَ في غِـيلٍ وأَجــزاعِ
حـتى تجَلَّت ولـنا غايَـــــةٌ ... مِـن بَـينِ جَمعٍ غَيرِ جُمّـــاعِ
هَـلا سَأَلـتِ الخَيلَ إذ قَلَّصَـت ... مـا كـانَ إبطائـي وإسراعـي
هـل أَبـذُلُ الـمالَ على حُبِّهِ ... فـيـهِمْ ،وآتي دَعوَةَ الـداعـي
وأَضـرِبُ القَـونَسَ يَومَ الـوَغى ... بـالسيـفِ لم يَقصُر بِهِ باعـي
وأَقـطَـعُ الخَرْقَ يُخافُ الـرّدى ... فيـهِ علـى أَدماءَ هِلــــواعِ
- أَقضـي بِـها الحاجاتِ إنَّ الفـتى ... رَهــنٌ بِـــذي لونَينِ خَـــدّاعِ

فالقصيدتان تتشابهان في البحر، والرويّ، وإعرابِ القافية، والافتتاحِ بحديث العاذلة، ثم الحديث عن الشجاعة في النزال والحروب، فَخْرًا لدى ابن الأسلت، ومَدْحًا لدى ابن عبد ربه. فقصيدة ابن الأسلت قالها في ظروف الحرب التي استعرت بين قومه الأوسيين وبطون الخزرج قبل ظهور الإسلام بقليل. ويذود ابن الأسلت في قصيدته عن قومه، حتى تبدلت ملامحه، ونَكَرته امرأته ولم تتعرف إليه إلا بعد سماع صوته. ويصف لزوجه ما يذوق من أهوال الحرب، ويفخر بجرأته وحفاظه على مقدرات قومه، وتضحيته في سبيل رفعتهم، ولا يفتأ يتحدث في سياق ذلك عن سلاحه ومروءته.

ويضمن ابن عبد ربه آخر بيت في مقطوعته الأولى مطلع قصيدة ابن الأسلت. وأسلوب ابن عبد ربه في مخاطبة الزوجة أو الصاحبة أو العاذلة قبل البدء بذكر ما يعانيه وتغير حاله وسقمه، وقبل الحديث عن نفسه، هو أسلوب معهود في الشعر الجاهلي، كما نلحظ طرفًا منه في قصيدة ابن الأسلت، وإن بدا أن سقم ابن عبد ربه، وتغير حاله، كان سببه الحب المضني، على حين كان السقم وتغير الحال عند ابن الأسلت هو بسبب كثرة خوض الحروب.

أما المعاني في مقطوعة ابن عبد ربه الثانية وقصيدة ابن الأسلت، فكلتاهما تتحدث عن أهوال الحرب وأوجاعها ومرارتها، إذ تترك الفرسان في مكان موحش بلا كلأ ولا ماء، ويستشعر فيها المحاربون دنوّ الأجل، وإن أطنب ابن الأسلت في ذلك وفرَّع أكثر من ابن عبد ربه. وكلاهما يصف الكتيبة القوية ذات الرؤساء والأبطال، الذين يدفعون الأعداء عنهم وعن قومهم عند ابن الأسلت، وهي كالسيل الدّفّاع عند ابن عبد ربه. وكلاهما تحدث عن شجاعة أفرادها وذكر من عتادها: السيفَ القاطعَ الصلْبَ الصافي، والدّرع السابغة، مع تكثيف ابن عبد ربه عباراته

واختصاره المعاني. وإذا كان حتف الفتى رهنا بحوادث الدّهر الخدّاع عند ابن الأسلت، فحتف الفتى رهن بحدّ السيف اللماع عند ابن عبد ربه(1).

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأسلت يتفاخر في قصيدته برحلته في الصحراء، التي يُخاف الردى فيها، على ناقة: بيضاءَ جماليّةٍ أمونٍ قوية تجدّ في السير، في حين لا يذكر ابن عبد ربه مثل هذه الرحلة، وعلى هذا يسير كثير من الشعراء الأندلسيين، في التخفف من وصف الرحلة الصحراوية في قصائدهم، وإن أبدلوها برحلة أخرى كالرحلة البحرية، أو تكثيف معاناتهم الحياتية قبل الولوج في الغرض الأساس.

أما ألفاظ القافية، فقد أفاد ابن عبد ربه فيها من معجم ألفاظ القوافي لدى ابن الأسلت. بل إن كل كلمات قوافي ابن عبد ربه في مقطوعته الثانية موجودة في قوافي قصيدة ابن الأسلت, عدا لفظة "أدراع". ولفظة "داع" قافية البيت الثاني من المقطوعة الأولى هي قافية البيت السابع عشر من قصيدة ابن الأسلت.

---

(1) ويلحّ هذا المعنى على ابن عبد ربه كثيرًا، من مثل قوله في وصف الرمح والسيف: الطويل

بكلِّ رُدَيْنــيٍّ كـــــــــــأنَّ سِنانَــهُ   شِهابٌ بَدا في ظُلْمَةِ الليلِ ساطِعُ
تَقاصَرَتِ الآجالُ فـــي طُـول مَتْنِـهِ   وعادَتْ بهِ الآمالُ وَهْيَ فَجائِعُ
وساءَتْ ظُنُونُ الحَرْبِ في حُسن ظنِّهِ   فهُنَّ ظُبَاتٌ للقُلوبِ قَـــــوارِعُ
وذِي شُطَبٍ تَقْضي المَنايا بحُكــمِـهِ   وليْسَ لِماَ تَقْضِي المَنِيَّةُ دافِـعُ
فِرنْدٌ إذا مَا اعْتَنَّ للعَيْنِ رَاكِـــــــدٌ   وبَرقٌ إذا مَا اهْتَزَّ بالكفِّ لامِعُ
يُسَلِّلُ أَرواحَ الكُماةِ انْسِلالُــــــــــهُ   ويَرتاعُ منهُ المَوتُ والموتُ رائِعُ
إذا ما التَقَتْ أَمْثالُـهُ فـي وَقيعــــــــةٍ   هُنالِكَ ظَنُّ النَّفْسِ بالنَّفْسِ واقِعُ (العقد، 250/1، شعره، ص 207-208). وتشبيه بيضة الرأس ببيض النعام كثير في الشعر الجاهليّ: قال النابغة يذكر كتيبة(ديوانه، ص 114):

فصَّبحهم بها صهباءَ صِرْفا   كأنّ رؤوسَهم بَيْضُ النعامِ

وقال الأعشى الكبير(ديوانه، ص 241):

كَأَنَّ نَعامَ الدَّوِّ باضَ عليهمُ   إذا ريعَ شَتّى للصَّريخِ المُندَّدِ

معارضة ابن شهيد للشعر الجاهليّ :

ليس غريبـًا أنْ يُعارضَ ابنُ شُهَيْدٍ شيئـًا مِنَ الشعرِ الجاهليِّ في عدةِ قصائدَ؛ لأنه يسير في الاتجاه المحافظ، وينهج في جلّ نظمه طريقة الشعراء الجاهليين؛ ومن يطلع على ديوانه يلمس هذا الاتجاه.

فيعارض ابن شهيد في قصيدته التي مطلعها(1):

" شَجَتْهُ مَغانٍ من سُليمى وأدْؤرُ"

قصيدة امرئ القيس، التي مطلعها(2):

سَما لكَ شوقٌ بَعدَما كانَ أقصَرا وحَلَّت سُليمى بَطنَ قوٍّ فعَرعَرا

ويشترك النصان في الوزن والرويّ، فهما من البحر الطويل، والرويّ حرف الراء، مع اختلاف إعراب القافية. فقافية امرئ القيس منصوبة، أما قافية ابن شهيد فمرفوعة. أما قلة استعارة ابن شهيد لألفاظ قوافي امرئ القيس، فربما كان السبب محاولة الاستقلال عن النصّ المعارَض قدر المستطاع.

أما من حيث البناءُ العام للقصيدتين، فقصيدة امرئ القيس تبدأ بالمقدمة الغزلية ووصف الظعن، ثم وصف الرحلة على ناقة جسرة، خاضت السهل والوعر، وتجاوزت مخاطر الطريق، طريقه إلى قيصر الروم، ليستعينه على بني أسد قاتلي أبيه، بعدما تخلت عنه القبائل، ويتخلل ذلك كله الشعور باللوعة وألم الفراق، فراق المحبوبة وفراق الظعائن، هذا الفراق الذي أضحى رمزًا للغربة. ويتخلل وصف الرحلة الفخرُ بالنفس، كما لا يُخفي امرؤ القيس قلقه من تبدّل الحال وانقلاب الأصحاب، ويهدّد بني أسد بالغزو من لدن قيصر الروم، ويختم قصيدته مفتخرًا، فيتذكر انتصاراته في بعض حروبه وأيام انكبابه على اللذائذ.

وقصيدة ابن شهيد، يبدو مما تبقى منها، أنها بدأت بمقدمة في الغزل الطلليّ، ولم يتبق من هذه المقدمة سوى وصف وصال المرأة المُمنعة. ولا ينسى ابن شهيد التفاخر بنفسه في هذه اللوحة من مقدمة قصيدته، ثم يصف الرحلة، وهي رحلة من نوع آخر: وهي مجابهة مخاطر الفتنة، التي قضت على آمال الشاعر كما قضت على الخلافة الأموية، واستعار الشاعر فيها ألفاظ الرحلة الصحراوية. والتمس ابن شهيد في هذا الظلام وذلك العمى طريقه إلى الممدوح، متخلصًا إلى مدح يحيى المُعتلي الحمّوديّ العلويّ، ولم يبق من المدح سوى بيت واحد.

---

(1) ديوان ابن شهيد، ص107-109، وهي من 17 بيتا. وبعض أبيات القصيدة في رسالة التوابع، ص 124 .

(2) ديوان امرئ القيس، ص 56-71، وهي من 54 بيتًا.

مكابدة الصِّعاب لوصل المرأة المحميّة:

يصور ابن شهيد لوحة لوصال المرأة الممنعة المنعمة، التي تسكن في القصور الفخمة، ودونها الحجّاب والولاة والعشير، وتعيش في نعيم دائم، محفوفة بظل الأراكة، كناية عن النعيم، ودونها السيوف الباترة والرّماح الخطية، ودونها القنة العالية التي تزلّ عنها الرياح وتجأر، وكيف تجاوز الشاعر كلّ هذه المخاطر، لوصالها في الليل البهيم، متسلحًا بالأبيض والخطيّ، لينعم بليلة وصال مع ليلى، وليست سليمى صاحبة امرئ القيس، يقول ابن شهيد:

وأخْرى اعْتَلَقْنَا دُونَـهُـنَّ ودُونَـهـــا   قصُـورٌ وحُجّاب ووالٍ ومعْشَـرُ
يُـزَيِّنُها مـاءُ النَّعــيمِ وحـفَّـهـــــا   مِن العيْشِ فيْنَانُ الأراكةِ أَخْضَرُ
إذا رامهَا ذو حاجـــة صدَّ وجْـــهَـهُ   ظُبا الباتِراتِ والوشِيجُ المُكسَّـرُ
ومِن قبّةٍ لا يُدْرِكُ الطَّـــرْفُ رأَسَهـا   تَزِلُّ بهـــا رِيــحُ الصَّبا فتَحدَّرُ
إذا زاحمتْ منها المخَـــارِم صوَّبـتْ   هُويّا على بُعْدِ المدى وهْي تجْأَرُ
تكلَّفْتُهَا والليلُ قد جـاشَ بحْــــــرُهُ   وقد جَعلـتْ أَمْــــواجُهُ تَتَكسَّــرُ
ومِن تحْتِ حِضْني أبْيضٌ ذو سَفَاسِقٍ   وفي الكفِّ مِن عسّالةِ الخطِّ أَسْمرُ(1)
هُما صاحِباي مِن لدُن كنتُ يافِــعـا   مُقِيلانِ مِن جَدِّ الفتَى حين يَعثُرُ
فذا جَدْوَلٌ في الغِمْدِ تُسْقَى به المُنَى   وذا غُصُنٌ في الكفِّ يُجْنَى فيُثمِرُ
إلى بَيْتِ ليلى وهو فَرْدٌ بذي الغَضا   يُضِيءُ لعَيْنِ المُسْتَهَامِ ويُزْهـرُ
فبتنَا علـــى ضمٍّ لفـرْطِ اشْتياقنـــا   تكـادُ لـــــه أَكبـادُنَـا تتفطَّـرُ

إن هذا الأسلوب القصصيّ في وصل الممنعة، كان شائعًا لدى بعض الشعراء الجاهليين، ومنهم امرؤ القيس، كما جاء في معلقته، عند حديثه عن بيضة الخدر التي تمتع بها –آخر الليل-بعد تجاوزه الصعاب، فيقول:

وبيضَةِ خِدرٍ لا يُرامُ خِـباؤُهـــا   تمَتعتُ مِن لهوٍ بِها غَيرَ مُعجَـلِ
تجاوَزتُ أحراسًا إليهـا ومَعشَرًا   عليَّ حِراصًا لو يُسِرّونَ مَقتلـي
إذا ما الثريّا في السماءِ تعَرَّضَت   تَعرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفصَّـلِ

---

(1)السفاسق جمع سفيسقة وسُفسوقة وهي طرائق وخطوط في السيف أو فرنده. وطرفة بن العبد يفخر بضم السيف إلى الخصر، من مثل قوله في معلقته(شرح المعلقات، ص66، وديوانه، ص 53):

فآليتُ لا ينفكّ كشْحي بطانةً   لأبيضَ عَضْبِ الشفْرتين مُهنّدِ

ولعلّ أكثر شاعر أبدع في هذا القصّ هو الأعشى ميمون بن قيس، الذي بدا –أحيانا- أنه يخوض الحروب حتى يصل إلى صاحبته الممنعة.

ولا نعدم لهذه الصورة وجودًا، من بعض الجوانب، في قصيدة امرئ القيس المعارَضة، ولكن في لوحة وصف الظعن، التي شبهها امرؤ القيس بحدائق الدّوم وبالسفين، وشبه علوّها وزهو الألوان في الهوادج، بنخيل ابن يامن، التي تنبت بالقرب من قصرين من قصور اليمامة: الصّفَا والمُشَقّر، وتنبت في ظلال الغدران والجداول، وهي أنعم النخل وأطولها، وقد حماها بنو الرّبْداء بسيوفهم، ويحرسونه ضنّا به، ورغبة فيه، لما رأوا منه من كثرة حَمْله وتنعّمه، فتعهدوا هذا النخل بالرعاية والسقاية، حتى ازدان بالثمر الناضج والخضرة الزاهية، وأضحى بهاء للعين، تدهش من روعته، يقول امرؤ القيس:

بعَينَيَّ ظُعْنُ الحَيِّ لـمّا تحَمَّلـوا　　　لدى جانِبِ الأَفلاجِ مِن جَنبِ تَيمَرا

فشَبَّهتُهُم فـي الآلِ لـمّا تَكمَّشوا　　　حَـدائِقَ دومٍ أو سَفينًا مُقَـيَّرا

أَوِ المُكرَعاتِ مِن نَخيلِ ابنِ يامِـنٍ　　　دُوَينَ الصفا اللائي يَلينَ المُشقَّرا

سَوامِقَ جَبّارٍ أثيثٍ فُـروعُـهُ　　　وعالينَ قِنوانًا مِنَ البُسرِ أحمَـرا

حَمَتهُ بَنو الرّبداءِ مِن آلِ يـامِـنٍ　　　بأسيافِهِم حتى أَقَـرَّ وأَوقَـرا

وأرضى بَني الرّبداءِ واعتَمَّ زَهوُهُ　　　وأَكمامُهُ حـتى إذا مـا تَهَصَّـرا

أطافتْ بِـهِ جَيـلانُ عِندَ قِطـاعِهِ　　　تَرَدَّدُ فيهِ العَينُ حتى تَحَـيَّرا

وما زالت بعض ألفاظ امرئ القيس، في وصف نخيل ابن يامن، وبعض دلالاتها: من الريّ والامتلاء، والخضرة والظلال الوارفة، والبهاء والجمال، ونضوج الثمر، ما زالت هذه الألفاظ وهذه الدلالات تلحّ على ابن شهيد، وقد نقلها إلى وصف النعيم الذي تعيش فيه صاحبته، من مثل قوله:

يُزيّنها مـاءُ النعيـم وحَفـّهَا　　　من العيش فينانُ الأراكة أخضـرُ

وأفاد ابن شهيد في هذا البيت –أيضًا-من معنى بيت امرئ القيس الثاني عشرَ من قصيدته المعارَضة، في وصف النساء المكنونات من الحرّ والبرد، المنعمات بالحُليّ، من الياقوت والذهب المفقّر(الذي على هيئة فِقار الجرادة، وهو مربّع)، وهذا البيت هو:

غَـرائِرُ فـي كِنٍّ وصَونٍ ونَعْمَـةٍ　　　يُـحَـلَّينَ ياقوتًا وشَذْراً مُفقَّـرا

وإلى وصف صاحبيْه: سيفه ورمحه، في قوله:

فذا جَدْوَلٌ في الغِمْدِ تُسْقَى به المُنَى　　　وذا غُصُنٌ في الكفِّ يُجْنَى فيُثْمِرُ

وإلى وصف بيت ليلى:

إلى بَيْتِ ليلى وهو فرْدٌ بذي الغَضا　　　يضِيءُ لعَيْنِ المُسْتَهَامِ ويـزْهـرُ

ولم يأت هذا الإلحاح من فراغ، وإنما بعد حفظ ورواية، واطلاع وفهم عميقين لقصيدة امرئ القيس ومعانيها.

ولعلَّ ما قاله ابن شهيد في عديد الأبيات الواردة في قصيدته، في صورة المرأة الممنعة، أوجزه امرؤ القيس في الكلمتين: الخباء المستّر ِ من بيته الخامسَ عشرَ، الذي يقول فيه:

وكانَ لها في سالِفِ الدّهرِ خُلَّةً ٌ يُسارِقُ بالطَّرْفِ الخِباءَ المُستَّرا

فخباء سُلَيْمى مستّر؛ لأنها كريمة في قومها، فقد جعلوها وسطا، وستروا خباءَها بأخبيتهم.

ويستدعي ابن شهيد في تصويره لليل ما قاله امرؤ القيس في معلقته، وهو قوله:

وليلٍ كمَوجِ البَحرِ أرخى سُدولَهُ عليَّ بأنواعِ الهُمومِ ليبتلي

وإذا كان ابن شهيد قد شبَّه الليلَ بالبحر ذي الأمواج العاتية، على سبيل الاستعارة، بجامع الظلمة الشديدة، فإن امرأ القيس استخدم التشبيه، فشبه الليل صراحة بموج البحر، ثم استعار لليل سُدولا يرخيها، وهو الستور بجامع الظلمة. واستعار في البيت التالي لليل صُلبًا يتمطى به، وأعجازًا يردفها، وكلكلا ينوء به.

وإذا كان نخيل ابن يامن، في نصّ امرئ القيس المعارَض، أو بيضة الخدر في معلقته، مما يستحقّ هذه الحراسة والدفاع عنه بقوة، للصفات المثالية التي قدمها امرؤ القيس لهذا النخيل، أو لتلك البيضة، فإن صاحبة ابن شهيد، استحقت-في رأيه- مثل هذه الحراسة الشديدة، للصفات التي وصفها بها، على ندرة هذه الصفات خاصة الحسيّة؛ ومع ذلك فقد جازَ إليها ابن شهيد الأهوال لينال الحظوة بوصالها!

ولعلّ تفسير ندرة هذه الصفات للممنعة لدى ابن شهيد يعود إلى رمزية هذه الممنعة، فربما هي رمز للممدوح يحيى المعتلي العلويّ، فلا يصحّ الإكثار من المعاني الغزلة وإظهار قلة الاحتشام أمام السلطان الجديد. وعلى كل حال فإن ابن شهيد، لم يكن يحفل كثيرًا بوصف مفاتن المرأة في عموم غزله. أما أن هذه الممنعة تستحق هذه الحراسة البالغة من الحصون والقلاع والسيوف والرماح والعشير، فمع افتراضنا أن تكون هذه الممنعة رمزًا للممدوح؛ فإنَّ من الحكمة أن يحيط السلطان نفسه بكل وسيلة للحماية. أما أن يجابه ابن شهيد المخاطر ويلقى الصعاب للوصول إلى هذه الممنعة أو الحموديين، فهذا أهون عليه من أن يلاقيَ حتفه على أيديهم، فالأمويون كانوا أعداء بني حمّود، وكان ابن شهيد مواليًا للأمويين والعامريين، ولكن الفتنة قضت على آمال أرباب نعمته، وأضحى ابن شهيد طريدًا، يحتاج إلى من يلتجئ إليه، ويخنس في كنفه، فيجدر به أن يجابه المخاطر حتى يصل إلى سلطان الحموديين. وقد تحققت أمانيه بوصل ليلى، رمز العهد الجديد، عهد الحموديين، في قوله:

فبتنَا على ضمٍّ لفرْطِ اشْتياقِنَا تكادُ له أَكبَادُنَا تَتفطَّرُ

وربما تكون سليمى عند ابن شهيد رمزًا للعهد القديم السعيد: عهد الخلافة الأموية وسلطان العامريين، الذين قضت عليهم الفتنة القرطبية؛ ولذلك يذكر حزنه على منازلها، في الشطر الذي بقي من مطلع القصيدة، ولا نعرف عدد الأبيات التي سقطت من القصيدة. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا التعدد في أسماء النساء، في القصيدة الواحدة، هو نهج امرئ القيس في غزله.

إن غزل ابن شهيد ليس غزلا واقعيًّا، وإنما هو من قبيل التقليد للنماذج الجاهلية، مع الأخذ بعين النصفة رمزية هذا الغزل في قصيدته، التي إن صحت، وأراها صحيحة، فإن هذا قد يدعم عنصر الإبداع في الاتباع لدى الشاعر.

ولكن هذه الرمزية لا تقتصر على ابن شهيد، فقد تكون سليمى، صاحبة الظعن، عند امرئ القيس في قصيدته المعارَضة هذه، رمزًا لقبيلة بني أسد، التي انقطع الحبل بينها وبين الشاعر، فيقول في البيت الرابعَ عَشَرَ:

غَلِقَنَ برَهنٍ مِن حَبيبٍ بهِ ادَّعَت سُليمى فَأمسى حَبلُها قد تَبتَّرا

وأما أسماء، فقد تكون رمزًا لقبيلته أو إحدى القبائل، التي تخاذلت عن نصرته، فيصرح في بيته الثامنَ عشَرَ بأنَّ وُدّها قد تغيَّر، وبأنه سيبدلها –إن أبدلته-بأخرى:

أَأَسماءُ أَمسى وُدُّها قد تَغيَّرا سَنُبدِلُ إن أَبْدَلْتِ بالوُدِّ آخَرا

ويُشار إلى أن ابن شهيد وصل ليلى رمز العهد الجديد وهو عهد الحموديين، في حين كادت أسباب الوصل تتقطع لدى امرئ القيس بأسماء، وينذر بقطع علاقته بها، والانتقال إلى ودّ آخر، وربما يكون هذا الودّ الآخر هو قيصر الروم.

الرحلة :

تتضمّن قصيدة امرئ القيس المعارَضة ثلاثَ رحلات: رحلةَ الظعائن، وجاءت في مقدمة القصيدة، فرحلته على الناقة مع صاحبه قاصدًا بلاد الروم، ثم رحلة ثالثة متخيَلة، رحلة الرجوع من بلاد الروم، على خيل من خيول البريد.

فبعدما تيقن امرؤ القيس من رحيل الظعائن، وانقطعت أسباب الوصال، رحل في حرّ الهجير، على ناقته الجسرة النشيطة، وواصل الإسراء والإدلاج، قاصدًا بلاد الروم، من ذلك قوله:

فدَع ذا وسَلِّ الهمَّ عَنكَ بجسرَةٍ ذَمـــولٍ إذا صامَ النهـارُ وهَجَّـرا

تُـقَطِّـعُ غيطاناً كأنَّ مُتـــونَـها إذا أظـهَـــرَت تُكسَى مُلاءً مُنَشَّرا

بَعيدَةُ بَينَ المَنكِبَـينِ كـــأنَّـها تَرى عِندَ مَجرى الضَّفرِ هِرًّا مُشَجَّرا

ويفتخر بنفسه، مهددًا بني أسد بغزوهم، ليس من اليمن، ولكن من أرض الروم هذه المرة، تشنيعًا عليهم، وتيئيسًا لهم:

عليها فتىً لم تَحمِلِ الأَرضُ مِثلَهُ أَبَـــرَّ بِميثاقٍ وأوفى وأصبَرا
هُوَ المُنزِلُ الأُلافِ مِن جَوِّ ناعِطٍ بَني أَسَدٍ حَزْنًا مِنَ الأَرضِ أَوعَرا
ولو شاءَ كانَ الغَزوُ مِن أرضِ حِميَرٍ ولكنَّهُ عَمدًا إلـــى الرومِ أَنفَرا

ويذكر ما عاناه في دربه الطويل من الصعاب والجهد الشديد، موجهًا الحديث إلى صاحبه الشاعر عمرو بن قميئة، متخيّلا رحلة عند العودة من بلاد الروم، ليؤدب بني أسد:

بكى صاحِبي لمّا رَأى الدّربَ دونَهُ وأيـقَـــنَ أنّا لاحِقانِ بقيصَرا
فقلتُ لهُ لا تَبكِ عَينُكَ إنَّـــما نُحاوِلُ مُلكًا أو نَموتَ فنُعذرا
وإنّي زَعيمٌ إن رَجعتُ مُملَّكًـــا بِسَيرٍ تَرى مِنهُ الفُرانِـــقَ أَزوَرا
عـــلى لاحِبٍ لا يُهتَدى بِمَـنارِهِ إذا سافهُ العَودُ النَّباطِيُّ جَرجَـرا
على كلِّ مَقصوصِ الذُنابى مُعاوِدٍ بَريدَ السُّرى بِاللّيلِ مِن خَيلِ بَربَرا
أَقَـــبَّ كسرحانِ الغَضى مُتَمَطِّرٍ تَرى الماءَ مِن أعطافِهِ قد تَحَدَّرا
إذا زُعتَهُ مِن جانبَيهِ كليهِـــما مشى الهَيدَبى في دَفِّهِ ثم فَرفَرا
إذا قلتُ رَوِّحْنا أَرَنَّ فُـــــرانِقٌ عـلى جَلعَدٍ واهي الأَباجِلِ أَبتَرا
لقد أَنكَرَتني بَعلَبَكُّ وأهلُـهـــا وَلابْنُ جُرَيجٍ في قُرى حِمصَ أَنكَرا (1)

ولعلّ ابن شهيد يعارض رحلة امرئ القيس المتخيلة هذه، فأفاد من ألفاظها، وبعض المعاني الواردة فيها. فتخيل ابن شهيد ،هو الآخر، الرحلة على شاكلتها. وربما أراد أن يصور عهد الفتنة المظلم الذي مهد لظهور الخليفة الجديد يحيى الحمودي.

يلمّ ابن شهيد بهذه الرحلة المضنية إلمامًا سريعًا، عبر الصحراء الواسعة المظلمة، التي تخلو من أي علامة يهتدى بها على دروبها، لا بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب، وإن كانت هذه العلامات من حجارة سود أو غيرها موجودة فقد درسَتْ، فيتيه فيها المتمرّس المجرّب، ولا يستدل الخرّيت(الدليل) على طرقاتها، فهو كالأعمى، وإن كان بصيرًا، وتزلّ النجائب الصلبة على

---

(1) الفرانق: البريد أو الدليل، (وله تفسيرات أخرى، وأصله فارسيّ وعُرب)، سافه: شمّه، العَود: المسنّ من الإبل، جرجر: صوّتَ ورغا لبعده وما يلقى من مشقة، النباطيّ: أشد الإبل وأصبرها وقيل الضخم، معاود بريد السرى: استعمل في سير البريد مرارًا. وكانت البربر تستعمل الخيل في البريد، وهي أصلب الخيل وأجودها.

جوانبها، وتتهور في متاهات هذه الصحراء، حتى لو سلكتْ الإبل النجيبة، أوالخيل الأصيلة، الشديدة العدو، منعرجات أوديتها، نهنَهها الزجر، وكادت تسقط إعياء. فإذا تقطعت به الأسباب، وجد طريقه إلى الممدوح، ليتخلص إلى غرض المديح، وكان مدحه في بيت واحد، يقول:

وَدَوِّيّة مِـــن فِتنَـةٍ مُدْلهِمّــةٍ   دَرِيس الصُّوَى مَعْرُوفُهَا مُتَنكِّرُ
إذا جابَها الخِرِّيت في طُرُقَاتِــها   يَظلُّ بها أعْمَى وإنْ كانَ يُبْصِرُ
ترى ثابِتاتِ الحُكمِ عندَ اعْتِسافِها   تَـــزلُّ على أدْفافِها فتهَوَّرُ
وإنْ سَلكتْ أضْوَاجَهَا عَيِيَتْ بــها   عَوارِبُ من ذِي مُطْرياتٍ تَزَجَّرُ
وسِرْنَا نَجُوزُ النَّهْجَ حــتى بَدا لنا   بغُرّةِ يَحْيى ساطِعُ اللوْنِ أَزْهَرُ

يتفق الشاعران في وصف صعوبة الدّرب الصحراويّ المظلم، وانعدام العلامات وامّحائها، ولكنهما اختلفا في وصف نشاط الركوبة، فهي ما تزال نشيطة عند امرئ القيس، ففرسه يلعب بلثامه، بينما ركوبة ابن شهيد كادت تسقط إعياء. فكأن الفتنة التي وقع فيها ابن شهيد هي أشد وطأة، وأكثر قسوة، مما لقيه امرؤ القيس.

لقد عبّر ابن شهيد من خلال وصف الرحلة الصحراوية، وصعوبة جواز الأهوال، عن تجاوزه محنة الفتنة، وعهدها المظلم. فلا تقل رحلته رمزية عن وصل الممنعة. وإن كان امرؤ القيس ألصق بالواقع في غزله ورحلته، فإن ابن شهيد لم يكن كذلك.

أما الخاتمة، إن صحّت الرواية الكاملة للقصيدتين، فيختم امرؤ القيس قصيدته مفتخرًا بانتصاراته في بعض الحروب، وشربه وصحبه الخمر، التي قد تنسيه ما لقي من عذاب، بل إنّ تأثيرها يجعل المرء لا يفرّق بين الخيل والغنم الصغار، ولا يميز الأسود من الأشقر من الخيل:

ولا مِثْلَ يَومٍ في قُذارانَ ظِلـتُــهُ   كأنّي وأصحابي على قرنِ أَعفَرا
ونشرَبُ حتى نَحسِبَ الخَيلَ حَولنا   نِقادًا وحتى نَحسِبَ الجَونَ أشقَرا

أمّا ابن شهيد، فقد يسليه ممدوحه عما كابده من معاناة،، ويمدحه ببيت واحد، هو قوله:

وسِرْنَا نَجُوزُ النَّهْجَ حتى بَدا لنا   بغُرّةِ يحيى ساطِعُ اللوْنِ أزْهَرُ

وهذا ما تبقى من مديح ابن شهيد، وإن صحّ أن هذا المديح اقتصر على هذا البيت اليتيم؛ فهذا مما عيب على الشعراء، أن يقدموا بمقدمات طويلة، ويختصروا المديح في بضعة أبيات.

معارضة ابن لـبُـبُّون لامرئ القيس:

عارض قصيدةَ امرئ القيس نفسَها "سَما لكَ شوقٌ" الشاعرُ الأندلسي ذو الوزارتين أبو عيسى ابن لبّون -الذي كان يحيا في أواخر القرن الخامس، ووزر للمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة التي ظلت تحت حكمه حتى استولى عليها الفرنج سنة 478هـ، في قصيدته التي يندب فيها أيامه السعيدة، ويذكر تعثر آماله، وتغير أحواله، ومطلعها(1): الطويل

خليليَّ عُوجا بي على مَسقَط الحمى　　　لعـلَّ رسوم الـدَّارِ لمْ تتغيرا

فافتتحها بهذا البيت الطللي الحزين، دون إطالة في وصف معالم هذا الطلل، مستعيرًا هذا النداء من أسلافه من الشعراء الجاهليين، ومستدعيًا قول امرئ القيس في مفتتح قصيدة أخرى غير قصيدته المعارَضة(2): الكامل

عُوجا على الطللِ المُحيلِ لأَنَّنَا　　　نَبكي الدِّيارَ كما بَكـى ابنُ خِـذامِ

وربما يفهم من رجاء ابن لبّون في الشطر الثاني، أنه يتمنى أن يسترجع ملكه، الذي سُلب منه سلبًا بين عشية وضحاها، سلبه منه أبو مروان بن عبد الملك بن رزين(-496هـ) صاحب مملكة السهلة شرقي الأندلس.

يبدأ ابن لبّون باستذكار تلك الأيام والليالي الخوالي، قبل خراب الدّيار، أيام سعده وليالي أنسه ولهوه، وتنعمه في اللذائذ، من مجالس اللهو، وشرب للخمر صباح مساء، وضم للكواعب ذوات القد المياس، وتقبيلهن، وارتشاف ضَرَبهن العذب، وسماع الغناء، وأيّ غناء! إنها قصيدة امرئ القيس"سما لك شوق"، فربما كان قسم منها يُلحّن، ويُغنّى في الأندلس، يقول ابن لبون:

فأسألَ عن ليلٍ تـولّـــى بأنْسِنا　　　وأنـدبَ أيامًا خلَتْ ثم أعصـرا
ليالِيَ إذ كان الزمـــانُ مسالـمًا　　　وإذ كان غُصْنُ العيش ميَّاس أخضرا
وإذ كنتُ أُسْقى الرَّاحَ من كفِّ أغيدٍ　　　يـناولـنيها رائحًا أو مُبكّـــرا
أعانق منه الغصنَ يهتزُّ ناعـمًا　　　وألـثمُ منـه البـدرَ يطلعُ مقمرا
وقد ضربتْ أيدي الأمان قـبابــها　　　علينا وكفَّ الدهرُ عنا وأقصـرا
فما شئتَ من لهو وما شئت من دَدٍ　　　ومن مبسمٍ يُجنيك عذبًا مؤشّرا

---

(1) الذخيرة، 107/1/3 .

(2) ديوان امرئ القيس، ص 114 .

وما شئتَ من عودٍ يغنّيك مفصحًا "سما لك شوقٌ بعدما كان أقصرا"

فيشترك ابن لبّون مع امرئ القيس في الشكل العام للمقدمة، ذكر الطلل، واستذكار الماضي السعيد، ويلتقط ابن لبون ما شاء من المعاني، مما حفظه ووعاه من تراث أجداده من الشعراء الجاهليين، خاصة في مقدمات قصائدهم الغزلية، ما يناسب المقام في هذه المقدمة، ولا يغيب عنه بعض ملذات امرئ القيس في شعره، وبعض صفات المرأة كما وردت في معلقته، وفي غزل الشعراء الجاهليين عمومًا، وبالأخص ما شهر به الأعشى وهو صناجة العرب، من وصف استمتاعه بغناء القيان، وبشرب الراح.

كما لا تخلو قصيدة امرئ القيس المعارَضة من ذكر شيء من الملذات والصبابة وشرب الراح، وشيء من صفات المرأة، كقوله:

غَلِقنَ برَهنٍ مِن حَبيبٍ بهِ ادَّعَت سُليمى فأمسى حَبلها قد تَبتَّرا

وكانَ لها في سالِفِ الدهرِ خُلَّةً يُسارِقُ بالطَّرْفِ الخِباءَ المُستَّرا

ويصف ابنة عفزر بقوله:

نَشيمُ بُروقَ المُزنِ أينَ مَصابُهُ ولا شَيءَ يَشفي مِنكِ يا بنَةَ عَفزَرا

مِنَ القاصِراتِ الطَرفِ لو دَبَّ مُحولٌ مِنَ الذرِّ فوقَ الإتبِ منها لأثَّرا

ويذكر امرؤ القيس الخمر في معرض تشبيه أثر نظرته فُجاءة إلى سليمى، فقلبه جزِع جَزعَ الثمل إذا نظر إلى الخمر مع محبته لها، وسليمى هي الأخرى كذلك، كالسكران، لتثنيها في مشيتها، فيقول:

إذا نالَ مِنها نَظرَةً ريعَ قلبُهُ كما ذَعَرَتْ كأسُ الصَّبوحِ المُخَمَّرا

نَزيفٌ إذا قامَت لِوَجهٍ تَمايَلتْ تُراشي الفُؤادَ الرَّخصَ ألا تَخَتَّرا

ويختم قصيدته بشرب الخمر حتى الثمالة.

ولكن هذا الأمان وهذه السعادة عند ابن لبون قد تغيّرت، وانقلبت الحال:

ولكنها الدنيا تخادعُ أهلَها تغرُّ بصفوٍ وهي تطوي تكدّرا

لقد أوردَتني بعدَ ذلك كلَّه مواردَ ما ألفيتُ عنهن مَصْدَرا

وكمْ كابَدَتْ نفسي لها من مُلمَّةٍ وكمْ باتَ طرفي من أساها مُسَهَّرا

خليليَّ ما بالي على صِدْق نيتي أرى مِنْ زماني وَنْيَةً وتعذّرا

ووالله ما أدري لأيِّ جريمةٍ تَجَنّى ولا عن أي ذنبٍ تغيّرا

كما انقلبت حال امرئ القيس لما وجد نفسه غريبًا في بلاد الشام، وقد انقلبت عليه القبائل، وخانه الصحاب: كما يقول في قصيدته المعارَضة:

لقد أَنكرَتني بَعْلَبَكُّ وأهلُها وَلابنُ جُرَيجٍ في قُرى حِمصَ أَنكَرا

- إذا قلتُ هذا صاحِبٌ قد رَضيتُهُ وقـرَّت بِهِ العَينانِ بُدِّلتُ آخَـرا
كذلكَ جَدّي ما أصاحِبُ صاحِبًا مِـنَ الناسِ إلا خـانَني وتغيَّرا

ثم يختم ابن لبّون بالفخر- بأسلوب له أشباه في الشعر الجاهليّ -بهمته العالية :

ولم أكُ في كسب المكارم عاجزًا ولا كنتُ في نَيْلٍ أُنيل مـقصّـرا
لئن ساء تمزيقُ الزمان لدولتـي لقدْ ردَّ عن جهلٍ كثير وبصـَّرا (1)

كما فخر امرؤ القيس بنفسه في ثنايا قصيدته، بهمته وشجاعته وكرمه، كقوله:

عليها فتىً لم تحمِلِ الأَرضُ مثلَـهُ أَبَـرَّ بِميثاقٍ وأوفـى وأصبَـرا
- ولو شاءَ كانَ الغَزوُ من أَرضِ حِميَرٍ ولكنـهُ عَمدًا إلى الرومِ أَنفَرا

وختم قصيدته بالفخر أيضًا، من مثل قوله:

وكنّـا أناسًا قبلَ غَزوَةِ قَرْمَـلٍ وَرثنا الغِنى والمَجدَ أَكبَرَ أَكبَـرا

إذًا فقد عارض ابن لبّون بعض معاني قصيدة امرئ القيس، خاصة فيما يتصل بتغير الحال، وانقلاب الزمان، فكلا الشاعرين يتحدث عن مأساته التي حلّت به بعد زوال سلطانه، وتكدر عيشه، فامرؤ القيس زال ملكه بعد مقتل أبيه، وهو ما اضطره إلى الرحلة إلى قيصر الروم، وابن لبّون زال سلطانه بعد خلعه من وزارته، ولكنه لا يبحث عن ملاذ، وكأنه استسلم للواقع. وكلاهما يذكر معاناته وآلامه، فامرؤ القيس جاب في رحلته الفيافي والسهول والجبال، وابن لبون أشار إلى ما كابده من معاناة دون رحلة، وكلاهما يذكر خيانة الدّهر والأصحاب له، وكلاهما يظهر التجلّد أمام الخطوب التي اعترته، ويفتخر بنفسه وبأمجاده. والشاعران يفتتحان قصيدتيهما بمقدمة تقليدية غزلية طللية، ويسترجعان ذكريات الماضي السعيد، من مغامرات ومتع الحياة.

القافية والجناس والطباق:

يشترك ابن لبّون مع امرئ القيس في البحر والرويّ وفي إعراب القافية، وهو النصب، وفي بعض كلمات القوافي مثل: "تتغيّرا" وتغيّرا" و"أقصَرا" و"تعذّرا"، وبعض قوافي ابن لبّون تجانس في أصواتها بعض قوافي امرئ القيس موسيقيا مثل: "أعْصرا" عند ابن لبّون و"أعسرا" عند امرئ القيس، و"مبكرا" و"أنكرا" و"أقصرا" و"قيصرا" و"مؤشّرا" و"منشّرا" و"بصّرا" و"أصبَرا" و"مبكّرا" و"أكبرَ أكبرَا". ويتشارك ابن لبون –كذلك- مع امرئ القيس في استخدام

---

(1)الذخيرة، 108/1/3 .

الجناس الناقص، الذي يثري الجرس الموسيقيّ مثل الأبيات(10، 12، 14) من قصيدة ابن لبون ، والأبيات (7، 18، 42، 49) من قصيدة امرئ القيس، واستخدام الطباق في الأبيات، (4، 9، 10) في نص ابن لبون، وفي الأبيات (20، 29، 35، 54) من نص امرئ القيس، والمقابلة، وإن كانت في أبيات متباعدة في القصيدة؛ لتبيان الحال الأولى المبهجة والثانية البائسة، وإن بدت هذه المقابلة أوضح في نص ابن لبون، فحال ابن لبّون كانت حين "كان الزمانُ مسالما"، "وغَضّ العيش ميّاس"، و"كفَّ الدهرُ عنا"، ثم نفجأ بأن الحال انقلبت إلى الضد، فأضحى يتحدث عن: "الدنيا تُخادع"، و"تمزيقُ الزمان". ولا يخفى حال امرئ القيس الذي كان ابن ملك، ثم أضحى يبحث عن ملك ضائع.

إن ابن لبّون مطلع على شعر امرئ القيس، رواية ودراية، وملم بألفاظه ومعانيه، وخصائص أسلوبه، وعلى هذه القصيدة المعارَضة بالتحديد؛ فإن لم يأت ابن لبون على ذكر الظعائن في مقدمة هذه القصيدة المعارِضة، كما فعل امرؤ القيس في مقدمة قصيدته المعارَضة واصفًا الظعائن، من بداية تحمّلها، ذاكرًا أماكنها التي تحملت منها، ومتتبعًا المواضع التي مرت بها،حتى فارقته، مشبهًا مراكبها بالدوم وبالسفين، وبالنخيل والأثل طولا وارتفاعًا، وواصفًا النساء المنعمات في الهوادج، وتفوح منها روائح العطور والرياحين، والتي حلّتْ في حمى "حَمَتْهُ بنو الربداء "، وخصّ نفسه بواحدة منهن وهي سليمى، ليتحدث عنها، فإنّ ابن لبون يأتي على ذكر الظعائن في موضع آخر من شعره، ويستسقي لها، ويبكي حزنًا على رحيلها،على عادة الشعراء الجاهليين، ولكنه لم يفصّل في صورة الظعائن، ولم يلتزم أصول المعاني التقليدية في مقدمة وصف الظعائن كما هي في الشعر الجاهليّ، فيقول ابن لبون مثلا-مع تباين في أساليب التعبير بينه وبين امرئ القيس-متوجعاً لخليط ظَعَنَ، وأوغل في شعاب البعد وأمعن، وأبعد في الاستعارة وأوغل: الوافر

سقى أرضًا ثووها كلَّ مُزْنٍ وسايرَهمْ سرورٌ وارتياحُ
فما ألوَى بهمْ مللٌ ولكـــنْ صروفُ الدّهر والقدَرُ المتاحُ
سأبكي بعدهم حُزنًا عليهمْ بـدمعٍ في أعنّته جماحُ "(1)

وتبدو هذه المقطوعة مقتطعة من مقدمة قصيدة له، في الظعائن.

وإذا ضجّ امرؤ القيس مما عاناه في دربه الطويل من الصعاب والجهد الشديد، فرحل على ناقته الجسرة في حر الهجير، مواصلا الإسراء والإدلاج، قاصدًا بلاد الروم، مفتخرًا بنفسه: كقوله:

بسَيرٍ يَضِجُّ العَودُ مِنهُ يَمُنُّهُ أخو الجَهدِ لا يُلوي على مَن تَعذَّرا

---

(1) الذخيرة، 105/1/3 .

وقوله:

عليها فتىً لم تَحمِلِ الأرضُ مِثلَــهُ أَبَرَّ بِميثاقٍ وأوفى وأصبَرا
- ولو شاءَ كانَ الغَزوُ مِن أرضِ حِميَرٍ ولكنَّهُ عَمدًا إلى الرومِ أَنفَرا
بَكى صاحِبي لمّا رَأى الدربَ دونَهُ وأيقَنَ أنّا لاحِقانِ بقيصَرا
فقلتُ لـــــهُ لا تَبكِ عَينُكَ إنَّما نُحاوِلُ مُلكًا أو نَموتَ فَنُعذَرا
وإنّي زَعيمٌ إن رَجعــتُ مُمَلَّكا بِسَيرٍ تَرى مِنهُ الفُرانِقَ أزوَرا

فإنّ ابن لبّون يأنف من المقام، ويكلف بالإدلاج والإسراء، على ما رُتب له من الإجْراء، في أبيات له من قصيدة أخرى بقوله مفتخرًا(1): الطويل

ذروني أجُبْ شرقَ البلاد وغربَها لأشفيَ نفسي أو أمــوتَ بدائي
فلستُ ككلب السَّوءِ يُرضيه مَرْبضٌ وعظمٌ ولكني عُقــــابُ سماءِ
وكنتُ إذا ما بلدةٌ لي تنكّــــرتْ شددتُ إلــى أخرى مطيَّ إبائي
وسِرتُ ولا أُلوي علــى متعـذّرٍ وصَمّمتُ لا أصغي إلى النصحاء

وإنّ ابن لبّون ملمّ بملذات امرئ القيس ولياليه- كما جاءت في معلقته-فيحنّ إليها، فيقول بعدما أُخِذَ منه بلده(2): البسيط

يا ليتَ شعري وهل في ليتَ من أرَبٍ هيهاتَ لا تُقتَضى من ليت آرابُ
أينَ الشموسُ التي كانت تطالُعنــا والجوُّ من فوقــه لليل جِلْبابُ
وأينَ تلك الليالي إذ تُلمُّ بنَــــا فيها وقدْ نامَ حُرَّاسٌ وحُجَّابُ
تُبْدِي إلينا لُجَينًا حَشْوُهُ ذَهَــــبٌ أناملُ العاجِ والأطرافُ عنَّابُ

على أيّ حال، لم تكن معارضة ابن لبّون وابن شهيد لامرئ القيس معارضة تامة. ولعلّ ما دفع الشاعرين الأندلسيين: ابن شهيد وابن لبّون إلى معارضة امرئ القيس، هو تشابه تجربتيهما بتجربته، ويبدو أنّ تجربة ابن لبون هي الأقرب إلى تجربة امرئ القيس. ويلحظ أن ابن لبون كان أصدق عاطفة من ابن شهيد، فظهر عليه القلق النفسيّ من خلال إكثاره من أساليب الإنشاء، التي

---

(1) الذخيرة، 108/1/3 .

(2) الذخيرة، 107/1/3 .

ميّزت نصّه عن نصّ ابن شهيد خاصة، فيستخدم أساليب النداء، والأمر، والنهي، والتمني، والقسم، كما استخدمها امرؤ القيس، وإن كان استخدام امرئ القيس لها بنسبة أقلّ، في حين لم يُعن ابن شهيد بهذه الأساليب؛ ولعله لم يرد أن يظهر ضعف نفسيته، كما هو حاله مع اعتداده بفنه، وإن كانت تجربته في تبدُّل الحال لا تقل خطورة عن تجربتي الشاعرين الآخرين.

وتتسم لغة ابن لبّون، وتراكيب عباراته بالسهولة والبساطة. وجاء استخدامه للأساليب البيانية والبديعية عفويا ومن غير تكلّف، ما جعل ابن لبون أقرب إلى عصره وألصق ببيئته من ابن شهيد، فبدا أقرب إلى الواقع اللغويّ، وكذلك إلى واقع التجربة للشاعر نفسه، بمعنى آخر اتسم النص بالصدق الفنيّ، وبالواقعية للتجربة الشعورية، وهذا يحسب لابن لبون لا عليه، بعكس ابن شهيد، الذي بدا خارج بيئته اللغوية والمكانية. إلا إذا عددنا أن ابن شهيد يعبر عن غربته، فانعكس ذلك على النص، لولا ما اتسم به ابن شهيد من روح التحدي للشعراء، وصرح بذلك في كتاباته، فلم يعد الأمر مقصورًا على الغربة.

معارضة ابن شهيد لطرفة بن العبد:

ويعارض ابن شهيد في قصيدته التي مطلعها(1):

" أمِن رسمِ دارٍ بالعقيقِ مُحِيلِ"

قصيدة طرفة بن العبد(2):

لِهِندٍ بِحُزّانِ الشُّرَيْفِ طلولُ تلوحُ وأدنى عَهدِهِنَّ مُحيلُ

وبالسفحِ آياتٌ كأنَّ رُسومَها يَمانٍ وَشَتَهُ رَيدَةٌ وَسُحولُ

اشترك الشاعران في البحر، وهو الطويل، والرويّ، وهو اللام، واختلفا في إعراب القافية، وهو الجرّ في الأولى والرفع في الثانية. ويبدو أن موضوع المقدمة واحد، هو في وصف الطلل كما يبدو من الشطر الأول المتبقي من قصيدة ابن شهيد، إذ لم تصلنا القصيدة كاملة؛ بدليل قول ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع بعد إنشاد الشطرالأوّل من القصيدة:"حتى انتهيت إلى قولي:

---

(1) ديوان ابن شهيد، ص 140- 142 ، ورسالة التوابع والزوابع، ص 126 .

(2) ديوان طرفة، ص 157 (من 18 بيتا)، الشُريف: واد بنجد، وأعلى جبل ببلاد العرب، وماء لبني نمير بنجد، وحصن من حصون زبيد باليمن. والحزان الأمكنة الصلبة الغليظة، يمان: أي ثوب يماني، ورَيدة وسُحول: قريتان من قرى اليمن. شبه آثار الديار برسوم ثوب يمان.

ولما هبطنا الغيـثَ يُذعرُ وحشُهُ على كل خـوَّار العِنانِ أسيلِ
وثارت بناتُ الأعوجيّاتِ بالضُّحى أبابِيلَ، من أعطافِ غيرِ وبـيلِ
- رَمينا بها عُرضَ الصُّوارِ فأقعصتْ أغنَّ قتلناهُ بغيـرِ قتـيلِ (1)

واستكمل القصيدة. ولا يُعرف عدد الأبيات التي سقطت منها، وكل ما لدينا الآن من قصيدة ابن شهيد هو في وصف رحلة صيد أو مشهد قنص، على أفراس، يتبعه وصف شرب الخمر مع أصحابه.

أما موضوع قصيدة طرفة الأساس فهو في هجاء أحد الخصوم، قدم لها في وصف الطلل وصفًا طويلا، وختم بأبيات في الحكمة. وأما موضوع قصيدة ابن شهيد -بناء على ما تبقى من أبيات القصيدة- فهو وصف مغامرة طردية، ولهو وشرب خمر مع أصحابه.

ويُلحظ أن الشطر الأول المتبقي من مقدمة ابن شهيد في وصف الطلل: " أمِن رسمِ دارٍ بالعقيقِ مُحِيل ِ"، يتفق ومطلع قصيدة طرفة في تحديد مكان الطلل: في الجزيرة العربية؛ فهو لدى طرفة "بحزان الشُريْف"، وهو وادٍ بنجد، ولدى ابن شهيد "بالعقيق"، وهو وادٍ بالحجاز أو بتهامة أو باليمامة، ثم إنّ أقربَ عهد إلى هذه الأطلال-لدى الشاعرين هو عامٌ.

ومن عناصر التشابه بين القصيدتين: اشتراك القصيدتين في بعض الألفاظ: ككلمة "محيل"، التي تحمل المعنى نفسه في النصين، وكثرة تشابه ألفاظ القوافي، بما يشبه الجناس الناقص: ككلمة"أسيل "عند ابن شهيد في البيت الثاني، تشبه كلمة"مُسيل" في البيت الثاني عشر عند طرفة، وألفاظ القوافي في أبيات قصيدة ابن شهيد ذات الأرقام (3، 6، 9، 12، 13، 14) تشبه-على الترتيب-ألفاظ قوافي أبيات طرفة ذات الأرقام(8، 11، 14، 15، 9، 10).

ويلحظ –أيضا-أن ابن شهيد لم يكثر من المحسنات البديعية، إلا ما جاء عفوًا من غير تكلّف، ويعتمد التشبيه في تصويره، ويكثر من ذكر أداة التشبيه: "كأنّ"، وهذا ما يتسم به شعر طرفة في قصيدته هذه، وإن كرر التشبيه البليغ من دون أداة تشبيه. ويغلب على شعر طرفة، وشعر الشعراء الجاهليين الأول اعتمادُ التشبيه في التصوير أكثر من الاستعارة.

---

(1) الأعوجيات: الخيول الكريمة، منسوبة الى أعوج فرس لبني هلال، أبابيل: متفرقة، جمع لا واحد له، الصوار: القطيع من البقر الوحشي، والمراد هنا قطيع الظباء. بغير قتيل أي بغير ثأر.

وأكثر ابن شهيد من صيغ الصفات التي على وزن"فعيل": كـ"أسيل" و"وبيل" و"حليل" و"قتيل" و"نشيل" و"قليل" و"خليع"، وهذا ما اتسمت به لغة طرفة في هذه القصيدة كـ"كفيل" و"بليل" و"بخيل"، و"ذليل" و"خليل" و"نبيل".

ويبدو أنّ ابن شهيد أراد أن يرسم صورة لنفسه مشابهة لصورة طرفة، كما بدت في معلقته خاصة، ومن سيرته عامة، وأن يتقمص شخصية طرفة، أو يستنسخها، في نصه الجديد، خاصة في صورة شرب الخمر مع صحبه، واغتنام اللذات، ولكنه اشتط بعيدًا في وصف صورة كاملة للقنص؛ إذ إنّ طرفة لم يشهر شهرة امرئ القيس في وصف رحلة الصيد على الفرس؛ وهذا يدل على أن ابن شهيد ظلّ يستمسك بتلابيب صور امرئ القيس، في وصف رحلة الصيد على الفرس الكميت، كما وردت في معلقته، أو بوصف زهير بن أبي سلمى لمشاهد القنص في بعض قصائده، كقصيدته التي مطلعها(1): الطويل

صَحا القلبُ عَن سَلمى وأقصَرَ باطله وعُرِّيَ أَفراسُ الصِّبا ورَواحِلُهْ

التي يصف فيها فرسه، بصفات لا يبتعد ابن شهيد عن كثير منها، ويلاحق بها ثلاثة من الجحاش، بمساعدة غلام. ولكن صيد ابن شهيد كان من الظباء، في حين كان صيد امرئ القيس من البقر، ولقد كان صيد زهير من حمر الوحش.

على أيّ حال فإن ابن شهيد، من خلال سيرته، وكما بدت في المصادر، وفي شعره، أشبه بشخصية طرفة: في الاعتداد بالنفس، واقتناص اللذات، وإهانة المال من غير حساب على الشراب مع الصحاب؛ وقد يكون هذا التشابه هو ما أوحى إلى ابن شهيد بمعارضة طرفة.

معارضة ابن شهيد لقيس بن الخطيم:

يعارض ابن شهيد في قصيدته التي مطلعها(2): الطويل

مَنازلُهُمْ تَبْكي إليكَ عَفاءَها سَقَتْهَا الثرَيّا بالغَريِّ نِحاءَهَا

قصيدة قيس بن الخطيم التي مطلعها(3):

تَذكَّرَ ليلى حُسنَها وصَفاءَها وبانَت فأمسى ما يَنالُ لِقاءَها

إنّ التحليل لهاتين القصيدتين ينبئ عن وجود بعض جوانب متشابهة بينهما، وكذلك ينبئ عن

---

(1) ديوانه، ص 57 .

(2) ديوانه، ص 82-84 (من 27 بيتا)، رسالة التوابع، ص 130 .

(3) ديوان قيس بن الخطيم، ص 3-11.

وجود جوانب مختلفة، وإن تشابَه النصّان في جوانب عامة، فقد يفترقان في التفاصيل؛ فالقصيدة المعارِضة ليست احتذاء تامًّا ولا استنساخًا للقصيدة المعارَضة، وليس بالضرورة أن تكون المعارضة تامة.

تشترك القصيدتان في الوزن: فكلاهما من البحر الطويل، وتشتركان في الروي، وفي إعراب القافية، وهو النصب. وتتشابهان في التصريع في المطلع الذي كان يحرص عليه الشعراء الجاهليون. ويُلحظ –كذلك-أن الأندلسيين لم يكونوا أقلّ حرصًا عليه من الجاهليين، فأغلب مطالع قصائدهم مصرعة؛ لما للتصريع في المطلع من أهمية موسيقية، فبه يبين لحن القصيدة وإيقاعها، ودلالة على قافية القصيدة ووزنها ورويّها، ولفت انتباه المتلقي لإقامة الاتصال معه والتأثير فيه.

وتشتركان في افتتاح القصيدة بمقدمة تقليدية. وتشتركان في غرض الفخر: فقيس يفتخر في قصيدته بنفسه، ويختم بالفخر بقومه، أما ابن شهيد فيفخر بنفسه، ويختم قصيدته بالمدح. فكلا القصيدتين تتألف من ثلاثة أجزاء.

ويُلحظ أنّ القصيدتين خِلوٌ من وصف الرحلة والصحراء، وهذا غالب في المقدمات الأندلسية، على غرار قصائد قيس بن الخطيم، الذي لا يوجد في ديوانه كله سوى قصيدة واحدة يصف فيها الرحلة؛ ولعلّ ابن شهيد كان يدرك هذه الظاهرة: أن قيسًا لم يكن حريصًا على وصف الرحلة في مقدمات قصائده.

المقدمة في النصّين:

يفتتح قيس قصيدته، التي يبلغ عدد أبياتها ثمانية عشر بيتا، بمقدمة غزلية قصيرة لا تتعدى ثلاثة أبيات، دون وصف الطلل. ويقتصر قيس في مقدمته على تذكر حسن ليلى وصفائها، ولكن ليلى بانت، فليس بالمستطاع وصالها، ولم يذرف الدموع على فراقها، ويفتخر بلهوه ومجونه وصبابته مع غيرها، وشرب الخمر صباحًا، وكان سخيًا في السكر والصحو، ثم فجأنا بالفخر بنفسه، وكيف أخذ بثأره، دون رابط بين المقدمة والغرض، يقول قيس:

تذكَّرَ ليلى حُسنَها وصَفاءَها ... وبانَت فأمسى ما يَنالُ لِقاءَها

ومثلكِ قد أَصبَيتُ ليسَت بكَنَّةٍ ... ولا جارَةٍ أفضَت إليَّ حَياءَها

إذا ما اصطَبحتُ أربَعًا خَطَّ مِئزَري ... وأَتبَعتُ دَلوي في السّخاءِ رِشاءَها

ثأرتُ عَدِيّا والخَطيمَ فلم أُضِع ... وِلايَةَ أَشياءٍ جُعِلتُ إزاءَها

ويفتتح ابن شهيد قصيدته، التي يبلغ عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتًا، بمقدمة طللية غزلية من ثلاثة عشر بيتًا، لتستغرق نصف قصيدته تقريبًا، محتذيًا بذلك أغلب قصائد الجاهليين ذات المقدمات التقليدية، فبدا ابن شهيد أقرب إلى النموذج الجاهليّ من قيس بن الخطيم، في الإطالة في المقدمة.

ولعلّ لوحة الطلل التي بدأ بها ابن شهيد تنبئ عن محاولة من الشاعر للزيادة على الشاعر المعارَض، واستلهام التقليد الجاهليّ الذي يكثر فيه مثل هذا النوع من المقدمات الطللية، بغية التفوق على قيس.

فيقف ابن شهيد على الأطلال وقوف الشعراء الجاهليين، وتزخر مقدمته بالكثير من مقومات المقدمة التقليدية، فيبكي الديار الدارسة التي عفّتها الأمطار والرياح، وأضحت مرتعًا للظباء، ويبكي على رحيل ليلى، ويستوقف الرفيقين، ويحيي الدار، ويستذكر مراتع الصبا، ويشكو شدة الوجد، وألم الفراق، مفتخرًا بغرامياته، دون أن يشرب الخمر، هذه المرة، كما فعل قيس بن الخطيم، بل إنه يستهجن كيف تملّكت الحسان نفسه الأبيّة، ليتخلص بذلك إلى الفخر بنفسه، وقد أحسن في هذا التخلص، بعكس ابن الخطيم. وكان الأندلسيون عمومًا أحسن تخلصًا في قصائدهم من عموم الشعراء الجاهليين، فربطوا بين المقدمة والغرض بأساليب غير التي عهدناها لدى الجاهليين. ولعل عدم ذكر ابن شهيد للخمر، يعود إلى تنزيه الممدوح، وهو الوزير أبو مروان الجزيري، وكان أيام الفتنة، وكان يوصف بالورع والعفاف والفصاحة، يقول ابن شهيد في مقدمة قصيدته:

مَنازِلُهُمْ تبكي إليكَ عَفاءَها ... سَقتهَا الثرَيّا بالغَريّ نِحاءَهَا
أَلَثَّتْ عليْهَا المُعْصِراتُ بقطْرِهَا ... وجَرَّتْ بها هُوجُ الرِّياح مُلاءَهَا
حَبسْتُ بها عَدْوًا زِمَامَ مَطِيَّتِى ... فحَلَّتْ بها عَيْنِي عليَّ وِكاءَهَا
رَأَتْ شُدُنَ الآرامِ في زَمَنِ الهَوى ... ولم ترَ ليلى فهي تَسْفحُ ماءَهَا
خليليَّ عُوجا بارَكَ اللهُ فيكما ... بدارتِها الأُولى نُحَيّ فِناءَهَا
ولا تَمْنَعاني أنْ أجُودَ بأدْمُعٍ ... حَوَاها الجَوى لمّا نَظرْتُ جِواءَهَا
- وما هاجَ هذا الشَّوقَ إلا حَمائِمٌ ... بَكيتُ لها لمّا سَمِعْتُ بُكاءَهَا
تَغَنَّ فلا يَبْعُدْ بذِي الأَيكِ عاشِقٌ ... بَكى بَيْنَ ليلى فاسْتَحَثَّ غِنَاءَهَا
عَجبْتُ لنَفسِي كيفَ مُلْكَها الهَوَى ... وكيفَ اسْتَفَزَّ الغانياتُ إِبَاءَهَا
أنا البَحرُ لا يَسْتَوْهنُ الخَطْبُ طاقَتي ... وتَأْبَى الحِسانُ أنْ أُطيقَ لِقاءَهَا (1)

يشترك الشاعران في تذكر ليلى وفراقها، وتذكر أيام اللهو والمجون، ولكن ابن شهيد زاد

(1) نحاءها: جمع النحي: الزق أو الجرة، ألثت: دامت، المعصرات: السحائب تعتصر بالمطر، جواءها: ما توضع عليه القدر.

لوحة الطلل، وأسهب في تصوير مواجده. ويبدو من هذه المقدمة أنّ لوحة الطلل التي رسمها ابن شُهَيْدٍ هي أقربُ إلى روح الجاهليين منها إلى روح عصر ابن شهيد، فبدا الشاعر منقطعًا عن بيئته المكانية؛ فعوامل العفاء لهذه المنازل هي المطر والرياح، وهي نفسها العوامل التي كانت تسبب عفاء الأطلال لدى شعراء الجاهلية، ولم يذكر ابن شهيد سببًا آخر لهذا العفاء، كالحروب والنزاعات، وما أكثرها في خراب العمران في الأندلس! خاصة في عصر الفتنة(399-422هـ)، التي عاصرها ابن شهيد، وقال هذه القصيدة في ظلّها، ومدح أبا مروان في محاولته القضاء عليها بفصاحته وبلاغته في الإصلاح بين المتخاصمين، وجمع كلمة الأمة، وهذا المعنى الأخير ختم به الشاعر قصيدته؛ فبدا طلل ابن شهيد طللا جاهليًّا.

ولا يُحْكمُ لابن شهيد على قيس بالبراعة في المقدمة -سوى حسن التخلص من الغزل إلى الفخر- فربما لم تصلنا قصيدة قيس كاملة؛ وإن كانت هذه كاملة، فلعلّ ما حمل قيسًا على الاختزال والاختصار هو طبيعة غرضه، وهو نشوة الأخذ بالثأر، وفرحة النصر على العدوّ، فلم يكن بوسعه تأخير الإعلان عن هذا الخبر السّارّ الذي شفى صدره، وداوى به نفسه، فلا مجال لوصف الأطلال الدارسة، والبكاء عليها. بل إنّ قيسًا لم يجزع على فراق صاحبته ليلى، على غير العادة لدى كثير من الشعراء الجاهليين، الذين ذرفوا الدموع الغزيرة على فراق الأحبة في مقدماتهم.

إنَّ هذه الدموع الغزيرة، التي يذرفها ابن شهيد على الطلل، وعلى فراق ليلى، لعلها دموع شاعر آخر غير قيس، هو طرفة الذي يذرف الدموع على أطلال خولة في معلقته، أو في قصيدة أخرى، خصصها للطلل والغزل مطلعها(1): الطويل

لخولةَ بالأجْزاعِ مِنْ إضَمٍ طللْ وبالسَّفْحِ من قَوٍّ مُقامٌ ومُحْتَمَلْ

ويدعو طرفة لدار خولة وعَرصتها القديمة بالسقيا، وبسحاب تستدره رياح الجنوب وتطيب له الصَّبا. ثم يذرف الدموع على دارها، وعلى طللها، ولكنه يشتد بكاء يوم فراقها:

متى ترَ يَومًا عَرصَةً مِن دِيارِها ولو فَرطَ حَولٍ تَسجُمُ العَينُ أَو تُهِلْ

فما زادَكَ الشكوى إلى مُتَنَكِّرٍ تَظَـــلُّ بِهِ تَبكي وليسَ بِهِ مَظَـلْ

ألا إنَّـــما أَبـكي لِيَومٍ لقيتُهُ بِجُرثُمَ قاسٍ كُلُّ ما بَعـدَهُ جَـلْ (2)

---

(1)ديوان طرفة، بشرح عاصم(المعتمد)ص117، إضم: واد بتهامة، أو الوادي الذي فيه المدينة، أو ماء في طريق مكة اليمامة.

(2)فرط حول: بعد حول،المتنكر: الدارس البالي المتغيّر، ليس به مظل: أي ليس بموضع إقامة. هنا يصف الطلل، ويوبخ نفسه على الوقوف عليه وسؤاله: أي شيء زادكَ شكواكَ إلى هذا الطلل؟ ولكن طرفة يختم قصيدته ببيت حزين ومفجع، يصرح فيه بأن فراقها له كان كأنه شرب السمّ، فقتله.مع ملاحظة تغيير طفيف في رواية الأبيات، اعتمادًا على رواية الأعلم.

كما يذرف ابن شهيد الدموع لما رأى محل القدر من أثافيّ ورماد، ويبكي حينَ لم ير ليلى.

الفخر بين قيس وابن شهيد:

أما قيس بن الخطيم فينتقل فجاءة إلى موضوعه الرئيس، نشوة الأخذ بثأره من قاتلي أبيه وجده فقتلهما، ووصف طعنته النافذة، ثم يفخر بنفسه وشجاعته وعزة نفسه، و يفخر بقومه وشجاعتهم في الحروب. وأما ابن شهيد فبعد مقدمته الطللية الغزلية، وحسن تخلصه، يظهر معتدًّا بنفسه، ومعتزا بكبريائه وكرامته، ويفتخر بشيمه، ويهجو الحساد، حتى يصل إلى الممدوح أبي مروان، فيثني عليه، ويستنهض فيه النخوة.

ويفيد ابن شهيد من معاني قيس في غرض الفخر، مع التحوير والتقليب وتوجيه هذه المعاني في غير وجهتها –أحيانا-في النص الذي يعارضه.

فإذا كانت الصورة التي رسمها قيس بن الخطيم للطعنة صورة بشعة حيث إن الأواسي من النساء ردَدْنَ عيونهن عن الطعنة،فلم يقدرن أن ينظرن إليها من شدة هولها ومن قبحها،في قوله:

ثَأرتُ عَدِيّاً والخَطيمَ فلـــــَم أُضِع ... وِلايَـــــةَ أشياءٍ جُعِلتُ إزاءَهـا

ضَرَبتُ بذي الزرَّينِ رِبقـَةَ مــالِكٍ ... فأُبتُ بِنَفسٍ قـد أَصَبتُ شِفاءَها

وسامَحَني فيها ابنُ عَمرِو بنِ عامِرٍ ... خِداشٌ فأَدّى نِعـــمَـــةً وأَفـاءَها

طعَنتُ ابنَ عَبدِ القَيسِ طعنَةَ ثـــائِرٍ ... لها نَفَذٌ لولا الشعاعُ أَضــاءَها (1)

مَلكـتُ بها كفي فأَنهَرتُ فَتـقَـــها ... يَرى قائِمًا مِن خَلفِها ما وَراءَها

يَهونُ علـيَّ أن تَرُدَّ جِـراحُــــــهُ ... عُيونَ الأَواسي إذ حَمِدتُ بَلاءَها

فإن ابن شهيد يذكر أن النساء عمومًا لا تطيق لقاءه، لا لقبحه، وإنما لشدة هيبته وعظمته. يقول ابن شهيد:

أنا البحرُ لا يَسْتَوْهِنُ الخَطبُ طاقَتي ... وتأْبى الحِسانُ أنْ أُطِيقَ لقَاءَهَا

وإذا كان قيس لا ينام على ضيم، ولا يسمح بأن يُهان، فيردّ الإهانة في وقتها، فيقول:

وكنتُ امرأ لا أَسمـَعُ الدّهرَ سُبَّةً ... أُسَبُّ بها إلا كشَفتُ غِطـاءَها

فإنَّ ابن شهيد فتى يردّ الخطوب، إذا ما تراءت له وقصدته، يقول:

تَيَمَّمَ قصْدِي النائِباتُ فــرَدَّها ... فتى لم يُشَجِّعْ حِينَ حانَ رِيَاءَهَا

وإذا ما أعدَّ قيس نصل السيف الحادّ، يردّ بـه على أعدائه وخصومـه، ليشفي بـه مـا وقـع

---

(1) يعني: لولا الدم المنتشر في هذه الطعنة لظهر منها النور لأنها نفذت من جانب الى آخر. والبيت في رسالة التوابع والزوابع، ص 129 .

عليه من ظلم، في قوله:

إذا سَقِمَت نَفسي إلى ذي عَداوَةٍ		فإنّي بنَصلِ السيفِ باغٍ دَواءَها

فإن ابن شهيد قد أعدّ لخصومه، وللخطوب التي طرقته، لسانًا حادًّا، وأفكارًا حكيمة، وخطابات فصيحة، فقد يكون اللسان أمضى من السنان، يقول:

إذا طَرَقَتْهُ الحادثاتُ أعارَهَا		شَبا فِكَرَاتٍ قد أَطالَ مَضاءَهَا

فابن شهيد هنا ناقض قيسًا؛ فقيس داوى علته بحدّ السيف، أما ابن شهيد فكان سلاحه فصاحة اللسان، وبلاغة البيان، والقول النافذ. واستخدم الاستعارة في تجسيد معناه، فاستعار الشبا لفكراته. بل أكد ابن شهيد أنه بالحلم والتأني والروية والحكمة يستطيع التغلب على خصومه الذين يأبون التراجع عن خطئهم، فيقول:

أمــا وأبى الأَعْداءُ مـا دَفَعْتُهُـمُ		يــدٌ سَبَقَتْهُمْ يَتَّقُونَ عـدَاءَهَا

جَزَاهُم بما حازُوا من الجَهْلِ حِلْمُهُ		كــريمٌ إذا راءَ المكَارمَ جــاءَهَا

ولوْ أنَّني أَنْحَتْ علــيّ أكــارِمٌ		تَرَضَّيْتُ بالعِرْضِ الكريمِ جَزَاءَهَا

فهو يصف نفسه بكرم النفس، وكظم الغيظ، ويصون عرضه، ويحافظ على ماء وجهه بعدم مواجهة خصومه، بسلاحهم؛ لأنهم صغار بجهلهم وطيشهم:

ولكنَّ جِرْذانَ الثغُورِ رَمَيْنَنِـي		فأكرَمْتُ نَفسِي أَن تُـرِيقَ دِماءَهَا

في حين كان قيس –كما ورد في بعض أبياته السابقة-حادًّا غير متهاون مع خصومه؛ فهو ثائر على كلّ من يتعرض له حتى السباب يردّ عليه، لكي لا تبقى في نفسه حاجة، يقول:

متى يَأتِ هذا الموتُ لا تَبقَ حاجَةٌ		لنفسِيَ إلا قد قضَيتُ قضاءَها

وكانَت شَجًا في الحَلقِ ما لم أَبُؤ بِها		فأُبتُ بِنَفسٍ قد أُصَبْتُ دَواءَها ؟

وقد جَرَّبَت مِنّي لدى كلِّ مَأقِطٍ		دُحَيٌّ إذا ما الحَربُ أَلقَتْ رداءَها

وإذا كان قيس يقدم عند خوضه الحروب غير حريص على حياته، في قوله:

وإنِّيَ في الحَربِ الضروسِ مُوَكَّلٌ		بإقدامِ نفسٍ ما أريدُ بَقاءَها

فإن ابن شهيد كذلك، له عزيمة قوية يجابه بها خطوب الزمان، مستعيرًا بعض ألفاظ قيس، فيقول:

نَقضْتُ عُرَى عَزْمِ الزمَانِ، وإن عَتا،		بعَزْمَةِ نَفس لا أُريدُ بَقاءَهَا

وإذا كان قيس يركز في فخره القبليّ على الشجاعة في الحروب والقتال بأدوات القتال المادية كالسيوف، في قوله:

وإنّا إذا ما مُمتَرو الحَربِ بَلَّحوا		نُقيمُ بِأَسبادِ العَرينِ لــواءَها

ونُلقِحُهـا مَبسورَةً ضَرَزَنِيَّةً		بأسيافنا حتى نُذِلَّ إبــاءَها

وإنّا مَنَعنـا في بُعاثٍ نساءَنا		وما مَنَعَت مِ المُخزِياتِ نِساءَها

فإن ابن شهيد كان يركز في مديحه على النواحي المعنوية في ممدوحه: النخوة والشموخ والثبات في مجابهة الخطوب كثبات جبل حراء، ونجدة الأمة التي عصف بها داء الفتنة والفرقة، وأصابها الهوان وسوء الحال، والفصاحة والبلاغة، فيقول:

إليْكَ أبا مَـــــــروانَ أَلْقَيتُ رابـِيًا   بـحاجَة نَفسٍ ما حُـرِبْتُ خزَاءَهَا

هَزَزْتُكَ في نَصْرِي ضُحًى فكأنني   هَزَزْتُ، وقَدْ جئتُ الجبَالَ ،حِراءَهَا

- وكـــــم لكَ مِن يَوْمٍ وقفْتَ بظِلِّـهِ   وقـــد نازَلتْنَا الحادثَــاتُ إزاءَهَا

ومِن مَوقفٍ ضَنْكٍ زَحَمْتَ به العِدى   وقــد نَفضَتْ فيـهِ العُقابُ رداءَهَا

وكــــــم أمّــة أَنجَدْتَها وكأنّــهَا   يَــرابِيعُ سَدَّتْ خِيفةً قُصـَعاءَهَا

ومِن خُطبَة في كَبّـة الصَّكِّ فيْصَلٍ   حَسَمْتَ بــها أهواءَهَا ومِراءَهَا

وإذا اعتد قيس بسلاحه للردّ على خصومه، وابن شهيد اعتد بنفاذ قوله وسلاطة لسانه، فإن طرفة بن العبد قد اعتمد السلاحين معًا في قوله من قصيدة في مدح قتادة بن سَلَمةَ الحَنيفيّ، يتعرض فيها لخصومه الذين آذوه، فيقول: الكامل

وتَصُدُّ عنكَ مَخيلةَ الرجُلِ الـ   ـعرّيضِ مُوضِحَةٌ عنِ العَظمِ

بحسامِ سَيفِـكَ أو لسانِكَ والـ   كَلِـمُ الأَصيلُ كَأرغَبِ الكَلـمِ(1)

اللغة: أما الألفاظ فهي في الغرابة واحدة، يستعمل ابن شهيد لغة بدوية، أي لغة جزلة يكثر فيها غريب الألفاظ والتراكيب، فيسود القصيدة جو من الغلظة -خاصة في غزله الطلليّ- التي توافق مصدر المعاني البدوية الواردة: ذكر المنازل التي عفّتها الرياح والمطر، والبكاء على أيام صباه، مفتخرًا بغرامياته في تلك الديار (أبيات1-11).

وكان هدف ابن شهيد هو إثبات قدرته على مسايرة الشعر الجاهليّ، في لغته ومعانيه؛ فجاءت لغته مغايرة لعصره عمومًا، عصر القصور واللهو والغناء. فحقّ لابن شهيد أن يعارض بها فحول الشعراء الجاهليين، وهذه بغيته جريًا مع تيار المعارضة والتقليد السائد في المشرق وفي المغرب على السواء في ذاك العصر.

---

(1) ديوان طرفة، ص 165-166. المَخيلة: الخيلاء، العريض: الذي يدخل فيما لا يعنيه، ويروى:"الرجل المَشْنوف"، المُوضحة: الشجّة توضِحُ عن العظم، الكلم الأولى: كلمة، الأصيل له قوة البليغ النافذ من الكلام، كأرغب: أوسع الكلم الجرح. يقول: لا تصرف عنك مَخيلةَ الفكر إلا مُوضحةً، توقّعْها سيفًا، أو قصيدةَ هجو يكون خروجها في عرضه كجرح السيف في رأسه. وقال قائلهم: "وجرح اللسان كجرح السيف"، ويروى لامرئ القيس"وجرحُ اللسان كجرح اليدِ". ولعل ابن شهيد يفيد من مديح طرفة بن العبد في قتادة.

وتتشابه الأساليب اللغوية بين الشاعرين، فأكثرا من أسلوب الشرط، واعتمدا من أدواته: "إذا"، ويأتي النمط التركيبي لجملة الشرط واحدًا لدى الشاعرين أحيانا، فنمط الشرط:(إذا + فعل الشرط(فعل ماض) + جواب الشرط(فعل ماض)) يأتي في البيت الثالث عند قيس، والبيت السادس عشر، والبيت الثامن عشر عند ابن شهيد؛ ما يجعل أشكال التعبير، بين الشاعرين متقاربة، حتى إنّ كلا الشاعرين استخدم أسلوب الشرط في المعنى المتقارب، في قول قيس" إذا سَقِمَت نَفسي إلى ذي عَداوَةٍ فإني بنصل..."، وقول ابن شهيد: " إذَا طَرَقَتْهُ الحادِثَاتُ أَعارَهَا..."، مع ملاحظة أن ابن شهيد بدا هنا أسرع في إثبات جواب الشرط، الذي لم يفصل بينه وبين فعل الشرط سوى الفاعل، خاصة أنّ ردّه على خصومه لم يكن بحاجة إلى طول إعداد ماديّ كإعداد السيوف وشحذها، ومن ثم يطلب مداواة نفسه كما فعل قيس، ولكن عدة ابن شهيد وسلاحه المعدّ هو اللسان.

ومن الأساليب اللغوية النفي، فكلا الشاعرين يستخدم النفي بأدواته: "ما" و"لم" و"لا" مع الفعلين الماضي والمضارع، ووقع النفي في قصيدة قيس في سبعة مواضع، جاء الفعل المضارع بعد أداة النفي في ستة منها، وفي قصيدة ابن شهيد في ثمانية، جاء الفعل المضارع بعد أداة النفي في خمسة منها. وهذه الوفرة لتركيب النفي يقارب بين القصيدتين في الصياغة اللغوية، بل قد يكون ابن شهيد يعارض قيسًا حتى في معنى النفي؛ فإذا نفى قيس في مطلع قصيدته نوالَ وصال صاحبته ليلى في قوله: "ما يَنالُ لقاءها" في معرض حديثه عن صاحبته التي بانت، دون بكاء ولا سفح دموع على هذا الفراق، فإنّ ابن شهيد في قوله: "ولم ترَ ليلى فهي تسفَحُ ماءَها"، ينفي رؤية ليلى في المنازل التي أضحت أطلالا، فهي تسح الدموع. وكلاهما ينفي الحرص على بقاء النفس، في قول قيس: "بإقدام نفس ما أريد بقاءها"، وفي قول ابن شهيد: "بعزمة نفس لا أريد بقاءها". وأكثر الضمائر التي أسندت إليها الأفعال المنفية تعود إلى الشاعرين: (أُضعْ، أسمعُ، أُريدُ، أبؤْ) عند قيس، و(شِمْتُ، حُربتُ، أُريدُ)عند ابن شهيد. ويُلاحظ أنّ الشاعرين اشتركا في أغلب صيغ النفي لا سيما نفي النواقص عن نفسيهما، تساوقا مع غرض الفخر، والاعتداد بالنفس.

ومن الأساليب التي استخدمها ابن شهيد نداء الصاحبين في قوله: "خليليّ عوجا بارِكَ اللهُ فيكما"، وهذا الأسلوب شائع لدى الشعراء الجاهليين كثيرًا-وإن لم يستخدمه قيس في قصيدته-، مستعيرًا هذا الأسلوب بلفظه من قول المرقش الأكبر(1): الطويل

خليليّ عوجا بارِكَ الله فيكما وإن لم تَكُنْ هندٌ لأرضِكما قَصْدا

---

(1) ديوانه، ديوان المرقشين، ص 48 .

وتغلب أساليب الخبر على أساليب الإنشاء في القصيدتين، وربما يدل ذلك على الثقة بالنفس، فكثرة استخدام الشاعر للأساليب الإنشائية –وهذه الكثرة لم تحدث في النصين- يكشف عن مدى القلق النفسيّ لديه. وإنّ معظم الضروب الخبرية المفضلة لدى الشاعرين والغالبة في النصين هي الضروب الابتدائية الخالية من المؤكدات، ويكاد النصان يتشابهان في استخدام بعض أدوات التأكيد من مثل: (إنّ، وأنّ، وقد)، فوردت "إنّ" في الأبيات (11، 16، 18) من قصيدة قيس، ووردت أنّ في البيت الثامن عشر من قصيدة ابن شهيد. ووردت "قد" في الأبيات(2، 13، 14، 15) من قصيدة قيس، ووردت في الأبيات (7، 16، 24، 25)من قصيدة ابن شهيد. ولعل هذا يشير إلى تشابه في أساليب التعبير.

وتغلب النزعة الخطابيّة في القصيدتين، فهما خِلوٌ من الحوار. وإن أكثر صيغة مفضلة لدى الشاعرين هي صيغة الفعل الماضي، وتكاد هذه الصيغة تطغى على صيغ أفعال المضارع والأمر، بل تكاد تطغى على أبيات القصيدتين كلها(1)؛ فيشيع جو من الحركة والهياج، انسجامًا مع حركة النفس ورغبتها في الثأر، ونوع من القصّ الذي له أثر في تحقيق وحدة القصيدة، ويخفف من وحدة البيت التي شاعت في القصيدة الجاهلية، وتشيع هنا الوحدة في القصيدتين.

ويُلحظ كثرة استخدام ضمير المتكلم في هذه الأفعال(2)؛ وهذا ما يناسب غرض الفخر، ويدلّ على مدى اعتداد الشاعرين بالنفس، ومدى العُجب بما فعله الرجلان، وإن اختلف هذا الفعل لديهما، فقيس أخذ بثأره، وكان أهلا لخوض الحروب والقتال، إذا ما لزم الأمر، في حين كان ابن شهيد معجبًا بما لديه من فصاحة وبلاغة، يرد بهما على خصومه، ويشعل حربًا ضدهم لا تقل ضراسة عن الحرب التي خاضها قيس وقومه.

ومن المعلوم أن ابن شهيد كان معجبًا بشعره ونثره إعجابًا شديدًا، وكان يرد بعنف على من يعيب عليه شيئًا من مقدرته الفنية. لهذا ألّف رسالة التوابع والزوابع، ردًّا على منتقديه، ومحاولة لإثبات قدرته الفنية، ليجاري بها الأدباء المشارقة، وعلى رأسهم أمير الشعراء امرؤ القيس.

---

(1) فقد تضمنت بعض أبيات القصيدتين ثلاث صيغ ماضية،وبعضها تضمن أربع صيغ، ومن ذلك الأبيات(1، 3، 4، 5، 6، 8، 10، 14) من قصيدة قيس، والأبيات(4، 7، 11، 13، 15، 16، 17، 18، 22) من قصيدة ابن شهيد، ما يجعل الجملة الفعلية لها الغلبة على الجملة الاسمية.

(2) ينظر الأبيات (2-5، 7-14، 16، 17، 18) من قصيدة قيس، والأبيات(3، 5-9، 13، 14، 19-23) من قصيدة ابن شهيد، هذا عدا الأبيات التي استخدم فيها الشاعران ضمير المتكلم في غير صيغة الماضي.

كما يُلحظ أن الشاعرين يكرران لفظ النفس من مثل قول قيس: "لا تبقَ حاجةٌ لنفسي"، و"بإقدامِ نفسٍ"، و"إذا سقِمَتْ نفسي"، و"فأُبْتُ بنفسٍ قدْ أصَبْتُ دواءَها"، و"فأُبْتُ بنفسٍ قد أصبْتُ شفاءَها"، وقول ابن شهيد: "عجبْتُ لنفسي"، و"فأكرمتُ نفسي"، و"بحاجةِ نفسٍ"، و"بعزمة نفسٍ"، وكأن هذا التكرار يؤكّد النزعة الذاتية لدى الرجلين، كما يؤكد حاجتهما للأخذ بالثأر لشخصيهما –وليس للقبيلة -من الخصوم، وإن بدا قيس أكثر التزامًا بالقبيلة من ابن شهيد، حين يفخر بقومه، في حين يخلو نصّ ابن شهيد من هذا الفخر، وإن بدا ابن شهيد يرغب في أن تكون الأمة –لا القبيلة-موحدة قوية، على يد الممدوح.

الأساليب البيانية والصور:

استخدم الشاعران الأساليب البيانية، والمحسنات البديعية في تراكيبهم، ومعانيهم وصورهم، خاصة التشبيه والاستعارة كعنصرين من عناصر تشكيل الصورة، والجناس والطباق، وحَرَص ابن شهيد على هذه الأساليب والمحسنات أكثر من قيس، حرصًا من غير تكلّف مفرط، ولعل هذا الحرص هو من أثر افتنان أدباء العصر عمومًا بمثل هذه المحسنات. وكان ابن شهيد يرى أنّ الاعتدال في استخدامها أفضل.

فاستعار قيس الرداء للحرب، واستدرار ضرع الناقة لإشعالها، ولقاح الفحل للناقة غضبًا، لقهر العدو، لتأكيد شدة هول الحرب، وقوة الرّدّ على الخصم، واستعار ابن شهيد للزمان عزمًا، واستعار للعزم عُرًى، لتأكيد شدة هول الخطوب، ومجابهتها بقوة. واستعار ابن شهيد لعينه وكاء، تعبيرًا عن غزارة دموعه، ولفكراته الشَّبَا بجامع الحسم في الردِّ على الخصم.

ولعلَّ ابن شهيد يعتمد التشبيه في صوره أكثر من قيس، فشبه ابن شهيد نفسه بالبحر رهبة وهيبة وعظمة، وشبّه خصومه وأعداءه بالجرذان، وممدوحه بجبل حراء، فشتان بين الجرذان وحراء، والأمة التي ينتصر لها الممدوح باليرابيع الخائفة، تعبيرًا عن هول المحنة التي أصابت الأمة من الفتنة .

ويعتمد قيس الكناية أكثر من ابن شهيد، فقد كنّى قيس عن كبريائه وخيلائه بجرّ المئزر، وكنّى عن بشاعة الطعنة واتساع خرقها بأنّ لها نفذًا يستطيع المرء رؤية مدخلها ومخرجها، وعدم تحمل النساء المداويات النظر إليها.

ولعل غلبة التشبيه على الاستعارة لدى ابن شهيد تدل على حرصه على العودة إلى أساس الصورة لدى الجيل الأول من الشعراء الجاهليين، الذين اعتمدوا التشبيه أساسًا لصورهم أكثر من الاستعارة.

الجناس والطباق: ورد الجناس الناقص في النصين في بعض المواضع: كالأبيات(7، 10، 13) من قصيدة قيس، وفي الأبيات (6، 8، 12، 14، 15، 17) من قصيدة ابن شهيد. وورد طباق الإيجاب في قصيدة قيس في البيت الثامن، وصفًا لبشاعة الطعنة، وورد في قصيدة ابن شهيد في البيت الثالث، لوصف حالين متناقضين (حبس زمام المطية، وحلّ وكاء القربة) الذي استعاره لعينه، والبيت الثامنَ عشَرَ، مقابلا بين حلمه وجهل خصومه. وتشابه النصان في استخدام طباق السلب، فورد عند قيس، في الفخر، في البيت الرابعَ عشَرَ: "لم أبؤ بها" ،"فأبتُ"، والبيتِ الثامنَ عشَرَ"منعْنا" و"ما منَعَتْ"، وورد عند ابن شهيد، في الغزل، في البيت الرابع "رأتْ"، "لم ترَ"، والبيت السابع "ما شمتُ" و"وقد شمتُ".

القوافي بين النصين:

يشترك الشاعران في كثير من ألفاظ القوافي، صيغة ومعنى، أو تجانسًا. فيستعير ابن شهيد ألفاظ بعض القوافي بمعناها وصيغتها المستعملة في قصيدة قيس بن الخطيم، من مثل :"إباءها" و"لقاءها" و"بقاءها" و"إزاءها" و"رداءها"، وتتفق الدلالة السياقية في بعضها، وتشكل هذه الألفاظ ما يقرب من ثلث قوافي قصيدة قيس.

وتقرب بعض كلمات القوافي عند ابن شهيد من أصوات بعض قوافي قيس، من قبيل الجناس الناقص،مثل "شاءها" عند ابن شهيد التي تجانس "رشاءها" عند قيس، و"لقاءَها " و"بقاءَها"، و"مضاءَها" و"أضاءَها"، و"جزاءَها" و"إزاءَها"، و"أساءَها" و"نساءَها"، و"مُلاءَها" و"بَلاءَها"، و"جواءَها" و"دواءَها" "لواءَها"، و"مَضاءَها" و"قضاءَها"، و"عَداءَها" و"رِداءَها"، و"خَزاءَها" و"إزاءَها"، و"جِراءَها" "مِراءَها" و"وراءَها"، و"ظِباءَها" و"خِباءَها"، و"رِياءَها" و"إياءَها"؛ وهو ما يعطي جوًّا موسيقيًّا متشابهًا في قوافي القصيدتين. ولعل استعارة ابن شهيد في قوافيه معجم قوافي قيس بن الخطيم أو مجانستها، توحي بإعجاب ابن شهيد بالقصيدة النموذج، ومحاولة الإبداع على نسقها، أو التفوق عليها.

ظهرَ مما تقدم، من مقارنة بعض المقطوعات والقصائد الأندلسية المعارِضة ببعض النماذج الجاهلية المعارَضة: أنّ أغلبَ المعارضاتِ جاءتْ من قبيل المعارضات الجزئية، وقد جاء بعضُها من قبيل المناقضات.

ويظهرُ مدى اطلاع الأندلسيين على شعر العصر الجاهليّ، وإعجابِهم وتأثرِهم بألفاظ الشعراء الجاهليين، ومعانيهم، وأساليبِهم اللغوية والبيانية، وتشبيهاتِهم وصورِهم، وأوزانِهم وقوافيهم؛ ومدى إعجابِ بعض الأندلسيين، خاصةً ابنَ شهيدٍ، بمقدرته الفنية، فيأخذ بمعارضة كبار أعلام الشعر

الجاهليّ، ليثبت مقدرته على مجاراتهم، باللغة الجزلة، والأغراض البدوية بأساليبها المعهودة في النظم، متأثرًا في ذلك كلِّه بمعاني امرئ القيس وطرفةَ خاصة.

الفصل الثالث

أثرُ الشِّعرِ الجاهليِّ في النثرِ الأندلسيِّ

لم يقتصرْ تأثرُ الأندلسيين بالشعر الجاهليّ على الشعر، بل تـعدّاه إلـى النثر الإنشائـيّ الفـنيّ، الذي يتمثل بوضوح في الرسائل والمقامات، وفي نثر بعض الأدباء في تواليفهم الأدبية، خاصة نثر ابن بسام في الذخيرة. وقد شاعت هذه الكتابة الإنشائية في نهاية عصر بني أميّة في الأندلس، في الرّبع الأخير من القرن الرابع الهجري؛ وازدهرت في عهد الطوائف والمرابطين؛ أما صورة النثر الفنيّ قبل هذه العصور فهي باهتة، إذ غلبت صورة الكتابة الديوانية عليها، أو أنّ نماذجها ضاعت ولم تصل إلينا.

إنّ المطلعَ على نثر الأندلسيين، من رسائلَ ومقاماتٍ، وتواليفَ أدبيةٍ، يرى أنّ منشئيه كانوا على دراية بتاريخ العرب والمسلمين وآدابهم، وعلى معرفةٍ بأيّام العرب، وأنسابِهم، وفصحائهم، منذ الجاهلية وحتى عصرهم، ويدركُ مدى إفادة الأندلسيينَ الكبيرة من تراث الأمة، وحرصِهم على ربط الحاضر بالماضي، عبرَ استعارة كثيرٍ من أشعارهم وأقوالهم وحِكمهم، والإشارةِ إلى أسمائهم، وأماكنهم، ووقائعهم وأخبارهم، وعاداتهم وأساطيرهم، التي دوّنَ الشعرُ كثيرًا منها. وإنّ أكثرَ هؤلاء الكتابِ كانوا يوشّحون كتاباتهم بالشعر الجاهليّ.

وحظيت الرسائلُ بعناية أغلب الشعراء الأندلسيين، إذ إنّ أكثر أدباء الأندلس كانوا يجمعون بين نظم الشعر وقول النثر، كابن دراجٍ وابن شهيدٍ وابنِ الحنّاط، وابن زيدون وابن حزم، وابن خِيرةَ القرطبي المشتهر بالمنفتل، وأبي محمد بن مالك القرطبي، وابن عبدون، وأبي محمد بن عبد الغفور، وابن خفاجة، والأعمى التطيلي، وابن بسام، وابن أبي الخصال، فأشبه نثرُهم شعرَهم. وخاضوا في شتى الموضوعات، من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف، وغزل ومجون، واعتذار واستعطاف وعتاب، وشكوى وشوق وحنين، وتهكم ودعابة، واستصراخ واستغاثة، وتهديد ووعيد.

وإذا كان ينبغي للكاتب الإكثارُ من حفظ الأشعار؛ ليوردَها في خلال كلامه: استشهادًا وتضمينًا، أو يحلها ويقتبس معانيها في نثره، فيجدر به أن يحسن استعمال هذه الأشعار في محلها، ووضعها في أماكنها حسب ما يقتضيه الحال في السياق الجديد.

الاستشهاد والتضمين:

لقد أكثر الأدباء الأندلسيون من الاستشهاد بالشعر الجاهليّ، في نثرهم الفنيّ خاصة، وضمّنوه الأبيات وأنصاف الأبيات؛ وكان ذلك لإعجابهم بالشعر الجاهليّ، وتأثرهم بألفاظه ومعانيه وأساليبه. وقد أحسنوا استعارة الأشعار، ووضعها في محلها في النثر بما يناسب النصّ الجديد، والأمثلة على ذلك كله كثيرة، مبثوثة في مصادر الأدب الأندلسي، خاصة في كتاب الذخيرة.

فمن الأدباء من يستشهد بخمسة أبيات متتالية في فقرة من فقراته النثرية، لتكون دليلا بيّنًا على فكرة طرحها، ومن ذلك فصل لأبي الطيّب عبدِ المُنعمِ القَرويّ(-493هـ) من رسالته التي يردُّ بها

على رسالة ابن غَرْسيَة الشعوبية، وكان ابن غرسية قد فخر بعلوم الأعاجم، وعيَّر العرب باشتغالهم بالخرافات والأوهام، والزّجر والعيافة..، فيقرّ القروي بداية أن هذه الأمور هي "أصول فاسدة وسوق كاسدة"، ويُسلّم بأنّ العرب لا يُنازَعون في هذا الباب، ولكنه ينفي أن يكونوا كلهم كذلك، فيستشهد على فكرته هذه من أشعارهم، فيقول: "وهذا بابٌ مُسلّم للعرب، لا يُنازعون فيه ولا يُدافَعون عنه، لهم فيه اليدُ الطّولى، والمنزلة الأولى، لهم السوانحُ والبوارح، والقواعدُ والنَّواطح، وعندهم الأيامن والأشائم، والأواقي والحواتم، وغير ذلك من التمائم والرتائم، وفيهم من لا يعتمده ولا يرتصده كالقائل: (مجزوء الكامل)

لا يمنعنَّكَ من بُغا ... ءِ الخير تَعْقادُ الرتائمْ
ولا التشاؤم بالعُطَا ... سِ ولا التيمّنُ بالمقاسِمْ
فلقد غَدَوتُ وكنتُ لا ... أغدو على واقٍ وحاتمْ
فإذا الأشائمُ كالأيا ... منِ والأيامنُ كالأشائمْ
فكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌّ على أحدٍ بدائمْ"(1)

ويستعير بعض الناثرين كثيرًا من أبيات الشعر الجاهليّ في الرسالة الواحدة، الإخوانية خاصة، كثرة تنبئ عن إلمام كبير، وحفظ جمّ، وثقافة بالموروث الشعريّ الجاهليّ واسعة. وقد يكون الشعر المضمن جزءًا لا يتجزأ من الكلام النثريّ، متممًا للمعاني؛ وقد يكون مؤكدًا لها، ويشدّ من أزرها. ثم إن الشعر المضمّن يشي بمعرفة الكاتب بالقصائد التي ضُمِّن منها البيت أو الأبيات. وقد يكون مقصد الكاتب أن يرجع المتلقي إلى تلك القصائد ومعانيها. وقد ينقل الكاتب معنى البيت من غرضه الأصليّ إلى غرض آخر، وقد يحوّر بعضَ الضمائر لتتسق مع معانيه وتراكيبه. ومن ذلك الرسالة الطويلة التي كتبها قاضي الجماعة أبو عبد الله بن حَمْدين (439-508هـ)، جوابًا على رسالة كتبها له صديقه الوزير أبو مروانَ عبدُ الملك بن محمد بن شَمَّاخ-أحد من شافهه ابن بسام وذاكره وأنشده شعره-، ويُضمّن فيها كثيرًا من أشعار الجاهليين، مثل زهير، وعمرو بن كلثوم، والأعشى، وغيرهم؛ فيقول ابن حمدين مفتتحًا بعض فصولها بالدعاء لصديقه، مضمنًا بيتًا لطرفة بن العبد: "عُمّر بابُك، وأخصَبَ جنابُكَ، وطاوعك زمانك، ونَعِمَ بكَ إيوانُك: (الكامل)

---

(1) الذخيرة، 737/2/3 . والأبيات للمرقش الأكبر من مقطوعة من ستة أبيات، ديوان المرقشين، ص 75–77، وتروى لخَزَز بن لوذان السدوسيّ ولغيرهما. وأرى أول البيت الثاني: " لا والتشاؤم ...". القعيد من الوحش: ما أتاك من ورائك.

وسَقى بلادَكَ غيرَ مُفسِدها صَوْبُ الرَّبيع وديمةٌ تهمي"(1).

فجاء البيت المضمّن جزءًا من الكلام، متممًا للمعاني، ملائمًا للسياق غير شاذٍّ عنه.

ويثني ابنُ حَمْدين في فصل من رسالته على متانة العلاقات الودية التي بينه وبين صديقه، ويُضمن ثلاثة أبيات، وينقلها من غرضها الأصليّ إلى غرض آخر، ويُحوّر في الضمائر لمناسبة الغرض الجديد، فيقول: "بيننا وسائلُ، أحْكَمَتْها الأوائلُ، ما هي بالأنكاثِ والوشائجِ الرّثاث، من دونها وُدُّ [الواو مثلّثة] جَناه شُهْدٌ [بضمّ الشين وفتحها]، ومرادُه خُلد، أنضرُ من أنيق الخَضَر [بضمّ الخاء وفتحها]، وأعبقُ من فتيقِ الزَّهَر، غِبَّ المطر، جمَّتْ أعراضُه، ونَدِيَتْ حياضُه، سرى له النسيمُ، فوشى به النَّميم: (البسيط)

ما رَوضَةٌ مِن رياضِ الحَزنِ مُعشِبَةٌ غنَّاءُ جادَ عليها مُسبِلٌ هَطِلُ

يُضاحِكُ الشّمسَ مِنها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعَميمِ النبتِ مُكتَهِلُ

يَومًا بأَطيَبَ مِنه نَشرَ رائِحَـــــةٍ ولا بأَحسَنَ مِنه إذ دَنا الأُصُلُ"(2)

فالأبيات الثلاثة من شعر الأعشى الكبير ميمون بن قيس(3)، وهي في غرض الغزل بهريرة، نقلها الكاتب إلى غرض الثناء، ووصف الودّ، فأجرى تغييرًا في ضميري البيت الأخير، فهي عند الأعشى:"بأطيب منها" و" بأحسن منها".

ويثني في فصل من الرسالة على أدب صديقه وحسن بيانه، مضمنًا بيتًا للأعشى، فيقول: "لله فطنةٌ فَطرَتْهُ، ويدٌ سطرته، وصحيفةٌ احتوته، وأناملُ لوته، ما أبدعَ ما وسق، وأعجبَ ما نظم ونسق، إن هو إلا سحرٌ يُؤثر، ودرٌ يُنثر، وأنفاسٌ تُعبق ونفوسٌ تُسبى وتسترق إلى أغراضٍ كقطع الرياض، ومعانٍ كأبكار الغواني لوين قدودًا، وكسين من وشي الكلام مجاسدًا وبرودًا،..، سمير الآذان وحديث الركبان: (الطويل)

بهِ تُنفَضُ الأَحلاسُ في كُلِّ مَنزِلٍ وتُعقَدُ أَطرافُ الحِبالِ وتوثَقُ "(4)

وإذا كان الأعشى يتحدث عن ثناء الناس على الممدوح أبي مِسْمَعٍ (المحلَّق بن حَنْتَم)، لمبالغته في إكرام الشاعر على فقره الشديد، فإن ابن حمدين يتحدث عن حسن بيان صاحبه، وبراعته في الأدب. فشهرة ابن مسمع بين الناس تعود إلى إكرام الضيف، وهي أعظم صفة كان يتمدح بها

---

(1) الذخيرة، 831/2/1، وبيت طرفة في ديوانه، ص 168. ويروى" فسقى" بالفاء، وهو آخر بيت من قصيدته التي يمدح فيها قَتادة بن سَلمة الحَنيفيّ، ببذل العطاء لقوم الشاعر حين سُدّت أبواب الآخرين في وجوههم.

(2) الذخيرة،833/2/1، الوسيلة: الوصلة والقربى والمنزلة.النميم والنِّمْنِيمُ: أثرُ الرياح على التراب.(3) ديوانه،ص107.

(4) الذخيرة، 835/2/1، والبيت للأعشى في ديوانه، ص 273، ورواية الشطر الثاني: "وَتُعقَدُ أَنْسَاعُ المَطِيِّ وَتُطلَقُ"، والبيت من قصيدة يمدح فيها المحلّق، وبعد هذا المدح تزوجت بنات المحلق كلهنّ.

عند العرب، وشهرة ابن شماخ تعود إلى حسن البيان، ولعلّ هذه الصفة كانت في زمن ابن حمدين من أخطر المناقب وأجلّها. والحق يقال فإنّ ابن شماخ هذا كان من أجلّ الأدباء في عصره وأعظمهم، كما تشير إلى ذلك كتب التراجم لأدباء الأندلس؛ فحق له أن يتحدث عنه الركبان في الحلّ والترحال. ويدلّ هذا التضمين على معرفة الكاتب بقصيدة الأعشى ومعانيها، أو بالمعاني المدحية فيها على الأقل. ويُضمّن في ختام رسالته بيتًا للنابغة الذبيانيّ، في قوله: "..ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا، وأُبلغكَ سلامًا، يكون بنَحْر عقدِكَ نظامًا، ويضربُ على روض وُدّكَ غمامًا: (الطويل)

فيُنبِتُ حَوذاناً وعَوفًا مُنَوّرًا سَأُتبِعُهُ مِن خَيرِ ما قالَ قائِلُ"(1).

وإذا قيل إنّ هذا البيت المضمن مقتطعٌ من قصيدة النابغة في الرثاء، فلا يحسن بالناثر أن يأتي به في موطن ثناء! فقد يجاب على ذلك بالقول: إنّ معنى هذا البيت في النص النثريّ الجديد ليس موجهًا إلى ابن شماخ، بل إلى السّلام، وإن كان ذلك كذلك فيحلو للكاتب لو ضَمَّنَ الأبيات التي سبقت البيت المضمن، لتكتمل صورة الوداع، ومن هذه الأبيات:

ولا زالَ رَيحانٌ ومِسكٌ وعَنبَرٌ على مُنتَهاهُ ديمَةٌ ثُمَّ هاطِلُ

وإذا كان الأعشى يتحدث في بيته: "بِهِ تُنفَضُ الأَحلاسُ...(البيت) عن كرم الممدوح، وعدله ابن حمدين عن موضوعه قليلا، فاستعمله في الثناء على بيان صديقه، فإنّ أبا عُبيد البكريّ(-487هـ) قد استعمله للثناء على فتوح المعتمد بن عباد، التي أضحى ذكرها زادًا للناس وراحة ومتعة لهم، فيقول في كتاب يهنئ فيه المعتمد بالفتح الذي كان سنة تسع وسبعين وأربعمائة: "فتوح أضحكت مبسمَ الدّهر، وسَفَرَتْ عن صفحة البِشر، وردت ماضي العمر،...، فذكرُها زادُ الراكب، وراحةُ اللاغب، ومتعةُ الحاضر ونُقْلَةُ المسافر:

بها تنْفَضُ الأحلاسُ في كلِّ منزلٍ وتُعقدُ أطرافُ الحبال وتُطلقُ

شملتِ النعمة، وجَبرتِ الأمة، وجلتِ الغمة، وشفتِ المِلة، وبرّدتِ الغلة، وكشفتِ العلة..، فغدا الدينُ جديدًا، والإسلامُ سعيدًا، والزمانُ حميدًا، وعمودُ الدين قائمًا، وكتابُ الله حاكمًا، ودعوة الإيمان منصورة، وعينُ الملك قريرة، فَهَنَأً اللهُ مولانا وهَنَأنا هذه المنحَ البهيةَ مطالعُها.."(2).

وحتى يتسق البيت المضمّن في النص الجديد، ويستقيم الكلام، فقد تصرّف البكري في ضمير التذكير في" به تُنفض"، (العائد عند الأعشى إلى الثناء على كرم الممدوح)، ليصبح ضميرًا

---

(1) الذخيرة، 839/2/1. وبيت النابغة الذبياني، ديوانه، ص 90، ورواية الديوان: "وَيُنبِت"، والقصيدة في رثاء النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني. والحوذان والعوف نباتان طيبا الرائحة.

(2) الذخيرة، 235/1/2-236 .

للتأنيث: "بها تُنفض" الذي يعود إلى الفتوح.

وإنَّ بيت الأعشى المضمن لم يأت قلقًا أو غفلا هكذا دون مقدمات، بل جاء مرحبًا به في محله، قد هيّأ له الكاتب فرشًا ملائمًا، من المعاني، ومن الألفاظ القريبة من ألفاظه. وهكذا فعل ابن حمدين في رسالته السابقة.

وفي ما يخصّ الشيء الذي "به تُنفضُ الأحلاس..."، فيجدر به أن يكون أمرًا عظيمًا، حتى يؤثر في الناس هذا التأثير؛ وأيّ أمر أكثر تأثيرًا فيهم من خُلق إكرام الضيف عند الأعشى، وسحر الأدب والبيان عند ابن حمدين، والنصر على الفرنجة في موقعة الزلاقة! لذلك جاء جلّ حديث البكريّ في نثره في هذا الكتاب، قبل البيت المضمن، وبعده، في تصوير عظم الفتوح، ونتائجها الجليلة الإيجابية على الإسلام والمسلمين، والنتائج السلبية على الفرنجة. وكذلك فعل ابن حمدين في نثره المضمن فيه البيت، وكرر المعاني في أكثر من موضع في رسالته.

وعلى أي حال، فإن تضمين الشعر في العمل النثريّ يحتاج إلى كدّ الذهن، وبراعة من الكاتب؛ بالإضافة إلى الاطلاع الواسع على الشعر الذي أخذ منه البيت أو الأبيات المضمنة.

وممن ضمَّنَ بيتًا وحوَّرَ فيه الكاتبُ ابنُ زيدون، في رسالته الموسومة بالهزلية، التي كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي بالله (-484هـ)، إلى الوزير أبي عامرٍ أحمدَ بنِ عَبْدوس (-482هـ)، وتتضمن غرائب من التهكم به وهجائه، ومن هذه الرسالة قوله: "فالنارُ ولا العارُ، والمنيةُ ولا الدنيةُ، والحرةُ تجوع ولا تأكل بثديها،

فكيف وفي أبناء قوميَ مَنْكَحٌ وفتيانِ هِزَّانَ الطِّوَالِ الغَرانقَةْ "(1).

فالبيت الشعري المضمن للأعشى الكبير، من مقطوعة قالها في امرأته الهِزَّانيَّة حين طلقها، وروايته في ديوانه(2): الطويل

فقد كانَ في شُبّانِ قَومِكِ مَنكَحٌ وفتيانِ هِـزَّانَ الطِّوَالِ الغَـرانقَةْ

فغيَّر الكاتب الضمير في "قومكِ" فجعله " قومي"، حتى يستقيم الكلام، إذ المتحدث هي ولادة تهجو ابن عبدوس وتفخر بقومها هي، والتي صرحت برفضها الزواج من ابن عبدوس، وكيف تقبل به وفي قومها من هو أعظم وأشرف نسبًا منه، وقد يكون المعنيّ بهذا الشرف ابن زيدون.

---

(1) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، جمال الدين بن نُباتة المصري (686-768هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية صيدا-بيروت، 1406هـ-1986م، ص 7، والرسالة في ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 634-679، وأحمد بن علي القلقشندي(-821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (14ج، وجزء في الفهارس)، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، 1407هـ- 1987م، 1/527-536 .

(2) ديوانه، ص 313 . ويعد ابن نباتة تغيير "قومكِ" إلى "قومي" نوعًا من الاهتدام، سرح العيون، ص 420 .

في حين أن الأعشى يمدح قوم مطلقته. فأضحى البيت المضمن في السياق الجديد هجاء لابن عبدوس وفخرًا بنسب ولادة وقومها.

ويستشهد عبد المجيد بن عبدون(440-527هـ) ببيتين لزهير بـن أبي سلمى، فـي رسالة بعثها إلى ابن خاقان، يثني فيها على أديب ويهجو أديبًا آخر، فيفتتح فقرته في الثناء باستعارة تراكيب جاهزة، كعبارة زهير بن أبي سُلمى عند انتقاله من المقدمة إلى المدح: "دعْ ذا وعدِّ القولَ في هَرمٍ"(1)، فيقول: "دعْ ذا وعدِّ القولَ في هَرِمِ هذا الزمان، مُعلي همَمَ الأعيان، جمالِ الدِّين والدنيا،..، وأقسمُ بمساعيه العظام، وأياديهِ الجسام الحَالية لأعناق الكرام، الزارية بأطواق الحَمام، لقد نشرتُ عليه ثوبَ إحسان، تَقْصُرُ عنه صنعةُ قسّ وسَحْبان، وإنه لأبْصَرُ بكرامة الضِّيفان من زرقاء اليمامة بِعَسْكر حسّان"(2).

ويقول في فقرة الهجاء: "وأما ذلك المصحِّفُ المبدِّلُ للمعاني والأغراض، المقابلُ لما لا يفهمُه بالاعتراض، فما الحسابُ كما ظنَّ الذُّبابُ؟ إذا طنَّ لا يُناويهُ بصفيره العصفورُ، فكيف يُجاريه بزئيره الليثُ الهصور! ولولا تمريثُ الزمان بذكره، وتلويثُ الأوان بقبائحه ونُكْره، لأرَيْتكَ من خَطَله وزَلَله، ما يُضحكُ الثكلى، ويَسْتدركُ به الجاحظُ بابَ النَّوْكى.

دَعْ عنك رواحلَ الضِّليل، والاشتغال بالأباطيل من الأقاويل، ألْحَقَ اللهُ ثانيَه ابنَ أبي سُلمى بخيار أهل مِلَّته، فلقد انتفعَ السلفُ والخلفُ بحكمته، ونادى عليه لسانُ الزمان، فأسمعَ من كانت له أذنان، وكأنه ما عَنَى غيرَ ذلك الإنسان، وإن كان في غير هذا الأوان:(الطويل)

وذي خَطَلٍ في القَولِ يَحسِبُ أنَّهُ مُصيبٌ فما يُلمِمْ بهِ فهوَ قائِلُهْ

عَبَأتُ لهُ حِلمًا وأَكرَمتُ غَيرَهُ وأَعرَضتُ عَنهُ وَهوَ بادٍ مَقاتِلُهْ "(3).

لقد أحسن ابن عبدون في تضمين عبارة زهير، لتشابه المقصد بينهما، وهو الشروع بالمدح، فكان مقصد زهير هو مدح هرم بن سنان، ومقصد ابن عبدون هو الثناء على هذا الأديب؛ مع ملاحظة أن ابن عبدون يقتفي أثر زهير في بعض أساليبه في المدح وفي بعض معانيه، إذ إن زهيرًا أثنى على مساعي ممدوحه الحميدة، وعدَّد مناقبه من مثل كرمه وحنوه على الجياع والضيفان وصلة الرحم، ويُصرّح زهيرٌ بثنائه على هرم بما علمه فيه وخبره في ختام القصيدة، في قوله(4): الكامل

---

(1) وعجز البيت: "خَيرِ البُداةِ وَسَيِّدِ الحَضْرِ"، ديوان زهير، ص 133 .

(2) قلائد العقيان، 426/2/1 .

(3) السابق، 427/1/2، والبيتان في ديوان زهير، ص 73-74 .

(4) ديوان زهير، ص 139 .

أُثني عليكَ بما عَلِمتُ وَما أسْلفتَ فـي النجَداتِ والذكرِ

وأحسن كذلك إلى الإشارة إلى رواحل الضليل، التي نُهبت في المرة الثانية لأنها أجلّ من الرواحل الأولى، وذكرها امرؤ القيس في مفتتح قصيدة له(1): الطويل

دَعْ عَنكَ نَهبًا صيحَ في حَجَراتِهِ ولكِن حَديثاً ما حَديثُ الرواحِلِ

وإذا سخر امرؤ القيس بعد هذا البيت ممن كان السبب في ضياع رواحله، من مثل قوله:

تلعَّبَ بـاعِثٌ بذِمَّةِ خالِـــــدٍ وأَودى عِصامٌ في الخُطوبِ الأَوائِلِ

وأعجَبَنـي مَشيُ الحُزُقَّةِ خالِدٍ كمَشيِ أَتـــــانٍ حُلِّئَت بالمَناهِـــلِ

فلا يخلو هجاء ابن عبدون من السخرية كذلك. ثم إن ابن عبدون أطال في كلامه حتى يحسن التواصل ببيتي زهير، اللذين يطابقان حال المهجو؛ فيبدو الناثر أنه على دراية تامة بمعاني الشعر المضمن ومناسبة قوله، وكذلك على القصائد التي أخذ منها.

وضمَّنَ ذو الوزارتين أبو عبدِ الرحمنِ بنُ طاهرٍ(-507هـ أو508) عجز بيت امرئ القيس: "ولكن حَديثًا ما حَديثُ الرّواحِلِ"، في رسالة بعثها إلى بعض إخوانه، وهي من ضمن رسائله في الدعابة والهزل، يقول فيها: "خذْ هذه النادرةَ، من يديْ هذه الطالعة الفاترة، وأنجزْ لها مجدَكَ الموعود، وصِلْ عندها فضلك المعهود، فإنها تقوم مقام الجيش في الغَناء، وتصل الرواحَ بالغدو في الثناء، ولولا غُنّة فيها تُلفِتُ فكَّيْها وتلويها، لكانت أحسنَ الناس وصفًا، ولا سيما إذا مسحتْ أنفًا بسبابتها عند الكلام، وحدَّثتْ حديثَ مصر والشام، فهناك يُقطفُ الزهرُ، وتغرف الدُّرر:

ولكنْ حديثاً ما حديثُ الرواحلِ

فهي لا تقنعْ بشيء سوى الحاصل العاجل، فأقبلْ على شانها، لا زلتَ قِبْلةَ القاصدِ والآملِ"(2).

فلا يخلو هذا النثر من سخرية. ويأتي الشطر المضمن في خلال الكلام، ممهدًا له ببعض الألفاظ التي تشي من طرف خفيّ بمعناه.

إنّ من ضمّنَ هذا الشطر من الكتّاب في نثره يعرف أنّ ما سيتحدث عنه فيما بعد هو أخطر مما سبق وأجلّ، وهذا ما كان يقصده امرؤ القيس أصلا، وتبعه في ذلك الناثرون.

وقد يأتي الشعر المستشهد به جزءًا من الصورة، كأن يأتي في موقع المشبّه به؛ فهذا ابن بسام، وهو يتحدث عن الجانب الغربي من جزيرة الأندلس، ويخص إشبيلية بحديثه، وما جرى عليها من أحداث أليمة بعد الفتنة، وتفرق أهلها شيعًا، كما كل أقطار الأندلس، يستشهد ببيتين لذي

---

(1) ديوان امرئ القيس، ص 94 .

(2) الذخيرة، 70/1/3 ، الغَناءُ: النفع. والكاتب يصف مغنيّة.

الإصبع العَدْواني، يقول ابن بسام: "وحضرةُ إشبيليةَ على قدم الدّهر، كانت قاعدة هذا الجانب الغربيّ من الجزيرة، وقرارةَ الرياسة، ومركزَ الدول المتداولة، ومنها مُهدت البلاد،... وبهذا الأفق نزلَ جندُ حمصَ من المشرق فسميت حمصَ، ولمّا كانت دارَ الأعزّة والأكابر، ثابت فيها الخواطرُ، وصارتْ مَجمعا لصَوْبِ العقول، وذوب العلوم، وميدانَيْ فرسانِ المنثور والمنظوم، لا سيما من أوَّل المائة الخامسة من الهجرة حين فرحَ كلُّ حزبٍ بما لديه، وغلبَ كلُّ رئيسٍ على ما في يديه، بعد الدولة العامرية، فأضحتْ أقطارُ الجزيرة يومئذ كبني الأعيان وأهلها كما قال أخو بني عَدْوان: (مجزوء الوافر)

عَذيرَ الحَيِّ مِن عَدوا نَ كانوا حَيَّةَ الأَرضِ

بَغى بَعضٌ على بَعض فلم يُبقوا عَلى بَعضِ"(1)

فابن بسام يوازن بين حالين: حال قوم الشاعر الجاهليّ وهم بنو عدوان، الذين كانوا يباهون أهل الأرض عددًا وعزة ومنعة، ثم وقع بأسهم بينهم؛ فتفانوا وتفرقوا، فقال ذو الإصبع العدواني في ذلك شعرًا، منه البيتان اللذان استشهد بهما ابن بسام في نثره، وكذلك أضحى الحال مع أهل أقطار الجزيرة الأندلسية في التفرق والاقتتال بعد وحدة وعزة ومنعة. وحين يذكرابن بسام الجانب الشرقي من جزيرة الأندلس يقول:" ولما أدارت تلك الفتنةُ رحاها، على حضرة قرطبة وما والاها، إذ كانت ... منتهى الغاية، ومركزَ الراية، فقلَّصتْ أذيالها، وانْتَسَفتْ جبالَها واشتفَّتِ الماءَ من عودها، وألوَتْ بمعظم طارفها وتليدها، شذَّ قومٌ من أهلها على حال لو رآها ابنُ جُبيرٍ لقال بالتقية،...، فأصبحوا طرائدَ سيوف وجلاءَ حُتوف قد خلعهم ليّنُ العيش على خَشِنِه، وأسلمتهم غَفَلاتُ الزمان إلى مِحَنه، يلوذون بآفاق هذه الجزيرة المنكوبة، لواذَ الماء بأقطار الزجاجة المصبوبة، فكانوا كما وصف الملكُ الضِّليلُ حيث يقول:(الطويل)

فريقانِ منهمْ جازعٌ بطنَ نَخْلةٍ وآخرُ منهمْ قاطعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

لا بل كما قال صاحبهم القسطلي أبو عمر يضجرُ من حاله، ويحار من إدباره بين تلك الفتنة وإقباله، ويصف ما حلَّ به وانجلى عن أهله وأطفاله، في قصيدة فريدة مدح بها خيرانَ الصقلبيَّ، فقال: (الطويل)

تقسَّمهنَّ السيفُ والحَيْفُ والبِلى وشطَّتْ بنا عنها عصورٌ وأزمانُ

كما اقتسمتْ أخدانَهنَّ يدُ النوى فهم للرَّدى والبَرّ والبَحر إخوانُ

إذا شرَّق الحادي بهم غرَّبتْ بنا نوًى يومُها يومان والحينُ أحيان"(2).

---

(1) الذخيرة، 2/1/11-12، والبيتان في الأصمعيات، ص 68، ورواية البيت الثاني:

"بغى بعضُهم بعضًا فلمْ يُرْعُوا على بعض". (2) الذخيرة، 3/1/9 –10، والبيت في ديوان امرئ القيس، ص 43 .

فابن بسام في هذا الموضع استعان بشعر امرئ القيس الذي يتحدث فيه عن تفرق القوم فرقتين:منهم أخذَ سُفلا، ومنهم أخذَ علوًا، كما استعان بشعر ابن دراج لتكتمل الصورة للحال التي أضحى عليها أهل الأندلس من التفرق والتشتت.

وقد يأتي الشعر المُضمّن جزءًا من الصورة الأدبية النثرية، فيأتي مشبهًا به، ثم يُعدل هذا الشعر عن المشبه الأصليّ، كما جاء في رسالة لأبي الفضل بن حَسْداي ردّا على رسالة لابن الدّبّاغ يعلن فيها توبته وتزهده وتركه الخمر، ويطلب من بعض أصحابه، ومنهم ابن حَسْداي، ترك الضلال وشرب الخمر، فيقول ابن حسداي في وصف أثر الخمر، لإغاظة ابن الدباغ: "حتى إذا دبّتْ فينا حُميّا الخمر، وقهرتنا سَوْرةُ السُّكر، تمايلنا عليكَ مُعربدين، وتمسحنا بأثوابك راكعين وساجدين، "كما شَبرَقَ الوِلدانُ ثَوبَ المُقَدّسِ"(1). فهذا الشطر هو عجز بيت لامرئ القيس(2): الطويل

فأدرَكنَهُ يَأخُذنَ بالساقِ والنَّسا كما شَبرَقَ الوِلدانُ ثَوبَ المُقَدّسِ

والبيت تشبيه تمثيليّ، وهو في تصوير ما أحدثته كلابُ الصيد في الثور من نهش وتمزيق، وجاء الشطر الثاني مشبهًا به، ولكن الكاتب قد نقله إلى تشبيه حال السكارى مع ابن الدباغ.

ويضمن السرقسطيّ في المقامة الحادية عشرة عجز بيت النابغة الذبيانيّ، في وصف حال دار ميَّة، التي أقفرت من أهلها وحيوانها وأضحت خلاء(3): البسيط

أضحتْ خَلاءً وأضحى أَهلُها احتَمَلوا أَخنى عليها الذي أَخنى على لُبَد

فيقول في وصف بيت خالٍ من الأثاث: "فما وجدتُ فيه من سَبَدٍ ولا لَبد، سوى رُقْعة "أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد"(4). فالنابغة يصف دار مية المقفرة، في حين أن السرقسطي يصف رقعة بالية. ومن الملاحظ هنا أن النص المضمن في المقامة لا يدعو القارئ إلى الرجوع إلى أبيات قصيدة النابغة؛ لأنه لا مناسبة بين قصيدة النابغة ومقامة السرقسطي، ولعلّ مردّ ذلك إلى أن النص المضمن شائع ويجري مجرى المثل.

وقد يأتي الشاهد الشعريّ في النثر في معرض نفي المقاربة بين شخصين، يقول ابن بسام في وصف حال المعتمد بن عباد بعد الأخذ بثأر ابنه عباد -الذي قتله ابن عكاشة بعد استيلائه على قرطبة سنة 467هـ-: "وخلا وجهُ قرطبةَ بعد ذلك للمعتمد، وعاد إليه ملكُها، وانتظم في يديه

---

(1) الذخيرة، 288/1/3 .

(2) ديوانه، ص 104 .

(3) شرح المعلقات، ص 228 .

(4) مقامات السرقسطي، ص 158 .

سِلكُها، وأخذ بثأر ابنه عباد بقتله لابن عكاشة، فلم يكن كما قال دريد بن الصمة: (الطويل)

قتلنا بعبدِ الله خيرَ لداتــهِ ذؤابَ بنَ أسماءَ بنِ زيدِ بنِ قاربِ"(1).

فابن بسام ينفي المساواة بين عباد وابن عكاشة.

كما يأتي الشعر المضمن مما يجري مجرى المثل أو الحكمة، تأكيدًا لمعنى ما سبق، ويسعف الفكرة في النثر، ويشد أزرها، كما في قول الوزير أبي عبد الله البِزِلْيَانيّ في فصل من رقعة له عن حَبُّوس(-429هـ) صاحب غرناطة ردًّا على نصيحة ابن عبد الله أمير قَرْمُونة، ويَعدُّ البزلياني نصحه سبابًا، ويضمن بيتًا لدريد بن الصمة: "وأنا أحدُ البرابرة: لا أخرجُ عن جماعتهم، ولا أبعد عن موافقتهم، ولا أرغبُ بنفسي عن نفوسهم: (الطويل)

وما أنا إلا من غزيةَ إن غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ ترشُدْ غزيّةُ أرشدِ

وفي لزوم الجماعة السَّدادُ والرَّشادُ، والغيّ في الانفراد والاستبداد"(2).

وقد يأتي الشعر المضمن بيتًا يجري مجرى الحكمة، ويكون جزءًا من النسيج اللغوي للكاتب، ولا ينفصل عنه، كقول ابن خفاجة يثني على دولة المرابطين، ويضمن بيتًا للأعشى: "...وهذه كتائبُ النصر قد طلعتْ عليكم بشائرُ صباحها، وأظلتكمْ قادمةُ جناحها، وإنَّ مَنْ ناصَبَها فحاول أن يدفعَ في صدرها، ويقصرَ من تطاولِ عِنانها عن شانها: (البسيط)

كناطِحٍ صَخرَةً يَومًا لِيَفلِقَــها فلم يَضِرها وأَوْهَى قَرنَهُ الوَعِلُ

هيهات! توخّى من الفلك ألا يستديرَ، وابتغى من الشمس ألا تَستنير، واعترضَ في مطلع الليل يأملُ ألا يُظِلَّ، ونصبَ راحته تلقاءَ الفجر يُحاول ألا يُطلَّ"(3).

---

(1) الذخيرة، 1/2/ 272، والبيت في الأصمعيات، ص 118، ويروى "قتلتُ".

(2) الذخيرة، 626/2/1، والبيت لدريد بن الصمة، ديوانه، ص 62، الأصمعيات ص 112 .

(3) الذخيرة، 559/2/3، والبيت للأعشى، شرح المعلقات، ص212، يتحدث عمن خان وشجع قوم الشاعر على القتال ثم انسحب.

حلّ الشعر:

أنْ يُحلّي الكاتبُ نثرَه بحلِّ المنظوم، ويرصّعَ كلامَه بنثر الموزون، فهذا من الطرق الأنيقة في الكتابة. ويكون حلّ الشعر على أضْرُبٍ كثيرة، منها: حله بلفظه، ويكون بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، بزيادة في لفظه، أو بغير زيادة، أو حله بحذف بعض لفظه، ويكون بصياغة المعنى بألفاظ جديدة، والحاذق يخفي ما أخذ بنقل معنى الشعر من غرض إلى آخر، ولا يكمل هذا إلا للحاذق المبرز(1). و الحال نفسها في حلّ الأمثال الشعرية. وللأدباء الأندلسيين اهتمام ملحوظ، وعناية كبيرة بهذه الطريقة في كتاباتهم، ولهم طرق شتى في حل المنظوم.

ومن ذلك أنّ الكاتب أبا بكر محمد بن ذي الوزارتين أبي مروان بن عبد العزيز(معاصر ابن بسام) حلَّ معقود قول أوس بن حَجَر في وصف السحاب(2): البسيط

دانٍ مُسِفٍّ فُوَيقَ الأَرضِ هَيدَبُهُ يَكادُ يَدفَعُهُ مَن قامَ بالرّاحِ

وضمّنه نثرًا له، في وصف السحاب والغيث أيضًا، فقال: "..وقد كان الغمامُ أُسِفَّ وَدْقُه، ورُجّيَ صِدْقه، فصعَدَ وتعلّى، ثم دنا فتدلى، فكادَ من قامَ بالرَّاح يدفعُه، وانتُظرتْ شآبيبُهُ ودُفَعُهُ..."(3).

ويحلّ السرقسطيّ الشطرَ الأول من قول زهيرٍ في وصف غدر حُصين بن ضَمْضَم، ونقضه عهد الصلح الذي أبرمه الحارثُ بنُ عوفٍ وهرمُ بنُ سِنانٍ، بين عبس وذبيان، وأنهيا به حرب داحس والغبراء(4): الطويل

وكانَ طَوى كَشحًا عَلى مُستَكِنَّةٍ فلا هُوَ أَبداها ولم يَتقدمِ

في قوله من المقامة السادسة في وصف عدم الالتزام بالعهود: " فلما انكشفتْ عنه الضرَّاءُ،

---

(1) ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، 1952م، ص 198، 216- 217، ابن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص 140، ضياء الدين بن الأثير(-637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،(2ج)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1411هـ-1990م، 93/1-، والقلقشندي، صبح الأعشى، 330/1- وما بعدها.

(2) ديوانه، ص 15 .

(3) الذخيرة، 551/2/2 .

(4) شرح المعلقات، ص 83 .

وغازلَتْه السرَّاءُ، طوى كَشْحًا على ما التزمَ، واستقالَ مما عليه اعتزمَ "(1).

وممن حل قول النابغة الذبياني، الذي يصف فيه تخوفه من وعيد النعمان له(2): البسيط

أنبئتُ أَنَّ أَبـا قابوسَ أَوعَـدَني ولا قَرارَ عَلى زَأرٍ مِـنَ الأَسَدِ

مع تقديم وتأخير وزيادة ونقص في الشطر الأول، والإبقاء على الشطر الثاني دون تغيير؛ لجريانه مجرى المثل- وهذا أسلوب معهود في النثر لدى الأندلسيين- الوزيرُ أبو بكرٍ عبدُ العزيز بنُ سعيدٍ البطليَوْسيُّ القَبْطُورنيُّ(-بعد 520هـ) في رسالة له، على لسان من فرَّ من موضع اعتقال، فقال: "وبحق نـُفِّرْتُ فـَنَفَرْتُ، وأوعدني أبو قابوسَ ففررتُ، ولا قَرارَ عَلى زَأرٍ مِنَ الأَسَدِ"(3).

وقد يحلّ الكاتب شطرين من بيتين متقاربين، كما فعل أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال(-540هـ)، إذ حلَّ العجزين من قول قيس بن الخطيم يفخر بنفسه(4): الطويل

إذا ما اصطبحتُ أَربَعًا خَطَّ مِئزَري وأتبَعتُ دَلوي في السّخاءِ رِشاءَها

ثأرتُ عَدِيـّا والخَطيمَ فلـــم أُضِـع ولايَـــــةَ أَشياءٍ جُعِـلتُ إزاءَها

فقال في نثرها، في رسالة له في مخاطبة بعض الأعيان: "وإنّ الخطابَ الكريمَ نجرُهُ، المنيرَ فجُره، الذكيَّ نشْرُهُ، وافى قريبًا بالسيادة عهدُهُ، مُطرّزا بالبلاغة بُرْدُهُ، فوردتُ منه معينا، واجتليتُ به من البيان سحرًا مبينًا، ومثلُكَ أهدى مثله، ووالى فضلَه، وتابعَ بذلَه، وأتبعَ دلوَه في السّماح رشاءَها، وسما إلى همم أملاكٍ جُعلَ إزاءها، واللهُ لا يُعدمُني الأنسَ طالعًا من أفْقكَ، والدنيا تجري في وَفْقِكَ، ولا زالت قداحُك فائزة، وأحكامُك جائزة، وحظوظك لكل أمْنِيَّةٍ حائزةً"(5). وانسجمت معاني شطري ابن الخطيم مع المعاني التي قصد إليها الكاتب في نثره.

وممن نظر إلى قول ابن الخطيم "وأتبَعتُ دَلوي في السّخاءِ رِشاءَها"، الكاتبُ ابن الجَدّ(-515هـ) في رقعة له، يشفع بها لأحد أقربائه من الأدباء لدى أحد أصدقائه من الوزراء، فيقول: "وقد عرفتَ ما مُني به من عضِّ الزمان، ومسِّ الحرمان، ورأى أن يَصْرِفَ وجه همته إلى تلك الحضرة ليدركَ بها أملا، ويعلقَ من أعمالها عملا، ومُعوَّلُهُ في موارده ومصادره عليكَ، ونظرُه في مطامح أغراضه وألحاظه إليك، وأنتَ بمجدك تُسَدِّدُ سهمَه، وتؤيّدُ عزمَه، متمّمًا يدَكَ

---

(1) مقامات السرقسطي، ص 68-69 ، استقال: رفع البيعة والعهد.

(2) يوانه، ص 36 .

(3) الذخيرة، 763/2/2 .

(4) ديوان قيس بن الخطيم، ص 4-5 .

(5) الذخيرة، 800/2/3-801 .

البيضاءَ، ومُتبـعًا دلوَكَ الرِّشاءَ"(1).

وممن ينظر إلى معقود الشطر نفسه أيضًا ابنُ بسّامٍ في حديثه عن ابنِ خفاجةَ، في قوله: "تصرَّفَ في فنون الإبداع كيف شاء، وأتبَعَ دلوَه الرِّشاءَ، فشعشعَ القولَ ورَوَّقَهُ،..، وإنْ مدَحَ فلا الأعشى للمحلَّق،.."(2)، ويخرجه بذلك عن موضوعه في الكرم إلى فنون الإبداع في الأدب، ويضيف ابن بسام في نثره هذا شيئًا من متعلقات شعر الأعشى، فهو يشير إلى قصيدة الأعشى التي مدح بها المحلَّق بنَ حَنْتم ويثني فيها على كرمه على شدة فقره، حتى أضحى كرمه هذا سمير الآذان وحديث الركبان، يقول في ذلك(3):

بهِ تُنفَضُ الأَحلاسُ في كُلِّ مَنزِلٍ وتُعقَدُ أَنْسَاعُ المَطِيِّ وتُطلَقُ

ولعلّ اهتمام كثير من الكتاب بهذا الشطر، يعود إلى أنه يجري مجرى المثل.

وقد يُحلُّ جزءٌ من الشعر، بالإفادة من معانيه أكثرَ من ألفاظه، ويُضمّن جزءٌ آخرُ منه، كما فعل الوزير الكاتبُ أبوالفضلِ بنُ يوسفَ بنِ حسداي بشعر تأبط شرّا في المدح، الذي يقول فيه(4):الطويل

قليلُ التَشَكّي لِلمُهِمِّ يُصيبُهُ كثيرُ الهَوى شَتّى النوى والمَسالِكِ

يظَلُّ بِمَوماةٍ ويُمسي بِغَيرِها جَحيشًا ويَعروري ظُهورَ المَهالِكِ

ويَسبِقُ وَفدَ الريحِ مِن حَيثُ يَنتَحي بمُنخَرِقٍ مِن شَدِّهِ المُتَدارِكِ

وبشعر طفيلٍ الغنويّ في وصف تعرّق الفرس، وسَعَةِ شِدْقيْهِ(5): الطويل

كأنَّ على أَعطافِهِ ثَوبَ مائِحٍ وإن يُلقَ كلبٌ بَينَ لِحيَيهِ يَذهَبِ

فينثر بعضه بمعناه، ويضمن شيئًا منه بلفظه، في فصل له من رقعة إلى ابن رزين، يستوضح ما أومأ إليه من نَشْد عبد آبق خارج على السلطان، فيقول: "وكيف يُظفرُ بعبد حوشِ الفؤاد، شَكس القياد، رغب عن خضوع المماليك، ولحق بذؤبان الصعاليك، يعتسف شتى المسالك، ويعروري ظهورَ المهالك، فاتحٌ كاسمه سائحٌ، على أجردَ سابح: "كأنَّ على أعطافه ثوبَ مائح". وعسى أن يعودَ هذا الذاهبُ وشيكًا إلى ملكه، وينتظمَ المتبددُ من سلكه، وإن ندَّ هذا الشاردُ فما يأسى له

---

(1) الذخيرة، 306/1/2- 307 .

(2) الذخيرة، 541/2/3، وقلائد العقيان، 739/2/2-740 .

(3) ديوانه، ص 273 .

(4) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، 94/1-96 .

(5) ديوان طفيل الغنويّ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1968م، ص27، وينظر: محمد عبد القادر أحمد، طفيل الغنوي حياته وشعره، ص 193. المائح يستقي من داخل البئر، والماتح يكون في أعلاه.

الفاقدُ، فلا حظَّ في ارتباطِ غادرٍ، ولو أَرْبَى في البأسِ على أسدٍ خادرٍ..."(1).

ويكون الحل بتوجيه الشعر وجهة أخرى، ونقل الصفة إلى موصوف آخر، وعلى هذا أكثر طرق الحلِّ شيوعًا في نثر الأندلسيين. فيشير ابن خفاجة (450-533هـ) في فقرة من رسالة بعث بها إلى فتى من أهل الأدب، وقد وليَ حِصْنًا، وكانت بينهما مقاطعة، يقول فيها: "فلا تتخيّلْ أعزّكَ اللهُ أنَّ رسمَ إخائكَ عندي ذو حُسًا قد درسَ عَفاءً، ولا أنَّ صدري دارُ مَيَّةَ أمسى من وُدّكَ خلاءً"(2). يشير فيها إلى ثلاثة أبيات في وصف الطلل: إلى مطلع قصيدة النابغة الذبياني(3): الطويل

عَفا ذو حُساً مِن فَرْتَنى فالفَوارِعُ فجَنبا أَريكٍ فالتِلاعُ الدَّوافِعُ

وإلى مطلع معلقته(4): البسيط

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلياءِ فالسّنَدِ أَقوَتْ وطالَ عليها سالِفُ الأَبَدِ

وإلى قوله من المعلقة أيضًا(5):

أضحتْ خَلاءً وأضحى أَهلها احتَمَلوا أَخْنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

وينفي ابن خفاجة في نثره، أن تكون حاله مع الفتى كحال تلك الديار والأطلال، التي لم يبق من آثارها شيء.

وممن حلّ قول زهير بن أبي سلمى في وصف حمار وأتانه، مشبهًا سرعة الأتان بسرعة دلو ملأى انقطع حبلها فهوت إلى قعر البئر(6): الوافر

فشجَّ بها الأماعزَ فهيَ تهوي هُوِيَّ الدّلو أسْلمَها الرِّشاءُ

وأفاد من معناه ولفظه، ووجهه توجيهًا آخر أحدُ الناثرين الأندلسيين، فضمنه فقرة من رسالة طويلة له، يشكو عقوق ابن له، ومصاحبته أصدقاء السوء، قال فيها: "وما جرّأه على قُبْحِ فَعاله، ومجانبته المعهودَ من حاله، إلا قُرناءُ سوء قيّضوا له، إذ جعلوا يضربونَ له أسداسًا لأخماس، ويكيدونه بكيد الوَسْواس الخناس، حتى إذا أوردوه أُنشوطة، لمْ يكن مثلها أُغلوطة، هوى به

---

(1) الذخيرة، 460/1/3 .

(2) إحكام صنعة الكلام، ص 134، وأورد الكلاعي هذه الرسالة في فصل المرصع: وهو ما رصع بالأخبار والأمثال والأشعار، وروايات القرآن والأحاديث الشريفة، وإلى غير ذلك من النحو والعروض، وحل أبيات القريض، ص 130، وديوان ابن خفاجة، ص 327 .

(3) ديوانه، ص 78 .

(4) شرح المعلقات، ص 227 .

(5) السابق، ص 228 .

(6) ديوانه، ص 150 ، شجّ بها: علا بها، الأمعز: المكان الغليظ كثير الحصى، أسلمها: خذلها.

الهوى هُوِيَّ الدلو أسلَمَه الرشاء، ولا غرو فقد تعدي الصحاحَ مباركُ الجُرب"(1).

فقد وجه الناثر معنى قول زهير في وصف سرعة الأتان، إلى معنى سرعة وقوع ابنه في حبائل الغواية والضلال اتباعًا للهوى ومصاحبته أصدقاء السوء، وزاد معنى آخر بتضمين جزء من قول ذؤيبِ بنِ كعبِ بنِ عمرٍو التميميّ، وهو قوله(2): الكامل

جانيكَ مَن يَجني عليكَ وقد تُعدي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُربِ

ولم يجر تغييرًا في الجزء المضمن، لأنه قد يجري مجرى المثل.

وقد يفيد الكاتب من ألفاظ البيت الشعريّ ومعانيه، وينقل الصفة فيه إلى موصوف آخر، مثل ما جاء في رسالة لابن برد الأصغر(-450هـ تقريبًا)، في السيف والقلم، كتبها إلى الموفق أبي الجيش مجاهد(-436هـ)، فقال على لسان السيف الذي يخاطب القلم: "جعجعة رحىً لا يتبعها طِحْن، وجلجلة رعد لا يليها مُزْن،...، وجةٌ لئيمٌ، وجسمٌ سقيم، وغَرْبٌ(حدّ) يـفلُّ، ودم يُطلّ، ودموع سِجام، كأنهن سُخام(سواد القدر)، ورأس لم يَتقلقلْ فيه لُبّ، وجوفٌ لم يتخضخض فيه قلبٌ، أوحشُ من جَوْف العَيْرِ، يشهد عليه كثرةُ الجوْر بقلة الخير"(3).

فقولـه في صفة القلم بأنـه" أوحشُ من جوف العَيْرِ"، مأخوذ من صدر بيت لامرئ القيس في وصف وادٍ، وهو قوله(4): الطويل

ووادٍ كجوف العَيْر قفرٍ قطعتُهُ به الذئبُ يعوي كالخليع المُعَيّلِ

ويفيد ابن برد في السجعة الأخيرة من معنى الشطر الثاني من بيت امرئ القيس، دون لفظه.

وممن عدل الشعر عن موضوعه الأصليّ، أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي(-540هـ)، في المصراع الثاني من قول الحارث بن عُبَاد البكريّ حين قاد قبائل بكر لحرب تغلب في حرب البسوس(5): الخفيف

قرِّبا مَربطَ النّعامَةِ مِنّي لَقِحَت حَربُ وائِلٍ عَن حِيالِ

فنثره، وقد عدله عن موضوعه الأصليّ في تصوير الحرب، واستعمله في وصف الجدب، في فقرة من رسالة في الشكر على نعمة الغيث، فيقول: ".. ولمّا لقحتْ حربُ الجدب عنْ حِيال، وأشفقَ ربُّ الصّريحة والعيال، وتنادى الجيرانُ للتفرق والزّيال، وتناوحتْ في الهبوب ريـحُها

---

(1) الذخيرة، 3/1/155-156 ، الأنشُوطة: عقدة الحبل الواهية.

(2) كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق أحمد عبد السلام، وخرج أحاديثه أبو هاجر محمد سعيد بسيوني،(2ج)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1408هـ-1988م، 248/1، ورواية الشطر الثاني: "تعدي الصحاحَ فتجرَبُ الجُرْبُ". (3) الذخيرة، 526/1/1 . (4) شرح المعلقات، ص، 34 ، وينسب البيت لتأبط شرّا، ديوانه، ص 81 . (5) الأصمعيات، ص67 .

الجنوبُ والشَّمال...، وخَفّت الأزواد،... أنشأ اللهُ العَنانَ، وقال له كنْ فكانَ"(1).

واستعمله السرقسطي في المقامة التاسعة عشرة، وهي الخمرية في وصف الصبابة، في قوله: "كنتُ قد ودعتُ الصِبّا والصَّبابة،...، حتى إذا ساورتْني سورةُ الجِرْيال، ولقحتْ حربُ صبابتي عن حِيال، فراجعتُها بعد التطليق..."(2).

ومن ذلك قول أبي عبد الله محمد بن مسلم في رسالة يخاطب بها ابن أغْلَب صاحب مَيُورْقة مولى أبي الجيش مجاهد، يصف شجرة طيبة الرائحة في فناء قصر من القصور: "صِيغَ عُودُها من الحَلي المنيل، وقامَ عمودُها كأنبوبِ السّقيِّ المذلـل، والتفتْ بأغصانِها التفافَ الذوائبِ الجعدة، والتقتْ أفنانُها التقاءَ الصَّعْدة بالصعدة، فبينا نحن نعجب من شانها ونستغرب مناظر زهرها وأفنانها إذ سطعَ من جرثومتها دخانُ المجمّر.."(3). فهو ينظر إلى قول امرئ القيس متغزلا(4):

وكشحٍ لطيف كالجديل مُخَصَّرٍ وساقٍ كأنبـوب السَّقيِّ المُذللِ

وفي الرسالة نفسها يفيد أبو عبد الله في صوغ عباراته، وفي بعض معانيه من أكثر من بيت شعري لامرئ القيس؛ فيقول واصفًا مغامرة من مغامراته في مجلس الشراب صباحًا: "وقمنا نقدُّ السراجَ من ضوء الصباح، وقلنا: دينُ المسيح، يعبدُه كلُّ مليح، فطُفنا حول الدّنان، بمصابيحِ الرهبان، وما زلنا نسمعُ باقتراح، ونشربُ على ارتياح، ونصلُ اغتباقا باصطباح، حتى شُبَّتْ مصابيحُنا لقُفَّال، وحان أوانُ ظَعْنٍ وارتحال، فخرجتُ كالمقلة استلّتْ من الأشفار.."(5).

فهو ينظر إلى شعر امرئ القيس، في قوله (6): الطويل

يُضيءُ الفِراشَ وَجهُها لضَجيعِها كمصباحِ زَيتٍ في قَناديلِ ذُبّالِ

وقوله من القصيدة نفسها:

نظرتُ إلَيها والنجومُ كأنَّـــهـا مَصابيحُ رُهبانٍ تُشَبُّ لقفَّالِ

ومن قوله في معلقته(7):

تُضيءُ الظلامَ بالعِشاءِ كأنَّـها مَنارَةُ مُمْسى راهِبٍ مُتَبَتِّـلِ

وقوله أيضًا(8):

أصاحِ تَرى بَرقًا أريكَ وَميضَهُ كلمعِ اليَدَينِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضيءُ سَناهُ أَو مَصابيحُ راهِبٍ أَهانَ السَّليطَ بالذبالِ المُفَتَّلِ

وللأندلسيين تقدير خاص لشعر امرئ القيس، وبالأخص المعلقة؛ ومن ذلك ما نثره ابن بسام من

---

(1) صبح الأعشى، 14/299-300 . (2) مقامات السرقسطي، ص 241 .
(3) الذخيرة، 1/3/432–433 . (4) شرح المعلقات، ص 32 . (5) الذخيرة، 1/3/435-436 .
(6) ديوانه، ص29 . (7) شرح المعلقات، ص 32 . (8) السابق، ص 39 .

قول امرئ القيس يصف الشواء بعد رحلة الصيد على فرسه(1):

فظلَّ طُهاةُ اللحمِ من بَين مُنضِجٍ صَفيفَ شِواءٍ أَو قَديرٍ مُعَجَّلِ

وقوله في المعلقة-أيضا-في عقره ناقته للعذارى في يوم دارة جلجل(2):

ويـومَ عَقَرتُ للعَذارى مَطِيَّتي فيا عَجَبًا مِـن كورِها المُتَحَمَّـلِ

فظلَّ العَذارى يَرتَمينَ بلحمِـها وشَحمٍ كهُـدّابِ الدِّمَقسِ المُفَتَّـلِ

فقال في وصف حال أهل طليطلة لما فرَّ منها ابن ذي النون: "وأقامَ أهلُ طُليطلة بعده أيامًا ولا كالسائمة المهملة نام راعيها، وأكبثتْ مراعيها، يتهادون لحمًا بين قديد ومُعجّل، ويرتمون بشحمٍ كهدّاب الدِّمقس المفتّل،..، ليس عليهم أميرٌ، ولا فيهم إلى الصواب مُشير"(3).

وقد ينقل الشعر من غرض بلاغيّ إلى غرض بلاغيّ آخر، كأن يكون في المدح، فيأتي في سياق ذم؛ كما جاء في قول أبي الفضل بن حسداي يسخر من ابن الدباغ لادعائه التوبة والتزهد بعد حياة الضلال، فيقول من ذلك: "...فبوجهكَ يُستسقى الغمامُ، وببركة دعائكَ تستشفَى الآلامُ، فإنكَ الرجلُ الزاهد، والمرابطُ المجاهدُ.."(4). فقوله:" فبوجهكَ يُستسقى الغمامُ" مأخوذ من صدر بيت الأعشى في المدح(5): البسيط

أغَرُّ أبلجُ يُستَسقى الغَمامُ بــهِ لو صارَعَ الناسَ عَن أحلامِهِم صَرَعا

ومن قول أبي طالب في مدح الرسول ﷺ(6): الطويل

وأبيَضُ يُستَسقى الغَمامُ بِوَجهِـهِ ثِمالُ اليَتامى عِصمَةٌ للأرامـلِ

ولبعضهم اهتمام خاص بليل النابغة الذبياني، الذي أضحى مضرب الأمثال؛ فممن أشار إليه في نثره، وأفاد من معاني الأبيات التي قالها النابغة في الليل السرقسطيّ في مقامته التاسعة، حين تحدث عن مغامرة السائب بن تمام، مع أم عمرو التي ضربت معه موعدًا للقاء في الليل، فبات السائب محزونًا، فيقول: "إلى أن جنَّ الليلُ، وساهرني الويلُ، فبِتُّ بليلِ زيادٍ، على نَماء الهمّ وازدياد.."(7). فهو يلمّ بقول النابغة(8): الطويل

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ ناصِـــــبِ وليلٍ أقاسيهِ بَطيءِ الكواكـــبِ

تَطاوَلَ حتى قلتُ ليسَ بمُنقَضٍ وليسَ الذي يَرعى النجومَ بآئـبِ

وصَدْرٍ أَراحَ اللَّيلُ عازِبَ هَمِّهِ تَضاعَفَ فيهِ الحُزنُ مِن كلِّ جانِبِ

فهذه الإشارة إلى "ليل زياد" قد فتح للقارئ بابًا من المعاني موجودة في النص الأصلي في شعر النابغة. والكاتب يدرك أن ثقافة المتلقي تحتمل مثل هذا المخزون الثقافي.

---

(1) شرح المعلقات، ص 38 . (2) السابق، ص 26 . (3) الذخيرة، 158/1/4 . (4) السابق، 287/1/3 .

(5)ديوانه، ص 157. (6) السيرة النبوية لابن هشام، 313/1. (7)مقامات السرقسطي، ص132-. (8) ديوانه، ص 9.

التأثر بالأمثال:

إنّ الكاتبَ بحاجة إلى معرفة الأمثال الواردة عن العرب نثرًا ونظمًا. والأمثال كالرموز والإشارة التي يلوّح بها على المعاني تلويحًا؛ فهي من أوجز الكلام وأكثره اختصارًا(1). وهي: "وشيُ الكلام، وجوهرُ اللفظ، وحَلْي المعاني، والتي تخيّرتها العربُ، وقدّمتها العجمُ، ونُطق بها في كلّ زمان، وعلى كلّ لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرفُ من الخطابة، لم يسرْ شيء مَسيرَها، ولا عمّ عُمومَها، حتى قيل: أسير من مَثل"(2). وإذا حفظ الكاتب الأمثال "انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها"(3). وإنّ استعمالها في النثر يكون كما في حلّ الأشعار واستعمالها. واستخدام الأمثال في النصوص الأدبية يكون لتكثيف المعنى، أوللتوضيح، أو لإثارة الخيال والمتعة؛ أو لإبراز سعة الثقافة.

واهتم الكتاب الأندلسيون بالأمثال الشعرية الجاهلية، تضمينًا وحلا، وأخذوا ألفاظها. وتصرّفوا ببعضها عند حلها: بالتحوير في الضمائر، والتقديم والتأخير، والحذف والزيادة، حسب ما يقتضيه السياق الجديد الذي وضع فيه المثل. وأحسنوا في التمثل ببعض قصص الأمثال ووضعها في محلها اللائق في النص الجديد، بتقديم فرش ملائم؛ ليأتي المثل كجزء من الكلام الجديد وليس غريبًا عنه. والشواهد على ذلك في نثر الأندلسيين كثيرة، ويكفي الجزء القليل دليلا على هذه الظاهرة في هذا المقام.

فالمثل الشعري: "وحَسبُكَ مِن غِنًى شِبعٌ ورِيُّ"، يضرب مثلا للقناعة باليسير، وهو عجز بيت لامرئ القيس في المعزى، وصدره:" فتُوسِعُ أهْلَها أَقِطاً وَسَمناً"، أخذَ لفظه ابن الجد(-515هـ) في رسالة إخوانية بعثها لأحد أصدقائه، يقول فيها: "وطلعَ عليَّ خطابُكَ مع فلانٍ عبدِك، ولسانِ حمدك، فأهَبَّ من روح الأنس نسيمًا، وجدَّدَ عهودًا سلفتْ ورُسومًا، وأجناني من رياض بِرّكَ نورًا عطرًا، وسقاني من حياض ودّكَ عذبًا خَصِرًا، فيا شِبعي برَوْنقه ورِيي"(4).

---

(1) صبح الأعشى، 1/346-347 . (2) العقد، 3/68، صبح الأعشى، 1/347 . وقد أوردا أمثالا شعرية لشعراء جاهليين ومخضرمين، ينظر العقد، 3/ 82، 85 -86، 89، 97، 100-103، 106-، 127-،صبح الأعشى،1/ 35-، 356- .

(3) صبح الأعشى، 1/353-354 . (4) الذخيرة، 2/1/300 . والمثل الشعري في ديوان امرئ القيس، ص 137، وروايته في كثير من المصادر "فتملأ بيتَنا أقطًا.."، والمثل في مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني(-518هـ)، تحقيق محمد محيي الدين،(2ج)، دار القلم، بيروت-لبنان، د.ت، 1/195، والمستقصى في أمثال العرب، للعلامة الأديب جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ(-538هـ)، (2ج)، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1397هـ-1977م، 2/63 .

ويقتبس ألفاظ المثل نفسه الأعمى التطيلي في رقعة كتبها إلى بعض إخوانه يعاتبه، يقول:" وإنك - أعزك الله - لما تكلمتَ بلسان سهل بن هارون، وجلستَ مجلس الفضل من المأمون، وخدمك الدهرُ، وانثالت في يديك الأنجمُ الزهر، قلت أحمد وعليّ، وإن لم يكن شِبَعٌ فري ّ"(1).

وقد يكون المثل المُضمّن جزءًا من بيت لشاعر جاهليّ، كقولهم: "بعضُ الشرّ أهونُ من بعض"، ويُضرب عند ظهور الشرين بينهما تفاوت، وهذا جزء من قول طرفة بن العبد حين أمر النعمان بقتله، فقال: الطويل

أبا مُنذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا حَنانَيْكَ بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

ضمنه ابن عبد ربه في قوله: "ومما عابه ابنُ قتيبة وليس بعيب، قول المُرقِّش الأصغر البكريّ:

صحا قلبُه عنها على أنّ ذِكْرها إذا ذُكرَت دارتْ بـه الأرضُ قائمَا (الطويل)

فقال له: كيفَ يَصحو مَن كانت هذه صِفته؟ والمعنى صحيح، وإنما ذهبَ إلى أن حاله هذه، على ما تقدّم من سوء حاله، حال صَحْو عنده. ومثل هذا في الشعر كثير، لأن بعضَ الشّر أهونُ من بعض"(2).

وحوَّر المثلَ نفسَه أبو الوليد أحمد بن زيدون(-463هـ) في رسالته(البكرية) التي كتبها إلى أحد أصدقائه، وهو أبو بكر بن مُسَلِّم بن أفلح النحوي(-433هـ)، لما اختفى بقرطبة بعد فراره من سجن ابن جهور، يعتذر فيها عن فراره، ويذكر فيها سجنه وسبب هروبه منه حين ضاقت عليه الأحوال في السجن، واستيأس من الخروج، يقول واصفًا تغيّر الحال في السجن من سيّئ إلى أسوأ، فقد وُضع في مكان بالسجن يناسب منزلته، ثم نُقل إلى حيث الأوغاد والسفلة، ثم إلى غرفة حقيرة انفرد بها، ثم أعيد إلى حيث اللصوص، فالشاعر أقام بثلاثة مواضع في سجنه، فيقول "ولمْ أقصَّ عليكَ يا سيّدي مما اجتلَبْتُه إلا ما شُهر شهرةَ الاسم، وعُرف معرفةَ النّسب، وما يومُ حليمةَ بسرّ؛ وكنتُ في أول حَبْسي بموضعٍ جرتْ العادة فيه بوضع مستوري الناس وذوي الهيئات منهم؛ وفي الشرّ خيارٌ، وبعضُه أهونُ من بعض؛ (ثم نُقلتُ) من بعدُ إلى حيث الجناةُ المفسدونَ، واللصوصُ المقيَّدون، ومُنع مني عُوَّادي، فشكوتُ ذلك إلى الحاكم الحابس لي، فصمَّ عني...، فنُقلتُ في نفسي ثلاثَ نُقَلٍ على أقبح النُّصَب(الداء والشر)، وأسوأ الرُّتب"(3).

ويضمن أبو الحسين بن سراج (-508هـ) المثلَ العربيَّ: "حتى يؤوبَ القارظانِ"، الذي

---

(1)الذخيرة، 729/2/2 . وسهل بن هارون: كاتب بليغ، فارسي الأصل، خدم هارون الرشيد. والفضل بن سهل السرخسي، وزير المأمون، كان مجوسيا وأسلم.

(2) العقد، 293/5، والمثل وشعر طرفة في المستقصى، 10/2، والبيت ليس موجودًا في ديوان طرفة بشرح عاصم البطليوسي. (3) ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 732-734 ، والذخيرة، 412/1/1 .

يُضربُ للغائب لا يُرجى إيابُه، وترمز قصته إلى اليأس والقنوط، في رسالة بعثها لصديق لـه، ليقضـي لـه حاجـة صـعبة المَـرام، راجيًـا أن لا يخطـر ببـال صـديقه المثـل فيوقعـه فـي اليـأس، يقـول منهـا: "جـائزٌ فـي حكـم الثقـة بقـدرة الله أن تـُرجى الممتنعـاتُ، وتـُترقَّبَ بطلوعهـا السـاعاتُ، مـع استيلاء اليأس على النفس، كعَقد هذا المبيع، الذي عَقَد الصيفَ بـالربيع، فكأنمـا وقف الزمـانُ فلا جزؤهُ الواقعُ وقَعَ، ولا ماضيه انقطعَ، ولا منتظرُه اطّلعَ، وإنما هو جزء دائم، ونفوسٌ على الوِرد حوائم، وعهدي بعزة الفقيه مُطلعُ بشائر، فلا يذكر المثلَ السائر: (الطويل)

وحَتى يؤوبَ القارظان كلاهما ويُنْشرَ في الموتى كُليبٌ لوائلِ"(1)

وقد يكون المثلُ المضمّن شطرًا؛ فالمثل الشعري: "سقطَ العَشَاءُ بـه علـى سرحان"، وهو كثير الدوران في النثر الأندلسيّ، ويُضرب لطالب الحاجة تودي صاحبَها إلى تلف النفس، أو للرجل يطلب الأمر التافه فيقع في الهلاك. وهو عجز بيت لشاعر جاهليّ اسمه هَزْلَـةَ بنُ مُعْتب، وصدره:" أبلغْ نصيحةً أنَّ راعي أهلها"، حوّره ابن بسام، لمناسبة سياق الكلام، في ترجمته لابن شرف القيرواني (-460هـ) الذي كان يبغض الاختلاط بالمعتضد بن عباد، فقال: "فأضربَ عن ضَرَبه(عن المعتضد)، ولم يتعرَّض للنُّشْبَةِ في حبائل نَشَبِهِ، خوفًا أن يورّطه الهوى في هوان، ويَسْقُطَ العَشَاءُ به على سرحان، ويَطيحَ في جملة مَن أطاحَ على يديه من الخُلطاء والندمان"(2).

وحوّر المثل نفسه ناثر أندلسيّ مجهول، في رسالة طويلة، يشكو فيها عقوق ابن له، ويصف هروبه مع أصدقاء السوء، يقول فيها: "... وتسوروا الأسوار، وتخطوا غير ما دار، وداعي الهوى يدعوهم، وحادي الرّدى يحدوهم، وقد اعتقلوا الردينيات، وتأبّطوا الهندوانيات، وشمّروا ذيلا، وأدّرعوا ليلا، واقتحموا المهالك، في أضيق المسالك، وترقـّوا الجدرانَ، بأشدِّ تمرد وعصيان، فسقط العَشاءُ بهمْ على سِرحان، فما تمالكتُ أن سمعتُ حسيسهم، ولحظتُ شخوصَهم، فملئوا فَرَقـًا، وتصيَّروا فِرَقـًا، أيدي سبأ، يجدّون هربًا، ويرومون الخلاص، ولات حين مناص"(3).

---

(1) الذخيرة، 360/1/2 ، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، ديوان الهذليين، (ثلاثة أقسام في مجلد واحد)، دار الكتب المصرية، القسم الأدبي، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1995م، 145/1، ورواية الشطر الثاني في ديوان الهذليين: "وينشر في القتلى.."، والمثل "حتى يؤوب القارظان"، شرح قصته ابن بسام في الذخيرة، 716/2/1-717. ولبشر بن أبي خازم:

فرجي الخير وانتظري إيابي اذا ما القارظ العنزي آبا

والمثل وبيت بشر وبيت أبي ذؤيب في جمهرة الأمثال، 103/1-104، والمستقصى، 127/1-128. وينظر مجمع الأمثال، 211/1 .

(2) الذخيرة، 182/1/4، والمثل الشعري في المستقصى، 119/2، ومجمع الأمثال، 328/1 .

(3) الذخيرة، 157/1/3 .

وحلّ ابن بسام المثلَ نفسَه، بتقديم وتأخير في ألفاظه، لمناسبة تركيب كلامه، في موضع آخر من ذخيرته، في ترجمته للوزير الكاتب أبي محمد عبد الله بن عبد البر (-474هـ) في قوله: "كان أبو محمد قد حلَّ من كتّاب الإقليم، محلَّ القمر من النجوم،..ولما شأى أبو محمد بالأندلس الحلبة، وتبحبح صدرَ الرتبة، تهادته الآفاقُ، وامتدت إليه الأعناق، ففازَ به قدحُ عباد(المعتضد عباد بن محمد) بعد طول خصام، والتفافِ زحام، فأصاخَ أبو محمد لمقاله، وتورَّطَ بين حبائله وحباله، وحلَّ البلدَ النكد، ....ولما رأى أبو محمد أنه قد باء بصفقة خُسران، وأنَّ العَشاءَ قد سقطَ به على سِرحان، أدار الحيلةَ، وابتغى إلى الخلاصِ الوسيلةَ"(1).

وجاء المثل نفسه محوّرًا، ليفيد معنى التوبيخ، والتخويف من العاقبة، ضمن مجموعة من الأمثلة النثرية التي تشبهه في المعنى والمغزى، في فصل من مقامة للوزير أبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم، أحد وزراء المعتضد وكتابه، مشيرًا إلى نصيحة قدمها صديق له، بأن يلزم داره ولا يتعجل الرحيل، وشفع المثل بحكمة للنابغة الذبياني، يقول: "وكان لي أليفٌ، وعقيد شريف، من صرحاء الإخوان، وصُيَّابة(خِيار) الفتيان،... وحين سَوَّلتْ لي همتي ما سولت، وخَيَّلتْ لي أمنيّتي ما خَيّلتْ، أجَلْنَا قِداحَ الرأيِ، وأسهمنا بين القُرب والنأي، شاورَ في أمري قريحتَه، ونخَلَ لي نصيحتَه، وقال: أرى أن لا تريم بيضَتك وأرومتَك، وأن تُوطَنَ أرضك ولا تفارق عشيرتك، وأربأ بك عن مُضِلات المُنى، وأعيذكَ من تُرّهات لعلّ وعسى، فتحسَبُ كلَّ بيضاءَ شحمةً، وتظن كلَّ سوداء تمرة وربما سقطَ العشاءُ بكَ على سِرْحان، وكلُّ الناس بَكْرٌ، وفي كلّ وادٍ بنو سعدٍ، (الكامل)

والرفق يمنٌ والأناةُ سعادةٌ فاستأنِ في رفق تلاقِ نجاحا

وإن أبيتَ إلا التحولَ، فعليك من الرؤساء بأحلم الحلماء، ومن القرباء بأشرف الشرفاء.."(2).

وقد يضمن المثل، وينقل من غرض إلى غرض آخر؛ فيستغل ناثرٌ المثلَ في سياق هجاء، ويستغله ناثر آخر في سياق ثناء؛ وقد يكون هذا الاختلاف في الاستعمال ناتجًا عن تعدد الروايات لقصة المثل. فالمثل الشعري: " شِنْشِنةٌ أعرفها من أخْزَمِ "، يُضربُ في الولد إذا كانت فيه طبيعة من أبيه، ضمّنَه أبو عامر بن شهيد في فصل من رسالة، يهجو فيها خالد بن يزيد الفرضي، ويحذر منه، ويقيم فقرته النثرية على معنى المثل، في قوله: "وبحثتُ على من تجرَّدَ للتنبيه على مثل ذلك، وتفرَّغَ للاشتغال به، فوقعتُ على الكاتب الوزير اليقظ النّحْرير خالدِ بن يزيدَ الكيميائيّ أبي عبد الله الفَرَضي، فقلت:" شنشنةٌ أعرفُها من أخْزم، لا يصلحُ للأفعى مَرادُ

(1) الذخيرة، 125/1/3 .

(2) الذخيرة، 114/1/2، وبيت النابغة، ديوانه، ص 28، مع اختلاف يسير في الرواية.

الـرَّوْض، ولا ورودُ الحَـوض، ولا يـدفعُ لـؤمَ الكلـب كَـرَمُ الصَّـحب، وإنمـا الأخـلاق جاريـة علـى الأعراق، والأفعال مأخوذة عن الأعمام والأخوال؛ وهذا المذكور مشئومٌ، أدوى من مـُوم(الجدريّ أو الحمّى مع الزكام)، وأشأمُ من بُوم، يُسيء لمن أحسن إليـه، ومـن أجـاره تجنَّـى عليـه... لقد خبُث مَغرِسـُه عمـا حـاول،..، وهيهــات لا تبصـرُ الشـمسَ العُمْـشُ، ولا تهتـدي السُّبُـلَ الخـُفْشُ،وإنــي لأخـاف علـى سعدك نحسَه، وأحْذرُ عـلى يومك أمسَه"(1).

وضُمِّن المثل نفسه في الثناء، فقد ضمّنه أبو عبد الله محمد(-437هـ)، المعروف بابن الحنّاط، وكان عالمًا نحريرًا بعلوم الجاهلية، وكانت له مناقضات مع ابن شهيد، في رسالة طردية طويلة، يمدح في فصل منها فقيهًا قاضيًا، فيقول: "والفقيه القاضي وفقه الله، رُكني الذي آوي إليه من الزمان، ومِجَنّي الذي أتّقي به طوارقَ الحدثان، ...، ولا رأيتُ النّجيبة إلا تيقنت أنها من فِعلاته، ولا أحل الرياض إلا وأحسَ ِبها شمائله، ولا أرِدُ البحارَ إلا وخلتُها نوافله،...، يُعزُّ الملكَ، ويُذلّ الشركَ، ويرفعُ أعلامَ الحق، ويبسطُ العدلَ بين الخلق، شنشنة أعرفُها من أخزم، ومَنْ أشبهَ أباه فما ظلمَ.."(2).

واستعمل المثل نفسه في الثناء، مع الزيادة فيه، الوزير الفقيه أبو أيوب سليمان بن أبي أميّة (-522هـ)، في وصف بلاغة أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعيّ (صاحب ابن بسام ورفيقه)، ومؤلف إحكام صنعة الكلام، والساجعة والغربيب التي حذا بها حذو أبي العلاء المعري(-449هـ) في الصاهل والشاحج، معترفًا بما تتصف به عائلة أبي القاسم من براعة في الأدب والبلاغة، فيقول معلقًا على الساجعة والغربيب: "وإنها لشنشنة أعرفُها فيكمْ من أخزم، وموهبةٌ حُزتموها وأحرزتم السَّبْقَ فيها منذ كم، إن شاء الله" (3).

وقد يُجرى تغييرٌ على المثل أو تحويره، قليلا أو كثيرًا، حسب مناسبة السياق الجديد؛ فهذا ابن الحنّاط، يضمن-مع شيء من التحوير- المثل: ""يضعُ الهِناءَ مواضعَ النُّقْبِ"، الذي يُضرب للحاذق البصير في الأمور، وهو مأخوذ من شعر دريد بن الصِّمَّة في الخنساء لما رآها متبذلة

---

(1) الذخيرة، 217/1/1 . وجاء في جمهرة الأمثال، 243/1، أنّ المثل لجد حاتم بن عبد الله بن الحشرج بن الأخزم، وكان أخزم من أكرم الناس وأجودهم، فلما نشأ حاتم، وفعل أفعال الكرم ما فعل قال: شنشنة أعرفها من أخزم. فقال عُقيل بن علقمة: الرجز

إن بنيَّ ضرَّجوني بالدمِ شنشنةٌ أعرفها من أخزمِ

من يـلقَ أبطالَ الرجال يكلم

وإنما تمثل بـه عقيل . وجـاء في مجمع الأمثـال، 361/1، أنّ المثل الشعري: "شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم"، هو لأبي أخزم الطائي، وهو جد أبي حاتم أو جد جده، وكان له ابن يقال له أخزم، وقيل كان عاقاً، فمات وترك بنين فوثبوا يومًا على جدهم أبي أخزم فأدموه، فقال: إن بنيَّ ضرَّجوني بالدم...". والمثل وقصته في العقد، 3/ 96، والمستقصى، 134/2

(2) العماد الأصفهاني، الخريدة، 240-238/2/4 . (3) المطمح، ص 219 .

وهي تضع القطران على الجمال الجرب، وصدره: "مُتبذِّلا تبدو محاسنُـهُ"، في رسالته الطردية الطويلة في وصف نزهة صيد، لقي فيها أحد القضاة الفقهاء، فمدحه، وأدار شعره ونثره حول معنى المثل، من مثل قوله: (الطويل)

"وما هو إلا رحمةُ الله مَدَّها على كلِّ ملهوفٍ وكلِّ ضعيفِ
وأنفذَ في الأحكام آراءَ فيْصلٍ لها في قضاياه مَضاءُ سيوفِ

...حكمَ فعدلَ، وقالَ ففعلَ؛ وزير وضعتْ به الحربُ أوزارها، ومديرٌ جعلتْ عليه الخلافة ُ مدارَها، فتنزّه عن الكبر والعُجب، ووضعَ الهِناءَ مواضع النّقْبِ، وفي ذلك أقول: (الكامل)

.....

إن جئتَه يومًا لـدهركَ شاكيًا أغْنتْهُ فِطنتُه عن التذكيرِ"(1).

وقد أشار أبو عبد الله محمد بن مسلم، بالحذف والزيادة والتقديم والتأخير، إلى المثل نفسه، في رسالة بعث بها إلى ذي الوزارتين أبي محمد بن عبد البر، يذكر فيها لقاءه المعتضد بالله، مادحًا إياه، وذاكرًا حسنَ اختيار رئيسه له للقدوم إلى المعتضد رسولا، يقول :"إنّ مَن أرسلَ رسولا في مهمّ تَطلَّعَ، ومن رجا صديقا لدفعِ ملمّ توقّع، لا سيما إنْ رجاهُ شفاءً من الخطب، واستهداهُ هِناءً لموضع النقب.."(2).

والمثل: "إنَّ العصا قُرعتْ لذي الحِلمِ"، يُضرب لمن إذا نُبّه انتبه، أو لذي العقل يقبل الموعظة والتذكرة، وهو عجز بيت للحارث بن وَعْلةَ الجرميّ القضاعيّ،صدره:"وزعمتَ أنّا لا حلومَ لنا"، حوّر فيه قليلا الوزير الكاتب أبو الفضل بن حَسداي، في فصل من رسالة بعثها إلى المقتدر بن هود(-474هـ)، على لسان النرجس، من ذلك قوله: ".. فإن الأزهارَ على العموم تجلو قذى العيون، وتفضّ ختامَ الهموم، فهي كالثغور أوضحَها ابتسامٌ، وكاللآلي زانها في الأجياد انتظام. وما مثلتُ بينَ يديك إلا لأسمَ غُفْلَ العلم، فالعصا قرعت لذي الحلم، فلا تُضعْ أيها الملك سَبْقَ تقدمي، وحقَّ مَقْدَمي، فقد أشخصتُ طرفي إليك آملا، وبسطتُ نحوكَ كفي سائلاً، وحسبي أن تلاقيَني بِبِشْركَ، وتناجيني بفكرك، فتنبّهَ العزمَ من وَسَنه..، وتنشرَ الحزمَ من جننه.."(3).

---

(1) العماد الأصفهاني، الخريدة، 237/2/4، والبيت في ديوان دريد بن الصِّمَّة، ص 44 . (2) الذخيرة، 446/1/3 .
(3) الذخيرة، 472/1/3 ، والمثل في المستقصى، 408/1، ومجمع الأمثال، 37/1، وشرح الحماسة للمرزوقي، 205/1، ومعجم الشعراء، لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني(-384هـ)، ومعه المؤتلف والمختلف للآمدي(-370هـ)، تصحيح وتعليق ف.كرنكو، ط2، مكتبة القدس، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1402هـ-1982م، ص 209، ويروى الشطر الأول في بعض المصادر: "وزعمتمُ أنْ لا حلوم لنا"،ويروى للمتلمس الضبعيّ قوله(العقد، 89/3، ومجمع الأمثال، 39/1): الطويل
لذي الحِلمِ قبلَ اليَومِ ما تُقرَعُ العَصا وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا لِيَعلَما

وقد يشير الناثر إلى المثل الشعريّ وصاحبه، ويومئ إليه، دون التصريح بألفاظ المثل، لشهرته وسيرورته بين الأدباء؛ وقد يروم الكاتب عكس معنى المثل؛ فالمثل الشعريّ: "رضيتُ من الغنيمة بالإياب"، وهو كثير الدوران على ألسنة الكتاب الأندلسيين، ويضرب للرضا من الحاجة بالاستغناء عنها، وهو عجز بيت لامرئ القيس، وصدره:"وَقَد طَوَّفتُ في الآفاقِ حَتّى"، أشار إليه أبو الحسين بن سراج (-508هـ)في رسالة بعثها إلى أحد الأصدقاء، مدافعًا عن شخص، وفي فصل منها: "شفع الله تلك الغزوةَ الميمونة بغَزَوَاتٍ، وكتب لنا في ساحات أعدائه عدة مواطئ وعدوات، حتى يُحرزَ أسيرًا ذا التاج، ويفرجَ عن شخصه مُغلَقَ الرّتاج، ونؤوبَ بغير رضى الكندي.."(1). فهو يشير برضى الكندي إلى شعر امرئ القيس، الذي أخذ منه المثل، راجيًا أن لا يؤوب بما آبَ به الكندي.

وقد يكون المثل بيتًا شعريّا تامّا، كقول عدي بن زيد العبادي:

لـو بِغير الماء حَلقى شَرِقٌ كُنْتُ كالغصّانِ بالماء اعْتصارِي

ويضرب لمن يؤتى من حيث أمن، ضمنه ابن زيدون في رسالته البكرية، ويذكر الوشاة وأثرهم في الإيقاع به ولهم أثر سيّئ على من يسمع لهم، ويشير ضمنًا أن غصته كانت من أهل البيت كالأمير مثلا، إذ غصَّ الشاعر بالماء ولو كانت غصته بغيره لأزالها به، يقول مخاطبًا صديقه ومدافعًا عن نفسه: "ويا سيدي: (الرمل)

لـو بغير الماء حَلْقي شَرِقٌ كنتُ كالغصّان بـالماء اعتصاري

ووالله ما توهمتُ أني أُوتى ممن زعمَ أني أُتيتُ منه، مع اتصالي به، وانقطاعي إليه.."(2).

وكقول النابغة الذبياني: الطويل

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمُّـهُ علـى شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذبُ؟

ضمّنه ابن زيدون في رسالته البكريّة، ينصح من أنكر عليه ماله أن يعيده إليه، ويراجع في وشاة الواشين، فيقول: " لقد كان من محاسن الشِّيَمِ، وشروط المروءة والكرم، أن يَهبَ لي ما أنكر لما عَرَفَ، ويغفرَ ما أسخطَ لِما أرضى، ويدفعَ بالتي هي أحسنُ.. ويتوقفَ عند ما

---

(1) الذخيرة، 357/1/2، والمثل في العقد، 118/3، والمثل الشعري في ديوان امرئ القيس، ص99، والمستقصى،100/2، ويروى المثل نفسه كعجز بيت شعري لعبيد بن الأبرص، المستقصى، 101/2 . واستخدمه أبو محمد بن القاسم في رسالة يرد فيها على رسالة صديقه أبي الفضل بن عياض في النجوم والكواكب، في صيغة الجمع هكذا: "وارتضينا إيابًا ببعض الغنيمة"، قلائد العقيان، 383/1/1 .

(2) ديوانه ورسائله، ص 744، والبيت في ديوان عدي، ص 189، وجمهرة الأمثال للعسكري، 167/2 .

نُصِّ لـه مـن سِعاية، وزُفَّ إليـه مـن وشـاية، فـإن كـان بـاطلا ألغـاه، وفضـحَ المُخبـرَ المتقـرِّب بـه وأقصاه؛ وإن كان حقا صبَر صبرَ الحليم، وأغضى إغضاء الكريم، وقبل إنابةَ المُعتِب، واقتصدَ في مؤاخذة المذنب، فقدّمَ التوقيفَ قبل التثقيف، والتأنيبَ قبل التأديب، "فـإنّ الرّفقَ بالجاني عتـابُ"، و"الحرُّ يُلحى والعصا للعبد"،

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمُّـهُ على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذبُ؟"(1).

إنّ احتفال الأدباء الأندلسيين بالأمثال جعل بعضهم ينشئ فصلا من رسالته الإخوانية، مستندًا إلى القصة التي قيل فيها المثل، ومقارنًا حاله مع صديقه بحال صاحب المثل الأصلي؛ فمن فصل مـن رسالة لذي الوزارتين أبي عبد الرحمن بن طـاهر(-507هـ أو508) من رسائله في الدعابة: "مَثلي ومَثـلـُك مَثَلُ رجلٍ من العربِ، استقرى عقيلـةَ رَبْربٍ ، بلْ سليلةَ فضلٍ وحَسَب، فأجزلتْ قِراه، وأكرمتْ مثواه، فلما اطمأن المجلسُ، وانتظمَ التـأنُّسُ، سعتْ إلـى بعضِ أوطارها، فراقَـهُ مـا تحتَ إزارها، فجعل يُنشد:

يا أختَ خيرِ البدوِ والحضارهْ مـــاذا تَرَيْنَ في فتى فزارَهْ

أصبحَ يهوى حُرَّةً مِعطـــارهْ إيَّاكِ أعني واسمعي يا جَارَهْ

وكذلك غيرُكَ المُخاطَبُ في شئوني وأنتَ المُرادُ، وإليه الإيماءُ، وفيكَ يُبدأ القولُ ويُعاد، ولله أنتَ ما أعطرَ خِلالكَ، وأكثرَ اهتبالك، لا زالت أياديكَ كالأطواقِ، ومعاليكَ مُعطَّرة الآفاق"(2). فالمثل: "إيـاكِ أعنـي واسمعي يـا جـارهْ"، يُضـرب لمن يقول شيئًا ويريد بـه شيئًا آخر، أو فـي التعريض بالشيء يبديه الرجل وهو يريد غيره، استعاره الكاتب، واستعارالقصة التي قيل فيها، وحدثت مع نهشل بن مالك الفزاري مع عقيلة قومها، والبيتان من شعره(3).

ويستغل أبو الأصبغ بن أرقم (كانت له مساجلات نقدية مع ابن سيده(-458هـ) قصـة المثل: "إنَّ الشقيَّ وافدُ البراجم"، يضرب لمن يوقع نفسه في هُلْكَة طمعًا، في وصف حال خصم لدود لابن رزين، إذ خرج الأوّلُ على الأخير، ورام قتاله، ولكن الأقدار صرفته إلى غير وجهته، ففي هذا يقول أبو الأصبغ من رقعة كتبها لابن رزين: "فالحمد لله الذي صيَّره نهبًا، وكفاكَ منه حربًا، فقد كان فيما بلغ ناهدًا إليك، وعلى ما اتصل وافدًا عليك، ولعلّ الصّنْعَ لـه كان مـن حيث لم يعلمْ، والعـنـايـةَ خُصَّتْ بـه مـن أينَ لـم يفهمْ، فربمـا كانـــــــت وِفادتهُ بُرجــــمـية

---

(1) ديوانه ورسائله، ص 745-746، والبيت في ديوان النابغة، ص 18، جمهرة الأمثال، 153/1، المستقصى،449/1-450 .

(2) الذخيرة، 73/1/3 –74 .

(3) ينظر في المثل وقصته في المستقصى، 450/1 ، ومجمع الأمثال، 49/1 .

السائرِ، وسعايتُه مَشْئَمِيَّةَ الطائر.."(1).

واستغل المثلَ نفسَه، وقصّته، الكاتبُ أبو الربيع سليمانُ بنُ أحمدَ القضاعيُّ(كتبَ ليوسف والد أبي الفضل بن حسداي) في عقد موازنة بين الأحداث التاريخية المتشابهة ونتائجها المتناقضة؛ فيقول في فصل له من رقعة (وهي من رسائله الساخرة) خاطب بها يوسف، وقد طلب منه آلة نجّار كان قد خدم عنده، فوجّه بها حاشا المئشار، يقول فيها معاتبًا: "والأيامُ دُولٌ، والدنيا جمّة التنقل، تجمعُ وتبثّ، وتُسمنُ وتُغِثّ، وربما تألفتِ الأضدادُ، وتشتتِ الأندادُ، وأفادت غيرَ المطلوب، وحالت دون المرغوب، ألمْ ترَ إلى موسى عليه السلام كيف اقتبسَ نارًا، فأُقبسَ أنوارًا، ووافدَ البراجم كيف شمَّ القُتار، وأمَّ قرمًا إلى النار، ألم تعاينِ الكتابةَ التي أنت قطبها، وهي أجلُّ صناعة، ربما عُدل بها عن نبلاء المحسنين، إلى الدخلاء الأمّيين، الذين لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيّ، ولا يدركون بأفهامهم إلا المرئيّ، فحديثهم الطعنُ على أهل العلم، والتنقص لذوي الفهم.."(2).

وأشار إلى المعنى الحزين الذي يرمز إليه المثل السابق، والمآل المفجع، ابنُ بسامٍ في وصف مأساة ابنِ دَرّاجٍ القسطليّ في عهد الفتنة القرطبية، وخيبة آماله عند من يُرجى مساعفته، فيقول فيه: "ولم يزلْ يتقلبُ بين أطباقها، ويترشّفُ أسآر ثِمادها وأرْناقها، فكم له من وفادة أخزى من وفادة البرجميّ"(3).

أغراض النثر الأندلسيّ:

قد تشبه الرسالة الفنية في بنائها العام القصيدة، فغالبًا ما تشتمل الرسالة على مقدمة يفتتح بها الكلام، وتخلص يشعر بالانتقال من الافتتاح إلى الموضوع، وختام، وقد تختتم بأبيات من الشعر المناسبة، إن في الرثاء فهي رثائية، وإن في مدح فهي مدحية.

وفي ذلك تأثرٌ بالقصيدة الجاهلية: شكلها الفني، أوهيكلها العام، إذ تبنى على مقدمة وتخلص وموضوع وخاتمة. وللأندلسيين رسائل تنهج هذا النهج، وتأثر بعضها بكثير من مضامين القصيدة الجاهلية، وأغراضها.

---

(1) الذخيرة، 367/1/3 . وقصة المثل: "إنَّ الشقيَّ وافدُ البراجم" في جمهرة الأمثال، 121/1، ومجمع الأمثال، 9/1، 395، والمثل من مشطور الرجز، قاله عمرو بن هند، وكان قد آلى أن يحرق مئة من بني تميم، فحرق تسعة وتسعين، ووفى العدد برجل من البراجم، أقبل على النار، يظن أنه يجد قرى.

(2) الذخيرة، 502/1/3 .

(3) السابق، 10/1/3، السُّؤر: بقية الشيء، الثماد: الماء القليل في القاع، ماء رنِْقٌ: كَدِر غلب عليه الطين.

رسائل في المدح:

لقد أنشأ بعض الناثرين الأندلسيين رسائل مدحية خالصة، وحذوا في بنائها ومضامينها حذو المدحة الجاهلية، وعرّجوا على القيم المدحيّة المعهودة، وبالغ كثير منهم في ذلك أيّ مبالغة، فحشدوا ما يتفاخر به العربيّ حشدًا، وجمعوا ما يعتزّ به من مناقب جمعًا، وقيّدوا ذلك في شخصية واحدة، حتى صار كلّ ممدوح نموذجًا أعلى، ومثالا تجتمع فيه كل الخصال؛ حتى لو كان الممدوح دون تلك الصفات بكثير؛ وبهذا تجاوزوا مديح الجاهليين.

ومن هذه الرسائل، رسالة مدحية(1) لأبي أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي المشتهرة معرفته بالمنفتل، خاطب بها ابن النِّغْريلة، إسماعيل بن يوسف، وزير باديس بن حبوس(-465هـ) صاحب غرناطة، افتتحها بذكر عزمه على الرحيل، ووداع الأهل، والمديح بالقيم المعهودة في الشعر الجاهليّ، يقول: "رأيت الاستحالة في الحال، والعَيْلة في العيال، وجَدّا قد جد..،هيأتُ راحلةً وأثاثاً وطلقت ابنة الوطن ثلاثاً، وقلتُ إمّا أن أجِدَ(أستغني) فأظهرَ(أظفر)، أو أموتَ فأُعْذَرَ،فكم من حرةٍ سافرة القناع، تندُبُني مَوقتَ الوداع،وباكيةٍ يومَ الرحيل بكاءَ الحمام على الهديل،فقد فقأت عينَ السّرى بأربعٍ كقداح السَّرا،يتشبثنَ بالآكام تشبث الخصوم بالأحكام؛ ويتعلقن بالمطيّ تعلق الأيتام بالوصيّ،إلى أن أَخْضَلَتِ الدموعُ المحاجرَ،وبلغت القلوبُ الحناجر".

فبعض المعاني في هذه المقدمة: كالعزم على الرحيل، وذكر الداعي إليه، وشكوى العيال، قبل رحيل الشاعر، لها حضور في شعر الشعراء الجاهليين، وبرزت هذه الظاهرة بوضوح في شعر الأعشى، ومن ذلك قصيدته العينية في مدح هَوْذة بن علي، ومنها يقول مخاطبًا ابنته الخائفة على أبيها من مخاطر السفر(2): البسيط

تقولُ بِنتي وقد قرَّبتُ مُـــــرتَحَـلا يا رَبِّ جَنِّب أبي الأوصابَ والوَجَعا
واستَشفَعَتْ مِن سَراة الحَيِّ ذا شَرَفٍ فقد عَصاها أبـــوها والذي شَفَـعا
مَهلا بُنَـــيَّ فإنَّ المَـــــرءَ يَبعَثـهُ هَمٌّ إذا خالـــطَ الحَـيزومَ والضِّلَعَا

ثم يرحل على ناقة توصله ممدوحه، فيثني عليه بصفات لا تبتعد عما سيذكره المنفتل في رسالته في المدح. ويجري الأعشى حوارًا مع ابنته في قصيدة ميمية له، ويرحل على ناقة، ثم يمدح قيس بن معد يكرب، فيقول منها (3): المتقارب

تقولُ ابنتي حينَ جَدَّ الرّحيلُ أرانا سَواءً ومَن قد يَتِمْ
أبانا فلا رِمتَ مِـــن عندِنا فإنّا بخيرٍ إذا لــم تَـرِمْ

---

(1) السابق، 761/2/1–763 . (2) ديوانه، ص 151 . (3) ديوانه، ص 91 .

ويا أبَتا لا تـزَل عنـدَنـــــا فإنّا نَخافُ بـــأن تُختَـرَمْ
أرانـــــا إذا أضمَرَتكَ البِـلا دُ نُجفى وتُقطَعُ مِنّا الرَّحِمْ
أفي الطوفِ خِفتِ عليَّ الرَّدى وكـم مِن رَدٍ أهلَهُ لـم يَـرِمْ
وقد طُفتُ لِلمـــــــالِ آفاقَـــهُ عُمانَ فحِمـصَ فأوريشَلِـمْ

وقد يكون هذا الوصف للأبناء قبل الرحيل هو لإثارة عاطفة الممدوح تجاه الشاعر.

ويحلّ المنفتل شعرًا لشعراء جاهليين، كامرئ القيس وعبيد وزهير، في قوله:" وقلتُ إمّا أن أجدَ فأظهر، أو أموت فأُعْذَر، فكم من حرةٍ سافرة القناع، تندُبُني مَوقتَ الوداع، وباكيةٍ يومَ الرحيل بكاء الحمام على الهديل، فقد فقأت عينَ السّرى بأربعٍ كقداح السَّرا". فهذا من قول امرئ القيس، يخاطب صاحبه(1): الطويل

فقلتُ لـهُ لا تبـكِ عَيْنكَ إنّمـا نُحـاولُ مُلكًا أو نمـوتَ فنُعْـذرا

ومن قول عبيد بن الأبرص الأسديّ، يصف وقوفه على الأطلال(2): الطويل

وقفتُ بها أبكي بكاءَ حمامـــــةٍ أراكيَّةٍ تدعـــــو حمـــامًا أواركَا
إذا ذكرتْ يومًا من الدَّهرِ شجوَها على فرعِ ساقٍ أذرتِ الدَّمعَ سافكا

ومن قول زهير، في وصف مشهد صيد، يشبه الأتن الثلاث، في الشطر الأول، بالقسيّ، في ضمور بطونهن، وانحنائهنّ(3): الطويل

ثلاثٌ كأقواسِ السراءِ ومِسحَلٌ قَدِ اخضَرَّ مِن لَسِّ الغَميرِ جَحافِلُهْ

مع ملاحظة نقل صفة الضمور إلى موصوف آخر: من الحيوان(الأتن) إلى الإنسان(بنات المنفتل)، وتغيير المشبه به من القسيّ عند زهير، إلى القداح عند المنفتل، لمناسبة التشبيه.

ثم تخلص المنفتل من هذه المقدمة إلى المديح بقوله: "وجعلتُ أعوذهنَّ بالمثاني(فاتحة الكتاب)،وأبْسُطُ لهنَّ في الأماني،وأقول: ستنسينَ هذا الموقف، إذا اتصلتنَّ بإسماعيل بن يوسف".

ثم أخذ المنفتل يمدح إسماعيل بن يوسف-نثرًا وشعرًا-: بكرم النسب، والفصاحة، والحلم، والعزم، والشجاعة، والكرم، واستجارة المستجير، ورد الظلم، وغير ذلك مما كان يتفاخر به من الصفات في العصر الجاهلي، بقوله: "فتى كرُمَ خالاً وعمًّا، وشرحَ من المجد ما كان مُعمَّى، قسًا فصاحة، وكعبًا سماحة،ولقمان علمًا، والأحنفَ حلمًا. أكرم همةً من همّام، وأعظم بسطةً من بسطام، إن خاطبَ أوجزَ،وإن غالبَ أعجزَ،أو جادَ أجادَ،أو وعدَ أعادَ،يأمُرُ ويَمير(يجلب الطعام لغيره)،ويأجُِر ويَُجير،مأوى السماح والضيف،ورحلة الشتاء والصيف،حامي الذمار،بعيد

---

(1) ديوان امرئ القيس، ص 66 . (2) ديوان عبيد بن الأبرص،دار صادر،دار بيروت، بيروت،1384 هـ- 1964م، ص 100-101 . (3) ديوان زهير، ص 63 .

المضمــار، لا يظلمُ نقيرًا، ولا يخيِّبُ فقيرًا: يحافظُ على صلاته حفظَه لصلاته، ويحنُّ إلى البذل، حنينَ الغريب إلى الأهل:(مجزوء الكامل)

قرنَ الفضائلَ والفواضل　　فشأى الأواخرَ والأوائـلْ
سقطوا برفعة فضلـهِ　　كالشمس في شرفِ المناقلْ
هـذا ابـنُ يوسفٍ الـذي　　ورثَ الفضائلَ عن فواضلْ
شرُف الزمانُ بمثلـه　　شَرَفَ الأسنة بالعَواملْ
من لم يلذ بجَنابـهِ　　لم يأمنِ الدّهرَ المخاتـلْ
متقلدٌ سيفَ العُـلا　　والمكرماتُ له حَمائـلْ
قصَّرتُ في وصفي له　　ولو أنني سحبانُ وائـلْ
ما قلَّ ما يُرجى الكمالُ　　لمن أبوه غيرُ كامـلْ
سَكَنَ الندى في كفّـهِ　　سُكنى الرَّواجب في الأناملْ
وجرى الحياءُ بوجهه　　جريَ الفرندِ على المناصلْ "

وقد تُعدّ هذه الأبيات الشعرية المدحية، مع ما سبقها من النثر في المديح،(معارضة جزئية)، لقصيدة زهير في مديح حصْن بن حُذيفة بن بدر، التي مطلعها(1): الطويل

صَحا القلبُ عن سَلمى وأقصَرَ باطِلُه　　وعُرِّيَ أفراسُ الصّبا ورَواحِلُـهْ

فمديح المنفتل لابن النغريلة في النثر، وما جاء مبثوثًا في الشعر، لا يختلف عما أورده زهير في قصيدته في مدح حصْن، فمن المؤكد أنّ المنفتل متأثر بقصيدة زهير، فيغرف ما شاء من المعاني والصور، ويأخذ المعاني المدحية خاصة، ولا أدلّ على ذلك من أن جلّ ألفاظ قوافي الأبيات الشعرية عند المنفتل مستوحاة من ألفاظ قوافي زهير. مع ملاحظة التحوير فيها لتتسق مع لغته: فلفظة قافية زهير في بيته السابع والعشرين:"أوائلُهْ " هي عند المنفتل في بيته الأول: "الأوائلْ"، ولفظة القافية عند زهير في بيته الواحد والثلاثين: "فواضله"، هي عند المنفتل في بيته الثالث: "فواضل"، ولفظة القافية عند زهير في بيته التاسع والعشرين: "عوامله" هي عند المنفتل في بيته الرابع: "العوامل"، ولفظة قافية زهير في بيته الثالث والثلاثين: "مَخاتلهْ " هي عند المنفتل في بيته الخامس: "المخاتل"، ولفظة قافية زهير في بيته الواحد والعشرين: "أنامله" هي عند المنفتل في بيته التاسع: "الأنامل"، أما لفظة قافية زهير في بيته السادس والعشرين: "حاملُهْ" فتشبهها في الاشتقاق لفظة قافية المنفتل "حمائل" في بيته السادس. ودليل آخر على أن المنفتل

(1) ديوان زهير، ص 57–76 .

يأخذ من صور زهير: هو إشارته إلى بيت زهير: "ثلاثٌ كأقواسِ السّراءِ.." من القصيدة عينها، ومرّ ذكره آنفًا. وحتى تتضح صورة التأثر بالمعاني المدحية خاصة، وأظنها ستكون كذلك، فهذه بعض أبيات زهير في مديح حصن:

وأبيَضَ فيّاضٍ يَداهُ غَمامَةٌ على مُعتَفيهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُهْ

ثم إنّ العواذل أعرضن عن لومه:

- فأقصَرنَ مِنهُ عَن كَريمٍ مُرَزَّأ عَزومٍ على الأمرِ الذي هُوَ فاعِلُهْ
أخي ثِقَةٍ لا تُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ ولكنَّهُ قد يُهلِكُ المالَ نائِلُهْ
تراهُ إذا ما جِئتَهُ مُتَهَلِّلا كأنَّكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ
وذي نَسَبٍ ناءٍ بَعيدٍ وَصَلتَهُ بمالٍ وما يَدري بأنَّكَ واصِلُهْ
وذي نعمَةٍ تَمَّمتَها وشَكَرتَها وخَصمٍ يَكادُ يَغلِبُ الحَقَّ باطِلُهْ
دَفعتَ بمَعروفٍ مِنَ القولِ صائِبٍ إذا ما أضَلَّ الناطقينَ مَفاصِلُهْ
وذي خَطَلٍ في القولِ يَحسَبُ أنّهُ مُصيبٌ فما يُلمِم بهِ فهوَ قائلُهْ
عَبَأتُ لهُ حِلمي وأَكرَمتُ غيرَهُ وأعرَضتُ عنهُ وهوَ بادٍ مَقاتِلُهْ
حُذيفةُ يُنميهِ وبَدرٌ كلاهُما إلى باذِخٍ يَعلو على مَن يُطاوِلُه
وَمَن مِثلُ حِصنٍ في الحُروبِ ومِثلُهُ لإنكارِ ضَيمٍ أو لأمرٍ يُحاولُهْ
أبى الضّيمَ والنعمانُ يَحرِقُ نابَهُ عليهِ فأفضى والسيوفُ مَعاقلُهْ
عَزيزٌ إذا حَلَّ الحَليفانِ حَولَهُ بذي لَجَبٍ لجّاتُهُ وصَواهِلُهْ

فيلحظ أن المنفتل في نثره وشعره قد استغرق المناقب المدحية التي جاءت في قصيدة زهير. وما كلّ هذا الوصف للممدوح إلا لترضى عنه بناته، ويتركنه وسبيله ليرتحل صوب ابن يوسف؛ لذلك يقول بعد الأبيات التي ختم بها قصيدته:" فحين سمعوا بوصفه، الذي هو طليعة عرفه، وثقوا بمجده، وودعوني مستبشرين، وتركتهم منتظرين".

وإنّ كثيرًا من الصفات المدحية التي ذكرها المنفتل، والتقت مع كثير مما قاله زهير، تلتقي مع الأعشى في مديحه في قصيدتيه العينية والميمية، التي ذكر فيهما كثيرًا من الصفات المدحية وفصّل فيها وفرّع، من حسب ونسب وسؤدد، وكرم وفضل، وحزم وشجاعة وإقدام، وحلم وإعراض عن الجاهلين ، وتحمل العبء، والحذق والفطنة والفصاحة والقول الفصل في الرأي، وتبعية الملوك والسادة له، والسعي في خدمة الناس ابتغاء وجه الله، وغير ذلك من القيم.

وإذا أثنى المنفتل على ممدوحه بالتقوى والمحافظة على الصلاة، فإنّ الأعشى في قصيدة رائية له في المدح،تشبه قصيدتيه السابقتين في مخاطبة الابنة لأبيها،يثني فيها على ممدوحه

بالتقـوى والصلاح والعمل للآخرة، ومن ذلك قوله يمدح قيس بن مَعْدِ يكرِب(1): المتقارب

وما أيبُلِيٌّ على هَيكَـــــلٍ بَنـــــاهُ وصَلَّبَ فيهِ وَصـــارا
يُراوِحُ مِن صَلواتِ المَــليـ كِ طورًا سُجودًا وطورًا جُؤارا
بأعظمَ مِنهُ تُقىً فـي الحِسابِ إذا النسَمـــــاتُ نَفَضنَ الغُـبارا
زِنـادُكَ خَيرُ زِنادِ المُــلـــو كِ خـــــالطَ منهُنَّ مَـرخٌ عَفـارا

وإذا ضرب المنفتل الأمثال بالشخصيات التاريخية تعظيمًا لقدر الممدوح، فالأعشى كذلك كان يشير إلى شخصيات تاريخية في كثير من المواطن في شعره، كقوله في القصيدة الميمية، يثني على قوم ممدوحه، ويشبههم بأنسال عاد، وهم ثمانية ذوو أحلام وسؤدد(2):

إذا مـا هُـمُ جَلسوا بِالعَشِيّ فأحـلامُ عـادٍ وأيدي هُضُـمْ

ممـا سبق يمكن القول إن المنفتل بنـى رسـالته هذه علـى نهـج بنـاء القصـيدة المدحيـة الجاهليـة، مستعيرًا من معانيها ومضامينها، ما يجعلها قصيدة نثرية في المدح(3).

وللكاتب أبـي الوليد محمد بـن عبد العزيز المعلّم، وهو أحد وزراء المعتضد، مقامـة(4) قدّم لهـا بمقدمة طويلـة، وأكثر فيهـا من استعارة معـاني الشعر الجـاهلي وضـرب الأمثـال؛ يفتتحهـا بالدعاء بالسقيا للدمنة الزهراء، والحنين إلى الماضي السعيد، ثم تقلب الدّهر به من نعيم إلـى شظف شديد، مستعيرًا كثيرًا من ألفاظ الشعراء الجاهليين في وصف الطلل وغير الطلل، كقولـه: "سقى عهدَكِ أيتها الدمنـةُ الزهراءُ كلُّ عَهْد(واحد العِهاد:كلّ مطر بعد مطر)، وجاد قـُطْرَك أيتهـا الروضـةُ الغناء كلُّ قـَطر، وسال عليك من أدمعي كلُّ مُلِثّ هَطّال، وتناوحتْ عليكِ من أضلعي كلُّ جَنوب وشمال، مُنشّرةً أنوارك، لا معفيّـة آثارَكِ، ومهديـةً أرَجَكِ ونسيمك، لا مُغَيّرةً أطلالك ورسومَكِ، فكم لنـا فـي واديـك مـن زمـان أنيـق، وفـي مغانيـك مـن رفاهيـة عيش رقيـق، نعـل بكأسـي عتـاب وإعتاب..، غدوّنا من عشيق إلى صديق، ورواحُنا من صَبوح إلى غَبوق، وخليلنـا مساعد، وعدونا مباعد، ورقيبُنا أعمى، وزماننا أعشى؛ حتى إذا استيقظ الدّهرُ من هجعتـه، وهبّ من غطيط رقدتـه وسكرته، ضـرب فوقنـا بجِرانـه، وصـرف إلينـا لَهْذَمَ سِنانه، ولبس لنـا جلدة النمر، وقلبَ لنـا ظهر المِجَنّ، وألقى علينا بَعَاعَـه، مستردًّا مـا وهبَ وأعطـى، ومكدّرًا مـا منح وأصفى..". ومـا يلبث أن يقرع البشيرُ بابـه حـاملا إليـه كتابًا من أمير(لعلـه المعتضـد) فلبـّاه، ومثل بين يـدي الأمير ومدحـه شعرًا، تلاه بنثر مُفرط في الثناء عليه، مـن مثل قوله يمدح هذا الأمير:"هو الإمامُ

---

(1) ديـوان الأعشـى، ص 103 . (2) السـابق، ص 91 . (3) ولابـن دراج القسـطليّ(-421هـ) رسـائل فـي مـديح المنصور بن أبي عامر، والخليفة المستعين بالله سليمان بن الحكم، شبيهة برسالة المنفتل، ويذكر فيها بؤس أسرته، وحاله السيئة، طلبًا لعطف الممدوح، الذخيرة، 62/1/1، 63 . (4) الذخيرة، 113/1/2- .

الطاهرُ، والكوكبُ الزاهرُ، والأسدُ الخادر، والبحرُ الزاخر، أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر... أعطرُ من العنبر، في كل منبر، وأفوح من المسك الذكيّ، في كل نديّ".. فسُرَّ به الأمير وأدناه وقرّبه، وقام إليه فقبّل بين عينيه، وانتهت المقامة. فهي إذن أشبه برسالة في المديح، وهي أقرب إلى القصيدة المدحية.

وشبيهة بهذه المقامة، في الافتتاح بمقدمة قبل الخوض في موضوع المدح، وتضمينها أشعارًا للجاهليين وأمثالهم، مقامة(1) لأبي محمد بن مالك القرطبي، تعربُ عن حفظ كثير، دبّجها في مديح المعتصم بن صُمادح التجيبيّ(-484هـ) صاحب المرية، افتتحها باستبشاره بدولته، ويغرق في مديحه إغراقًا شديدًا، ويصفه بصفات معهودة لدى الشعراء الجاهليين، خاصة الشجاعة والفضل والحلم وصواب الرأي، ويطيل في وصف فتوحه وانتصاراته في الحروب، ووصف جيشه وأسلحته، من الدروع والسيوف والرماح والخيل، ويشكو للمعتصم عَوز أهله وضيق ذات يده، وأنه لولا ما يقيده من أفرخ كزغب القطا لتقدم في صفوف جنده مقاتلا أو خطيبًا يحمس الجنود، ويختمها بالفخر بفصاحته. فالمقامة أشبه بالرسالة، بل هي أكثر شبهًا بقصيدة مدح طويلة، والصفات المدحية فيها هي صفات معهودة لدى الشعراء الجاهليين، كما لا تخلو من الألفاظ الغريبة. وتعتمد هذه المقامة على الأمثال، وحل الشعر، وتحوير معاني الأدباء والشعراء السابقين. حتى إنّ ابن بسام قال بعد إيراد فصول منها: "ومدَّ ابنُ مالكٍ في رسالته هذه أطناب الإطناب، وشنَّ الغارة فيها على عدة شعراءَ وكتابٍ، من جاهليينَ ومخضرمين، ومحدثين ومعاصرين، ولو ذكرتُ من أين استلبَ واختطفَ جميعَ ما وصفَ، وانصرفَ إلى كل أحدٍ كلامُه نثرُه ونظامه، لحصلَ هو ساكتًا، وبقي باهتًا"(2).

إن ظاهرة المدح بالصفات المعهودة في الشعر الجاهلي كانت واضحة في نثر الأندلسيين عامة، وفي الرسائل خاصة، وثمّة رسائل أنشئت في غرض المديح وحده، كرسالة المنفتل السابقة، ومقامتي أبي الوليد والقرطبيّ(3)، ورسائل أخرى أنشئت في أغراض غير غرض المديح، ولكنها احتوت فصولا أو فقرات تضمنت مديحًا لا يكاد يختلف عن مديح الجاهليين، ومثل هذه الرسائل مبثوثة في كتاب الذخيرة خاصة(4).

ومن ذلك رسالة بعث بها أبو عبد الله محمد بن مسلم إلى ابن زيدون، يذكر فيها المعتضد

---

(1)الذخيرة، 741/2/1- ، وينظر: إحسان عباس، عصر الطوائف والمرابطين، ص 249، وشوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 519. (2) الذخيرة، 752/2/1 . (3) وينظر: الذخيرة، 62/1/1، 483/1/1، 325/1/2، 316/1/3. (4) ينظرمثلا: 757/2/1، 83/1/2، 325/1/2، 417/1/3، 2/3/ 549، 550، 551، وينظر: قلائد العقيان،372/1/1-
.

بالله، ويمدحه، ويضمن بيتًا لأوس بن حجر في المديح، فيقول: "وإني رأيت ملكًا لا يَصْعَدُ الطـرفُ إليه إجلالا، ولا تطيقُ النفوسُ عنه انفصالا، قد جمع مهابة العدل إلـى ودادة الفضل، وجلالـة المنصب إلى لطافة الأدب،..، وبرقَ الحسام إلـى وَدْق الأيادي الجسام، إن رمقَ الأعداءَ فأجفانُ نصاله طارفة الشفار، أو وَصلَ الأودَّاءَ فأنداءُ(جمع ندى) بنانه آلفة الأوطار(الحاجات)، ضالتُه الحكمة، وشريعتُه الحجة، وإن رأى حقيقة أنصف، وإن رمى بحجة أهدف، يصيب بذهنه حَدَقَ الغيوب، ويعلم بظنه خائنةَ الأعين والقلوب:(المنسرح)

الألمَعِيَّ الـذي يَظُنُّ لكَ الـ ظنَّ كأن قد رأى وقد سَمِعا"(1).

ومن ذلك رسالة لأبي عامر محمّد بن الأصيلي كتب بها الى ذي الوزارتين، أبي محمد بن أبي الفرج وزير المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون(-467هـ) حاكم طليطلة، يُعرِّفه ما لقيه من رؤساء أهل جزيرة شُقْر، ويذمهم، ويستثني منهم اثنين ويمدحهما، على طريقة زهير بن أبي سلمى في الهجاء والمدح، ويضمن بيتين سائرين لزهير في المديح، فيقول منها: "لله درّ ابن ذي النّون، فلقد تخير للمعاقل، كل جواد عاقل(سخرية)،..، فوَّضَ أمره إلى غير أمين؛ فجاء من ذلك ما قد ظهر، وتولد منه ما قد عُرف واشتهر، والله لقد جُبْتُ البلادَ، وبلوت العبادَ، فلا شك عندي ولا مِرْية، أن أرذل الناس أهل شَنْتَمَرِيَّة، الأوغاد الحثالة، معادن الخَساسة والنّذالة، ...أحلام البغال، وأقْفاءُ النِّعال. قوم شغلتهم الوَرَاعة والطماعة، عن التحلي بالجود والشجاعة، ناموا عن المكارم، وتجنّبوا أخلاق الأكارم، شَرِقَ الشرقُ بدهمائهم، وفسَدَ بآرائهم، فليس لحمدٍ إليهم سبيلٌ، ولا لمجد عليهم دليلٌ، لا أستثني منهم في كل الأمور إلا أنت، والفاضلَ أبا محقور، فكلاكما شريفٌ جوادٌ، هادٍ إلى سبيل الرّشاد، إنْ رأى زللا أغضى، أو همّ بمكرمة أمضى، لا يتعرّضُ للسباب، ولا يقف قصّاده بالباب: (الطويل)

فأقسمتُ بالبَيتِ الذي طافَ حَولهُ رجـالٌ بَنَوهُ مِن قرَيشٍ وجُرهُـمِ

يَمينًا لنِعـمَ السيِّدانِ وُجدتُـمـــــا على كلِّ حالٍ مِن سَحيلٍ ومُبـرَمِ

...أسألُ الله أنْ يكفلنا برزقه، ولا يحوجَنا إلـى أحد من خلقه، وأن يجعلَ سعيَك مشكورًا، وفضلك مأثورًا، وأن يُبقي عليك وارفَ نِعَمِه، وجزيلَ كرمِهِ، والسلام"(2).

---

(1) الـذخيرة، 447/1/3، والبيـت فـي ديـوان أوس حَجَـر،، ص53، ومنـه المثـل: "أصـدق ظنًّـا مـن ألمعـيّ"، المستقصى،205/1 .

(2) العماد الأصفهاني، الخريدة، 245/2/4-248، والعماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب، القسم الثاني، تحقيق آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، محمد العَروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، 1971م، ص 310-312، والبيتان المضمنان لزهير، شرح المعلقات، ص 80 ، وديوان زهير، ص 19-20 .

ولابنِ خفاجةَ فصلٌ في الشفاعة لأحد الهاشميين، ويمدح الأمير بقيم مدحية معهودة عند الجاهليين، ويفيد من معاني الشعراء الجاهليين وألفاظهم وأساليبهم، فيقول: "للمتوسلين- أعزّكَ الله –منازلُ، وفي الأيادي فروضٌ ونوافلُ، وخيرُ المعروف ما وُضع عند الشريف لا المشروف. وإنّ أبا فلان الهاشميّ لفرعٌ من أشرف نَبْعة، نَمَتْ في أكرم بُقعة...، وهو مُجتازٌ على أُفُقكَ، ونازلٌ بكَ ضيفًا، كما تتغشاكَ السحابةُ صيفًا، وهو راحلٌ بعدُ، تَخِذُ به الركائبُ، وتُثني عليكَ الحقائبُ، وأنتَ أجدرُ من تلقَّاه بالبِشْرِ، وأَقْبَلَهُ وَجْهَ البِرّ، فعند أهل الفضل يُوضع الفضلُ، وفي مغارسها تُغرسُ النخلُ. لا زلتَ غمامَ نُعْمى ورُحْمى، ولا نزلتَ إلا بمنزلِ رُعْيا وسُقيا"(1). فيحل ابن خفاجة عجز بيت زهير في المديح(2): الطويل

وهلْ يُنْبتُ الخَطيَّ إلا وشيجُه وتُغرسُ إلا في منابتها النَّخلُ

في قوله:"فعند أهل الفضل.. تُغرسُ النخلُ ". أما الدعاء بالسقي والرعي فهو أسلوب جاهليّ، من مثل قول النابغة الذبياني في صاحبته نُعْم(3): البسيط

نُبِّئتُ نُعمًا على الهجرانِ عاتِبَةً سَقيًا ورَعيًا لذاكَ العاتِبِ الزاري

(1) ديوان ابن خفاجة، ص 321، الذخيرة، 551/2/3 .

(2) ديوانه، ص 55 .

(3) ديوانه، ص 49 .

في الاعتذار:

كثر النثر في موضوع الاعتذار في عصر الطوائف خاصة، لكثرة السلاطين، وكثرة تحول هوى الناثر من سلطان إلى آخر. وإن الرسائل النثرية الأندلسية في الاستعطاف والاعتذار، وحتى في غرض العتاب، كلها تفيد من قصائد الاعتذار الجاهلية ومن قصائد العتاب، وهي رسائل كثيرة، مبثوثة في مصادر الأدب الأندلسي، خاصة في الذخيرة. ونكتفي بإيراد بعضها لتبين تأثرها بمضامين القصيدة الجاهلية وأغراضها.

ومن الرسائل الأدبية التي أنشأها صاحبها للتوسل والاستعطاف والاعتذار: الرسالة الموسومة بالجدّية(1) لابن زيدون(-463هـ)، كتبها للوزير أبي الحزم بن جهور(-435هـ) أمير قرطبة، حين ألقي به في السجن، لما قيل من نهبه عقارًا لبعض مواليه، وقيل لما دُسّ عليه عند ابن جهور من اشتراكه ضده في التآمر عليه، وقيل بسبب مدائح ابن زيدون لغيره، عدا صلته المتهتكة بولادة، ودور الوشاة والحساد، وقد تكون نقمة ابن جهور عليه لكلّ هذه الأسباب مجتمعة. على أي حال فإن ابن زيدون يستعطف في رسالته النثرية الوزير لإخراجه من سجنه، ويعتذر فيها عمّا نُسب إليه من تهم، ويذيلها بقصيدة شعرية(2) لا تخرج معانيها عمّا ورد في النثر، أو هي معارضة لها.

وأودع ابن زيدون فيها كثيرًا من الإشارات التاريخية إلى الوقائع والأحداث والأسماء، وضروب الأمثال، وغرر الأبيات التي اشتهر بين الأدباء استعمالُها، استشهادًا وتضمينًا وحلا.

ويستحضر ابن زيدون في رسالته هذه الكثير من مضامين شعر السجون والاستعطاف والاعتذار والعتاب. وقد تأثر بالشعر الجاهليّ، خاصة شعر النابغة الذبيانيّ وعَديّ بن زيد العِبَاديّ، وبالأخص في قصائدهما الاعتذارية. فأتى على معظم المضامين الكلية لقصيدة الاعتذار الجاهلية.

---

(1) نصّ الرّسالة بتمامه في تمام المتون، ص 22-29. وديوان ابن زيدون ورسائله، ص 680-717 . وممن شرح هذه الرسالة من المحدثين أبو بكر محمد عليم، بعنوان: " الدُّر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، وهي الرسالة الجدية التي بعث بها إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس"، طبع على نفقة المحقق وشريكه محمود عزت المفتي صاحب المكتبة العصرية بأم درمان، وقام بتصحيحه المطبعي نخبة من علماء الأزهر الشريف، مطبعة الشرق لصاحبها عبد العزيز فايد وأخيه، ط 1، 1345هـ- 1926م. وجزء منها في قلائد العقيان، 212/1/1-215. وينظر مثل هذه الرسائل الاعتذارية: الذخيرة، 191/1/2 .

(2) والقصيدة في ديوانه ورسائله، ص 278- .

وللنابغة الذبياني عدة قصائد اعتذارية، بعضها ذات مقدمات طللية، ومنها المعلقة "يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ"، وأخرى من دون مقدمات. ومن أهم المضامين العامة في قصيدة الاعتذار لدى النابغة: إبداء الاستغراب مما أُلصق بالشاعر من ذنب، واستشناع المصيبة التي حلّت به، ووصف نفسية الشاعر البائسة بعد هذا الاتهام لتخوفه من عواقب الأمور، وتبرئة نفسه بنفي ما اتهم به وتكذيبه، وغالبًا ما يستخدم النابغة أسلوب القسم؛ لإزالة الريبة والشك ببراءته، وإلقاء اللائمة على الوشاة والحساد والأعداء الذين أشاعوا هذه المزاعم الكاذبة وألصقوها بالشاعر، لأنّ أكبر همهم هو الإيقاع بين الشاعر وصديقه النعمان حسدًا وبغضًا. ثم مناشدة المعتذر إليه أو الممدوح أن لا يتركه وحيدًا ممزّقًا، حتى يصل الشاعر إلى الثناء على الممدوح بالصفات المدحية المعهودة، خاصة العدل والحلم والوفاء والكرم، لعلّ الودّ الذي كان بينهما يعود، وقد يخلص إلى لبّ قضيته: فإن كان مظلومًا فهو عبد قد ظلم، ولمولاه أن يأخذ حقه ممن ظلموه، وإن كان ظالمًا فحلم الممدوح واسع وكفيل بالعفو عنه، بله ما عاناه الشاعر من نصب نفسيّ، وتعب روحيّ. وقد يتذلل الشاعر للممدوح قبل طلب العفو، وقد يبالغ في ذلك، سعيًا وراء مبتغاه ومقصده من الاعتذار. وقد يتخلل القصيدة بعض الحكم والأمثال، تأكيدًا لمعنى، أو تأثيرًا في الممدوح. ولعلّ أقرب ما يمثل هذه المضامين قصيدة النابغة البائية التي يعتذر فيها للنعمان ويمدحه، ومطلعها(1): الطويل

أتاني أبَيتَ اللعنَ أنَّكَ لمتَني وتلكَ التي أهتَمُّ مِنها وأنصَبُ

وقصيدته العينية التي مطلعها(2): الطويل

عَفا ذو حُسًا مِن فَرتَنى فالفَوارِعُ فجَنبا أَريكٍ فالتِلاعُ الدّوافِعُ

ولعديّ بن زيد قصائد عدة، أنشدها معتذرًا ومستعطفًا النعمان بن المنذر بأن يطلق سراحه من السجن، بعضها ذات مقدمات في الشكوى من طول الليل، وأخرى من دون مقدمات. ومن أهمّ مضامين هذا الاستعطاف والاعتذار، إضافة إلى مضامين اعتذاريات النابغة: الشكوى مما أصابه من عذاب السجن، وتجرعه المرارة من انقلاب الحال من النعيم إلى البؤس، ويذكر الممدوح بمحامده وفضائله عليه(على الممدوح)، علّ الودّ القديم يعود، ثم الاستغراب من المصير الذي آل إليه مسجونا! ويثني على الممدوح بما هو أهل له بقليل من الشعر قد لا يستغرق بيتا واحدًا، مستعطفًا بذكر أبنائه وأسرته، ويطرح القضية نفسها: إن ظَلَم فيكفيه حلم النعمان للعفو

(1) ديوانه، ص 17 . (2) ديوانه، ص 78 .

عنه، وحسبه ما ناله من عذاب السجن، وإن ظُلم فالعدل، وليدرك النعمان صديقه قبل الفوت.

ومن قصائده التي تمثل هذه المضامين: قصيدته التي يستعطف بها النعمان بن المنذر، التي يقول فيها(1): الرمل

أبلغِ النعمانَ عنّي مَألكًا أنَّني قد طالَ حَبسي وانتظاري

وقصيدته البائية، ومطلعها(2): الوافر

أرقتُ لِمُكفَهِرٍّ باتَ فيهِ بَوارِقُ يَرتقينَ رؤوسَ شِيبِ

وتجدر الإشارة إلى أنّ قصائد الاستعطاف لعديّ تعدّ من قبيل قصائد الاعتذار، لتشابه المضامين بين الغرضين: الاعتذار والاستعطاف، وقد صرّح عدي في بعض قصائده الاستعطافية بهذا المعنى في قوله(3): الرمل

أبلِغِ النعمانَ عنّي مَألكًا قولَ مَن قد خافَ ظنّاً فاعتَذر

ويمكن إدراج قصيدة للأعشى في العتاب، ضمن القصائد التي تأثر بمضامينها ابن زيدون في رسالته هذه، قدم لها الأعشى بمقدمة غزلية، مطلعها(4): الطويل

كفى بالذي تولينَهُ لو تَجَنَّبا شِفاءً لِسُقمٍ بَعدَما عادَ أشيَبا

إنّ مضامين رسالة ابن زيدون الجدية، في النثر وفي الشعر، لا تخرج عما ذكر من مضامين عامة في قصائد النابغة وعديّ، وإن أسهبَ ابن زيدون في هذه المضامين، بالتشقيق والتفريع فيها، وتعدد النعوت للشيء الواحد، واستقصاء أجزاء المعنى وتأديته بعدة جمل، بالإضافة إلى الإكثار من ضرب الأمثلة، وتضمين الأشعار. ومن الملاحظ أن الشعر المضمن لغير الجاهليين، من مثل البحتري وأبي تمام والمتنبي، هي أشعار تندرج تحت غرض الاعتذار، ولا تبتعد عن معاني الشعراء الجاهليين أصلا، بل هي مأخوذة من معانيهم وأساليبهم.

ولا تخلو الرسالة من الدعاء لابن جهور، فيشابه النابغة في ختام بعض قصائده الاعتذارية. ويثني في الختام على رسالته النثرية، كما يقرظ شعره الذي يذيل به الرسالة، كثناء بعض الشعراء الجاهليين على قصائدهم المدحية، ويرجو أن تأتي هذه الرسالة أكلها، فيعفو عنه سيده،

وبهذا المعنى ختم النابغة معلقته؛ ثم إن القصيدة التي عارض بها نثره، قدّم لها بمقدمة غزلية، وشكوى من الزمن والرقيب العذول الذي بشره بظلم الليالي له. ومما لا شك فيه أن هذا الغزل هو رمز للعلاقة بين ابن زيدون وابن جهور ليس إلا؛ إذ ذكر ابن زيدون ما كان بينه

---

(1) ديوانه، ص 189، ابن قتيبة الدينوري(-276هـ)، الشعر والشعراء، أو طبقات الشعراء، حققه وضبط نصّه ووضع حواشيه مفيد قميحة ومحمد أمين الضنّاويّ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، 1421هـ-2000م، ص 124.

(2) ديوانه، ص 135 . (3) ديوانه، ص 176، ورواية الديوان" خاف اظطنانا". (4) ديوانه الأعشى، ص 163 .

وبين صاحبته من طيب عيش، وأيام سعادة، ولكنها لم تدم بسبب الرقباء والحساد والوشاة، وهذه هي حاله مع ابن جهور. ثم إن ابن زيدون لم يحسن التخلص من الغزل والشكوى إلى المدح، ولكنه اقتضبه اقتضابًا، مشابهًا بذلك عدي بن زيد في بعض قصائده الاعتذارية، وكذلك الأعشى في قصيدته البائية، التي لم تتجاوز المقدمة فيها ثلاثة أبيات، لينتقل بعدها إلى الشكوى من أبناء عمومته، الذين لم يغضبوا له ولم ينصروه، بل تكالبوا عليه مع غيرهم، ليجد نفسه كلَّ يوم صريع ظلم جديد يتقاذفه جرّا وسحبًا، ويأتي على هجاء عمرو بن المنذر بن عَبْدان، ويتخلل القصيدة فخر بنفسه وبهمته وبشعره.

وقد ضمَّن ابن زيدون رسالته أبياتًا من شعر الشعراء: النابغة وعدي والأعشى، وحلَّ أبياتًا أخرى من شعرهم، خاصة من القصائد التي نوّه بمطالعها آنفًا، عدا ما ضمنه وحله من أشعار شعراء جاهليين آخرين.

ومن ذلك قوله فيها متوددًا مستعطفًا، ومنوهًا بفضائله على ممدوحه: "يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، ومن أبقاه الله تعالى ماضيَ حدّ العزم، واريَ زند الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتَني أعزَّك اللهُ لباسَ إنعامك، وعطلتني من حُليِّ إيناسك، وأظمأتني إلى بَرود إسعافك،..، وغضضتَ عني طرفَ حمايتك؛ بعد أن نظرَ الأعمى إلى تأميلي لك، وسمعَ الأصمُّ ثنائي عليكَ، وأحسَّ الجمادُ بإسنادي إليك؛ فلا غروَ قد يَغصُّ بالماء شاربُه، ويقتلُ الدواءُ المستشفيَ به، ويُؤتى الحذِرُ من مأمنه، وتكونُ منية المتمني في أُمنيَّته، "والحَيْن قد يسبق حرصَ الحريص". فقوله: "فلا غروَ قد يَغصُّ بالماء شاربُه"، محلول قول عديّ ابن زيد العبادي(1): الرمل

لو بغَيرِ الماءِ حَلقي شَرِقٌ كنتُ كالغَصّانِ بِالماءِ اعتِصاري

وهو البيت الثاني من القصيدة الرائية التي يستعطف بها النعمان بن المنذرالتي ذكر مطلعها آنفًا وهو: "أبلِغِ النعمانَ عَنّي مَألكًا". وقوله: "والحَيْن قد يسبق حرصَ الحريص"، من قول عدي، أيضًا، من قصيدة أخرى، وهو من الحكم الشعريّة(2): السريع

قد يُدركُ المُبطِئُ مِن حظِّهِ والخير قَد يَسبقُ جَهْدَ الحَريصْ

وينوه ابن زيدون، في موضع آخر من رسالته، بمحامده لدى ابن جهور ومدائحه المشهورة المطرزة فيه، من مثل قوله:"وهل لبس الصباحُ إلا بُرداً طرزتُه بمحامدك، وتقلدتِ الجوزاءُ إلا عقداً فصلتُه بمآثرك، واستملى الربيعُ إلا ثناءً ملأتهُ من محاسنك، وبثَّ المسكُ إلا

---

(1) ديوانه، ص 189، الشعر والشعراء، ص 124، تمام المتون، ص 46 .

(2) ديوانه، ص 198، الشعر والشعراء، ص 125، تمام المتون، ص 56 .

حديثاً أذعتُه في محامدك ! "ما يومُ حليمةَ بسرّ"(1).

وإذ يبدي ابن زيدون التجلد أمام هذه المصيبة الشنعاء أمام الشامتين، فإنه يبدو متذللا أمام سيده الذي له حقّ التصرف بعبده، راجيًا أن يغمره سيده بحلمه وفضله وعفوه، فيقول: "وإني لأتجلد، وأُري الشامتين أني لا أتضعضعُ، وأقول: هل أنا إلا يدٌ أدماها سوارُها،...وعبدٌ ذهب سيده مذهب الذي يقول: (الكامل)

فقسا ليزْدَجروا ومَنْ يكُ حازمًا فليقسُ أحيانًا على مَنْ يَرْحَمِ

هذا العَتْبُ محمودٌ عواقبُه، وهذه النبْوة غمرةٌ ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تَقشَّع،...، وأعود فأقول: ما هذا الذنبُ الذي لم يسعْه عفوُكَ؟ والجهلُ الذي لم يأت من ورائه حِلْمُك، والتطاولُ الذي لم يستغرقه تطوّلُك، والتحامل الذي لم يَفِ به احتمالك؛ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك؟ أو مسيئاً فأين فضلك!".

إنّ معنى التجلد أمام الشامتين أشار إليه عديّ بن زيد في شعره ، من مثل قوله(2): الخفيف

أيُّها الشامِتُ المُعَيِّرُ بالـــــدَّهـ ـر أأنتَ المُبَرَّأ المَوفـورُ
أم لديكَ العَهدُ الوَثيقُ مِنَ الأيـْ يامِ بل أنتَ جاهِلٌ مَغـرورُ
- إن يُصِبني بَعضُ الأذاةِ فلا وا نٍ ضَعيفٌ ولا أكَبُّ عَثـورُ
- وتقولُ العُداةُ أوْدَى عَـــــدِيٌّ وعـديٌّ بسُخطِ رَبِّ أسيــرُ

وقول ابن زيدون: "وهذه النبْوة غمرةٌ ثم تنجلي"، هي من قولهم في المثل: "الغمرات ثم ينجلين"، ويضرب في الصبر على الشدة رجاء انكشافها، وهي من قول الأغلب العجلي(-21هـ) وهو من المخضرمين، وآخر المعمّرين الجاهليين(3):

الغَمَرَاتُ ثم ينجلينا عنَّا وينزلنَ بآخرينا

وإنّ تذلل ابن زيدون لسيده، في الحالين: البراءة والإساءة، مع الإشارة إلى بعض صفات الممدوح من حلم وجود وقدرة على العفو، فمثل هذه المعاني تبدو في شعر النابغة،من مثل قوله(4): الطويل

فإن أَكُ مَظلومًا فعَبدٌ ظلمتـهُ وإن تكُ ذا عُتبى فمِثلكَ يُعتِـبُ

---

(1) ويوم حليمة يضرب به المثل في كل أمر متعاظم مشهور، جمهرة الأمثال، 191/2، المستقصى، 340/2 ، وقال النابغة مشيرًا إلى هذا اليوم في معرض وصفه للسيوف(ديوانه، ص 11):

تُوُرِّثْنَ من أزمان عهد حليمةٍ إلى اليوم قد جُرِّبْن كلَّ التجارب

(2) ديوانه، ص 184-187، والبيتان: الأول والثاني في الشعر والشعراء، ص 121 .

(3) تمام المتون، ص 75، مجمع الأمثال، 58/2، المستقصى، 178/2 .

(4) ديوان النابغة، ص 18 .

وقوله(1): الطويل

أتوعِدُ عَبدًا لم يَخُنكَ أمـانَةً وتترُكُ عَبـدًا ظالمًا وهوَ ظالِـــــعُ
وأنتَ رَبيعٌ يُنعِشُ الناسَ سَيبُهُ وسَيفٌ أعيـرَتهُ المنيَّةُ قاطِـــــــعُ
أبى اللهُ إلا عَدلهُ ووَفـاءَهُ فلا النُّكرُ مَعروفٌ ولا العُرفُ ضائِعُ

وقول عديّ(2): الوافر

فإن أخطأتُ أو أوهَمتُ أمْرًا فقد يَهِمُ المُصافي بالحَبيـبِ
وإن أَظلِم فقد عاقَبتُمـونـــي وإن أُظلم فذلكَ مِن نَصيبـي

ويشكو ابن زيدون إلى سيده شدة الحال، وسوء النكال، وعذاب الاعتقال، ويشكو من عدم وجود العائدين لـه فـي السـجن، معاتبًا ومنبهًـا إيـاه إلـى الظلـم الـذي لحقـه مـن أهل البغـي، فبـدلوا نعمـاءه وحشة، في أكثر من موضع من رسالته، من مثل قوله نثرأ: "حنانيكَ ! قد بلغ السيلُ الزُّبـى، ونـالني ما حسبي به وكفى"،ومن مثل قوله شعرًا، في قصيدته التالية لرسالته(3): الخفيف

أيهذا الوَزيرُ ها أَنا أَشكـو والعَصا بَدءُ قرعِـها لِلحَليـمِ
ما غناءٌ أن يألف السابِقُ المَر بِطَ في العِتقِ مِنهُ والتَطهيـمِ
وثواءُ الحُسامِ في الجَفنِ يَثني مِنهُ بَعدَ المَضاءِ والتَصميـمِ
أفصَبرٌ مِئينَ خَمسًا مِنَ الأيّـــام ناهيكَ مِن عَذابٍ أليـمِ
ومُعَنًّى مِنَ الضّنى بهَنـاتٍ نَكَأَت بالكُلومِ قرحَ الكُلـومِ
سَقَمٌ لا أُعادُ منه وفي العائـ ـدِ أُنسٌ يَفي بِبُرءِ السقيـــمِ
نارُ بَغيٍ سَرى إلى جَنَّةِ الأَمـ ـنِ لَظاها فأصبَحَت كالصَريمِ

ومثل هذه المعاني في الشكوى من عذاب السجن، صرّح بها عدي، في مثل قوله(4): الوافر

ألا مَن مُبلِغُ النعمانَ عنّي وقد تُهدَى النصيحةُ بالمَغيبِ
أحَظّي كانَ سِلسِلةً وقيدًا وغُلا والبَيانُ لدى الطبيـبِ
أتاكَ بأنني قد طالَ حَبْسي ولمْ تَسأَلْ بِمَسجونٍ حَريـبِ

و قوله(5): أبلِغِ النعمانَ عنّي مَألُكًا أنَّني قَد طالَ حَبسي وانتِظاري

وقوله(6): الرمل

طالَ ذا الليلُ عَلينا فاعتَكَرْ وكأنّـي ناذِرُ الصبحِ سَمَرْ
مِن نَجيِّ الهَمِّ عنـدي ثاوِيًا بيْنَ ما أُعلِنُ مِنهُ وأُسِـــرُّ

---

(1) ديوانـه، ص 82. (2) ديـوان عدي، ص 138-139 . (3) والقصيدة في تمـام المتون تاليـة للنثر، 27-29، و ديوانـه ورسائله، ص 278-. (4) ديوان عدي، ص 138. (5) ديوان عدي، ص 189. (6) ديوان عدي، ص 175.

وكأنَّ الليلَ فـيهِ مِثلُـــــــــهُ ولقِـدمـًا ظُنَّ بالليلِ القِصَر
لم أُغَمِّض طولَهُ حتى انقَضى أتمنى لو أرى الصبحَ جَشَرْ

وقوله(1): الرمل

قاعدًا يَكـرُبُ نَفسي بَثُّهـا وحَرامًا كانَ سِجني واحتِصاري

وقوله من قصيدة يحرض أهله على إطلاق سراحه بعد يأسه من الشفاعة والعفو(2): الخفيف

أبلِغا عامِرًا وأبلِغ أخــــــــاهُ أنَّني مـُوثَقٌ شَديدٌ وِثــــاقي
في حَديدِ القِسطاس يَرقُبُني الحا رِسُ والمـَرءُ كلَّ شيءٍ يُلاقي
في حَديدٍ مُضاعَفٍ وغُلــــولٍ وثيابٍ مُنَضَّحاتٍ خِــــــلاقِ

وقول النابغة (3): الطويل

أتاني أبَيتَ اللعنَ أنكَ لمتَنـي وتلكَ التـي أُهتَمُّ مِنها وأَنصَـبُ
فبتُّ كأنَّ العائِداتِ فرَشنَنـي هَراسًا بِهِ يُعلى فِراشي ويُقشَـبُ
-فلا تترُكَنّي بالوعيدِ كأنَّنـــي إلى الناسِ مَطلِيٌّ بِهِ القارُ أَجرَبُ

وقوله(4): الطويل

وقد حالَ هَمٌّ دونَ ذلكَ شاغِلٌ مَكانَ الشغافِ تَبتَغيهِ الأصابِعُ
وَعيدُ أبي قابوسَ في غَيرِ كُنهِهِ أتاني ودوني راكِسٌ فالضّواجعُ
فبتُّ كأنّي ساوَرَتني ضَئيلَــةٌ مِنَ الرُقشِ في أَنيابِها السُمُّ ناقعُ
- أتاني أبَيتَ اللعنَ أنَّكَ لمتَـني وتلكَ التي تَستَكُّ منها المسامـعُ

ويضمّن ابن زيدون-مع التحوير- في البيت الأول قولهم في المثل السائر: "إنّ العصا قرعت لذي الحلم"، وهو من بيت للحارث بن وَعْلة الجرْميّ، ومرَّ ذكره في الأمثال.

ومن تأثر نثر ابن زيدون بالشعر الجاهلي قوله من الرسالة نفسها، مدافعًا عن نفسه، ويحمّل الذنب للوشاة والحساد الكذابين، الذين يعكرون الصفو دومًا، منكرًا ما اتهم به بالقسم: "فكيف ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشحٌ، ونبأٌ جاء به فاسق؛ وهمُ الهمازون المشاؤون بنميم، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديمًا صحيحًا، والسُّعاةُ الذين ذكرهم الأحنفُ بنُ قيسٍ، فقال: ما ظنك بقومٍ الصدقُ محمودٌ إلا منهم!

حلفتُ فلم أترُك لِنفسِكَ ريبَةً وليسَ وَراءَ اللهِ للمَرءِ مَذهَبُ "

وعارض ابن زيدون شيئا من ذلك في قصيدته، يتأسف على زمان السرور، الذي ذهب به هؤلاء الوشاة، شاكيًا ظلم الليالي له دومًا، وتقلب الدهر عليه، بقوله: الخفيف

---

(1) ديوان عدي، ص 189.(2) ديوان عدي،ص 213.(3) ديوان النابغة،ص 17-18.(4) ديوان النابغة،ص 79-80.

سَرَّنــا عيشُنا الرّقيقُ الحَواشي لـــــو يَـدومُ السرورُ للمُستديمِ
وَطرٌ ما انقضى إلى أن تَقضّى زمَـــــنٌ ما ذِمامُهُ بالذميـــمِ
زار مستخفيًا وهيهـات أن يَخـْ فـى سَنى البدر في الظلام البهيمِ
فوشَى الحليُ إذ مشى وهفا الطيـ ـبُ إلـــــى حس كاشحٍ بالنسيمِ
أيُّها المُؤذِني بظُلمِ الليالـــي ليسَ دهـــري بواحِدٍ مِن ظَلومِ
ما ترى البدرَ إن تأمَّلتَ والشمـ ـسُ هُـما يُكسَفانِ دونَ النجومِ!
وهُوَ الدهرُ ليسَ يَنفكُّ يَنـــحو بالمُــصابِ العَظيمِ نَحوَ العَظيمِ

ومثل هذه المعاني وردت في شعر عدي، في مثل قوله(1): الوافر

ومـا هذا بأوّلِ مـا ألاقـــي مِنَ الحـدثانِ والعَرَضِ القريـبِ

وقوله(2): فلئن دَهرٌ تولّى خَيـرُهُ وجَـرَت بالشَّرِّ لي مِنهُ الجَواري (الوافر)
فقضَيْنا حاجَةٌ مِـنْ لــذّةٍ وحياةُ المَرءِ كالشيءِ المُعـــارِ

وتكذيب الحساد والوشاة والأعداء وتحميلهم المسؤولية في الإيقاع بين الشاعر وسيده، ووصفهم بـالغش والضـلال وإفشـاء الأسـرار، وتـذييل ذلـك بالقسـم بـالله وبـالعمر وبالأصـنام وبالصـليب، وبغيرها، ورد مثل ذلك عند النابغة في معلقته، كقوله(3): البسيط

فلا لعَمرُ الذي مَسَّحْـــــتُ كعبَتَهُ وما هُريقَ على الأنصابِ مِن جَسَدِ
والمُؤمِنِ العائِذاتِ الطيرَ تَمسَحُها رُكبانُ مَكَّةَ بَينَ الغِيلِ والسعَـدِ
ما إنْ أتـيْتُ بشيء أنتَ تكـــرهُهُ إذاً فلا رَفعَتْ سَوطي إليَّ يَـدي
إذاً فعاقبَني رَبّي مُعاقَبَـــــــــةً قرَّتْ بِها عَينُ مَن يَأتيكَ بالفنَـدِ
إلا مَقالَةَ أقوامٍ شَقيتُ بـــهـــــا كانَت مقالتهُم قرعًا على الكَبِـدِ

وقوله في عينيته، مكررًا القسم في القصيدة نفسها(4): الطويل

أتاني أبَيتَ اللعـنَ أنَّكَ لمتَنـي وتـلكَ التي تَستَكُّ مِنها المَسامِـعُ
-لعَمري وما عُمـري عليَّ بهَيّنٍ لقد نَطَقت بُطلاً عليَّ الأقـــارِعُ
-أتاكَ امـرُؤٌ مُستَبطِنٌ لِيَ بِغضَةً لـــــهُ مِن عدوٍّ مِثلَ ذلكَ شافِـعُ
أتاكَ بقـولٍ هَلهَلِ النسجِ كـاذِبٍ ولم يَأتِ بالحَقِّ الذي هُـوَ ناصِـعُ
أتاكَ بقـولٍ لـم أكن لأقولـهُ ولو كُبِلَت فـي ساعِدَيَّ الجَـوامـعُ
حَلفتُ فلـم أترُك لِنَفسِكَ ريبَة وهل يَأثَمَن ذو إِمَّةٍ وَهـــوَ طائِـعُ؟

---

(1) ديوان عدي، ص 139 .
(2) ديوان عدي، ص 190 .
(3) شرح المعلقات، ص 235-236 .
(4) ديوان النابغة، ص 80-81 .

ومن ذلك قول عدي(1): الوافر

سَعى الأعداءُ لا يَألـونَ شَرًّا عليكَ وَرَبِّ مكَّةَ والصليـبِ

أرادوا كي يُمهَّلَ عَـن كبيرٍ فيُسجَنَ أو يُذَهدَى في قليـبِ

والأعشى في قصيدته البائية التي قالها في عتاب قومه، الذين لم يدافعوا عنه عند اتهام قائده(قائد الأعشى) بسرقة راحلة عمرو بن المنذر، يشكو فيها ظلم الواشين، وأثرهم السيئ في تخريب العلاقات بين المتوادين، من ذلك قوله(2): الطويل

ومَن يُطِعِ الواشينَ لا يَترُكوا لهُ صديقاً وإن كانَ الحَبيبَ المُقرَّبا

وشبيه بمعنى هذا البيت قول ابن زيدون السابق : "والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديمًا صحيحًا".

وينهج ابن زيدون في قصيدته التي ذيل بها رسالته نهج الأعشى في قصيدته البائية هذه، في افتتاحها بمقدمة غزلية، كما ذكر في أول الحديث. ويضمن رسالته بيتين منها.

والبيت المضمّن هو من قصيدة النابغة البائية، ومنها يذكر الوشاة الكذابين(3): الطويل

أتاني أبَيتَ اللعنَ أنَّكَ لمتَـني وتلكَ التي أهتَمُّ منـــها وأنصَـبُ

فبتُّ كأنَّ العائِداتِ فرَشنَـني هَراسًا بِهِ يُعــلى فِراشي ويُقشَبُ

حلفتُ فلم أترُك لنَفسِكَ ريبَـةً وليسَ وَراءَ اللهِ للمَرءِ مَذهَـــبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عَنّي خِيانَةً لمُبلِغُكَ الواشي أغَشُّ وأكـــذبُ

ولكنَّني كنتُ امرَأً لِيَ جانِـبٌ مِنَ الأرضِ فيهِ مُستَرادٌ ومَذهَبُ

ويليق برسالة ابن زيدون أن تدرجَ أبيات قصيدة النابغة كلها، في أثنائها، وتنخرطَ في سلكها؛ لتشابه المعاني والغرض بين الرسالة والقصيدة. فالتضمين هنا قد فتح هذا النصَّ النثريّ على أكثر من نصّ شعريّ كامل.

ويحلُّ ابن زيدون في رسالته الأمثال المأخوذة من شعر الجاهليين، التي تناسب المعنى في السياق الجديد، وقد نقل معناها من غرض إلى آخر. ومن ذلك حين يدافع عن نفسه، وينفي اقترافه ما يوجب الجفاء والعقوق والإقصاء، ويتألم مما صار عليه من ضعف أمام أعدائه وشامتيه والوشاة، فيقول: "ووالله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفتُ عنك بعد الصاغية، ولا نصبتُ لك بعــد التشيــع فيك،...، ففيم عَبَثَ الجفاء بأذمتي،وعاث العقوقُ في مواتّي(قرابتي)، وتمكّن الضياع من وسائلي!ولمَ ضاقت مذاهبي، وأكْدت مطالبي! وعلام رضيتُ من المركب بالتعليق، بل من الغنيمة بالإياب! وأنَّى غلبني المغلَّب، وفخر عليّ العاجز الضعيف، ولطمتني

---

(1) ديوان عدي، ص 136 . (2) ديوان الأعشى، ص 167 . (3) ديوان النابغة، ص 17 .

غيرُ ذاتِ سوار؟". فقوله: "بل من الغنيمة بالإياب! هو من قولهم في المثل السائر: "رضيت من الغنيمة بالإياب"، وأول من قاله امرؤ القيس نظمًا، من قصيدة يذكر فيها حال الحياة، وما تجر من المتاعب والشدائد، وذلك بعد مقتل أبيه، وتفرق ملكه، وطوحه في البلاد لطلب الثأر. وابن زيدون ينكر الرجوع خائبًا مخذولا بعد عظيم إنعام ابن جهور وإفضاله عليه، وبعد الرفاهة والجاه إلى السجن، فهو لعلوّ همته لم يرض بما نبّه إليه المثل من القناعة بالسلامة، فهو ينكر صغار الأمور، ويطمح إلى المعالي.

وقوله: "وأنَّى غلبني المغلَّب، وفخر عليّ العاجز الضعيف"، هو من بيت شعر لامرئ القيس، وهو(1): الطويل

وإنَّكَ لـم يَفخَرْ عليكَ كفاخِرٍ ضَعيفٍ ولـم يَغلِبكَ مِثلُ مُغَلَّبِ

يريد بذلك أنه أشد ما على الإنسان أن يَفخَر عليه فاخر ضعيف، وأن يغلبه مُغلَّب، وهو المغلوب. وقد صحّفهَ ابن زيدون، فقال: "وفخر عليّ العاجز الضعيف"؛ فجعل فاءه عينًا مهملة، والخاء المعجمة جيمًا، والراء زايًا، وهو تصحيف حسن، أفاد المعنى قوة لقوله: "العاجز الضعيف"(2).

وامرؤ القيس أتى به في معرض التشبيب بمحبوبته، وابن زيدون أخرجه مخرج التعجب والإنكار على أعدائه، الذين رموه عند مولاه فغلبوه، وكان لهم غلابا، وقووا عليه وهم ضعاف.

وحلَّ ابن زيدون في رسالته بيت الممزَّق(بالفتح)العَبْديّ، وهو جاهلي قديم(3): الطويل

فإنْ كنتُ مَأكولاً فكُنْ خَيرَ آكِلٍ وإلا فأَدْرِكني ولمّا أُمَزّقِ

فقال معاتبًا أبا الحزم بن جهور، ومناشدًا إياه أن لا يتركه عرضة لسهام الوشاة والأعداء، وأن يمنع عنه أذاهم، قبل أن يفترسه غضب ابن جهور نفسه ويلحقه عذابه ويمزقه، بما دسوه على الشاعر: "ومالكَ لم تمنعْ مني قبلَ أن أُفْترسَ، وتدركْني ولمّا أمزَّقْ!"، والبيت من قصيدة مدح واستعطاف واعتذار يخاطب بها عمرو بن هند-وقيل النعمان بن المنذر الأكبر- وكان قد همّ أن يغزو عبد القيس. فلما سمع بالقصيدة رجع عن ذلك؛ فهي لا تخرج عن غرض رسالة ابن زيدون، وفي القصيدة أبيات كثيرة لو استشهد بها ابن زيدون لما ابتعد عن مضامين رسالته.

---

(1) ديوان امرئ القيس، ص 44 .

(2) ينظر تمام المتون، ص 272. والمثل: " ارضَ من المَرْكَب بالتعليق"، مجمع الأمثال، 301/1 . ولفظ المثل: "لو غيرُ ذات سِوارٍ لطمتني"، قاله حاتم الطائي في قصة له مشهورة، ينظر تمام المتون، ص 274، ومجمع الأمثال، 202/2.

(3) الأصمعيات، ص 190 .

وهذا المعنى: أنْ يدرك السيد عبده قبل الفوت، ورد في شعر عدي، في قوله(1): الوافر

فهل لكَ أن تَدارَكَ ما لدَينا ولا تُغلَبْ عَلى الرأيِ المُصيبِ

وقول النابغة في معلقته(2): البسيط

أنبِئتُ أنَّ أَبا قابوسَ أوعَدَني ولا قرارَ على زَأرٍ مِـنَ الأسَدِ

مَهلا فِداءٌ لكَ الأَقوامُ كلُّهُمُ وما أُثَمِّرُ مِن مالٍ ومِــن وَلدِ

لا تَقذِفَنّي بِرُكنٍ لا كِفاءَ لـهُ وإنْ تَأَثَّـفَكَ الأَعداءُ بالرَّ فَـدِ

ويُصرّح ابن زيدون بأنه سيتحوّل عن دار أصابه الظلم فيها، إلى غيرها علّه يجد تكريمًا وعيشًا هنيئًا، مكررًا المعاني التي تدور في فلك التحول عن دار الذل، ويأتي بالمعنى وضده، مستعيرًا أقوال الشعراء الجاهليين في هذه المعاني، حلا وتضمينًا، من مثل قوله: "ولعمرُكَ ما جهلتُ أن صريحَ الرأي في أن أتحول إذ بلَغَتْني الشمس، ونبا بيَ المنزل، وأصفحَ عن المطامع التي تقطعُ أعناق الرجال، فلا أستوطئ العجز، ولا أطمئنُّ إلى الغرور؛ ومن الأمثال المضروبة: "خامري أمَّ عامر"؛ وإني مع المعرفة أن الجلاء سِباءٌ والنُّقْلَة مُثْلةٌ.

ومنْ يغتربْ عنْ قومه لمْ يزلْ يرى مصارعَ مظلومٍ: مَجرًّا ومَسْحَبـا (الطويل)

وتُدفن منه الصالحــات وإن يُسِئْ يكن – ما أساء- النارَ في رأس كَبْكبا

لعارفٌ بأن الأدب الوطنُ الذي لا يُخشى فراقه، والخليطُ لا يُتوقع زِيالُه؛ والنسيبُ لا يُجفى؛ والجمالُ لا يخفَى. ثم ما قِران السعد للكواكب أبهى أثرًا، ولا أسنى خطرًا، من اقتران غنى النفس به(الأدب)، وانتظامِها نَسقًا معه؛ فإن الحائزَ لهما، الضاربَ بسهمٍ فيهما - وقليلٌ ما هم - أينما تَوجه وَرَدَ مَنْهلَ بِرٍّ، وحطّ في جَناب قَبول، قبل إنزال رحله، وأعطي حُكمَ الصبيّ على أهله،

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبًا فهذا مبيتٌ صالحٌ ومَقِيلُ (الطويل)

غير أن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف؛ واللبيبَ يَحنّ إلى وطنه، حنينَ النجيب إلى عَطَنه؛ والكريمَ لا يجفو أرضًا فيها قوابله، ولا ينسى بلدًا فيه مراضعه؛ قال الأول: (الطويل)

أحَبُّ بلاد الله ما بين مَنْعجٍ إليّ وسَلمى أن يَصُوب سَحابُها

بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تمائمي وأولُ أرضٍ مسَّ جلدي تُرَابُها"

فالتحول حين لم يوافق المنزل، وعدم قبول الذلّ، هو معنى قد أكثرت الشعراء فيه، كقول

---

(1) ديوان عدي، ص 139 .

(2) شرح المعلقات، ص 236-237 .

عبد قيس بن خُفاف البُرْجمي التميميّ، يوصي ابنه جُبيل(1): الكامل

واترُك مَحَلَّ السَّوءِ لا تَحلُل بهِ   وإذا نَبا بكَ مَنـــــزِلٌ فتحَــوَّلِ

-وإذا افتقرتَ فلا تكن مُتخَشِّعًا   ترجو الفواضِلَ عندَ غيرِ المُفضلِ

وكقول أوس بن حجر(2): الطويل

أقيمُ بدار الحزم ما دام حزمُها   وأحرِ إذا حالتْ بأنْ أتحوَّلا

ويضمن المثل السائر: "خامري أمَّ عامر"، دليلا على فطنته، وعدم اغتراره بزخرف القول وغش المخاتل، وهو مأخوذ من بيت منسوب إلى الشنفرى، وهو قوله(3): الطويل

فلا تقبُرونــي إنَّ قَبري مُحَرَّمٌ   عليكُم ولكِن أبْشري أمَّ عامِرِ

ثم يضمن البيتين: "ومن يغترب عن قومه.."، وهما من قول الأعشى في قصيدته التي مطلعها(4): الطويل

كفى بالذي تولينَهُ لو تَجَنَّبا   شِفاءً لِسُقمٍ بَعدَما عادَ أشيَبا

وقصيدة الأعشى هذه تعبير عن ظلم كبير أوقعه عليه قومه، ويشكو فيها من الواشين بمرارة، ولكنه لا يقبل بالظلم، ولا ينخدع بسهولة، ويدافع عن نفسه، فيصف نفسه بالأسد الذي يخفي مخالبه. ويشاركه في بعض هذه المعاني ابن زيدون في بعض أفكاره، كما يشاركه كذلك في افتتاح قصيدته بمقدمة غزلية رمزية؛ فالأعشى يبدأ قصيدته منقبضًا ضيق الصدر، فهو يتصور صاحبته كثيرة الهجر والصدود، ولكنه مع ذلك متعلق بها. وبين هذه الصورة التي يقدم بها لشعره وبين ما هو مقبل عليه من عتاب قومه صلة؛ فهم كهذه الصاحبة يسرفون في الصدّ والهجر والإيذاء، على حين يسرف هو في التعلق بهم والإبقاء عليهم ورعاية حقوقهم.

فيليق بهذه الرسالة أن يُدرج كثير من أبيات قصيدة الأعشى في أثنائها، وتنخرط في سلكها، لتشابه المعاني والغرض بين الرسالة والقصيدة. فالتضمين هنا يفتح النص على نص أدبيّ كامل.

ويفخر ابن زيدون بأدبه وغنى نفسه، وأنه بذلك سيجد من يرحب به ويعظمه؛ فقوله:"وضوحك قبل إنزال رحله"، هو من قول عمرو بن الأهتم، وقيل لحاتم الطائيّ(5):الطويل

أضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحـــلـــه   ويُخصِبُ عندِي والزمانُ جَديبُ

وما الخِصبُ للأضيافِ أن تُكثِرَ القِرى   ولكنَّما وَجــهُ الكـــريمِ خَصيبُ

(1) المفضليات، ص 385.   (2) ديوانه، ص 83.   (3) شرح ديوانه، جمع وشرح وتحقيق محمد نبيل طريفي، ط1 ، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان، 2003م، ص 52، والشعر والشعراء، ص 34، باختلاف بعض الألفاظ، ويضرب مثلا للأحمق يجيء بالباطل والكذب الذي لا يخفى بطلانه على أحد، جمهرة الأمثال، 336/1 .

(4)ديوان الأعشى،ص 163،مع اختلاف في الرواية، ويروى البيتان المضمنان لعنترة.

(5)تمام المتون،ص 325-326.

والبيت:" وقيل له أهلا وسهلا.."، شبيه بقول عمرو بن الأهتم(1): الطويل

فقلتُ لـهُ أهلا وسَهلا ومَرحَبًا فهَـذا صَبوحٌ راهِـنٌ وصَديـقُ

وحال ابن زيدون تشبه حال النابغة الذي فضل الرحيل إلى الغساسنة ليجد لديهم التكريم، بعدما ضاقت به الأرض عند النعمان بعد اتهامه بالمتجردة، ومن ذلك يقول النابغة: الطويل

ولكنَّني كنتُ امرَأً ليَ جانِـبٌ مِنَ الأرضِ فيهِ مُستَرادٌ ومَذهَـبُ

مُلوكٌ وإخوانٌ إذا ما أَتَيتُهُم أُحَكَّمُ فـــي أموالِهِم وأقَـــــرَّبُ

والبيتان: "أحَبُّ بلاد الله .."، اللذان يستشهد بهما ابن زيدون استشهادًا صريحًا، وأتى بهما للتعبير عن حبه لبلده، ويشق عليه فراقه، ويتمنى له الخير والنعيم؛ لأنه خلع فيه لباس الصبا ولبس برد الشباب، هما لجُمل السلميّة، أو لأحد الأعراب(2).

ويؤثر ابن زيدون ابن جهور على سواه من الملوك، إذ لم يجتمع في سواه من الملوك ما اجتمع فيه من جودة الرأي والتيقظ، والحذق بالأمور، وإدراك الفوز في المطالب والظفر والسخاء؛ لذلك كان عليه أن يَضن بمفارقته وإن يكن في استطاعته أن يعيش في الغربة عزيزًا، ويضرب لذلك الأمثال؛ فيقول: "هذا إلى مغالاتي لعَقْد جوارك، ومنافستي بلحظة من قربك، واعتقادي أنّ الطَّمَعَ في غيرك طَبَع (خِسَّة)، والغنى من سواك عَناء، وكلّ الصيد في جوف الفَرَا...، وفي كل شجرٍ نارٌ، واستمجدَ المرخُ والعَفار". وهذا من قول الأعشى(3): متقارب

زِنادُكَ خَيرُ زِنادِ المُلـــو كِ خالطَ مِنهُنَّ مَرخٌ عَفـارا

فإن يَقدَحوا يَجدوا عِندَهـا زِنـــادَهُمُ كابِياتٍ قِصـارا

ويعارض ابن زيدون نثره هذا بشعره في قصيدته التالية لرسالته، من مثل قوله، بعد مقدمته الغزلية في المحبوب وشكوى الزمن والعذول-مقتضبًا تخلصه إلى المديح اقتضابًا-: الخفيف

بَوَّأَ اللهُ جَهورًا أشرَفَ السُؤ ـدَدِ في السروِ واللُّبابِ الصَـــميمِ

واحدٌ سَلَّمَ الجَميعُ لهُ الأَمـ ـرَ فكانَ الخُصوصُ وَفقَ العُمومِ

قَلَّدَ الغُمرُ ذا التَجارِبِ فيـهِ واكتفى جاهِلٌ بعِلـــــمِ العَليـــمِ

خَطَرٌ يَقتَضي الكَمالَ بِنَوعَي خُـــــــــلُقٍ بارِعٍ وخَلقٍ وَسيـــمِ

فهـذا المـديح بـالتفرد موجـود فـي الشـعر الجـاهليّ، يقـول النابغـة فـي هـذا المعنـى فـي مـدح النعمـان(4): الطويل

ألـم ترَ أنَّ اللهَ أَعطاكَ سَـُورَةً تَرى كلَّ مَلكٍ دونَها يَتَذبـذبُ

---

(1) المفضليات، ص 126 . (2) الدّرّ المخزون، ص 344 .

(3) ديوانه، ص 103 . (4) ديوانه، ص 18 .

فإنَّكَ شَمسٌ والمُلـوكُ كواكِـبٌ إذا طلعَتْ لـم يَبدُ مِنهُنَّ كَوكـبُ

ويقول النابغة من معلقته بعد حديثه عن الناقة التي ستبلغه سيده(1): البسيط

فتلكَ تُبلِغُني النعمانَ إنَّ لـــــهُ فضلا على الناسِ في الأدنى وفي البُعُدِ

ولا أرى فاعِلاً في الناسِ يُشبِهُهُ ولا أُحــاشي مِنَ الأقوامِ مِن أَحَـدِ

إلا سُليمانَ إذ قالَ الإلهُ لـــــهُ قم في البَرِيَّةِ فاحدُدها عَنِ الفَنَـــدِ

- فمَن أطاعَكَ فانفَعــــهُ بطاعَتِـهِ كما أطاعَكَ وادلُهُ على الرشَـــدِ

ومَن عَصاكَ فعاقِبهُ مُعاقَـــبَـــةً تَنهى الظلومَ ولا تَقعُد على ضَمَـدِ

وإذا كان ابن زيدون لا يبغي من وراء مدحه لسيده استدرار عطفه، في قوله: "فما أبسستُ لك لتدرّ، وحركتُ لك الحِوارَ إلا لتحنّ.."، فإنّ النابغة أشار إلى مثل ذلك في قوله(2): البسيط

هذا الثناءُ فإن تَسمَعْ لقائلـهِ فلم أُعَرِّضْ أَبَيتَ اللَعنَ بالصّفَدِ

وحلَّ ابن زيدون بيت قول المُعَقّر بنِ أوسِ بن حَمّار البارِقيّ الأزديّ الجاهليّ(3): الطويل

فألقتْ عَصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عينًا بالإياب المسافرُ

في آخر سجعتين من قوله في فقرة من رسالته، مخاطبًا ابن جهور: "وإنك إن شئتَ عَقْد أمرٍ تيسَّر، ومتى أعذرتَ في فك أسري لم يتعذر؛ وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة، والشفاعة زكاة المروءة، وفضلَ الجاه تعودُ به صدقة، ..، لعلي أن ألقيَ العصا بذَراك، ويستقرَّ بي النوى في ظلك".

وإذا كان ابن زيدون قد أثنى على نثره في ختام رسالته النثرية، وأثنى على شعره في ختام قصيدته كذلك، راجيًا أن يمسّ ذلك كله عطف السيد، لينال مقصده، في قوله: "والله ميسرُك من إطْلابي(4) بهذه الطَّلِبَة، وإشكائي(5) من هذه الشكوى، بصنيعةٍ تصيب منها مكان المَصنع، وتستودعُها أحفظَ مُستودع؛ حسبما أنت خليقٌ له، وأنا منك حريّ به؛ فذلك بيده، وهينٌ عليه. ولما توالت غررُ هذا النثر، واتسقت درُره،..،عارضها النظمُ مباهيًا..،فما زال يستكدُّ الذهنَ العليل، والخاطرَ الكليل حتى زفّ إليك عروسًا مجلوّة في أثوابها، منصوصة بحُليّها ومَلابِها، وهي:

الهوى في طلوع تلكَ النجوم والمُنى في هبوب ذاك النسيم ِ"

وختم القصيدة واصفًا مولاه أنّه لم يزل موفقا مسددًا، يتناسى بحلمه المعهود زلة الجاني، ويقابلها بالصفح والستر، مصغيًا لاعتذار المذنب المعترف بذنبه، ومتى بدأ بعمل الخير أغرته خصاله الشريفة على إتمامه أحسن تتميم، فيقول، مذيلا إياها بفقرة نثرية،

---

(1) شرح المعلقات، ص231 –232. (2) شرح المعلقات، ص 238. (3) معجم الشعراء للمرزباني، ص 204، تمام المتون، ص 366 . (4)(5) إطلاب: إسعاف وإحواج. إشكاء: إزالة الشكوى، وإيقاعها، واللفظان من الأضداد.

لا تخرج عن المعنى نفسه:

"لم تزلْ مُغْضِيًا على هفوة الجا ني مُصِيخًا إلى اعتذار المُليمِ

ومتى تبدأ الصنيعةَ يُوليكَ تمامُ الخصال بالتتميمِ

هاكها (القصيدة) أعزك الله يبسطُها الأمل، ويقبضها الخجل؛ لها ذنب التقصير، وحرمة الإخلاص، فهب ذنبًا لحُرْمة، واشفعْ نعمةً بنعمة؛ ليتأتّى لك الإحسانُ من جهاته، ويسلكَ إلى الفضل طرقاتِه؛ إن شاء الله تعالى".

وفي هذا يحذو نهج النابغة في آخر المعلقة حين نوه بجود الممدوح، ثم ينوه بثنائه في قصيدته في الاعتذار، راجيًا أن يثمر ذلك في العفو عنه(1): البسيط

هذا الثناءُ فإن تَسمَعْ لقائلهِ فلم أُعَرِّضْ أبيتَ اللعنَ بالصّفَدِ

ها إنَّ ذي عِذرَةٌ إلا تَكنْ نَفعَتْ فإنَّ صاحِبَها مُشارِكُ النكَدِ

فيظهر ابن زيدون في رسالته الجدية ذا ثقافة موسوعية؛ عالمًا بمعاني الشعر الجاهليّ، متبحرًا في قصائد الشعراء الجاهليين، خاصة الاعتذارية؛ فإذا ضمّن بيتًا من قصيدة من هذه القصائد، أو حلّ بيتًا آخر منها، فإنّ هذا التضمين أو الحل قد يستدعي القصيدة كلها أو أغلب أبياتها؛ ويظهر ذلك واضحًا في الأبيات التي استعارها من تلك القصائد وضمنها رسالته.

ومن الملاحظ أن ابن زيدون في رسالته لم يظهر خوفًا حقيقيا من سيده كما ظهر لدى النابغة في مثل قوله(2):

فإنَّكَ كالليلِ الذي هُوَ مُدرِكي وإن خِلتُ أنَّ المُنتَأى عَنكَ واسِعُ

وقوله في معلقته(3):

أنبِئتُ أنَّ أبا قابوسَ أوعَدَني ولا قرارَ على زَأرٍ مِنَ الأسَدِ

ولدى عديّ في مثل قوله(4): الرمل

أبلغِ النعمانَ عنّي مَألكًا قولَ مَن قد خافَ ظنّاً فاعتَذَرْ

أنَّني واللهِ، فاقبَلْ حِلفي لأَبِيلٌ كلَّما صَلّى جَأَرْ

مُرعَدٌ أحشاؤُهُ في هَيكَلٍ حَسَنٌ لِمَّتُهُ وافي الشّعَرْ

ولعل مردّ ذلك إلى طبيعة الشخصيتين: شخصية السيدين المعتذر إليهما؛ فابن جهور لم يكن سوى وزير، أو حاكم لمدينة، في حين كان النعمان ملك العرب. وإنّ ابن زيدون كان معتدًّا بأدبه، وذا شأن كبير عند الأمراء.

---

(1) شرح المعلقات، ص 238 .

(2) ديوان النابغة، ص 81 .

(3) شرح المعلقات، ص 236 .

(4) ديوان عدي، ص 176 .

وإذ لم نجد هذا الشعور بالخوف من السيد عند ابن زيدون، فقد نجده عند أديب آخر، هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدَّبّاغ، الذي كان في بلاط المقتدر بن هود(-474هـ) صاحب سرقسطة، فاستوحش منه ففرّ، فكتب غير رسالة في الاعتذار للمقتدر، حتى عفا عنه؛ يقول في إحدى هذه الرسائل يخبر ما جرى عليه بدولة ابن هود المقتدر:

"كتابي وأنا أساير من هذه النكبة غمرةً يتطاولُ مداها ويمتد، وأصابرُ منها محنةً تزيدُ مع الأيام وتشتدّ، وزادني قلقاً ما حكاه لي فلان من خبر المقتدر في السبب الذي له جُفيتُ، ومن أجله أقصيتُ، وذكر ذنوبًا كانت مني، وأقوالا بلغته عني،..، فأزعجني الأمرُ إزعاجًا يقتضيه تغيّرُ رأيِ مثله من الأملاك، الذين همْ كالليلِ في الإدراك، وكالقضاء إذا شاءوا في الهلاك، ولم أجدْ لنفسي قرارًا على تغيّره، ولا هدوءًا مع تنكّره، وقد يجوز أن يكون للمبلِّغينَ في السّعاية بلاغاتٌ محرّفة، واختلاقاتٌ مزخرفة،..، فما لي حُرِمْتُ منه ما هو معلومٌ دون ملوك العصر، من سعة الحلم وكثرة الصبر؟ ولمَ عدمتُ عنده ما هو موصوفٌ به من كظم الغيظِ إذا أُحفظ، وذكرِ الرضى إذا أُغضب؟ بل كيف حتى خُصصتُ وحدي من بين العالم، بأن يُصغي في جهتي إلى النمائم؟.. . هذا مع فرط تحرزي وانقباضي، وتناهي تذللي وانخفاضي، وما جُبلتْ عليه من سكون الطائر، وغض الناظر، وخَزْنِ اللسان، ومهابة السلطان في السر والإعلان. وإذا فكرتُ في ذلك لم أستغربه، لما علمتُ من شقائي في جَدّي، وسوء أثر الزمان عندي، ففي مولدي أن تقسوَ علي قلوبٌ أستلينها وأستلطُفها، وتُعرِض عني جوانبُ أستميلها وأستعطفها، وما زلتُ مذ كنتُ أعتذرُ مظلومًا، وأسترضي متسخطًا، وأداري متشططًا، واضطر إلى الإقرار بأجرام لا أجنيها، والاستعفاء عن ذنوب لا أدريها، وكيفما دار الأمر وتصرّف بي الدهر، فإني لا أفارق عصمة ولائه، ولا أنحرف عن تأميله ورجائه، حتى يهب الله لي منه تأملا يستوضح به براءة ساحتي مما نمي إليه، وسلامةَ جهتي مما زُوِّرَ لديه، فيعودَ بي إلى المعهود من رأيه الجميل، ويوسعني ما أوسع الكلَّ من طَوْله الجزيل.."(1).

ولابن الدّبّاغ رسالة أخرى(2)، يعتذر فيها إلى ابن هود، ويكرر كثيرًا من مضامين الرسالة السابقة، ويصف حاله السيئة حين وصل إلى مسامعه غضب الأمير، حتى أنه سقط مغشيًّا عليه، ويذكر أنه أُخِذَ بذنوبٍ لم يرتكبها، بل هي أكاذيب الوشاة.

فيمكن القول إن ابن الدباغ ألمَّ بمعاني النابغة الاعتذارية، وحشد كثيرًا منها في رسالتيه النثريتين.

---

(1) الذخيرة، 3/1/269-271 .

(2) السابق، 3/1/272–273 .

في العتاب:

يكون العتاب بين الأصدقاء عادة، ويتضمن لومًا ليّنًا أو قاسيًا، قليلا أو كثيرًا. وتكثر في النثر الأندلسيّ الردود على رسائل العتاب، وتتلاقى هذه الرسائل مع رسائل الاعتذار: في الثناء على المرسل إليه، والاستغراب مما نُمي إليه من التهم، وعزوها إلى الوشاة، وتأكيد بطلانها.

وقد يصل العتاب إلى حدّ الهجاء، كما حدث في رسالة ابن زيدون في رسالته الهزلية، التي أضحى العتاب فيها هجاء شديدًا، وأصبح الهجاء سبابًا وسخرية، ويكثر ابن زيدون في رسالته من حشد شخصيات وأحداث تاريخية كبيرة، ويسقطها على ابن عبدوس، استخفافًا به، ويستعير كثيرًا من أشعار الشعراء الجاهليين، ومعانيهم وألفاظهم إن في المدح أو في الفخر أو في الهجاء(1).

ومن هذه الرسائل رسالة لأبي حَفص بن بُرْد الأصغر(_تقريبًا450هـ) يردُّ فيها على عتاب صديق، ويهجوه فيها، ولكنه يحرص على بقاء المودة، ودوام الصداقة، حرصَ المُثقِّب العَبْدي مع عمرو بن هند، ويبغي معرفة نوع العلاقة بينهما، فيقول منها:

"أظلمَ لي جوُّ صفائك، وتوعّرتْ عليّ أرضُ إخائك، وأراكَ جَلدَ الضمير على العتاب، غيرَ ناقعِ الغُلةِ من الجفاء.. . فليتَ شعري ما الذي أقسى مهجةَ ذلك الودّ، وأذوى زَهْرَةَ ذلك العهد؟... ومودتُنا تسمو عن صفة العتاب ونسبةِ الجَفاء، واليومَ هي آنسُ بذلك من الرّضيع بالثدي، والخليع بالكأس،.. . وأنا الآنَ على طَرَفٍ من إخائك معك، فإمَّا أنْ تُدليَ بحُجّة فأتنصَّلَ عنك، وإمّا أن تنبئَ بحقيقة فأستديمَ خُلتكَ، وإمّا أنْ تأزِمَ على فأسك فأقطع حبلي منك"(2).

والمضمون العام لهذا النثر يشبه مضمون شعر المثقب العبدي الذي يروم فيه معرفة حقيقة علاقته مع عمرو بن هند، في قوله(3): الوافر

فإمّا أَن تكونَ أَخـــي بحـَقٍّ	فأعرِفَ مِنكَ غَثي مِن سَميني
وإلا فاطَّرِحني واتَّخِذنـــي	عَدُوّاً أَتـــــقيـكَ وتتقيــني
فما أَدري إذا يَمَّمتُ وجهًا	أُريدُ الخَـــيرَ أَيُّـهُما يَليـني
أَأَلخَيرُ الذي أَنا أَبتَغيـــهِ	أَمِ الشرُّ الّــذي هُوَ يَبتَغيـني

---

(1) ينظر نص هذه الرسالة في: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 3-9، وديوانه ورسائله، ص 634-679، وصبح الأعشى، 527/1-536 . وينظر رسائل مشابهة في الذخيرة، 693/2/1 .

(2) الذخيرة، 501/1/1–502 .

(3) شرح ديوانه، جمعه وحققه وشرحه حسن حمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1996م، ص 67-68، المفضليات، ص 292، باختلاف بسيط في الرواية، وينظر: الشعر والشعراء، ص 235 .

ومن رسائل العتاب، التي يفيد صاحبها من شعر الشعراء الجاهليين في الاعتذار، وفي الشكوى من خذلان الأصدقاء، الكاتب أبو عامر بن التاكُرُنّيّ، كاتب المنصور بن أبي عامر الأصغر(-425هـ) ملك بلنسية، في رقعة له، يشكو فيها ما يلقاه من إهمال صديقه له وإعراضه عنه، يقول في مقدمتها، ويستشهد ببيتين لامرئ القيس: "كتبتُ عن نفسٍ تفيضُ بمائها، وتجيشُ بدمائها، وتشكو إلى الله عظيمَ أدوائها، غيظًا على تقلب الزمان، وعجبًا من تنكر الإخوان، لا يلفظني عَجَبٌ إلا إلى مثله، ولا أنتقلُ من مُستغْربٍ إلا إلى شكله. إن أبرمتُ حبلا من الإخاء، نقض المفسدون مريرَته، أو ملأتُ يدي بمن أعتدُّ به للشدة والرخاء، أفسدَ الواشون سريرَته، وبحق قيل: (الطويل)

إذا قلتُ هذا صاحِبٌ قد رَضيتُهُ وقـرَّت بِهِ العَينانِ بُدِّلتُ آخَـرا

كذلكَ جَدّي ما أُصاحِبُ صاحِبًا مِـنَ الناسِ إلا خـانَني وتَغَيَّـرا

ولا عتَبَ على الدّهر، فإنّ العَتْبَ على بنيه، والذم لازمٌ لأهليه، والناس بأزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم"(1).

(1) الذخيرة، 229/1/3، وبيتا امرئ القيس في ديوانه، ص 69، ويفخر الكاتب بعد ذاك بنفسه، كما فخر امرؤ القيس بنفسه في قصيدته التي ضمن منها التاكرني البيتين.

في الفخر:

خاض النثر الأندلسي غمار المفاخرات في بعض الرسائل، وأشهرها رسائل الردّ على رسالة أبي عامر بن غَرْسية النصراني في الشعوبية يذم فيها العربَ ويفخر بالعجم(1). فقد وقف كثير من الكتاب الأندلسيين بالمرصاد لابن غرسية، يهجونه وينقضون مزاعمه ويعددون مناقب العرب. وكثرت الردود على رسالة ابن غرسية، طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة كثرة تدلُّ دلالة بيّنة على تعمّق نزعة العروبة في الأندلس. وتتشابه هذه الردود في الجمع بين الهجاء والفخر في آن، هجاء العجم والفخر بالعرب، وكثرة الاستشهاد بالشعر الجاهليّ في الغرضين.

ومن ذلك قول أبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسي، في فصل من رسالة أملاها على ابن بسام سنة 477هـ، مضمنًا بيتا للنابغة في وصف ذلِّ السبايا: "وأما فخرُكَ بربَّةِ الإياة(إشارة إلى سارة زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام)، فيا ليتها حين ولدتكم ثكلتكم، فلقد سَرْبلتموها عارًا مجدَّدًا، وعَصَبْتم بها شَنَارًا مخلّدا، حين خِمْتم عن الكفاح، حذرَ الصوارم والرماح، فأسلمتم لعُداتها من بناتها، كلَّ طَفلةٍ رَداح، جائلةِ الوشاح، ذاتِ ثغرٍ كالأقاح، وغُـرّة كالصباح، أُعجِلْنَ عنْ لَوْثِ أُزُرهن واعتجار خُمُرهنَّ، فَعُوِّضْنَ من الإدلال بالإذلال، ومن الحِجال بالرجال: (البسيط)

خَلفَ العَضاريطِ لا يُوقَيْنَ فاحِشَةً مُستَمسِكاتٍ بأَقتابٍ وأَكوارِ"(2).

وقوله فيها، مضمنًا بيتًا آخر للنابغة في الفخر بشجاعة حيّ من بني أسد: "وأما وصفك قومَكَ أنهم مُجُدٌ نُجُدٌ، شُمخٌ بُذخٌ: فهيهات هيهات ذلك منهم! تلك صفاتُ قومنا العرب ذوي الأنساب والأحسابِ، والعلوم والحلوم، أولي اللَّسَنِ والبيان، والإسهاب في الصواب، والحكمة وفصلِ الخطاب، فرسانِ العِرَاب، وأرباب القباب، ومُعملي الصوارم والحِراب، أنديتهم عراصُ المنية، وأَرْديتهم بِيضُ المشرفيّة، ولَبُوسهم مُضَاعَفَة الماذيّة: (الكامل)

سَهكينَ من صدإِ الحديد كأنهم تحتَ السّنَوَّرِ جِنَّـةُ البَقّارِ

مجالسهم السروجُ، وريحانهم الوشيجُ، وموسيقاهم رنّات الردينيات..."(3).

والقصيدة التي أخذ منها بيت النابغة هي في هجاء زُرعة الذي هدد النابغة وقومه في خلال شعر

---

(1) وابن غرسية هو مولى مجاهد الصقلبي العامري(-436هـ) صاحب دانية والجزر الشرقية. وكتب رسالته للشاعر أبي جعفر أحمد بن الجزار، معاتبا إياه لتركه مدح مجاهد الصقلبي، واقتصاره على مدح معن بن صمادح التجيبي العربي (-443هـ) أمير المَرِيَّة، الذخيرة، 705/2/3– .

(2) الذخيرة، 718/2/3، والبيت للنابغة الذبياني يتحدث عن ذلّ السّبايا، ديوانه، ص 56. لوث الإزار: إدارته مرتين، الاعتجار: لف العمامة على الرأس، العضاريط: الأتباع.

(3)الذخيرة، 721/2/3، وبيت النابغة الذبياني في ديوانه، ص 60 . السهكة: رائحة العرق، السنور: السلاح التام.

بلغ النابغة، فردَّ عليه بالفخر بشعره، وبعدة أحياء من أسد في قصيدته التي منها هذا البيت، ويصفهم بالشجاعة والقوة والاستعداد التام للحروب على الدوام، وبصفات أخرى لم يبتعد عن كثير منها ابن الدودين في رسالته. وتصلح أبيات القصيدة أن يضمنها ابن الدودين في هذا الموضع من رسالته. فأحسن ابن الدودين في استذكار هذا البيت ليذكّر بقصيدة النابغة.

وممن ردَّ أيضًا على ابن غرسية، وأجاد ما أراد أبو الطيب بن مَنِّ الله عبدُ المُنعم القرويُّ(-493هـ)، ويشير في فصل من رسالته إلى كثير من مناقب العرب، وإلى شجاعة العربيّ وعدم جبنه عند مواجهة الموت، فيقول: "وهات أرنا مفاخرَك، نُرِكَ مساخرك،..، هل كانت العربُ إلا كنزَ عزٍّ وذخْر فَخر، وخبيئةً ذَخَرها اللهُ إلى الوقت المحتوم، وأسكنها أرضًا يرغبُ عنها أولو البِطنة، ويرغبُ فيها ذوو الفطنة، حَفِظ فيها أحسابَها، وطهَّر بها أنسابَها، واختارها ليختارَ منها صفيَّه، وميَّزها ليَمِيزَ منها حَفِيَّه. ثم اختصَّها بالأحلام الزكيةِ، والأفهامِ الذكية، إن جاورتَهمْ نصروكَ،..، وإن فاضلتهمْ فضلوكَ، وإن ناضلتهمْ نضلوكَ، وإن طاولتهمْ طالوكَ، وإن استنلتهمْ أنالوكَ، بالكرمِ يَلهجُونَ، وبحسنِ الشِّيَمِ يبهجون، يمشي أحدُهم إلى الموت ثابتةً وطأتُه، فسيحةً خُطوتُه، شديدةً سَطْوتُه، جَريًّا على الكُماة جَنانُه، لبقًا بتصريف القناة بنانُه بصيرًا بمهج الدَّارعين سنانُه"(1).

فيشير القرويّ في آخر فقرته إلى شعر الشاعر الجاهليّ عبد يغوث بن وقاص الحارثي القحطانيّ، وإلى شعره، وإلى شجاعته حين واجه الموت، بعدما أسره بنو تميم وشدّوا لسانه بنسعة، فيقول مفتخرًا بحذقه في الشدائد(2): الطويل

وكنتُ إذا ما الخيلُ شمَّصَها القنا لبيقًا بتصريف القناة بنانيا

والبيت من قصيدة، يفخر بنفسه بالفروسية والشجاعة وإبائه الهرب، واعتداده بشمائل الكرم والمروءة والشجاعة. فالقروي كان موفقا إذ استشهد ببيت لهذا الشاعر من هذه القصيدة لأنها تناسب ما قاله، ثم يشير الى حال الشاعر الجاهليّ وهو يواجه الموت بعد شد لسانه بنسعة، فكان كما وصف الأندلسيّ ثابت الجنان لا يخاف الموت.

وفي فصل للقروي من رسالته، يفخر باهتمام العرب بالخيول، وكثرة أسمائها، ومن ذلك قوله: "وأما الخيلُ فسامحِ العربَ بركوبها ووثوبها، وخلّ بينهم وبين عيوبها، فلا حظ لك ولا لأصحابك فيها..، الخيلُ حرثُ العرب وحصادُها، وعُدّتها وأرصادها(حراسها)، ليست أمة من

---

(1) الذخيرة، 725/2/3 .

(2) المفضليات، ص 158 .

سائر الأمم الأعجميةِ تنازعُها ذلك ولا تدافعُها عنه، تسمّيها بأسمائها، وتنسبها إلى آبائها، وتعرفها بأصواتها، وتؤثرها بأقواتها، وإنك لتعلم أنّ خيلَهم أشهرُ من ملوككم أسماءً وألقابًا، وأطهرُ من نسوانكم أنسابًا وأعقابًا، قالوا:بنات أعوجَ وآل الوجيه ولاحقٍ، وداحس والغبراء، .. والنعامة والشَّمّاء،..،وأسماؤها كثيرة، وألقابها شهيرة، ولعلك أن تذكرَ لنا من خيل آبائك الأولين، وأفراس أسلافك الأقدمين، فرسًا مشهورًا، وفارسًا مذكورًا، فإن أتيتَ بذلك شهدنا وآمنا"(1).

ويفخر القروي في فصل من رسالته بشجاعة العرب، وأنهم أفذاذ في ركوب الفلاة وشنّ الغارات، من ذلك قوله: "فأما نحرُ الليل بآذانِ الخيل، وطيُّ الفلاة بأيدي اليَعْملات، وشنُّ الغارات وطلبُ الثارات، فلا عليك أن تخلي بينهم وبين شصائصهم(شدائدهم)، وألا تنازعَهم في خصائصهم، فإنها إليهم أقربُ، وهم بها أدربُ، وهي بهم أليَقُ وأعلقُ،..، يركبون إلى الحرب في ثياب الشّرب، ويعتنقون الفوارسَ كما تعتنقون الأوانس،: (البسيط)

لو كانَ في الألفِ منهمْ واحدٌ ودَعَوا مَن فارسٌ خالهم إيَّاهُ يعنونا "(2).

والبيت المضمن يروى للمرقش الأكبر، وروايته: "لو كانَ في الألفِ منَّا واحدٌ..."، والشاعر يفخر في قصيدته بنفسه وبقومه، فغيَّر الكاتب ضمير المتكلم إلى الغائب. والقصيدة الفخرية تضمنت كثيرًا من مفاخر العرب في الشجاعة والكرم والإقدام وعدم النكوص في الشدائد، والسيادة.. .

ويفخر القروي في فصل من رسالته بما اتصف به العرب من الكرم الشديد، ويستشهد بشعر لحاتم الطائي، ومن ذلك قوله: "وما عبتَ من قوم ينزلون البَرَاحَ، ويشربون القَرَاح، ويرفعون العِماد، ويُعْظمون الرّماد، ..، وقائلهم الذي يقول لغيره: (الرجز)

أوقد فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرُّ والريحَ يا مُوقدُ ريحٌ صِرُّ

عسى يرى نارَكَ منْ يَمُرُّ إن جلبتْ ضيفًا فأنتَ حرُّ "(3).

وفي فصل لابن عباس(لم يُعرِّف به ابن بسام) من رسالة في الرد على ابن غرسية، ويفتخر بالعرب، ويضمّن في جزء من هذا الفصل أشطارًا من الشعر الجاهليّ، ويجعلها أساسًا في كلامه وتشبيهاته، وجزءًا من تراكيبه، فيقول: "السُّمرُ القُمرُ، لا الزُّعرُ المُعرُ الصُّبُر الخبر، العُقُرُ الوُقُرُ، إذا ركبوا:

تحرَّقَتِ الأرضُ واليومُ قَرُّ

طاولوا أُمما، وأدركوا الطوائلَ أَممًا، وفَضَلوا أحسابًا وإممًا، وشرُفوا أنفسًا وهممًا:

---

(1) الذخيرة، 731/2/3 .

(2) السابق، 732/2/3، والبيت ينسب للمرقش الأكبر، ديوان المرقشين، ص 81 .

(3) الذخيرة، 732/2/3، وشعر حاتم الطائي في ديوانه، ص 90 .

لهم شيمةٌ لمْ يُعْطها اللهُ غيرَهمْ

.. يشـدُّونَ العمـائمَ، ويَنْجَعـون الغمـائم، ويرتـدون الرُّدينيّـات، ويسـتجيدون اليَزنيّـات،..، ويتقلـدون الهنـديات، ..، ويتوشـحون المُعلمـات، والموشـيّةَ المنمنمـات، يجـرّون أهـدابَها، ويُلْحِفـون الأرضَ هُدّابها، ويلبسون للحال لَبوسها، إما نعيمَها وإما بُوسَها،

رقاقُ النِّعال طيّبٌ حُجُزاتُهمْ"(1).

(1) الذخيرة، 3/2/749-750، والشطر الأول عجز بيت لامرئ القيس صدره: "إذا ركبوا الخيل واستلأموا"، ديوانه، ص 154، والشطر الثاني صدر بيت للنابغة الذبياني عجزه: "منَ الناسِ والأحلامُ غيرُ عوازبِ"، ديوانه، ص 12، والشطر الثالث صدر بيت للنابغة كذلك، ديوانه، ص 12، عجزه: "يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحان يومَ السَّباسب"، من القصيدة نفسها في مدح عمرو بن الحارث الأصغر الغسانيّ وقومه من غسان في بلاد الشام. ويشار إلى أن القصائد التي أخذ منها الأشطار تتضمن مناقب كثيرة يمكن الاستشهاد بها في هذا الفصل من الرسالة لتشابه الغرض والمضامين.

في الوصف:

ظهرَ النثرُ الوصفيُّ الفني في أواخر القرن الرابع الهجري، وبلغ أقصى ازدهاره في القرن الخامس، ومنتصف السادس. وغلب على هذا النثر جانب الإمتاع الجمالي. ونافس هذا النوع من النثر الشعرَ في أغلب موضوعات الوصف، خاصة في وصف مظاهر الطبيعة، والصيد، والمرأة. وجاء أغلب الوصف في خلال موضوعات نثرية في غير موضوع الوصف. وقد تكفي بعض الأمثلة للاستدلال على مدى تأثر هذا النثر بالشعر الجاهليّ.

الوقوف على الطلل:

يرسم السرقسطيّ في المقامة الثالثة صورة للشيخ أبي حبيب السدوسي، وهو بطل مقاماته، تقترب من صورة الشاعر الجاهليّ، حين يقف على الطلل، ويبكي حرقة ووجدًا على مآل الديار وتبدلها؛ وقد تكون هذه الصورة لعبيد بن الأبرص أو للملك الضليل أو للبيد، أو لهم مجتمعين.

ويفيد السرقسطي في نثره وشعره في مقامته هذه من وصف الجاهليين للطلل، من ذلك قوله في وصف هذا البطل حين رأى الأطلال الدارسة: "حتى إذا رأى أطلالا ورسومًا، وتبيّنَ آثارًا ورسومًا، نزلَ إليها كرامةً لمن ذهبَ عنها وبانَ، وفضَحَ ما لديه من لوعة وأبانَ، وجعلَ يترددُ في أكناف تلك المعالم ويتلوَّى، ويتعطف في أرجائها ويتحوَّى(يتجمّع)،..، فما زالَ يسأل عن أهلها ويَنْشُد، ويرجِّع في ألحانه ويُنْشِدُ: (مجزوء البسيط)

أقفرَ من أهلـــــه زَرُودُ	فلا أنيسٌ ولا شرودُ
وكان والعيشُ فيه غَضّ	فلا مُراد ولا مَرود
وكلُّ شيء بــه تولّـــى	فلا نَميرُ ولا بَرُودُ"

.. فلجَّ به طربٌ وحنينٌ، وأشرقه بكاءٌ وأنين، حتى بلَّ مِحْمَله ورداءَه، فاستطلْنا دعاءه ونداءه..حتى خرَّ مغشيًّا عليه"(1). ويبكي على فتاة ناعمة غضة لينة، تشبه المهاة. وفي نهاية المقامة يرحل هذا الفتى معتسفًا الفيافي والقفار.

ويقترب هذا الوصف من مقدمة الطلل الغزليّ الجاهليّ. ولا يخفى تأثر الكاتب بشعر عبيد بن الأبرص في معلقتة، إذ صور خلاء الديار من أهلها، وبُدلت وحوشًا، وغيرتها الخطوبُ، وتوارثها الجدوب. وبدأت عينا الشاعر تسكب الدموع الغزيرة، كالماء المنحدر من هضبة، أو كالنهر الجاري، ومنها قوله(2): مجزوء البسيط

---

(1) مقامات السرقسطي، ص 31-34 .

(2) شرح المعلقات، ص 244 .

أقفرَ من أهله مَلْحوبُ فالقطّبـــيّاتُ فالـذنوبُ

- وبُدِّلَت منهمْ وُحوشًا وغَيَّرَتْ حالَها الخُطوبُ

- عَيناكَ دَمعُهُما سَروبُ كـــأنَّ شَأنَيهِما شَعيـبُ

ولا يخفى كذلك تأثره بشعر امرئ القيس في معلقته، كقوله(1):

ففاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً على النَّحرِ حتى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي

ويقف السرقسطي على أطلال القيروان بعد خرابها في مقامته الثانية والعشرين، وقوف الشاعر الجاهليّ على الطلل، ويبكيها بكاءه، كقوله: "وقد استولى عليها الخرابُ، وذهبتْ بدولتها الأعرابُ، فأغَاضت حَوْضَها وغديرَها، وزَلْزَلَتْ خَوَرْنَقَها وسَديرَها. فَعُجْتُ على تلكَ الأطلال والرسوم،..، فَقَرَيْتُها عَبْرَةً بعدَ عَبْرَة، وتأمَّلْتُها عِبْرةً إثْرَ عِبْرَة"(2).

ويقول في موطن آخر:"حتى تعوّضت..من رَنَّة العود وصهيل الجياد بأنَّةِ البومِ وعويل الفيَّاد"(3).

ويقول في موطن ثالث: "لقدْ لعِبَتْ بكِ الرياحُ النُّكْبُ، وعَفا رُسومَكِ الجَوْدُ والسَّكْبُ. لقد سَحَبَ عليكِ البِلى ذُيُولَه.."(4). وينشد شعرًا يضرب فيه الأمثال على خراب الممالك السابقة، وزوال الأمم كعاد وجرهم، كقوله: الطويل

"لئن عَصَفَتْ بالقيروان وأهلـهـا عواصفُ أودَتْ بالرياح السَّواسمِ

فمن قبلُ ثَلَّتْ عَرْشَ عادٍ وجُرْهمِ وداسَ حُمَيَّاها الردى بالمناسمِ"(5).

وسبق ابنُ حزم الظاهريّ(384-456هـ) السرقسطيَّ بقرن من الزمن إلا قليلا، في الوقوف على الأطلال، ولكنها أطلال قرطبة، فله رسالة نثرية شفعها بقصيدة يعارض فيها نثره(6) في رثاء قرطبة، بعد خرابها على أيدي البربر بعد عام 400هـ، وقدم لها بمقدمة تشبه مقدمة وصف الشعراء الجاهليين للأطلال، فيقف على أطلال قرطبة، ويصور امّحاء رسومها، وطمس معالمها، وأنها أصبحت مآوي للوحوش، بعدما كانت آهلة برجال كالسيوف شجاعة، وبظباء الإنس جمالا ودلالا. ولكنها أضحت- حين عبث بها الخراب- تُريكَ عواقب أهلها، يقول ابن حزم: "وقفتُ على أطلال منازلنا بحومة بلاط مُغيث من الأرباض الغربية، ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة. فرأيتها قد مَحَّتْ رسومُها، وطُمست أعلامُها، وخفيت معاهدُها،

---

(1) السابق، ص 25 .

(2) مقامات السرقسطي، ص 274-276 .

(3)(4) السابق، ص 277 .

(5) السابق، ص 279-280 .

(6) طوق الحمامة، ص 172- 174 .

وغيَّرها البلى، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وآكامًا مشوهة بعد الحسن، وخرائب مفزعة بعد الأمن، ومآوي للذئاب، وملاعب للجان، ومغاني للغيلان، ومكامن للوحوش..، بعد غُنيانها برجال كالسيوف، وفرسان كالليوث..، وتغصُّ منهم بكثرة القطين الحاشية، وتكنُسُ في مقاصيرهم ظباء الإنس الفاتنة..، حال الدهرُ عليهم بعد طول النَّضْرة، فبدد شملهم حتى صاروا في البلاد أيادي سبأ..، كأن لم تغنَ بالأمس..، قد عبث بها الخراب، وعمَّها الهَدم،..، وتريك عواقبَ أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كلُّ ما قد بقي ماثلا فيها، وتُزهّدُك فيها".

وكأنّ ابن حزم يحلّ أبياتًا لعبيد بن الأبرص الأسديّ في معلقته، في وصف الأطلال وأبيات الحكمة، إلى البيت الخامس والعشرين(1). ويفيد ابن حزم من حكم عبيد في قصيدته التي ذيل بها نثره.

ثم إنَّ هذه المشاهد أثارتْ في نفس ابن حزم الحزن؛ فيستعيد ذكرياته-كعادة الشاعر الجاهلي- في هذه الأماكن، وأيام الصبا السعيدة، مع الكواعب الغيد، فيقول من ذلك: "وكررتُ النظر، ورددتُ البصر، وكدتُ أُستطار حزنًا عليها، وتذكرتُ أيام نشأتي فيها، وصبابة لِداتي بها، مع كواعبَ غيد، إلى مثلهن يصبو الحليم،..".

ثم يذكر انقطاع الوصل؛ لرحيل أهل قرطبة: "بالتفرق والجلاء في الآفاق النائية، والنواحي البعيدة"، بعدما كانت الحياة زاخرة بالحركة من سكانها، والتقاء عُمَّارها، "التي كان ليلها تبعًا لنهارها، في انتشارها بسكانها، والتقاء عُمَّارها، فعاد نهارها تبعًا لليلها في الهدوّ والاستيحاش، والخفوت والإخفاش، فأبكى ذلك عيني على جمودها، وقرع كبدي على صلابتها..، وحركني للقول على نُبوّ طبعي، فقلتُ: (طويل)

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغُودرت ... خلاءً من الأهلينَ موحشةً قَفْرا

تراها كأنْ لم تغنَ بالأمسِ بلقعًا ... ولا عُمرتْ من أهلها قبلنا دَهرا"

ويذكر ابن حزم في قصيدته هذه حال قرطبة قبل الخراب، ويذكر بساتينها الزاهرة، كما يدعو لقرطبة بالسقيا، كعادة الشعراء الجاهليين بالدعاء للديار، ويتمنى من الدّهر أن يبلغ سلامه لأهلها، ويتأسى بالصبر على البلوى التي حلت بقرطبة، ويكرر الدّعاء بالسقيا لها، ومن ذلك يقول:

ويا خيرَ دارٍ قد تُرِكْتِ حميدةً ... سقتك الغوادي ما أَجَلَّ وما أسرى

---

(1) ينظر شرح المعلقات، ص 244-248 .

- ويـا دهرُ بلِّـغ ساكنيها تحيـــــتـي ولو سكنوا المروين أو جاوزوا النَّهرا
فصبرًا لسطو الدّهر فيهم وحُكمه وإن كان طعم الصبر مستثقلاً مـــرّا
لئن كان أظمانا فقد طال ما سقى وإن ساءنا فيها فقد طال مـــــا سَرَّا
وأيتها الدارُ الحبيبة لا يَـــــرمْ ربوعَك جَوْنُ المزْن يهمي بها القطـرا
كأنكِ لم يسكنك غِيـــدٌ أوانـــسُ وصِيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجمَ الزُّهْرا
تفانوا وبادوا واستمرَّت نواهـمُ لمثلهمُ أَسكبتُ مقلتـــــيَ العَبْـــرى
-وإني ولو عادت وعدنا لِعَهْدنـــا فكيف بمن مِن أهلها سكن القبـــــرا
ويا دهرنا فيها متى أنتَ عائـــدٌ فنحـمدَ منك العودَ إن عدتَ والكرَّا
فيا رُبَّ يومٍ فـي ذراها ولـيلـــةٍ وصلـنا هناك الشمسَ باللهو والبـدرا
- ويا دهرُ لا تبعَد ويا عهدُ لا تحُلْ ويا دمـعُ لا تجمدْ ويا سقـم لا تبـــرا

فالرسالة إذن قصيدة في وصف الطلل، من جزأين: نثري وشعريّ، وتجمعهما المعاني الرثائية.

ولأبي حفص عمر بن الشهيد(كان موجودًا في حدود سنة 440هـ) مقامة في وصف رحلة قام بها في الأندلس، يعرّج في فصل منها على بيت بدويّ فيصفه شعرًا ونثرًا، ويضمن-مع التحوير في الضمائر- بيتاً لامرئ القيس من معلقته، ومن ذلك قوله: "ومِلنا إلى منزل بدويّ، ذي هيئةٍ وزيٍّ: (الطويل)

له منزلٌ رحبُ عريضٌ مُزَرَّبٌ بأعواد بلّوطٍ وطَوْجٍ مُفتَّلِ
تَرى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتِه وقيعـانِه كأنَّـهُ حَـبُّ فُلْفُلِ"(1).

أما بيت امرئ القيس في معلقته فهو(2):

ترى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتِها وقيعانِها كأنَّـهُ حَـبُّ فلـفلِ

فغيّر في ضميري "عرصاتها" و"قيعانها"، لتصبح"عرصاته" و"قيعانه"؛ لأنّ امرأ القيس يصف المنازل، في حين أنَّ أبا حفص يصف-ساخرًا- بيتًا بدويًّا.

---

(1) الذخيرة، 676/2/1- 677 . الطوج: الحلفاء.

(2) شرح المعلقات، ص 24 .

وصف المرأة:

يصف السرقسطيّ جارية في مقامته الفارسيّة، وهي المقامة الثانية عشرة، وصفًا لا يختلف عن وصف الشعراء الجاهليين للمرأة، ومن ذلك قوله فيها بأنها: "رائعة الجمال، باهرة الكمال،..، مثلِ القمر التمام، مفدَّاةٍ بالأخوال والأعمام، تفترُّ عن شنيب كالبَرَد، وتهتزُّ عن قوام كسيف الصَّيْقَل الفَرَد ..، و(لها) خصرٌ بَتيلٌ كما لُوي الفتيلُ، وكفْلٌ رَدَاحٌ، كما انداح من الرمل مُنْداح، ورِدفٌ ميَّاسٌ كما تعاقب الرجاءُ والياسُ، وما شئتَ من لفظ رخيم، ودلٍّ غير وبيلٍ ولا وخيمٍ.."(1).

ويشير السرقسطي في قوله: "وتهتزُّ عن قوام كسيف الصَّيْقَل الفَرِد" إلى قول النابغة في وصف الثور الوحشيّ(2): البسيط

من وحشِ وجرةَ مَوْشِيٍّ أكارعُهُ طاوي المصير كَسَيفِ الصَّيْقَل الفَرَدِ

والسرقسطيّ هنا ينقل موضوع الشعر من وصف الثور إلى وصف قوام الجارية.

ويتحدث السرقسطي في مقامته الحادية والعشرين عن رحلاته ومغامراته من بلد إلى بلد، ويصف الليل الذي لا يختلف عن ليل امرئ القيس، وفي إحدى مغامراته يلتقي قينة، ويذكر صدودها ورحيلها وأثر ذلك في نفسه، ويصفها-نثرًا وشعرًا- بصفات لا تختلف عن صفاتها الموروثة في الشعر الجاهلي، من ذلك قوله في نثره: "بقينةٍ كالشمس، مُفدّاةٍ باليوم والأمس، تهتزُّ عن قضيبٍ بان، وتنطقُ عن فصاحةِ سَحبان، بلفظٍ رخيمِ الحواشي، لا هَراءٌ ولا نَزْر،..، إلى مَبْسَمٍ أقاحٍ، ودلٍّ وَقاحٍ، وخدٍّ خَجِل، وطَرفٍ وجِلٍ، وشمائلَ أندى من الزَّهْرِ"(3).

---

(1) مقامات السرقسطيّ، ص 165-167 . وينثر أبو حفص عمر بن الشهيد في مقامته- بعد وصف دير من الأديرة- كثيرًا من صفات الشعراء الجاهليين للمرأة، الذخيرة، 1/2/681-683 .

(2) شرح المعلقات، ص 229 .

(3) مقامات السرقسطي، ص 267 .

الشكوى من الشيب:

ومن مضامين النثر الأندلسيّ وأغراضه: الشكوى من الشيب، وقد كتب بعض الأندلسيين فصولا وفقرات، تتعلق بمعاني الشعراء الجاهليين، في الشكوى من الشيب، وإعراض النساء عن كبير السنّ، وعن قليل المال؛ فهذا الوزير أبو محمد بن عبد الغفور(-تقريبًا531هـ)، كان يمدح المرابطين، له فصل من رقعة، يقول فيه: "كنت قبيل هذا المشيب الذي علا، والشباب الذي تولى، كريمًا على ذوات الطُّلى، لا يتعرَّضْنَ فيَّ لمكان القلَّة بِلَوْلا؛ ولمَّا أطار غرابَ الشباب بازُ المشيب، ورُحتُ رثَّ الجلباب بعد كل شَخْتٍ قشيب، سمعتُهنَّ حينًا يتبرَّمْنَ، وحينًا يترنمن، إلا أنهن يُجمجمن ولا يُترجمن، وبفضل حاستي -ولله الفضل- ما فهمتُ الوزن، فلما استقريْتُ لتعرُّف حروفه السهلَ والحَزْنَ، عَثَرَ لهَجي في تطلّب تلك الضالة بلعلّ وعسى، بقول الملك الضليل: "ألمَّا على الرَّبع القديم بعَسْعسا"، ولم أزلْ بعدُ مُحَدَّثًا موسوسًا، حتى سقط بي اليقين على قوله "وقوَّسا"، وفي صدر هذا الرويّ "أراهنّ لا يُحْببنَ من قلَّ ماله"، وإذا قوَّسَ ظهرُ المرءِ فقد استحالَ جمالُه، فإذن قاتلهنَّ الله يحببن القبيحَ ذا المال، والفقيرَ ذا الجمالِ"(1).

وهذه المعاني لا تبعد كثيرًا عن معاني الشعراء الجاهليين من مثل قول امرئ القيس(2): الطويل

أراهُنَّ لا يُحبِبنَ مَن قَلَّ مالُهُ ولا مَن رَأَينَ الشيبَ فيهِ وَقَوَّسا

وقول علقمة الفحل(3): الطويل

فإن تسألوني بالنساءِ فإنَّنـــــي بَصيرٌ بِأدواءِ النساءِ طبيبُ

إذا شابَ رَأسُ المَرءِ أو قلَّ مالهُ فليسَ لهُ مِن وُدِّهنَّ نَصيبُ

يُرِدنَ ثراءَ المالِ حَيثُ عَلمنَهُ وشَرخُ الشبابِ عندَهُنَّ عَجيبُ

ولابن خفاجة(-533هـ) فصل في الشيب والشباب، يقول فيه، مثنيًا على محاسن الشباب، ويضمن نثره بيتًا لدريد بن الصمة في رثاء أخيه: "ألا إنما الدنيا دارُ كونٍ وفساد، وسوقُ نفاق وكساد، والعمرُ بالإنسان مضطربٌ، والمرءُ موجٌ مع الأيام منقلبٌ، وإن للشبيبة صبوة، وللحداثة هفوة، وقصارى الطيش ركانة ووقارٌ، وأولُ قرحِ الخيلِ المعارُ، ولم أر كالشباب مطيةً للجهل، ولا كالمشيب فطنة للعقل،..: (الطويل)

صَبا ما صَبا حتى عَلا الشيبُ رأسَهُ فلمّا عَلاهُ قالَ للباطلِ ابعُدِ"(4).

---

(1) الذخيرة، 701/2/2 .

(2) ديوانه، ص 107 .

(3) ديوان علقمة الفحل، ص 35-36، وينظر في مثل هذه المعاني: الأصمعيات، ص 127، 178، 195، 274، وديوان الأعشى، ص 133، 151، 205، 245، 277، 362، 411 .

(4) الذخيرة، 558/2/3، والبيت لدريد بن الصمة في رثاء أخيه، ديوانه، ص 69، والأصمعيات، ص 114 .

وصف الفرس:

وصف السرقسطيّ في مقامته الفرسيّة، وهي الثانية والأربعون، الفرس بما ذكره الشعراء الجاهليون من صفات الخيل الأصيلة، ولا يكاد يترك صفة ذكرها الشعراء إلا حشدها في هذا الفرس، ولم يكن في الحقيقة سوى بغل هزيل، وجلد على عظم. وبهذه الأوصاف استطاع السدوسيّ من خداع السائب ومقايضته إياه بثمن باهظ، وقد اختار السدوسيّ الليل وقتًا لعقد صفقته. فهذا الفرس سريع كالبرق الخاطف! وهو من "العتاق اليعابيب" المكرمة، التي لا تعرض للبيع، والتي "تسمو بأيديها سَبْحا،..، والماءُ يَنسابُ منها على الأكفال والمُتون، كما ينهلُّ صائبُ المزن الهتون. وهي تتجاوبُ صهيلا ونحيمًا وتُسْعِرُ من نشاطها سعيرًا وجحيمًا"، وهو: "ابنُ الوجيه ولاحق، هذا اللحوقُ لكلِّ لاحق"، و"أين منه داحسٌ والغبراء،.."؛ ويصف أعضاءه من مثل قوله: "وعَيْنٌ كمرآة الصَّناعِ، يُديرُها بِمَحْجَرها من القِناع، ومنخر كوِجار السِّباع، ومُغار الضِّباع. وأُذنٌ حَشْرٌ، لا طيٌّ ولا نَشْر، كورق البرير، أو السنان الطرير(المحدد)، صادقةُ السَّمْع، وادقةُ اللَّمْع، تُحسُّ وَطْءَ الذرِّ، وتُؤذِن بالخير أو بالشر، وجمجمةٌ كالعَلاةِ، أو السعلاة بالفلاة، إلى جِرانٍ كالإران، وجوفٍ هَواء، وأضلاع رواء. إذا أقبل أو أدبرَ حدَّثَ عنه الحسْنُ وخبَّرَ.."(1). ومثل هذه الصفات للخيل متوافرة بكثرة في أشعارالجاهليين(2).

حتى إنّ الكاتب أخلاه مما عيب على فرس امرئ القيس، في قوله(3): الطويل

فللساقِ أُلهوبٌ وللسَّوطِ دِرَّةٌ وللزَّجرِ مِنهُ وَقعُ أَهوَجَ مِنْعَبِ

فقال السائب مخاطبًا الفتى: "وهذا السوطُ فأينَ الشَّوْطُ.فقال: مثلُه لا يُبعَثُ بسَوْطٍ ولا زجْرٍ"(4).

---

(1) مقامات السرقسطي، ص 465 .

(2) ينظر: شرح المعلقات لامرئ القيس، ص 35-37، ومعلقة عنترة، ص 159-160، ومعلقة النابغة، ص 233، وديوان علقمة الفحل، ص 73،47-، 88-. وديوان عامر بن الطفيل، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، دار صادر، بيروت-لبنان،1399هـ-1979م، ص 32-، 95-، ويفيد السرقسطي أيضا من وصف طرفة للناقة، وأبيات الناقة لطرفة في المعلقات العشر للشنقيطي، ص 51- 57،هي الأبيات ذات الأرقام: 12 "أمون كألواح الإران..."، 20 "وَطيّ مَحال.. وأَجْرِنةٌ لُزّتْ.."، 30 "وجُمْجمةٌ مثلُ العَلاة.."، 32 "وعَيْنانِ كالماويتيْن.." ، 34-35 "وصادقتا سَمْع التوجّس للسُّرى.."، "مُؤللتان...". وينظر في أوصاف الخيل وصورتها: محمد عبد القادر أحمد، طفيل الغنوي حياته وشعره، ص 191- . وينظر في صورة الحصان: أحمد إسماعيل أبو يحيى، الخيل في قصائد الجاهليين والإسلاميين، راجعه ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1، 1417هـ-1997م، ص 119- .

(3) ديوان امرئ القيس، ص 51، المِنْعَب: الذي يستعين بعنقه في الجري ويمدّه.

(4) مقامات السرقسطي، ص 466، فوجد السائب في الصباح هذا الفرس كما يقول: "لا عَيْرٌ ولا فرسٌ، ولا صهيل ولا جرس، جلد قد تخدّد، ولحم قد تبدد..، قد خَضَبَهُ بالحِنّاء والوَرْسِ خاضبٌ.."، ص 471 .

رسائل طردية:

كتبَ أبو عبدِ الله محمدٌ، المعروفُ بابنِ الحنّاطِ (-437هـ) رسالة شعرية نثرية، وهي رسالة طردية طويلة، يصف في جزء كبير منها الظباء وصيدها، ووصف مُعَرّس القوم وأكلهم وشربهم فيه، ووصف الساقي، وقد أكثر فيها من استعارة معاني الشعر الجاهليّ استشهادًا وتضمينًا وحلا، خاصة من وصف امرئ القيس للصيد على فرسه.

ومن ذلك قوله: " فلما توسطنا وَهَدَاتِ الرُّبا، عنّت لنا أسراب الظِّبا، كأنّما أُلبِسْنَ الدِّمَقسَ سِرْبالاً، واتخذنَ السندسَ سِروالاً..، فأرسلنا أولى الخيل على آخرها، وخلّيناها إياها، فمضتْ مُضيّ السِّهام، وهوتْ هُويّ السِّلام، وهي تجولُ في أجوالها يمينًا وشمالاً، فكأنّما أنتجت لآجالها آجالاً، فغادرناها بين جريح مضرّج بدمائه، وقتيل يجود بِذَمائه... .

فنزلنا مُعَرِّسين، وأقمنا مُخيِّمين، وشبَّتِ النارُ، وتناثر الشَّرار: (الطويل)

وظلَّ طهاة اللّحم من بين مُنْضِجٍ صفيفَ شواءٍ أو قديرٍ مُعجَّلِ

فلما قرب، وصُفّ الشواءُ وصُهِبَ، تعاطينا لحمًا كالعقيق، وتهادينا شحمًا كالشقيق، ثم قام كلٌّ إلى جواده يمَشُّ بعُرفه كفّيه، ويمسحُ نِسْعَه بين عينيه"(1).

ويفيد الكاتب في هذا الوصف النثريّ من ألفاظ الشعر الجاهلي ومعانيه، من مثل قول امرئ القيس من معلقته، في قوله في يوم دارة جلجل(2):

فظلَّ العَذارى يَرتَمينَ بِلحمِها وشَحمٍ كهُدّابِ الدِّمَقسِ المُفَتَّلِ

وقوله من أبياته في وصف الفرس والصيد والشواء(3):

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعًا كجُلمودِ صخرٍ حَطَّهُ السيلُ مِن عَلِ

- فعَنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نِعاجَهُ عَذارى دَوارٍ في مُلاءٍ مُذيَّلِ

- فظلَّ طهاةُ اللحمِ من بَين مُنضِجٍ صَفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ

---

(1) العماد الأصفهاني، الخريدة، (التحقيق المعتمد في الدراسة)، 4/2/223-224، والعماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب، القسم الثاني، تحقيق آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، محمد العَروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، 1971م، ص 297-298 .

(2) شرح المعلقات، ص 26 .

(3) السابق، ص 35- 38 ، وينظر مثله: ديوان علقمة الفحل، ص 92- .

ومن قوله في قصيدة أخرى بعد مغامرة صيد على فرسه(1): الطويل

نَمُشُّ بأعرافِ الجِيادِ أَكُفَّنا إذا نَحنُ قمنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ

ومن قول زهير في الصيد(2): الوافر

فشَجَّ بها الأماعِزَ فهيَ تَهوي هُوِيَّ الدّلوِ أَسلمَها الرِّشاءُ

وقوله زهير من القصيدة نفسها، يصف حال أصدقائه النشاوى:

يَجرّونَ البُرودَ وقَد تَمَشَّت حُمَيّا الكأسِ فيهِم والغِناءُ

ومن قول عبْدةَ بنِ الطبيبِ، يصف الصائدَ مع كِلابه(3): البسيط

فضَمَّهُنَّ قليلا ثمَّ هاجَ بِها سُفعٌ بِآذانِها شَينٌ وتَنكيلُ

وحين شبَّ القتال بين الكلاب والثور الذي كانت له الغلبة:

وَلّى وصُرِّعنَ في حَيثُ التَبَسنَ بِهِ مُضَرَّجاتٌ بأجراحٍ ومَقتولُ

ثم يصف حفلة الشواء من مثل قوله:

- لمّا وَرَدنا رَفَعنا ظِلَّ أَردِيَةٍ وَفارَ بِاللَحمِ لِلقَومِ المَراجيلُ

وردًا وأشقَرَ لم يُنهِئهُ طابخُهُ ما غَيَّرَ الغَليُ مِنهُ فهوَ مأكولُ

ثمّتَ قمنا إلى جُردٍ مُسَوَّمَةٍ أَعرافهُنَّ لأيدينا مَناديلُ

ويصف عبدة في قصيدته هذه مجلس الكؤوس والشرب، والقينة الساقية.

ثم يصف الكاتب مجلس الشراب مع الندامى، يتعاطون الكؤوس والدِّنان، ويصف الساقي التي تشبه صورته صورة قينة من قيان الأعشى، أو إحدى فتيات امرئ القيس، ويتغزل به، من مثل قوله: "كأنّ الجُلَّنارَ(زهر الرمان) من خدّه خُلقَ، والأقحوانَ من ثغره سُرِقَ، ذو خصر جَوّال الوشاح،..، لو مشى الذَّرُّ عليه لأدماه، أو جرى النَّفَسُ عليه أجراه"(4).

وهذه الصفات موجودة في أشعار الجاهليين بكثرة، كقول الأعشى في وصف الأسنان بالأقحوان(5): الخفيف

وشَتيتٍ كالأقحوان جلاهُ الـ طَّلُّ فيه عذوبةٌ واتِّساقُ

---

(1) ديوان امرئ القيس، ص 54، من قصيدة مطلعها:

خَليلَيَّ مُرّا بي على أُمِّ جُندَبِ نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

(2) ديوان زهير، ص 150 .

(3) المفضليات، ص 139- .

(4) العماد الأصفهاني، الخريدة، 225/2/4 .

(5) ديوانه، ص 259، وينظر: ص 127، 203، 403 .

وقوله في جولان الوشاح حول خصرها(1): الطويل

يَجولُ وشاحاها علـى أَخْمَصَيْهما إذا انفتَلتْ جَـالاً ً عليـها يُجَلجِلُ

وقول امرئ القيس في الغزل(2): الطويل

مِنَ القاصِراتِ الطرفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ مِـنَ الذرِّ فوقَ الإتبِ مِنها لأَثـرا

فليس غريبًا من الكاتب أن يتأثر بالشعر الجاهليّ ، إذ كان يوصف في مصادر الأدب بأنه عالم نحرير بالشعر الجاهليّ.

هذا غيض من فيض من الأمثلة، التي تعطي تصورًا عامًّا عن مدى تأثر النثر الأندلسيّ بالشعر الجاهليّ. وإنّ المقامات الأندلسية، خاصة مقامات السرقسطيّ، بحاجة إلى دراسة مستقلة جادة موسّعة لمقابلتها بالشعر الجاهليّ، فأغلبها تلفيق لقصص جاهلية مقتبسة من القصص الواردة في الشعر الجاهليّ.

(1) ديوان الأعشى، ص 403، جالا جائلا حال للوشاح، أخمص البدن وسطه.(في البيت إقواء لأن قافية القصيدة مكسورة)

(2) ديوانه، ص 68، من قصيدته التي مطلعها:

سما لكَ شوقٌ بعدَما كانَ أقصَرا وحَلَّت سُلَيمى بَطنَ قَوٍ فعَرعَرا

خـاتـمـة

يظهرُ في ما تقدمَ من صفحاتِ هذه الدراسةِ أنّ الأندلسيين -على اختلافِ بيئتهم عن بيئة إخوانهم المشارقةِ- ظلوا على اتصالٍ وثيقٍ بفكر أمتهِم العربيةِ والإسلامية، فحاكوا عناصرَ قوتهم في كثير من فنون الإبداع، فوعوا آدابَهم، وفي مقدمته الشِّعرُ الجاهليّ: حفظًا ورواية ودراية، ودرسًا، وتمثلا، ومعارضة. وفي جانب من جوانبِ استعارةِ الأندلسيين أسماءَ حواضرِ الشرقِ، وألقابَ الخلفاءِ، والأدباءِ، وتشابهِ التآليف، ضربٌ من الانتماء، فضلا عن الاعتراف بسبق المشارقةِ وتفوّقهم في الحضارة، والبحث والتأليفِ.

ولأنّ الشعرَ الجاهليَّ هو الأصلُ الذي انبثقتْ منه عناصرُ القوة الفنيّة، فقد أولاه الأندلسيون عناية عظيمة، فتمثلوه في شعرهم ونثرهم؛ فقد احتذى كثيرٌ من الشعراء طريقته في النظم: في الجزالة اللغوية عمومًا، ووضوحِ المعاني وبعدها عن التفلسف، وشيوع الغريب في بعض الموضوعات، والصور البدوية-مع أنّ الأندلس لم تعرف البداوة-، والبعد عن تكلف البديع، فضلا عن التقديم للقصائد بمقدمات تقليدية تقترب في بعضها من مقدمات القصائد الجاهلية.

وربما كان ابنُ شهيد وابنُ حمديس من أكثر الشعراء الأندلسيين التزامًا بالتقديم للقصائد بمقدمات تقليدية قريبة من مقدمات الشعراء الجاهليين في رسومها وعناصرها.

وإنّ إعجابَ الشعراءِ الأندلسيينَ بالشعر الجاهليّ جعلهم يحاكونه، ويأخذون من معانيه وأساليبه، في موضوعات الشعر المختلفة، ويضمّنون شيئًا منه في أشعارهم. وظهر أنَّ أكثر موضوعات الشعر الأندلسي تأثرًا بالشعر الجاهلي هي: المديح والرثاء والغزل، وبعض جوانب الفخر، وأفادوا من الحكم والأمثال الشعرية.

لقد أفادَ الشعراءُ الأندلسيونَ في مديحهم من الشعر الجاهليّ، ورسموا صورة للممدوح لا تبتعد كثيرًا عن صورته في الشعر الجاهلي؛ وحَرَصوا على أن يربطوا بين ممدوحيهم وأعلام الجاهليين الذين تُضرب بهم الأمثال: في الكرم والشجاعة والسؤدد؛ وكانوا واعينَ بهذه الأعلام، وبالأشعار التي قيلت فيهم. وتأثر الشعراء الأندلسيون في مدائحهم بالشعر الجاهليّ- بعامة- في أخذ الألفاظ والمعاني والأساليب المدحية، مع تفاوتهم في حسن الأخذ وقبحه. وواضح أنَّ أكثر هذا التأثر كان بشعر زهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني. وشاع أسلوبُ المدح بالمفاضلة، على مذهب زهير والخنساء، في شعر كثير من الشعراء الأندلسيين، ومنهم ابن وهبون، وابن زيدون.

وشاعت بعضُ مظاهر الفخر التي كانت سائدة في الشعر الجاهليّ في أشعار الأندلسيين، كالفخر بالمثل الخلقية العربية الأصيلة من الكرم والحفاوة بالضيف، والعفة، والحلم، والشجاعة واحتمال الخطوب والثبات والعزم والإباء. ولعلّ أقرب الشعر الفخريّ الأندلسيّ شبهًا بالفخر

الجاهليّ هو شعر ابن شهيد في الحفاوة بالضيف، الذي يقترب من أسلوب شعر حاتم الطائيّ، خاصة في أسلوب القصّ والحوار، حتى أضحى شعر ابن شهيد في إكرام الضيف يُحتذى من بعض الشعراء الأندلسيين. وقد يفيدون من أشعار الجاهليين في غير غرض الفخر، فيستعيرون المعاني والألفاظ ويوظفونها في الفخر، وقد يعكسون المعاني المأخوذة، وشهر بذلك كثير من الشعراء مثل ابن عبدون والأعمى التطيلي.

وقد حاكى الأندلسيون في بعض نظمهم في الحكم والأمثال، أو ما يجري مجراها حكمَ الجاهليين وأمثالهم، وقد أحسن بعضهم في المحاكاة بالزيادة على المعنى الأصلي أو تكثيفه أو وضعه في قالب حواريّ، وقصَّر بعضهم الآخر. وكان أكثرُ حكم الجاهليين وأمثالهم دورانًا في أشعار الأندلسيين هي حكم وأمثال بعينها لزهير وعدي ودريد. وإنَّ ابن زيدون من أكثر الشعراء تأثرًا بحكم الجاهليين وأمثالهم في شعره ونثره.

وأفادَ كثيرٌ من الشعراء الأندلسيين في رثائهم للأشخاص أو الدول والمدن، من معاني الشعر الجاهليّ: في شكوى الدّهر، وذكر مآل الخلق، وضرب الأمثال بالأمم الزائلة والممالك الهالكة، والحصون المنيعة، وعظماء الناس الذين أبادهم الدهر، بغية التأسي والاعتبار من الماضي، وهذه المعاني جاءت في الشعر الجاهليّ –خاصة في شعر الأعشى-موزعة في بعض ثنايا المراثي، وفي قصائد قيلت في غير غرض الرثاء. فأفاد كثير من الأندلسيين من هذه المعاني، في مراثيهم، من مثل ابن زيدون، والإلبيري، وابن اللبانة، وابن عبدون، والتطيلي، وابن حمديس، مع تباينهم في الإطناب، والاقتضاب في الاعتبار من الماضي.

واحتذى الشعراءُ الأندلسيونَ في كثير من مراثيهم أساليبَ الشعراء الجاهليين في الرثاء، وأفادوا كثيرًا من معانيهم وصورهم. وتشابهت أغلب الفضائل التي خُلعت على المرثيّ؛ وقد يزيد الأندلسيون عليها بعض المناقب. وقد تأتي هذه الفضائل مفصلة، أو مختصرة ببعض الألفاظ؛ ولكنّ الأهم من ذلك تشابه الأساليب في ذكرها، كتوظيف أسلوب الاستفهام الرثائي، وصيغ الأمر الرثائية. كما تشابهت صورة المرثيّ وأخلاقه كثيرًا، وصورة المنية كذلك. وتشابهت بعض أشعارهم في المبنى دون اللفظ والمعنى، أو في المبنى والمعنى.

وشابهتِ المراثي الأندلسيةُ مراثيَ الجاهليينَ في شيوع بعض الظواهر المعنوية والفنية: كالاستسقاء لقبر الميت، واستعارة أسطورة بكاء الحمامة على هديلها، منذ عهد نوح، لحال الشاعر البكَّاء على الفجيعة التي حلَّت به؛ وتكررت هذه الاستعارة في شعر غير شاعر أندلسي، ومنهم الأعمى التطيلي وابن خفاجة.

وندبَ بعضُ الشعراء أنفسهم وناحوا عليها وبكوها، من مثل ابن شهيد والإلبيري، وحاكوا في ذلك بعض الشعراء الجاهليين، وتشابهوا-عمومًا- في تأكيد حتمية النهاية للإنسان، والرغبة في

تخليد الذكر الطيب للشعراء، وبث أبيات الحكمة في ثنايا المراثي، وفي تنويع الأساليب اللغوية.

وظلَّ الغزلُ في الشعر الأندلسيّ متأثرًا بغزل الشعراء الجاهليين، في الألفاظ والمعاني والصور والأساليب، ويفيد أحيانًا من أشعار الجاهليين في غير غرض الغزل. وسار بعض الشعراء الأندلسيين على طريقة امرئ القيس والأعشى، في لفّ الغزل بالحماسة بأسلوب قصصيّ؛ ولعلّ أكثرَ شاعرين أبدعا في هذا القصّ الغزليّ في الأندلس هما ابن شهيد وابن زيدون، في بعض مقدمات القصائد المدحية. وظلت صورة المرأة في شعر الأندلسيين مشابهة لصورتها في الشعر الجاهليّ، خاصة في الصورة البصرية، والكنائية. وظلَّ غزلُ امرئ القيس، خاصة في معلقته، حاضرًا على ألسنة كثير من الشعراء الأندلسيين، كابن عبد ربه، وابن مقانا الأشبوني، وابن حصن الإشبيلي، وابن زيدون، وأبي بكر الداني (ابن اللبانة)، وابن الزقاق البلنسيّ، وابن خفاجة، وأبي بكر يحيى بن بقي.

وإنّ بعضَ الشعراءِ يستعيرُ من ألفاظ الشعر الجاهليّ ومعانيه الواردة في موضوعات شتى من غير غرض الغزل ويوظفها في الغزل، أو العكس، فيستعير بعضهم تشبيهات غزلية، ويوظفها في غرض آخر. وقد يستعير بعضهم الصفة ويلصقها بموصوف آخر غير الذي وضعت له في الأصل؛ وما هذا التحوير والتوجيه إلا محاولة لإخفاء الأخذ، أو لتحسينه. وممن ولع بتحسين المعنى بالتعليل، أبو إسحاق الإلبيري، خاصة في موقف النساء من الشيب والشباب.

وإنَّ كثيرًا من شعر الأندلسيين ونثرهم، خاصة في الغزل، وبالأخص في صورة المرأة، هو تلفيق أو التقاط ما تفرّق من المعاني والصور لدى الشعراء الجاهليين.

وقد ضمَّنَ كثيرٌ من الشعراء الأندلسيين شعرَهم شيئًا من نظم الجاهليين. وكانوا واعين بمعاني الشعر المضمَّن، وبالقصائد التي أخذ منها هذا الشعر. وجاء أغلبُ الشعر المضمن من الأمثال الشعرية الشائعة والحِكم، أو ما يجري مجراها. ومن الشعراء الأندلسيين من شطّرَ بعض أبيات قصائد لشعراء جاهليين، فأحسن توظيف المعاني في النصّ الجديد من مثل عبد المجيد بن عبدون، ومنهم من لم يكن يعني لديه التشطير كثيرًا في مجال التأثر، بقدر ما هو من قبيل التدرّب على قول الشعر؛ من مثل ابن حزم الظاهري.

ويظهرُ أنَّ الشعراءَ الأندلسيين أكثروا من معارضة قصائدَ لشعراء من العصر العباسيّ، التي تلتزم غالبًا في بنائها الفنيّ نهج قصائد الجاهليين وتقاليدها؛ فعارضوا قصائد للمتنبي؛ لأنّ المنهج الشعريّ الذي اختطه ينزع عمومًا إلى المحافظة على التقاليد الشعرية الموروثة منذ الجاهلية، كافتتاح القصائد بمطلع تقليدي، وتكرار كثير من معاني الشعراء الجاهليين وصورهم.

وقد عارضَ بعضُ الشعراءِ الأندلسيين شيئًا من الشعر الجاهليّ، خاصة شعرًا لأبي قيس بن الأسلت وامرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم، وجاءت أغلب هذه المعارضات جزئية، وقد جاء بعضها من قبيل المناقضات. وكانت المعارضة عند بعضهم، مثل ابن عبد ربه، ضربًا من ضروب التعليم؛ لذلك ظهر التكلف بوضوح في معارضاته، خاصة في عروضياته، وعند ابن شهيد، ضربًا من التحدي المقصود؛ لذلك حَرَص على التجويد ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ وهو من أكثر الشعراء الأندلسيين معارضة للشعر الجاهليّ، لما عرف عنه من اعتداده بنفسه وبأدبه. ولعلّ ما يدعو شاعرًا إلى معارضة شاعر آخر هو تشابه التجربة الشعورية بينهما، كما حصل مع ابن شهيد وابن لُبُّون في معارضتهما لقصيدة بعينها لامرئ القيس. وبدا أنّ تجربة ابن لبّون هي الأقرب إلى تجربة امرئ القيس من ابن شهيد، فجاءت عاطفته أقرب إلى الصدق.

وتكشّفَ من دراسة ظاهرة معارضة الأندلسيين للشعر الجاهليّ مدى اطلاعِ الأندلسيين على بيئة الشعر الجاهليّ، وإعجابهم وتأثرهم بألفاظ الشعراء الجاهليين، ومعانيهم، وأساليبهم اللغوية والبيانية، وتشبيهاتهم وصورهم، وأوزانهم وقوافيهم، بالإضافة إلى البناء الفنيّ للقصيدة.

وتأثرَ الأندلسيونَ بالشعر الجاهليّ، في نثرهم الإنشائيّ الفنيّ، الذي يتمثل بوضوح في الرسائل الفنية والمقامات، وفي نثر بعض الأدباء في تواليفهم الأدبيّة، خاصة نثر ابن بسام في الذخيرة. وشاعت هذه الكتابة الإنشائية في الرّبع الأخير من القرن الرابع الهجري؛ وازدهرت في عهد الطوائف والمرابطين. وقد حظيت الرسائل بعناية أغلب الشعراء الأندلسيين؛ إذ إنّ أكثر أدباء الأندلس كانوا يجمعون بين نظم الشعر وقول النثر، كابن دراج وابن شهيد وابن الحنّاط، وابن زيدون وابن حزم، وابن خيرة القرطبي المشتهر بالمنفتل، وأبي محمد بن مالك القرطبي، وابن عبدون، وابن خفاجة، والأعمى التطيلي، وابن بسام، وابن أبي الخصال، فأشبه نثرُهم شعرَهم؛ وخاضوا في شتى الموضوعات، من مدح وفخر وهجاء ووصف، وغزل، واعتذار واستعطاف وعتاب، وشكوى وشوق وحنين، وتهكم ودعابة، واستصراخ واستغاثة، وتهديد ووعيد.

وإنَّ أغلبَ الناثرينَ كانوا يوشّحونَ كتاباتِهم بالشعرِ الجاهليّ: استشهادًا وتضمينًا وحلا، وأخذ ألفاظه ومعانيه، والإفادة من أساليبه. وقد أحسنوا-غالبًا- في استعارة الأشعار، ووضعها في محلها في النثر بما يناسب النصّ الجديد، ما ينبئ عن إلمام كبير، وحفظ جمّ، وثقافة بالموروث الشعريّ الجاهليّ واسعة، وبأعلامه وأخبارهم وبيئتهم.

وقد يكونُ الشعرُ المضمّنُ جزءًا لا يتجزأ من النسيج اللغوي للكاتب، متممًا للمعاني؛ وقد يكون مؤكدًا لها، وقد يأتي جزءًا من الصورة الأدبية النثرية. وقد ينقل الكاتب معنى الشعر المضمّن من غرضه الأصليّ إلى غرض آخر، وقد يحوّر بعضَ الضمائر لتتسق مع معانيه وتراكيبه الجديدة.

ويشي هذا التضمين بمعرفة الكاتب بالقصائد التي ضُمِّن منها البيت أو الأبيات. وقد يكون مقصد الكاتب أن يرجع المتلقي إلى تلك القصائد ومعانيها.

ولكثيرٍ منَ الناثرينَ اهتمامٌ كبيرٌ بحلِّ المنظوم، فحلوا شيئًا من موزون الشعر الجاهليّ: بلفظه، بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، بزيادة في لفظه، أو بغير زيادة، أو حله بحذف بعض لفظه؛ وبصياغة المعنى بألفاظ جديدة. وللأندلسيين طرق خاصة أخرى في حل المنظوم. ولعلّ أكثر طرق الحلِّ شيوعًا في نثر الأندلسيين هي بتوجيه الشعر وجهة أخرى، ونقل الصفة إلى موصوف آخر. والحال نفسها كانت في حلّ الأمثال الشعرية الجاهلية، وقد أحسن بعض الناثرين في التمثل ببعض قصص الأمثال، ووضعها في محلها اللائق في النص الجديد، بتقديم فرش ملائم؛ ليأتي المثل جزءًا من الكلام الجديد وليس غريبًا عنه.

ويبدو أنَّ كثيرًا من موضوعات النثر الفنيّ الأندلسيّ متأثرٌ بالشعر الجاهليّ، خاصة في المدح والاعتذار والعتاب والفخر والوصف. ويبدو كذلك أنّ مقاماتِ السرقسطيِّ خاصةً، تعجّ بألفاظ الشعر الجاهليّ، ومعانيه وصورِه، والقصصِ الواردةِ فيه. وللأندلسيين رسائلُ مدحيةٌ واعتذارية، ومقاماتٌ، تنهجُ في بنائها العام وكثيرٍ من مضامينها نهجَ القصيدة الجاهلية ومضامينها، حتى تجلى أنّ بعضَ الرسائلِ النثرية الشعرية هي من قبيل المعارضة الجزئية لبعض القصائد الجاهلية، وقد تفيدُ الرسالةُ الواحدة من عدةِ قصائدَ جاهليةٍ.

* * * *

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أوّلا- المصادر:

ابن الأبّار، أبو عبدالله القضاعيّ، (ت658هـ). **تحفة القادم**، ط 1، (أعاد بناءه وعلق عليه إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ-1986م.

_____ **التكملة لكتاب الصلة**، في جزأين متتابعي الصفحات، (عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني)، مطبعة السعادة، مصر، 1375هـ-1955م، والجزء الثاني 1956م.

_____ **الحُلّة السِّيَراء**، في جزأين، (حققه وعلّق حواشيه حسين مؤنس)، ط1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

ابن الأثير، نصر الله ضياء الدّين، (ت637هـ). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، 2ج، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1411هـ-1990م.

الأصبهانيّ، أبو بكر محمد بن داود، (ت297هـ). **الزهرة**، 2ج، (حققه وقدّم له وعلّق عليه إبراهيم السامُرائيّ)، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1985م.

الأصمعيّ، أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك، (ت216هـ). **الأصمعيات**، (تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون)، دار المعارف، مصر، 1375هـ-1955م.

الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، **ديوانه**، ط 7، (شرح وتعليق محمد محمد حسين)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ- 1983م.

الأعمى التطيليّ، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، (ت525هـ). **ديوانه**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1963م.

الإلبيريّ الأندلسيّ، أبو إسحاق، (ت460هـ). **ديوانه**، ط2، (حققه وشرحه وقدم له محمد رضوان الداية)، دار قتيبة، دمشق، 1401هـ-1981م.

أميّة بن أبي الصّلت، **ديوانه**، جمعه وحققه وشرحه سجيع جميل الجبيلي، ط1، دار صادر، بيروت، 1998م.

أوس بن حَجَر، **ديوانه**، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، ط2، دار صادر، بيروت، 1387هـ-1967م.

البحتريّ، أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى، (ت284هـ). **الحماسة**، ط2، (اعتنى بضبطه ووضع فهارسه لويس شيخو)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1967م.

_____ **ديوان البحتريّ**، 4 مجلدات، المجلد الرابع، (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1963م.

ابن بدرون الحضرميّ البستيّ، أبو القاسم عبد الملك بن عبدالله، (ت610هـ). **شرح قصيدة ابن عبدون، المعروفة بالبسّامة، في التاريخ والأدب**، ط 1، طبع على نفقة الشيخ محيي الدين الكرديّ، مطبعة السعادة، القاهرة، 1340هـ-1921م.

ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي، (ت542هـ). **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، 8 مجلدات، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1399هـ-1979م.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، (ت578هـ). **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، ط2، في جزأين متتابعي الصفحات، (عُني بنشره وصححه وراجع أصله السيد عزت العطار الحسيني)، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1414هـ- 1994م.

تأبّط شرًّا، **ديوانه**، ط1، (إعداد وتقديم طلال حرب)، الدار العالمية، بيروت، لبنان، 1414هـ-1993م.

الثعالبيّ النيسابوريّ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، (ت429هـ). **يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر**، ط1، (شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1403هـ-1983م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت255هـ). **المحاسن والأضداد**، ط1، (شرح يوسف فرحات)، دارالجيل، بيروت، 1417هـ-1997م.

الجراوي التادليّ، أبو العباس أحمد بن عبد السلام، **الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب**، ط1، في جزأين متتابعي الصفحات، (حققه محمد رضوان الداية)، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، 1411هـ-1991م.

حاتم الطائيّ، **ديوانه**، (تحقيق ودراسة فوزي عطوي)، دار صعب، بيروت، 1980م.

الحادرة، قطبة بن أوس بن مِحْصَن، **ديوان شعره إملاء أبي عبد الله محمد بن العبّاس اليزيديّ عن الأصمعيّ**، (حققه وعلق عليه ناصر الدين الأسد)، دار صادر،بيروت،(1393هـ-1973م).

الحارث بن حلزة، **ديوانه**، (أعاد تحقيقه هاشم الطعان)، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1969م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، (ت456هـ). **طوق الحمامة في الألفة والأُلاف**، ط1، (جمعه وحققه وشرحه عفيف نايف حاطوم)، دار صادر، بيروت، 1424هـ-2003م.

_____ **رسالة أبي محمد بن حزم في فضائل الأندلس**، من كتاب **"فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي"**، ط1، **(**نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد)، دار الكتاب الجديد، 1387هـ-1968م.

_____ **جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى**، (تحقيق ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ومراجعة أحمد محمد شاكر)، تراث الإسلام 2، دارالمعارف، مصر، 1956م.

_____ **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 1382هـ-1962م.

ابن حمديس الصقليّ، عبد الجبار، (ت527هـ). **ديوانه**، (صححه وقدم له إحسان عباس)، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1379هـ-1960م.

الحميديّ، أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله، (ت 488هـ). **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه، والأدب، وذوي النباهة والشعر**، كتب تقدمته الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري، (قام بتصحيحه وتحقيقه محمد تاويت الطنجي)، نشرمكتبة الخانجي، القاهرة، 1951م.

أبو حيان الأندلسيّ، (ت745هـ). **ارتشاف الضرب من لسان العرب**، ط 1، ج1، (تحقيق وشرح ودراسة رجب عثمان محمد، مراجعة رمضان عبد التواب)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ-1998م.

ابن حيان القرطبيّ، (ت469هـ). **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، (حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي)، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1390هـ-1971م.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد القيسيّ، (ت529هـ). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، ط1، 4ج في مجلدين، (حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش)، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الزرقاء، الأردن، 1409هـ-1989م.

_____ **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، ط1، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ-1983م.

ابن الخطيب، لسان الدين، (ت776هـ). **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ط2،، 4ج، الجزء الأول، (تحقيق محمد عبدالله عنان)، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1393هـ-1973م.

ابن خفاجة، إبراهيم، (ت533هـ). **ديوانه**، (تحقيق السيد مصطفى غازي)، مطابع دار المعارف، مصر، 1960م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت808هـ). **مقدمة ابن خلدون**، ط3، 3ج، الجزء الثالث، (مهّد لها، ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طبعاتها وحققها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها وعمل فهارسها علي عبد الواحد وافي)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة-القاهرة، د.ت.

ابن خِلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت681هـ). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 7 مجلدات ومجلد في الفهارس، (حققه إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1968م.

الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو الشريد السلميّة، (ت24هـ). **ديوانها، شرحه ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار الشيبانيّ النحويّ(-291هـ)**، (حققه أنور أبو سويلم)، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1409هـ-1988م.

ابن خير الإشبيليّ، أبو بكر محمد، (ت575هـ). **فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف**، ط2، (وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل محفوظ في خزانة الإسكوريال الشيخ فرنسشكة قداره زيدين وتلميذه خليان ربارة طرغوة)، 1382هـ-1963م.

ابن دحية، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن، (ت633هـ). **المُطرب من أشعار أهل المَغرب**، (تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، راجعه طه حسين)، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1954م.

ابن دَرَّاج القسطليّ، (ت421هـ). **ديوانه**، ط1، (حققه وعلق عليه وقدم له محمود علي مكي)، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، (1381هـ-1961م).

دُريد بن الصِمَّة، **ديوانه**، (تحقيق عمر عبد الرسول)، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

الرُّعينيّ، أبو الحسن علي بن محمد الإشبيليّ، (ت666هـ). **برنامج شيوخ الرعيني**، (حققه إبراهيم شبوح)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1381هـ-1962م.

الرّماديّ، يوسف بن هارون، (ت403هـ). **شعره**، ط 1، (جمعه وقدم له ماهر زهير جرار)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1400هـ-1980م.

الزبيديّ، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت379هـ). **طبقات النحويين واللغويين**، ط2، (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم)، دار المعارف، القاهرة، 1984م.

الزمخشريّ، جار الله محمود بن عمر، (ت538هـ). **المستقصى في أمثال العرب**، ط2 ، 2ج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1397هـ-1977م.

زهير بن أبي سلمى، **ديوانه، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي**، ط1، (تحقيق ناصيف سليمان عواد)، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، بغداد، 2000م.

ابن زيدون، أبو الوليد، (ت463هـ). **ديوان ابن زيدون ورسائله**، (شرح وتحقيق علي عبد العظيم)، دار نهضة مصر، الفجالة- القاهرة، 1376هـ-1957م.

السَّرَقُسْطِيّ، محمد بن يوسف التميميّ، (ت538هـ). **المقامات اللزومية للسرقسطي**، (تحقيق بدر أحمد ضيف، جامعة طنطا، تقديم محمد مصطفى هدارة، جامعة الاسكندرية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية، 1982م.

ابن سعيد، علي بن موسى، (ت685هـ). **المُغرب في حلى المَغرب**، ط 1، (تحقيق شوقي ضيف)، دار المعارف، مصر، 1953م.

_____ **نَشوة الطرب في تاريخ جاهليّة العرب**، (تحقيق نصرت عبد الرحمن)، نشر دار الأقصى، عمان، الأردن، 1982م.

سلامة بن جندل، **ديوانه**، ط1، (تحقيق فخر الدين قباوة)، نشر وتوزيع المكتبة العربية، حلب، 1968م.

ابن الشجريّ، هبة الله بن علي بن حمزة العلويّ، (ت542هـ). **الحماسة الشجرية**، 2ج، (تحقيق عبد المعين الملوحي، وأسماء الحمصي)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1970م.

ابن شرف القيروانيّ، (ت460هـ). **رسائل الانتقاد**، ضمن كتاب: **"رسائل البلغاء"**، ط3، (اختيار وتصنيف محمد كرد علي)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1365هـ-1946م.

الشنفرى، **شرح ديوانه**، ط1، (جمع وشرح وتحقيق محمد نبيل طريفي)، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 2003م.

الشنقيطيّ، الشيخ أحمد الأمين، **شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها**، (حققه وأتم شرحه محمد عبد القادر الفاضليّ)، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1422هـ-2001م.

ابن شُهيد الأندلسيّ، أبو عامر أحمد بن عبد الملك، (ت426هـ). **ديوانه**، (جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكي)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.

_____ **رسالة التوابع والزوابع**، (تصحيح وتحقيق ودراسة بطرس البستاني)، مكتبة صادر، بيروت، 1951م.

صاعد الأندلسيّ، أبو القاسم صاعد بن أحمد، (ت462هـ). **طبقات الأمم**، (تحقيق وتعليق حسين مؤنس)، دار المعارف، القاهرة، 1993م.

صاعد البغداديّ، أبو العلاء صاعد بن الحسين الربعيّ، (ت410أو417هـ). **من كتاب الفصوص**، ط1، 3ج، (اختار النصوص وقدم لها مظهر الحجي)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2001م.

الصفديّ، خليل بن أيبك، (ت764هـ). **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**، (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم)، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1398هـ-1969م.

الضّبّيّ، أبو جعفر أحمد بن يحيى، (ت599هـ). **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، ط1، جزءان، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410هـ-1989م.

طرفة بن العبد، **ديوانه، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي**، ط1، (تحقيق ناصيف سليمان عواد)، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، بغداد، 2000م.

طفيل الغنويّ، **ديوانه**، ط1،(تحقيق محمد عبد القادر أحمد)، دار الكتاب الجديد،بيروت،1968م.

عامر بن الطُفيل، **ديوانه، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1399هـ-1979م.

ابن عبد البرّ القرطبيّ، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد، (ت463هـ). **بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس**، ط2، 2ج في ثلاثة مجلدات، (تحقيق محمد مرسي الخولي)، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 402هـ-1982م.

ابن عبد ربه الأندلسيّ، أحمد بن محمد، (ت328هـ). **شعر ابن عبد ربه الأندلسي**، ط1، (جمعه وحققه وقدم له محمد أديب عبد الواحد جمران)، مكتبة العبيكان، الرياض، 1421هـ-200م.

_____ **كتاب العقد الفريد**، ط 1، 6ج، (تحقيق وتعليق بركات يوسف هبود)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ-1999م.

ابن عبدون اليابريّ الأندلسيّ، عبد المجيد، (ت527هـ). **ديوانه (الشعر والنثر) مع دراسة لأدبه**، ط1، (إعداد وتحقيق وتأليف سليم التنير)، دار الكتاب العربي، دمشق، سورية، 1408هـ-1988م.

عَبيد بن الأبرص، **ديوانه**، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1384هـ-1964م.

عَديّ بن زيد، **ديوانه**، ضمن **"ديوان المروءة: السموأل، حاتم الطائي، عدي بن زيد"**، ط1، (شرح يوسف شكري فرحات)، دار الجيل، بيروت، 1413هـ-1992م.

ابن العربيّ، القاضي أبو بكر، (ت543هـ). **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ**، ط 1، (حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1423هـ-2002م.

عروة بن الورد، **ديوانه**، (تحقيق عبد المعين الملوحي)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1966م.

العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، (ت395هـ). **الصناعتين الكتابة والشعر**، (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، 1952م.

_____ **كتاب جمهرة الأمثال**، ط1، 2ج، (تحقيق أحمد عبد السلام، وخرج أحاديثه أبو هاجر محمد سعيد بسيوني)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ-1988م.

ابن عطية المحاربيّ الأندلسيّ، أبو محمد عبد الحق بن غالب، (ت541هـ). **فهرس ابن عطية**، ط2، (تحقيق محمد أبي الأجفان ومحمد الزاهي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.

علقمة الفحل، **ديوانه، بشرح الأعلم الشنتمريّ**، ط1، (تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ومراجعة فخر الدين قباوة)، دار الكتاب العربي، حلب، 1969م.

العماد الأصفهانيّ، أبو عبد الله محمد بن محمد، (ت597هـ). **خريدة القصر وجريدة العصر**، القسم الرابع، في جزأين، (تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة- القاهرة، (1964م).

_____ **خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب**، القسم الثاني، (تحقيق آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، محمد العَروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى)، الدار التونسية للنشر، 1971م.

عمرو بن قميئة، **ديوانه**، (تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي)، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1965م.

عنترة بن شدّاد، **ديوانه، شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي**، ط1، (تحقيق ناصيف سليمان عواد)، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، بغداد، 2000م.

ابن الفرضيّ، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزديّ، (ت403هـ). **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، ط2، في جزأين، (عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني)، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1408هـ-1988م.

القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى، (ت544هـ). **الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض**، ط1، (تحقيق ماهر زهير جرار)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.

القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغداديّ، (ت356هـ). **كتاب الأمالي**، جزءان في مجلد واحد، منشورات دار الحكمة، دمشق، د.ت.

ابن قتيبة الدّينوريّ، (ت276هـ). **الشعر والشعراء، أو طبقات الشعراء**، ط1، (حققه وضبط نصّه ووضع حواشيه مفيد قميحة ومحمد أمين الضنّاويّ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421هـ-2000م.

القرشيّ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، (حققه وضبطه وزاد في شرحه علي محمد البجاوي)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة- القاهرة، د.ت.

القِفطيّ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (ت624هـ). **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، ط1، 4ج، (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم)، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1406هـ-1986م.

القلقشنديّ، أحمد بن علي، (ت821هـ). **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ط1، 14ج وجزء في الفهارس، (شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ-1987م.

ابن القوطيّة، (ت367هـ). **تاريخ افتتاح الأندلس**، ط2، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410هـ- 1989م.

قيس بن الخطيم، **ديوان قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره**، ط 1، (حققه وعلّق عليه ناصر الدين الأسد)، مكتبة دار المعارف، القاهرة، مصر، 1381هـ-1962م.

ابن الكتانيّ الطبيب، أبو عبدالله، (ت420هـ). **كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس**، ط2، (تحقيق إحسان عباس)، دار الشروق، القاهرة، 1401هـ-1981م.

كعب بن زهير، **شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكري**، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1369هـ-1950م.

الكلاعيّ، ابن عبد الغفور الإشبيليّ الأندلسيّ، (من أعلام القرن السادس). **إحكام صنعة الكلام**، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1966م.

المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، (ت354هـ). **ديوان أبي الطيب المتنبي**، (صحح هذه الطبعة وقارن نسخها وجمع تعليقاتها عبد الوهاب عزام)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1363هـ-1944م.

المثقب العبديّ، عائذ بن محصن بن عبد القيس، **شرح ديوانه**، ط1، (جمعه وحققه وشرحه حسن حمد)، دار صادر، بيروت، 1996م.

المراكشيّ، محيي الدين عبد الواحد بن علي، (ت647هـ). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ط1، (ضبطه وصححه وعلق حواشيه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي)، مطبعة الاستقامة، 1368هـ-1949م.

امرؤ القيس، **ديوانه**، ط4، (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم)، دار المعارف، القاهرة، 1984م.

المرزبانيّ، أبو عبيد الله محمد بن عمران، (ت384هـ). **معجم الشعراء، ومعه المؤتلف والمختلف للآمدي(ت370هـ)**، ط2، (تصحيح وتعليق ف.كرنكو)، مكتبة القدس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1402هـ-1982م.

المرزوقيّ، أبو علي أحمد بن محمد، (ت421هـ). **شرح ديوان الحماسة**، ط1، (قسمان في مجلدين متتابعي الصفحات)، (نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون)، دار الجيل، بيروت ، 1411هـ-1991م.

المرقش الأكبر، **ديوانه، ديوان المرقشين، المرقش الأكبر عمرو بن سعد، والمرقش الأصغر عمرو بن حَرْمَلة**، ط1، (تحقيق كارين صادر)، دار صادر، بيروت، 1998م.

مسلم بن الوليد الأنصاريّ، (ت208هـ). **شرح ديوان صريع الغواني، رواه وشرحه أبو العباس وليد بن عيسى الطبيخي**، (ت352هـ)، **(**عني بتحقيقه والتعليق عليه سامي الدهان)، دار المعارف، مصر.

المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، (ت488هـ). **ديوانه**، (جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي و حامد عبد المجيد، أشرف عليه وراجعه طه حسين)، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951م.

المفضّل الضّبّيّ، أبو العباس المفضل بن محمد، (ت168هـ). **المفضليات**، ط3، (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون)، دار المعارف، القاهرة، 1964م.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد، (ت1041هـ). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، (تحقيق إحسان عباس)، 8 مجلدات، دار صادر، بيروت، 1388هـ-1968م.

_____ **أزهار الرياض في أخبار عياض**، (ضبطه وحققه وعلّق عليه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي)، الجزء الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ-1939م.

الميدانيّ، أبو الفضل أحمد بن محمد، (ت 518هـ). **مجمع الأمثال**، 2ج، (تحقيق محمد محيي الدين)، دار القلم، بيروت، لبنان.

النابغة الذبيانيّ، زياد بن عمرو بن معاوية، **ديوانه**، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، (د.ت).

ابن نُباتة المصريّ، جمال الدين (ت768هـ). **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم)، منشورات المكتبة العصرية صيدا-بيروت، 1406هـ-1986م.

أبو نواس، (ت199هـ). **ديوانه**، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1382هـ-1962م.

الهذليّون، **ديوان الهذليّين**، ط2، (ثلاثة أقسام في مجلد واحد)، دار الكتب المصرية، القسم الأدبي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1995م.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميريّ، (ت218هـ). **السيرة النبوية**، ط3، 4ج، (حققها وضبطها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1421هـ-200م.

ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت626هـ). **معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، ط1، 7ج، (تحقيق إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993م.

ثانيًا- المراجع:

أحمد، محمد عبد القادر، (1983م). **طفيل الغنوي حياته وشعره**، ط2، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الأسد، ناصر الدين، (1988م). **مصادر الشعر الجاهليّ وقيمتها التاريخيّة**، ط 7، ، بيروت، لبنان: دار الجيل.

أمين، أحمد، (1962م). **ظهر الإسلام**، ط 3، 4ج، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الأوسيّ، حكمت علي، (1977م). **فصول في الأدب الأندلسي**، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي.

بالنثيا، آنخيل جنثالث، (1955م). **تاريخ الفكر الأندلسي**، ط1، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

أبو بكر محمد عليم، (1345هـ-1926م). **الدُّر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، وهي الرسالة الجدية التي بعث بها إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس**، ط 1، طبع على نفقة المحقق وشريكه محمود عزت المفتي صاحب المكتبة العصرية بأم درمان، وقام بتصحيحه المطبعي نخبة من علماء الأزهر الشريف، مطبعة الشرق لصاحبها عبد العزيز فايد وأخيه.

بيريس، هنري. (1408هـ-1988م). **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية**، ط1، ترجمة الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف.

البيومي، محمد رجب، (1400هـ-1980م). **الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير**، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ابن ثقفان، عبدالله بن علي، (1416هـ-1996م). **الانتماء في الأدب الأندلسيّ، أنموذج فريد، محاولة لاستقراء بعض النصوص التأريخية الأدبية (في الأصل بحث ألقي في ندوة الأندلس بالرياض عام 1993م)**، ط1، الرياض، المملكة العربية السعودية: مكتبة التوبة.

جبور، جبرائيل، (1979م). **ابن عبد ربه وعقده**، ط2، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.

جمانة رجب باشا، (1424هـ- 2003م). **الشعر الأندلسي بين طريقة العرب ومذهب المحدثين،** رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة حلب، حلب، سورية.

الحديثي، خديجة، (1966م). **أبو حيان النحوي،** ط 1، بغداد: منشورات مكتبة النهضة.

حسين، مصطفى، (1978م). **رواية الشعر العربيّ من بداية القرن الرابع الهجريّ حتى نهاية السابع،** القاهرة: نشر دار النهضة العربية.

رحيم، مقداد، (1999م). **مصادر التراث الأندلسي،** ط1، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة: منشورات المجمع الثقافي.

ريبيرا، خوليان، (د.ت). **التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية،** ترجمة الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف.

السعيد، محمد مجيد، (1980م). **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس،** بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام.

شاك، فون، (1991م). **الشعر العربي في إسبانيا وصقلية،** ط 1، الجزء الأول، ترجمة الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف.

الشبيبي، محمد رضا، (1984م). **أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية،** ط2، بيروت: دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة.

شلبي، سعد إسماعيل، (1982م). **الأصول الفنية للشعر الأندلسي-عصر الإمارة،** الفجالة، مصر.

ضيف، أحمد، (1998م). **بلاغة العرب في الأندلس،** ط2، سوسة، تونس: دار المعارف للطباعة والنشر.

ضيف، شوقي، (1983م). **تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات-الأندلس**، ط2، القاهرة: دار المعارف.

طويل، يوسف، (1991م). **مدخل إلى الأدب الأندلسيّ**، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني.

عبّاس، إحسان، (2001م). **تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر سيادة قرطبة**، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الثاني، عمان، الأردنّ: دار الشروق للنشر والتوزيع.

_____ (2001م). **تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر الطوائف والمرابطين**، الطبعة العربيّة الأولى، الإصدار الثاني، عمان، الأردنّ: دار الشروق للنشر والتوزيع.

_____ (1993م). **تاريخ النقد الأدبيّ عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري**، ط1، عمان، الأردنّ، دار الشروق للنشر والتوزيع.

عليان، مصطفى، (1404هـ-1984م). **تيارات النقد الأدبيّ في الأندلس في القرن الخامس الهجريّ**، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.

علي بن محمد، (1989م). **ابن بسام الأندلسيّ وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهم جوانب الكتاب**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

العمد، هاني، (1993م). **كتب البرامج والفهارس الأندلسيّة دراسة تحليليّة**، ط1، عمان، الأردنّ.

العيس، مصطفى، (1421هـ-2000م). **أثر المتنبي في أعلام الشعر الأندلسيّ**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة حلب، حلب، سورية.

عيسى، محمد عيسى عبد الحميد، (1982م). **تاريخ التعليم في الأندلس**، ط1، (في الأصل رسالة دكتوراه، جامعة مدريد)، القاهرة: دار الفكر العربي.

الفاسي، علال، (1975م). سيبويه والمدرسة الأندلسيّة المغربيّة في النحو، **مجلة اللسان العربيّ**، السنة الثانية عشرة، العدد الأوّل.

مبارك، زكي، (1413هـ- 1993م). **الموازنة بين الشعراء**، ط1، بيروت: دار الجيل.

مطلق، ألبير، (1967م). **الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر الطوائف**، صيدا-بيروت: المكتبة العصرية.

مكي، الطاهر، (1979م). العقد الفريد لابن عبد ربه، **تاريخ العرب والعالم**، السنة الأولى، العدد الرابع.

هناء أبو الرب، (2005م). **أثر أبي العلاء المعريّ في الأدب الأندلسيّ**، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنّيّة، عمان، الأردن.

الودغيري، عبد العلي، (1978م). حول تأثير القالي في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، فاس، السنة الأولى، العدد الأول.

أبو يحيى، أحمد إسماعيل، (1417هـ-1997م). **الخيل في قصائد الجاهليين والإسلاميين**، راجعه ياسين الأيوبي، ط1، صيدا- بيروت: المكتبة العصرية.

* * * *

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

الإهداء ..... ج
مقدّمة 1-3
التّمهيد: مظاهر انتماء الثّقافة الأندلسيّة إلى الثّقافة المشرقيّة: 4-39
إضفاء ألقاب المشارقة على أدباء أندلسيّين 10
محاكاة الأندلسيّين للمشارقة في مناهج التأليف 12
شروح الأندلسيّين لأدب المشرق 15
حفظ الأدب المشرقيّ وروايته ومدارسته 16
رواية الأدب المشرقيّ 18
الرّحلة 18
وفود المشارقة على الأندلس والإعجاب بهم 21
تدريس الأدب المشرقيّ 22
احتذاء الشّعراء الأندلسيّين طريقة العرب الأول 26
بعض السّمات على طريقة العرب الأوائل 27

الفصل الأوّل: أثر الشّعر الجاهليّ في الشّعر الأندلسيّ: 40-99
أثر الشّعر الجاهليّ في أغراض الشّعر الأندلسيّ: 41
في غرض المديح 41
في غرض الفخر 51
في الحكمة والأمثال 58
في غرض الرّثاء 63
في غرض الغزل 78
التّضمين 93

الفصل الثّاني: معارضة الأندلسيّين للشّعر الجاهليّ: 100-137
المعارضة الشّعريّة 101
معارضة ابن عبد ربّه للشّعر الجاهليّ 104

معارضة ابن عبد ربّه لأبي قيس بن الأسلت الأوسيّ 108
معارضة ابن شهيد للشعر الجاهليّ 112
معارضة ابن شهيد لامرئ القيس بن حُجر الكنديّ 112
معارضة ابن لـبُّون لامرئ القيس 119
معارضة ابن شهيد لطرفة بن العبد البكريّ 124
معارضة ابن شهيد لقيس بن الخطيم الأوسيّ 126

الفصل الثّالث: أثر الشّعر الجاهليّ في النّثر الأندلسيّ: 138-204
الاستشهاد والتّضمين 139
حلّ الشّعر 149
التأثّر بالأمثال 156
أغراض النّثر الأندلسيّ: 164
رسائل في المدح 165
في الاعتذار 173
في العتاب 189
في الفخر 191
في الوصف 195
الوقوف على الطّلل 195
وصف المرأة 199
الشكوى من الشّيب 200
وصف الفرس 201
رسائل طرديّة 202

الخاتمة 205
المصادر والمراجع 210
فهرس الموضوعات 227

****